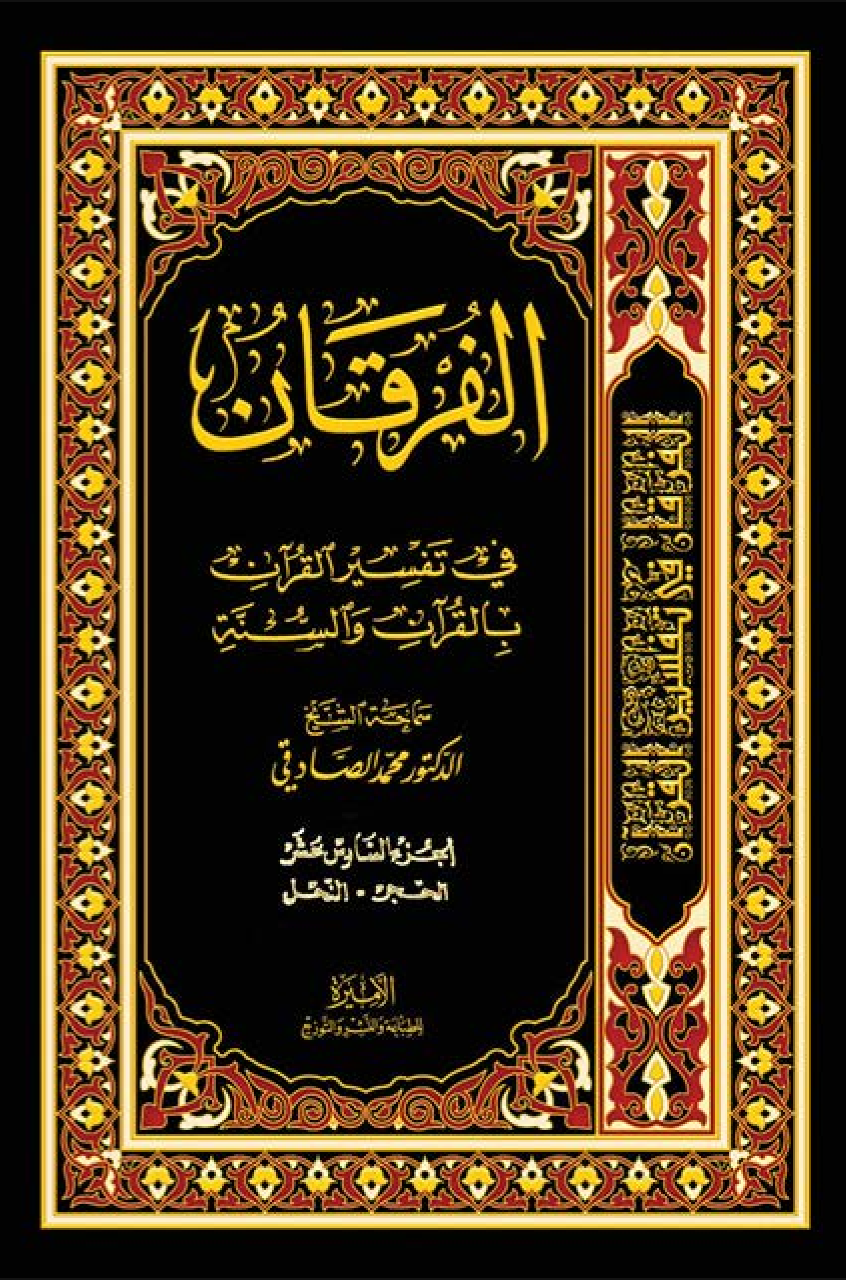

الفرقان
في تفسير القرآن بالقرآن والسنة
سماحة الشيخ
الدكتور محمد الصادقي
الجزء السادس عشر
الحجر - النحل
الأميرة
للطباعة والنشر والتوزيع

الفرقان
في تفسير القرآن
بالقرآن والسُّنة

الفرقان

في تفسير القرآن

بالقرآن والسُّنة

الجزء السادس عشر

تتمة سورة الحجر – سورة النحل



سماحة الشيخ

الدكتور محمد الصادقي

١٥

تتمة

سُورَةِ الحِجْرِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴿٢٦﴾ وَٱلۡجَآنَّ خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوۡعِدُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٖ لِّكُلِّ بَابٖ مِّنۡهُمۡ جُزۡءٞ مَّقۡسُومٌ ﴿٤٤﴾ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمۡ فِيهَا نَصَبٞ وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾:

هنا ﴿ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ ككل، وطبعاً بجزئيه، مخلوق ﴿مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ فلم يقل «جسم الإنسان» أو ﴿رُّوحِهِۦ﴾ وإنما ﴿ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ وأحرى بروحه أن يعنيه الإنسان فيما يطلق دون قرينة.

وفي استعراض أصله ﴿صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ - مرات ثلاث في آيات ثلاث تستعرض خلقه منه، وأمر الملائكة بالسجود له، وتأبّي إبليس سناداً إلى ذلك الأصل - إن في ذلك عناية خاصة بهذا الأصل، امتحاناً للملائكة وقد نجحوا، وامتهاناً لإبليس كما بَجَه، حيث نظر إلى نارية نفسه تغافلاً عن نورية آدم على طينيته، ولقد وصف طين آدم والمخلوق منه بصفات عدة، فهنا ﴿صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ وفي «المؤمنون» ﴿مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾[1] وفي الصافات ﴿إِنَّا خَلَقْنَـٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ﴾[2] فمطلق الطين المذكور في آيات هو سلالة من طين لازب صلصال من حمإٍ مسنون، إضباره ذات قواعد أربع على أصل الطين.

وأصل الصلصال هو تردد الصوت من الشيء اليابس، فهو الطين الجاف ﴿مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾[3] [4] والفَخّار يصنع الفِخار من يابس الطين، سلالة خالصة طيبة ناعمة، فليس هو المنتن منه، والحمأ طين أسود، وقد يقال: منتن، وتنافيه «سلالة من طين - من صلصال كالفخار».

و﴿مَّسْنُونٍ﴾ هو المتغير، فحتى إذا عنى بالحمإ الأسود المنتن، فقد يعني تغيُّره - فيما يعني - طيبَه بغياره بعد نتْنه، وهو طين لازب لازق، فقد خلق الإنسان من سلالة من ذلك الطين، أم من سلالة من طين حيث أصبح

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١٢.

(٢) سورة الصافات، الآية: ١١.

(٣) سورة الرحمن، الآية: ١٤.

(٤) راجع تفسير الآية في الفرقان ٢٧: ٢٣.

صلصالاً من حمإٍ مسنون، تغيراً من كل طينية خشنة غير لائقة لفخار الإنسان، إلى سلالة وحصالة بسنّه وغياره التصفوي الصالح لفِخاره، ولأنه مفخر الكائنات! وقد يعني المسنون المتغير إلى نتن، وكالفخار يخص لينة الطين دون طيبته وفي ذلك عبرة لأولي الألباب، وكما في عرض خلق الجنين من نطفة من مني يمنى، وماءٍ مهين، ولحد القول: ﴿لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾(١) إذ يُختجل من ذكره لرداءته وعفونته وقذارته.

وهكذا خلق الإنسان الأوّل دون سواه، حيث بدأ ﴿خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨﴾(٢).

ولماذا ﴿ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ هنا دون «آدم» حين يخصه ذلك الخلق؟ لأن نسله ليس إلّا منه فهو محكوم بحكمه، وإن خلق الأجنَّة والأنسال ينتهي إلى تـــراب: ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾(٣) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ...﴾(٤).

وآية الصلصال من الأدلة القاطعة على أن الإنسان الأول خُلق قفزة من طين، دون انتسال من حيوان أو إنسان آخر، سواء أكان ولادة القفزة، أم تكامل التسلسل الداروني(٥).

---

(١) سورة الإنسان، الآية: ١.
(٢) سورة السجدة، الآيتان: ٧، ٨.
(٣) سورة الكهف، الآية: ٣٧.
(٤) سورة الحج، الآية: ٥.
(٥) وداروني نفسه لم يكن متأكداً بصحة نظريته فإنها لم تعد عن كونها فرضية أن الإنسان تكامل من القرد كما القرد تكامل من حيوان أدنى إلى حيوان له واحدة.
ثم المائلون إلى أن آدم الأول ولد من آدم أم أوادم في زمنه قد يستدلون بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣] بتقريب أن اصطفاءه، يتطلب أنه كان بين أوادم آخرين فاصطفاه الله من بينهم، ويرده أن الاصطفاء وهو طلب =

وهنا «لقد» تأكيد أن اثنان على هذه القفزة الخارقة للعادة، المنقطعة النظير في خلق الإنسان اللهم إلا المسيح ابن مريم عليه السلام: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾(١).

وإذا كان الإنسان الأول من صلصال من حمإ مسنون، فنسله المنتسل منه - ككل - هو من نفس الصلصال دون اختصاص بطينة الناصب(٢) وأضرابه، كما والصلصال دون حمإٍ ليس أصلاً للصالحين ولا سواهم(٣)

= الأصفى يكفيه اثنان فيصطفي أحدهما على الآخر، ولقد كانت معه زوجه حواء فاصطفى عليها، ثم والملائكة، كانوا من الأصفياء ومن الجن أصفياء، واصطفى آدم عليهم كلهم، فأصبح رسولاً على الجن كما على زوجه ثم ولده.

(١) سورة آل عمران، الآية: ٥٩.

(٢) تفسير البرهان ٢: ٣٢٨ محمد بن يعقوب بسنده المتصل عن عبد الغفار الجازي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن الله خلق المؤمن من طينة الجنة وخلق الكافر من طينة النار، وقال إذا أراد الله عز وجل بعبد خيراً طيب روحه وجسده فلا يسمع شيئاً من الخير إلا عرفه ولا يسمع من المنكر إلا أنكره؟ قال: وسمعته يقول: الطينات ثلاث طينة الأنبياء والمؤمن من تلك الطينة إلا أن الأنبياء من صفوتها وهم الأصل ولهم فضلهم والمؤمنون الفرع من طين لازب كذلك لا يفرق الله بينهم وبين شيعتهم وقال: طينة الناصب من حمأ مسنون وأمّا المستضعفون فمن تراب لا يتحرك المؤمن عن إيمانه ولا ناصب عن نصبه ولله فيهم المشية.

(٣) فيه عن العياشي عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام قال الله للملائكة: ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الحجر: ٢٨-٢٩]، قال: وكان ذلك من الله تقدمة منه إلى الملائكة احتجاجاً منه عليهم وما كان الله ليغير ما بقوم إلا بعد الحجة عذراً أو نذراً فاغترف الله غرفة بيمينه - وكلتا يديه يمين - من الماء العذب الفرات فصلصلها في كفه فجمدت ثم قال: منك أخلق النبيين والمرسلين وعبادي الصالحين الأئمة المهتدين الدعاة إلى الجنة وأتباعهم إلى يوم القيامة ولا أبالي ولا أسأل عما أفعل وهم يسألون واشترط في ذلك البداء فيهم ولم يشترط في أصحاب اليمين البداءة فيهم ثم خلط الماءين في كفه جميعاً فصلصلها ثم أكفاها قدام عرشه وهما بلة من طين.

وفيه عن العلل بإسناده إلى إسحاق القمي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام: حديث طويل يقول فيه: لما كان الله متفرداً بالوحدانية ابتدأ الأشياء لا من شيء فأجرى الماء العذب على أرض طيبة طاهرة سبعة أيام مع لياليها ثم نضب الماء عنها فقبض قبضة من صفاء ذلك الطين وهي طينتنا=

اللهم إلّا بتأويله إلى سائر الطينات الروحية، عليينية وسجينية، مهما كانت الأرواح بأجسادها متنسلة من آدم الصلصال من حمإ مسنون.

وشاهداً على أنها روحية خلق المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن، فإذا كان الوالد الكافر سجينياً في جسمه فالولد كذلك بطبيعة الحال! فإنما هي الأرواح - فقط - دون الأجساد.

هنا نقطة التركيز في السياق هي سرّ التكوين في الإنسان، وسر الهدى والضلالة وعواملهما الأصيلة في كيان الإنسان، ومن ثم النص في ابتداء الابتداع في خلق الإنسان الأول.

وفي البقرة كانت النقطة الرئيسية هي استخلاف آدم في الأرض عمن سلفه من أنسال منقرضة مقضيّة. وفي الأعراف هي الرحلة الطائلة من الجنة إلى الأرض ثم الرجعة إليها، وإبراز عداء إبليس لهذا النسل.

= أهل البيت ثم قبض قبضة من أسفل ذلك الطينة وهي طينة شيعتنا ثم اصطفانا لنفسه فلو أن طينة شيعتنا تركت كما تركت طينتنا لما زنى أحد منهم ولا سرق ولا لاط ولا شرب المسكر ولا ارتكب شيئاً مما ذكرت، ولكن الله عَزَّوَجَلَّ أجرى الماء المالح على أرض ملعونة سبعة أيام ولياليها ثم نضب الماء عنها ثم قبض قبضة وهي طينة ملعونة من حمإ مسنون وهي طينة خبال وهي طينة أعدائنا - فلو أن الله عَزَّوَجَلَّ ترك طينتهم كما أخذناها لم تروهم في خلق الآدميين، ولم يقروا بالشهادتين ولم يصوموا ولم يصلوا ولم يزكوا ولم يحجوا البيت ولم تروا أحداً منهم بحسن خلق ولكن الله تبارك وتعالى جمع الطينتين طينتكم وطينتهم فخلطهما وعركهما عرك الأديم ومزجهما بالماءين فما رأيت من أخيك المؤمن من شر: لواط أو زنا أو شيء مما ذكرت من شرب مسكر وغيره فليس من جوهريته ولا من إيمانه إنما هو بمسحة الناصب اجترح هذه السيئات التي ذكرت وما رأيت من الناصب من حسن وجهه وحسن خلق أو صوم أو صلاة أو حج بيت الله أو صدقة أو معروف فليس من جوهريته إنما تلك الأفاعيل من مسحة الإيمان اكتسبها وهو اكتساب مسحة الإيمان.

أقول: لا نصدق من هذه الأحاديث إلا ما يصدقه نص القرآن أو ظاهره، والشطر الذي لا يوافق القرآن ولا يخالفه نتردد فيه، والطينة فيها ليست هي الأصل المخلوق منه آدم، ولا الطين المنتهى إليه النطفة، بل هي الطينة الروحية، قد نصدق منها ما لا يرجع إلى الجبر - ولأن الطينة فعلة فهي هيئة خاصة من الطين، إذاً فهي الروح لأنها منبثقة من البدن ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٤] فقد أنشئ البدن ببعضه روحاً وهو الخلق الآخر.

وهنا في ذلك الافتتاح البارع يقرر الاختلاف بين طبيعتي الإنس والجان، فهنا طين وهناك نار السموم.

فأما كيف ارتقى هذا الطين من طبيعته العنصرية المعروفة إلى أعلى الآفاق الحيوية عضوية وروحية؟ فإن ذلك من أسرار الخلقة الحكيمة المتعالية، لا نعرف منها إلّا ما عرَّفها القرآن، أم تعرَّف العلم القاطع إليها على ضوء القرآن، ثم وكل زيادة عليه أو نقيصة عنه تُحمل عليه بضرب من التمحل، فهو خارج عن التحمل، فللبحث العلمي أن يمضي في طريقه بوسائله الميسرة له، فيصل إلى افتراضات خاطئة أو نظريات قاطعة، ولكنه ليس له تعسيلها فتأصيلها وتفريع القرآن عليها بتوجيهات بعيدة غامرة غامضة.

فالنص هنا - وفي سائر القرآن ما يوضحه ويفسره - ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ فكيف يوجَّه إلى مضادِّه أنه خلق تطوراً من سائر الأطوار الحيوانية أو الإنسانية أماهيه؟! فالأمر المستيقن على ضوء القرآن باقٍ ليست لتعارضه النظريات حتى الآن وبعد الآن، اللهم إلّا أن تتبنّاه في سلك الحق، وتستزيد منه نوراً على نور، وكما هو الواقع في الملاحم الغيبية القرآنية على مدار الزمن وغائر التأريخ بمستقبله وحاضره وغابره.

فالخليّة الأولى لنشوءِ الإنسان لا تزال عبر التاريخ والأعصار الخالية، تنتقل بين الخيالات، خافية ليس يزعم أحد أنه اهتدى إليها سبيلاً، وكما تتخبط النظريات حول الحياة، على حين يفسرهما القرآن التفسير المجمل الواضح البسيط: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾[1]!.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ ومن قبل:

(١) سورة الحجر، الآية: ٢٩.

﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ (٢٧)﴾:

فحين لا يدري الإنسان كيف خلق من صلصال وهو يعيش نفسه، كيف له أن يدري كيف خلق الجان من قبل من نار السموم، وهو لا يعيشه ولا يراه؟ إلا أن يُدريه الله إياه كما أدراه.

وكما الإنسان هناك هو الأول دون نسله، كذلك الجان هنا، وقد يشهد ﴿مِن قَبْلُ﴾ حيث الأنسال منه هي المخلوقة في مثلث الزمان، لا - فقط - من قبل.

والشيطان الذي هو من الجان - ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ﴾[١] - إن له ذرية بالولادة فأين هنا ﴿نَّارِ السَّمُومِ﴾ أم ﴿مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾[٢] والقول بالفصل بين إبليس وغيره من الجن في نسل الذرية قول غير ذي فصل.

فهنا أصل الجان ﴿نَّارِ السَّمُومِ﴾ وفي الرحمن ﴿مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ والمارج هو المازج القلق[٣].

فليست هي ناراً عادية كسائر النار[٤] بل هي خليطة مازجة بسموم، لأنها نار ملتهبة من سموم، ومختلَّف المادة الصِّلى للنار يخلِّف مختلف النار، إنْ سموماً فسموم وإن طيباً فطيبة كنار العود، وإن شديداً فشديدة كالنار اللاهبة من الأوكسيجين وما فوقه أم دونه، أم خفيف فخفيفة.

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٥٠.

(٢) سورة الرحمن، الآية: ١٥.

(٣) فإن كان من المرج فهو الخلط والمزج، ومن المرج هو القلق والاضطراب، ونار السموم قرينة الجمع.. راجع الفرقان ٢٧: ٢٣ - ٢٥ تجد فيه تفصيلاً للمارج.

(٤) الدر المنثور ٤: ٩٨ - أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: رؤيا المؤمن جزء من سبعين جزءاً من النبوة وهذه النار جزء من سبعين جزءاً من نار السموم التي خلق الله منها الجان وتلا هذه الآية ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٧].

ولماذا هنا الجان وفي الرحمن[١] والجن والجنة في سائر القرآن؟ علّه لأن الجانّ مفرد والمخلوق من نار السموم كذلك مفرد، ولكن الجن جاء فيما جاء جمعاً أم جنساً ولا جمعية في الخلق من نار السموم.

وترى كيف كان نسل الذرية من الجان؟ لا ندري إلّا أن له ذرية، ولكنها كيف انتسلت فلا ندري! وإنما ندري أنه خُلق قبل الإنسان، وقد ندرك من صفاته بعض حالات السموم، واللطافة على وجه العموم، وأن هناك قسماً منه شيطان، وآخر كما الإنسان بين معصوم يوحى إليه على هامش الوحي إلى إنسان، وغير معصوم هو بين متق ومأثوم، وكما فصلت في سورة الجن والحاقة.

هناك يخلق هذا الإنسان من صلصال من حمإ مسنون، ومن مني يمنى، ويُجعل في أحسن تقويم كالقمة المحمدية العليا التي يغبطها العالمون من الجنة والملائكة وسائر الروحيين أجمعين.

وهنا يخلق الجان من نار السموم، ويُجعل في تقويم منه النخبة المختارة لاستماع الوحي في الملإ الأعلى أم من النبيين، حتى يرجعوا إلى قومهم منذرين، فإنما الأصل في الزلفى الإيمان والعمل الصالح، لا الأصل المخلوق منه حتى يفتخر به جماعة ويترذل فيه آخرون:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾﴾:

﴿بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ هو «خليفة» في البقرة، وكما فصلناها هناك خليفةً عمن انقرض من جنسه كتعريف لمثل حالته السابقة عملياً، وهنا ﴿بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ تعريف بأصله في جسمه، والأصلان حسب الظاهر رديئان، أولهما يتطلب سؤال الاستفهام، وثانيهما

(١) ذكر الجان في الرحمن ثلاث مرات، و٢٧: ١٠ و٢٨: ٣١ ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ [النّمل: ١٠] ضرب من الحيات الصغار.

حيرة! وترى أيهما أقدم، أم هما في عرض واحد؟ ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ...﴾ دليل أن عرض البشر كان قبل خلقه، ثم و﴿إِنِّي جَاعِلٌ.. أَتَجْعَلُ...﴾[1] قد تلمح بنفس الموقف، لكن ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ﴾[2] دون ذكر لخلقه قد تلمح أنه كان مخلوقاً عند قوله: «اني جاعل» لا سيما وإن «فاعل» لا يعنى به المستقبل إلا بقرينة، و«أتجعل» و«علم» قرينتان متكافحتان نفياً وإثباتاً، فتبقى «جاعل» تلمح أنه واقع حاله..

وهنا «إني جاعل» مقرون بقرينة قاطعة تصرفه عن الحال وهي ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ...﴾.

إذاً، فقد يكون عرض البشرية قبل عرض الخلافة، تقديماً لظاهر رداءة الجسم قبل رداءة الروح، وواويلاه إذا كانا قبل موقف السجدة، امتحاناً قاسياً للملائكة وقد نجحوا من الناحية الجسمية فسجدوا دون سؤال، ولم ينجحوا تماماً من الناحية الروحية في عرض الخلافة ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾[3] ولكنهم على أية حال سجدوا لله احتراماً لأمره، وتعبداً له على إمره.

وهنا يظهر الموقف لتكرار ﴿مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ إنه عرض حاله الجسمي للملائكة، وقبله عرضها لكافة المكلفين في هذه الإذاعة القرآنية، وفي حجة عاذرة لإبليس في ترك السجدة!: ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾[4]، إذاً ففي هذا المكرر امتحان للملائكة وامتهان لإبليس.

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾:

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٠.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٣١.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٣٠.
(٤) سورة الحجر، الآية: ٣٣.

وهنا قد يَجبر ﴿مِن رُّوحِى﴾ على أية حال، ظاهرَ رداءة الروح لتلك الخلافة وهذه الظاهرة الجسمية، وأنا لا أدري لما سأل الملائكة بعدُ ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا...﴾ والروح ﴿مِن رُّوحِى﴾ كافياً في التدليل على محتد هذه الخلافة.

فقد تكون ﴿إِنِّى خَـٰلِقٌۢ﴾ قبل ﴿إِنِّى جَاعِلٌ﴾[1] والسجدة بينهما، فهم - إذاً - ناجحون في امتحان السجدة لبشر من صلصال من حمإٍ مسنون عرضاً للحالة البدنية الفعلية والروحية، حيث ينظرون بنور الله إلى روح الله ﴿رُّوحِى﴾ المنفوخة في آدم دون أن تصدهم طينته النتنة عن أن يسجدوا له، وواقفون في امتحان عرض الخلافة بعد السجدة حيث حيرهم ذلك الجعل مع تلك السابقة السوء من المستخلف عنهم، وقد جهلوا إمكانية التفاوت بين الخليفة والمستخلف عنه.

قال: ﴿إِنِّى خَـٰلِقٌۢ﴾ قبل خلقه، ثم ﴿إِنِّى جَاعِلٌ﴾ بعد خلقه والسجود له، وكما نتلمح من الجعل مركباً أنه جعل ما خلقه خليفة، ولا نرى الأمر بالسجدة في آيات الخلافة، بل ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ...﴾[2] بعدها قد تدل على اختلاف الموقفين.

ثم ﴿إِنِّى خَـٰلِقٌۢ﴾ تعم تسوية الجسم ونفخ الروح: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ وهي مقابل ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى...﴾ تسوية البدن. ترى وماذا تعني تسوية بشر من صلصال من حمأ مسنون، إلّا تبديل الصلصال إلى جسم بشر.

والبشر جسم كثيف يلاقي ويباشر، خلاف الجن والملائكة إذ لا يباشَرون، والبشرة ظاهر الجلد من كل حيوان والإنسان بشر بمعنييه.

وفي صيغة أخرى يخص خلقه بجسمه البشري، وبكلمة «كن» يخلق

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٠.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٣٤.

روحه الإنساني: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[(١)] فخلق الروح بعد خلق البدن في الإنسان الأول وكما في سائر الأناسي: ﴿. . . ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾[(٢)] وبذلك يؤوّل الحديث «خلق الله الأرواح قبل الأجساد» بما لا ينافي الآيات، من قبلية رتبية إماهيه؟. .

ثم ﴿وَنَفَخْتُ﴾ هنا دليل ولوج الروح في البدن بعد اكتماله كما وتصرح به آية الإنشاء، والنفخ هو إجراء الريح في تجاويف، فليكن الروح كالريح جسماً رقيقاً قد ألبس قالباً كثيفاً وكما في الحديث[(٣)] فالنفخ دليل كونها ريحاً حيث المجرد عن المادة لا ينفخ، و«فيه» دليل ثان على كونها منبثقة من مادة، حيث الظرف: المادة، ليس ليحوي مظروفاً غير مادي، ثم بين المجرد عن المادة والمادة تناقض، فكما لا يجتمعان في موضوع واحد، كذلك لا يحمل أحدهما الآخر، سواء أكان كحمل ذات لصفة، أم حمل ظرف لمظروف، فمن المستحيل إذاً تجرد الروح المظروف لظرف الجسم.

وماذا تعني ﴿مِن رُّوحِى﴾ أجزءاً من روح الله؟ ولا جسم له ولا روح! ولا جزء لذاته المقدسة! وحتى لو كان ليس لينفخ في جسم الخلق، وإلّا لأصبح الخالق خلقاً والخلق خالقاً.

ثم ومن ناحية النص القرآني ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾[(٤)] وأمره تكوينياً وتشريعياً هو من خلقه، فليس - إذاً - من ذاته، ولا من صفات ذاته وهي

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٥٩.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ١٤.

(٣) نور الثقلين ٣: ١١ عن التوحيد للصدوق بإسناده إلى عبد الحميد الطائي عن محمد بن مسلم قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحِجر: ٢٩] كيف هذا النفخ؟ فقال: إن الروح متحرك كالريح وإنما سمي روحاً لأنه اشتق اسمه من الريح وإنما أخرجت على لفظة الروح لأن الروح مجانس للريح وإنما أضافه إلى نفسه لأنه اصطفاه على سائر الأرواح. . . .

(٤) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.

هي ذاته، وإنما من صفات فعله، وبتعبير أصح هو من فعله: ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[(١)] وليس ﴿كُن﴾ التكوينية إلا لغير الكائن، والله كائن إذ لا «كان».

ثم الإضافة قد تكون إضافة شيء إلى نفسه كـ «نفسي» وأخرى إضافة جزء إلى كله كـ «يدي» وفي صاحب الروح والجسم «روحي - جسمي» وثالثة إلى غيره دون رباط لخلق وصنعة بينهما كـ «داري» «ثوبي» ورابعة إلى مخلوقه «ربي» وخامسة إلى خالقه كـ ﴿رُّوحِى﴾ هنا و«عبدي - بيتي» وأضرابهما كما في آيات أخرى.

وكيف تتحمل ﴿رُّوحِى﴾ هنا الحمل على الإضافة الثانية بين هذه الخمس، والقرائن القاطعة القاصعة عقلية ونقلية معسكرة على استحالتها، فإحالتها إلى ما يصح كالخامسة.

إذاً فـ «هذه روح مخلوقة والروح التي في عيسى مخلوقة»[(٢)] «.. صورة محدثة مخلوقة اصطفاها الله واختارها على سائر الصور المختلفة فأضافها إلى نفسه كما أضاف الكعبة إلى نفسه والروح إلى نفسه فقال: «بيتي» ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾[(٣)] «خلقه وأضافه إلى نفسه وفضله على جميع الأرواح فنفخ منه في آدم»[(٤)].

فنفخ الروح هكذا لم ينقص من ذاته تعالى شيئاً إذا لا تركُّبَ فيها ولا نفخَ منها، ولا من قدرته الذاتية وسواها من صفات ذاته، إذ هي عين ذاته،

(١) سورة آل عمران، الآية: ٥٩.

(٢) نور الثقلين ٣: ١١ عن الكافي بسنده عن ابن أذينة عن الأحول قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الروح التي في آدم ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر: ٢٩] قال: هذه..

(٣) المصدر عن محمد بن مسلم قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عما يروون أن الله خلق آدم على صورته؟ فقال: هي صورته محدثة..

(٤) المصدر عن كتاب التوحيد بإسناده إلى محمد بن مسلم قال سألت أبا جعفر عليه السلام عن هذه الآية قال: روح اختاره الله واصطفاه وخلقه...

فـ «ليست بالتي نقصت من الله شيئاً، هي من قدرته تبارك وتعالى عنه»[١] بكلمة ﴿كُن﴾ التكوينية، فعلٌ من الله تعالى كسائر فعله، ولكنه اختص نسبته بنفسه بين خلقه لكرامته على الله، واختصاصه بين خلق الله، إضافة تشريفية، لا كونية إشراقية، وإنما تكوينية، فلأن ﴿رُّوحِى﴾ هي روح الإنسان ككل، المفضلة بهذه الإضافة على سائر الأرواح فـ «من» إذاً تبعيضية، إنها بعضٌ من تلك الأرواح الانسانية التي أخلقها، ومنها أرواح في نسله أعلى منها وأشرف تستحق هذه النسبة بأحرى وأعرف هي أرواح أولي العزم من الرسل وفي قمتهم روح محمد وآله المعصومين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وفي قول فصل إيضاحاً لهذه الآيات، عرضاً من الامام علي عليه السلام لواقع خلق الإنسان وإسجاد الملائكة وإباء إبليس: «ثم جمع سبحانه من حزن الأرض وسهلها تربة سنّها بالماء حتى خلصت، ولاطها بالبَلَّة حتى لزبت، فجبل منها صورة ذات أحناء ووصول وأعضاء وفصول، أجمدها حتى استمسكت، وأصلدها حتى صلصلت، لوقت معدود وأجل معلوم، ثم نفخ فيها من روحه فمثّلت إنساناً ذا أذهان يجيلها، وفِكَر يتصرف بها، وجوارح يختدمها، وأدوات يقلّبها، ومعرفة يفرق بها بين الأذواق والمشامّ، والألوان والأجناس، معجوناً بطينة الألوان المختلفة والأشباه المؤتلفة، والأضداد المتعادية، والأخلاط المتباينة، من الحر والبرد، والبلّة والجمود، والمساءة والسرور، واستأدى الله سبحانه الملائكة وديعته لديهم، ووصيته إليهم في الإذعان بالسجود له، والخنوع لكرامته، فقال تعالى: اسجدوا لآدم، فسجدوا إلا إبليس وقبيله اعترتهم الحمية، وغلبت عليهم الشقوة،

(١) المصدر عن تفسير العياشي عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: خلق خلقاً وخلق روحاً ثم أمر الملك فنفخ وليست بالتي. . .

وتعززوا بخلقة النار، واستوهنوا خلق الصلصال، فأعطاه النظرة استحقاقاً للسُّخطة، واستتماماً للبلية، وإنجازاً للعدة فقال: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾»[1] [2].

ثم ﴿فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ هي - كما فصلناها في البقرة (٣٤) وسواها - سجدة العبودية والشكر لله، لآدم النعمة المشكور له، خنوعا لكرامته، وتصديقاً عملياً لفضيلته، بعدما بهروا في السؤال، أم عرفوا المسؤول عنه أنه من صلصال، لا سجدة عليه كتربة، ولا إليه كقبلة، ولا له كعبادة أو احترام وإنما هو مادة الشكر له، سجدوا لله، حيث اللام بين محتملات:

الانتفاع والاختصاص والملكية، مهما كانت - كما هنا - للتعدية، فالسجود له قد يعني الاختصاص والملكية، فليسا - إذاً - إلا لله شكراً واحتراماً وعبودية، أو يعني الانتفاع ولا يكون - إذاً - لله إذ لا ينتفع من السجود.

﴿فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ أو ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ ليس ليعني هنا الأولين، فإنه إلحادٌ بالله فرية عليه أنه بأمره، بل هو الثالث حيث ينتفع الساجدون شكراً لله، وينتفع المسجود له مادة للشكر مكسَباً في إظهار كرامته بأنه معلم الملائكة فأفضل منهم أجمعين فضلاً عن الشيطان الرجيم.

﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾:

هنا الجمع المحلى باللام بتأكيدين اثنين ﴿كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ يستغرق كلهم أجمعين دونما استثناء، من جبريلهم وميكالهم ومَن فوقهما أو دونهما، فكل ملائكة الله سجدوا لله شكراً لله، وتكريماً لآدم، بمن في صلبه من المحمديين الطاهرين عليهم السلام. وهم الأُصلاء في ذلك التكريم، فإنهم هم

---

(١) سورة الحجر، الآيتان: ٣٧، ٣٨.

(٢) نهج البلاغة في الخطبة القاصعة عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

الأسماء التي عُلِّمها آدم، وفُضِّل بمعرفة علمية لهم عليهم، فهو الفرع الذي يحمل في صلبه هؤلاء الفضلاء الأصلاء: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾[1] وتراخي السجدة ليس ليعني السجدة الأولى من الشيطان الأول للإنسان الأول فحسب، بل هو تلميح أن هذه السجدة لم تكن لآدم فقط كشخص، بل ولمن في صلبه على اختلاف درجاتهم، والأحرى منهم كلهم المحمديون صلوات الله عليهم أجمعين.

إذاً فـ ﴿وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾[2] الحاصرة سجدتهم أم كبارهم بالله، لا تحسرهم عن هذه السجدة الجماهرية، فإنهم كلهم ساجدون لله ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[3] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩﴾[4] وهذه السجدة كانت له وبأمره دونما استكبار، ولو تركوها لكانوا من المستكبرين، كما استكبر إبليس وكان من الكافرين.

ولأن الأمر كان مؤقتاً مضيقاً ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ وأنه استغرقهم أجمعين، فلا بد وأن يسجدوا دفعة واحدة دونما فصل زمني أو انفصال، سواء أكانوا من ملائكة الأرض أم من ملائكة السماوات، فأصبح الكون كله مسجداً لملائكة الله في ذلك السجود كما في سائر السجود.

ويا عظماه لهذه المنزلة الرفيعة لذلك المسجود له شكراً! ويا قبحاه لإبليس حيث أبلس ونكص!:

﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾﴾:

(١) سورة الأعراف، الآية: ١١.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٦.
(٣) سورة النحل، الآية: ٥٠.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٦.

استثناء منقطع تأكيداً لذلك الاستغراق، إذ إن إبليس ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾[(١)] دون الملائكة، ومتصل مع الانقطاع، إذ كان مأموراً بالسجود معهم: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾[(٢)] أمراً مستقلاً أم معهم، إذ كان فيهم يعبد الله معهم في ظاهر الحال، لحد كانوا يحسبونه منهم وليس من الضروري أن يكون مأموراً مع الملائكة جماعاً، فقد يصدر إليه منفرداً ولا يُذكر تهويناً له، ويصدر إليه معهم لاجتماعه بهم في ملابسة وعشرة عشيرة، إظهاراً للملائكة موقفه، وعلى أية حال لم يكن هو من الملائكة، مهما كان مأموراً مع الملائكة.

فرغم أنه كان مع المأمورين بالسجود في بُعد الأمر، أم ومعية العشرة، ﴿أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾:

﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾﴾:

فطبيعة الحال قاضية أن يكون مع الساجدين، أمراً من رب العالمين، فحشراً مع الساجدين الذين عاشرهم تعبداً لله طيلة سنين، متفوقين عليه أصلاً وفي الحال، وعلى آدم في ظاهر الحال، فلم يبق إذاً له مجال ﴿أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ فلا بد من مُنعة تتغلب على هذه الدوافع.

فهنا ﴿مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ زمناً وفعلاً كما تقتضيه الحال، وكان الأمر بالمعية، والتنديد بتركها، وفي الأعراف ﴿لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾[(٣)] وهي أوسع من المعية حيث تعم انفصاله عنهم في السجدة في المكان والزمان، تفرداً باستكبار، ولكنه لم يكن مع الساجدين ولا منهم.

﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾﴾:

وقد تغافل اللعين عن أصله نار السموم وهي أنحس وأنكى من صلصال

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٥٠.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٢.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ١١.

من حمإٍ مسنون، ثم ولم ينظر إلى نورية آدم، لذلك تردى في جحيم الاستكبار، تجاهلاً عن أمر الله، وعن النفخة العلوية التي تلابس هذا الطين، وإن الملائكة - وهم أشرف منه في أصل النور والحالة الحاضرة النور - سجدوا له كلهم أجمعون!.

وهنا ﴿لَمْ أَكُن﴾ تنفي أصل السجود مع الساجدين معهم أم لا معهم، سلباً لأهلية آدم، وإيجاباً لأفضليته هو عليه، تشامخاً برأسه، وترفعاً بخرطومه، وتكبراً على الله نقضاً لأمره بقياس قاسه خلاف النص الجلي: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾[1] ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾[2] وأين خيرية الطين من نار السموم؟، وخير منهما في الأصل هم الملائكة وقد سجدوا! فلو كان خيراً منه أما كان يعلمه خالقه؟ أم إن الله يأمر جزافاً؟ ثم الملائكة كلهم أجمعون يأتمرون دونما تردد وسؤال عن ذلك الأمر الإمر؟.

وقد تلمح ﴿لَمْ أَكُن﴾ أن كينونته النارية آبية عن السجود لكائن طيني لأنها أشرف منه وكما في قالته الأخرى ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾[3] ولمحة أخرى أنها استغراق لذلك النفي، فلا سجدت له ولا أسجد مستقبلاً حيث الكينونة النارية المفضلّة دائبة.

ثم ﴿لِّأَسْجُدَ﴾ بحذف «أن» الناصبة، لتحولها إلى مصدر السجدة، قد تعني «لم أكن لسجدة» فلو كان كياني ككل لسجدة كيفما كانت ولأي كانت كنت ولا بد من أن أسجد كالملائكة دونما استصلاح ولكنّ لي كياناً نارياً فأسجد أحياناً وأتركها أخرى كما أرى وهنا لست لأسجد، إذ ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٢.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٦١.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٢.

﴿وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾[١] وكأن في ذلك تعريضاً بالملائكة، فكأنهم لسجدة حتى سجدوا على أدنى منهم دونما سؤال واعتراض! فهم - على ما هم عليه - لسجدة ولم أكن أنا لسجدة!.

لا هنا ولا في سائر القرآن لا نجد جواباً لقياس إبليس إلّا أمراً بخروجه عن الجنة وعن جوار القرب، رجماً ولعنة إلى يوم الدين كما هنا، أمّا شابهه ﴿مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾[٢] أماهيه.

لماذا؟ لأن سخافة هذه القالة بالغة لدرك أسفل، لحدّ لا يصلح كلمة الجواب إلّا واقعه: ﴿فَٱخْرُجْ﴾ أم ولمحة كجواب ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾[٣] والتكبر على الله ذنب لا يساوى بأي ذنب حتى الشرك والإلحاد!.

﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾:

هنا وفي غيرها ﴿فَٱخْرُجْ﴾ دليل أنه كان مع آدم في الجنة، فهل أخذ الله طينة آدم من الأرض، وسوّاه ونفخ فيه من روحه في الجنة، أم في الأرض ثم عرج به إلى الجنة، أم خلقه من تراب الجنة؟.

قد تلمح ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾[٤] لثالث ثلاثة، حيث السجدة واقعة بعد خلقه دون فصل، فلا تفسح مجالاً لعروجه قبلها إلى الجنة، أم كانت السجدة بعد خلقه في الأرض ثم عرج به إلى الجنة للامتحان ثم أهبط، كما و﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[٥] ترجحه؟ إلّا أن تعنى الغاية الواصل إليها بعد خلقه في الجنة وهي الخلافة في الأرض! أنا لا أدري وربي أعلم بما قال.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٢.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ١٨.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٣.
(٤) سورة الحجر، الآية: ٢٩.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٣٠.

ثم ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ بيان لسبب إخراجه عنها فإنها من الملأ الأعلى، وإخبار بأن إخراجه منها هو برجم الأحجار السماوية والنيازك النارية، ثم هو وذريته ﴿لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾﴾[1] فهو - إذاً - رجيم في البداية وإلى النهاية، وذريته ترجم إذا تسمعت إلى الملإ الأعلى منذ خُلقت، وأما سائر الجن فغير مرجمين ولا مدحورين إلّا منذ الرسالة الإسلامية كما فصلناه في الجن: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا﴾[2].

﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣٥﴾﴾:

هنا ﴿عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ﴾ وفي ص ﴿عَلَيْكَ لَعْنَتِي﴾[3] والفارق أن ﴿اللَّعْنَةَ﴾ أعم من «لعنتي» فتلك لعنةٌ من كل لاعنٍ خالقاً ومخلوقاً، فممن سوى الله دعاءٌ أن يلعنه الله بما يضلّل، ومن الله تحقيق اللعنة عليه جزاءً بما التعن، وإجابة لمن دعى عليه باللعن.

فما من عصيان إلّا وللشيطان فيه نصيب قل أو كثر، فهو شريك كافة اللعناء بعصيان في الالتعان، وكذلك كافة المؤمنين وقاية لهم عن العصيان، إضافة إلى مآسيه ومعاصيه الشخصية ومنذ ترك السجود لآدم.

وحتى في العصيانات التي هي استمراريةٌ لِما بدأ وفتح، إذا لم يكن له دخل مستقيم في كل فرد منها، فعليه لعنةٌ من كلٍّ منها لأن «من سن سنة سيئة فعليه وزر من عمل بها إلى يوم القيامة ولا ينقص أولئك من أوزارهم شيئاً»! لعنة ذات بعدين بعيدين في أغوار الزمن منذ بداية التكليف إلى يوم الدين.

ولماذا ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ﴾؟ لأنه يحمل مثل كل عصيان إلى يوم الدين حيث

---

(١) سورة الصافات، الآيتان: ٨، ٩.
(٢) سورة الجن، الآية: ٩.
(٣) سورة ص، الآية: ٧٨.

سنّه، وأنه عزم على استكباره هذا إلى يوم الدين، وعلم الله تعالى ذلك منه ولو لم يقل ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ﴾! فإنه اجتث عن نفسه ذلك السجود على طول الخط دونما رجعة.

ولماذا اللعنة - فقط - ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ ويوم الدين نفسه - الخارج هنا عن اللعنة - هو مكانُ واقع اللعنة بعقوباتها المناسبة لها جزاءً وفاقاً؟

وليس يوم الدنيا إلّا دار تكليف فاستجرار لعنة أو رحمة ليوم الدين؟.

لأن اللعنة لها أبعاد ثلاثة، اللاعن والملعون ومادة اللعنة وهي المعصية، وكل ذلك سوى الله محدودة إلى يوم الدين، فلا معصية ولا عاصٍ ولا لاعن أو ملعون إلّا محدوداً بزمن التكليف وهو إلى يوم الدين.

والله - غير المحدود بيوم وسواه - ليس ليلعن بمعنى أن يُحق كلمة العذاب إلا إلى يوم الدين، لأنه منتهى زمن التكليف بخيره وشره، فلا لعنة منذ يوم الدين إذ لا عصيان فيه، اللهم إلا جزاءه بما أسلف.

ومن ثم مادة المعصية تظهر بتمامها يوم الدين، وإن كانت تظهر بعضاً يوم البرزخ، وأقل منه يوم الدنيا: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾[1] فيوم الدين هو يوم الجزاء الأوفى، وفي البرزخ ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ ولكنما المكلفون المتجددون تلو بعض إلى يوم الدين، منهم اللعنة على الشيطان إلى يوم الدين، وطبعاً هو يوم قيامة الإماتة قبل قيامة الإحياء.

فهناك لعنة إلى يوم الدين هي مادتها بما يلعنه الله ويلعنه اللاعنون دون جزاء أوفى، وهنا لعنة في يوم الدين إلى أبد الآبدين في الجحيم هي ظهور لمادة اللعنة، وهي معاصيه ومآسيه - بما أضل - تماماً يوم الدين.

وقد تلمح ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ أن الله لا يجدد عالم التكليف بعد يوم الدين

---

(١) سورة النجم، الآيات: ٣٩-٤١.

لأيٍّ كان من المكلفين، إرجاعاً لهم إلى الحياة الدنيا بعد وفاء الجزاء، أم خلقاً لآخرين يكلَّفون كما هم، أم وإذا جدِّد فليس هذا الشيطان راجعاً لما كان، والله أعلم بما يكون وما كان.

ثم اللعنة إلى يوم الدين قد تكون مع حياته المنظَرة إلى يوم الدين، وأخرى أن تستمر اللعنة عليه وهو ميت قبل يوم الدين.

وهنا يتمسك بما هو العدل في قياسه أن ينظره الله قدر ما يلعنه جزاء وفاقاً، بل وفوق ذلك ألّا يموت في قيامة الإماتة، حياة مستمرة إلى يوم يبعثون، التي حرم عنها حتى ﴿مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾[1] ألّا يصعقوا بالصيحة الأولى.

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿٣٦﴾﴾:

وهذه نظرة غالطة غير لائقة بمثله أن يعيش عيشتهم وفي موتتهم لقيامة الإماتة ثم بعثتهم وفي كل ذلك هو منظرٌ! وليس ذلك إلّا لأفضل الطيبين الأبرار كما في المحمديين ومنهم يحيى والمسيح ﴿وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا﴾[2] وهم ميتون قبله عن الحياة الدنيا.

فبطبيعة الحال ليس ليُنظر الشيطان ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ اللّهم إلا ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ﴾[3] «استحقاقاً للسخطة، واستتماماً للبلية، وإنجازاً للوعد»[4] وهنا لمثلث الحكمة مثلث الإنظار: بقاء حياته المضللة دون عقوبة.

وعلَّ الفاء في «فانظري» تفريع لأمد الإنظار على أمد اللعنة، ولكنها لم تكن إلّا إلى يوم الدين، لا يوم يبعثون ولا يعني ﴿يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ هنا إلّا

---

(١) سورة النمل، الآية: ٨٧.

(٢) سورة مريم، الآية: ١٥.

(٣) سورة الحجر، الآية: ٣٨.

(٤) قد مضى تمام هذه الخطبة في ختام تفسير الآية (٢٩) عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

أوّل يوميه وهو قيامة الإماتة، دون قيامة الإحياء، لذلك نرى تبديل التفريع الشيطاني بتفريع رحماني تغليطاً لقياس الشيطان، وتصحيحاً لقياس العدل من الرحمن:

﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾:

فللفاء هنا موقفها من التفريع على اللعنة إلى يوم الدين، فالنظرة إلى يوم الوقت المعلوم من يوم الدين وهو قيامة الإماتة، لتُطابقَ اللعنةُ أمد الإنظار، وقد تلمح «فإنك» دون «إنك» إضافة إلى تفريع، أن ذلك الإنظار هو طبيعة الحال لمن يُلعن إلى يوم الدين، فليس - إذاً - استجابة لدعاء الملعون فإنه ليس من مستجابي الدعوة فضلاً عن هذه السرعة اللّامعة، وإنما هناك مصالح لذلك الإنظار، شاءه الشيطان أم أباه، ولكنه استدعاه، فوافقت المصلحة لولا الدعاء دعاءَه[1] كما أسلفناه من خطبة الامام أمير المؤمنين عليه السلام: «استحقاقاً للسخطة» فلولا إنظاره إلى يوم الدين لم يستحق اللعنة السخطة إلى يوم الدين.

«واستتماماً للبلية» لمن يبتلى بمكائده ومصائده، وكذلك لنفسه فيما يبلى ويبتلى.

«وإنجازاً للعدة» حيث وعد الصالحين الناجحين في نضال الشيطان خيراً، ووعد الطالحين، في نضاله شراً، ولا تُنجز هذه العدة وتلك إلا بذلك الإنظار.

و﴿مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ دون «منظر» دليل أن هناك منظرين آخرين، وطبعاً هم

---

(١) نور الثقلين ٣: ١٤ عن تفسير العياشي عن الحسن بن عطية قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إن إبليس عبد الله في السماء الرابعة في ركعتين ستة آلاف سنة وكان إنظاره إياه إلى يوم الوقت المعلوم بما سبق من تلك العبادة.

أقول: ﴿يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المَائدة: ٢٧] ولم تكن عبادته مقبولة إذ إنه في الباطن ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البَقَرَة: ٣٤] حيث تضرب «كان» إلى الماضي قبل أمره بالسجود وعصيانه، ففي صدور هذه الرواية عن المعصوم - لأقل تقدير - تردد.

من الشياطين، حيث الإنظار هو الإمهال لمن يعصي[(١)] إملاءً وإملالاً، وليس ﴿يُبْعَثُ حَيًّا﴾ إنظاراً، بل هو تكريم لأهله، ألّا تشملهم الصعقة الشاملة للأحياء عن بكرتهم: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾[(٢)].

ثم الإنظار المستجاب له هنا وفي (ص) ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾[(٣)] وفي الأعراف - فقط - ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾[(٤)] وطبعاً ليس إنظاراً إلى يوم يبعثون، وإنما ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾، وهو قبل ﴿يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ ﴿يَوْمِ ٱلْوَقْتِ﴾ للصعقة الجماهيرية ﴿ٱلْمَعْلُومِ﴾ عند الله، وعند من يتلو آيات الله ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾[(٥)] [(٦)]. وأما إنه «فيضرب عنقه المهدي» عليه السلام تفسيراً لـ ﴿يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ بيوم قيامه عليه السلام [(٧)] فهو من باب الجري

---

(١) وكما في نفس السورة ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ [الحجر: ٨] والدخان: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٩].

(٢) سورة الزمر، الآية: ٦٨.

(٣) سورة الحجر، الآية: ٣٨.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٥.

(٥) سورة الزمر، الآية: ٦٨.

(٦) نور الثقلين ٣: ١٣ عن علل الشرائع للصدوق بإسناده إلى يحيى بن أبي العلا الرازي عن أبي عبد الله عليه السلام حديث طويل يقول فيه عليه السلام وقد سئل عن قول الله عز وجل لإبليس: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝٣٧ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ۝٣٨﴾ [الحجر: ٣٧-٣٨] قال: ويوم الوقت المعلوم يوم ينفخ في الصور نفخة واحدة فيموت إبليس، بين النفخة الأولى والثانية وفي الدر المنثور ٤: ٩٩ - أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال: أراد إبليس أن لا يذوق الموت فقيل إنك من المنظرين، إلى يوم الوقت المعلوم، قال: النفخة الأولى يموت فيها إبليس وبين النفخة والنفخة أربعون سنة قال فيموت إبليس أربعين سنة.

(٧) المصدر عن تفسير العياشي عن وهب بن جمعي مولى إسحاق بن عمار قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول إبليس: ﴿فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الحجر: ٣٦] قال فإنك من المنظرين، إلى يوم الوقت المعلوم قال وهب: جعلت فداك أي يوم هو؟ قال: يا وهب =

والتأويل، حيث الإنظار له مرحلتان، يوم موته كسائر الخلائق، وهو ﴿يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ في الحق أصالة، ويوم ضعفه وانكساره عن حريته في سلطته لقيام الدولة الإسلامية العالمية، فلا مجال إذاً للشيطان إلا قليلاً وكأنه مضروب عنقه، أم أن «عنقه» شوكته قبل القيام حيث تكسر فهو - إذاً - مقطوع العنق!.

و﴿يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ قد تشمل يومي الإنظار متناً وهامشاً، وعلّه لذلك عبر عنه بذلك، دون يوم الصعقة الأولى، رغم صراحته في اليوم الأصل، دون الوقت المعلوم معلوماً لدى الكل في أصله، وهو يوم يموت الخلائق أجمعون ومعلوم - فقط - لدى الله في أمده: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾[1] وترى اللعين تفهّم ما فهمناه من ﴿يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾؟ طبعاً! لأنه المخاطب، وتفهُّم الخطاب هو قاعدته على أية حال، وإلّا فلا خطاب، ثم وفي تهدّده إغواءَهم أجمعين دليل ثان لبقائه إلى آخر زمن التكليف حيث العصيان لا يتخلف - مهما نقص - على مدار الزمن، وهو من إغواء إبليس.

= أتحسب أنه يوم يبعث الله فيه الناس؟ إن الله أنظره إلى يوم يبعث فيه قائمنا فإذا بعث الله قائمنا كان في مسجد الكوفة وجاء إبليس حتى يخبو بين يديه على ركبته فيقول يا ويله من هذا اليوم فيأخذ ناصيته فيضرب عنقه فذلك اليوم الوقت المعلوم.

وفي تفسير القمي بإسناده عن محمد بن يونس عن رجل عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: يوم الوقت المعلوم يذبحه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على الصخرة التي في بيت المقدس، أقول وذلك في رجعته صلى الله عليه وآله وسلم بعد قيام القائم عليه السلام وذبحه مرة ثانية هو نفس المعنى من ذبحه بالقائم وهو كسر السورة الإبليسية.

وفي تفسير البرهان ٢: ٣٤٣ - ابن بابويه عن سعد بن عبد الله بسند عن عبد الكريم بن عمرو الخثعمي قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إن إبليس قال: انظرني إلى يوم يبعثون فأبى الله ذلك عليه فقال: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝٣٧ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ۝٣٨﴾ [الحجر: ٣٧-٣٨] فإذا كان يوم المعلوم ظهر إبليس في جميع أشياعه منذ خلق الله آدم إلى يوم الوقت المعلوم وهي آخر كرة يكرها أمير المؤمنين عليه السلام . . . أقول: تأمل كما كنت متأملاً فيما سبق.

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٨٧.

وفي بقاء شطر من اليهود والنصارى إلى يوم القيامة ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾[1] دليل بقائه مغوياً إلى يوم القيامة، مهما خف زمن الدولة السعيدة المهدوية، ويا عجباً ممن يجد هذه الصراحة في إنظار الشيطان، حياً لا يموت إلى يوم الوقت المعلوم، ثم لا يحنُّ إلى تصديق عمر طويل للقائم المهدي عليه السلام.

فهل المصلحة لاستتمام البلية وإنجاز العدة واستحقاق السخطة في ذلك الإنظار أقوى وأحرى بالتصديق والتطبيق من المصلحة لتأسيس الدولة الإسلامية العالمية بالثاني عشر من خلفاء الرسول صلى الله عليه وآله وسلم؟.

فإن كانت الاستجابة هناك لدعاء الشيطان الرجيم، فهنا الاستجابة أحرى لأدعية الصالحين على مدار الزمن.

وإن كان هناك إنجاز العدة لفريقي الصالحين والطالحين، فهنا العدة للعباد الصالحين ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾[2].

وإن كان هناك استحقاق للسخطة، فهنا السخطة على سلطات الشيطان كما وعد الرحمن: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾[3] ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾[4] ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾[5].

وإن كان هناك استتمام للبلية، فقد تمت هنا البلية وحان زمن الوراثة العالمية للصالحين، مهما بقيت بليّات صغيرة منذ المهدي عليه السلام حتى يوم الوقت المعلوم!.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١٤.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٥.
(٣) سورة السجدة، الآية: ٢١.
(٤) سورة الأنبياء، الآية: ٩٥.
(٥) سورة النمل، الآية: ٨٢.

ولقد طلب إبليس النظرة، لا ليتندم على خطيئة، بل لينتقم من هذه الخليقة الخليفة، حيث أمر بالسجود له، فاستكبر واندحر:

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾:

«فلعمري لقد فوّق لكم سهم الوعيد، وأغرق لكم بالنزع الشديد، ورماكم عن مكان قريب فقال: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي...﴾ قذفاً بغيب بعيد، ورجماً بظن غير مصيب، صدقه به أبناء الحمية، وإخوان العصبية، وفرسان الكبر والجاهلية[١].

هنا ﴿بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ...﴾ وفي الأعراف: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾[٢].

وعلها عبارة أخرى تفصيلاً لما هنا حيث التزيين مقدمة للإغواء، وهي قعود لهم صراطه المستقيم. ثم.. و«ما» هنا مصدرية تعني بإغوائك إياي، والباء سببية وليست للقسم إذ لا يُقسم إلّا بمعروف، فالإغواء سبب «لأزينن.. ولأقعدن» ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ﴾[٣] ﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾[٤].

وكيف ينسب اللعين غوايته إلى الله ثم لا يرد عليه الله إن كانت هذه النسبة خاطئة؟ قد يكون الإغواء بدائية دون غواية سابقة في الغاوي، وقد لا يعنيه الشيطان، ولو عناه فالجواب مقدم من ذي قبل ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ

---

(١) نهج البلاغة عن الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام.
(٢) سورة الأعراف، الآيتان: ١٦، ١٧.
(٣) سورة القصص، الآية: ٦٣.
(٤) سورة الصافات، الآية: ٣٢.

أَجْمَعُونَ ۝٣٠ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٣١﴾[1]... فإنه غوى هناك فأغواه الله برجمه واللعنة عليه إلى يوم الدين جزاءً وفاقاً لاستكباره، واستمراره في استكباره مهما طال الزمن ﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ...﴾ وهنا ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝٣٤ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٣٥﴾[2] إخراجاً ورجماً ولعنة بما خرج عن العبودية والتعن فيها، أفكان يرجو أن يبقيه الله فيما كان وعلى ما كان في مكانة ومكان، وذلك عِدلٌ له بالملائكة الطائعين وخلاف عَدل من أعدل العادلين.

وإنما كضابطة شاملة للغاوين الزائفين ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[3] وللمهتدين: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾[4].

فذلك الإغواء كان جزاءً لما غوى، لزاماً له إلى يوم الدين، وكما صمم على استكباره ما دام حياً: ﴿لَمْ أَكُن...﴾.

فسبب الغواية هو نفسه من ذي بدء، وهي هي سبب غواية الرجم واللعنة ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى...﴾ وما رحمتني، غواية مختارة مني، وأُخرى جزاءً لها منك، وأنا أحمل بُعدي الغواية، وإنما غويت بسبب هذا الإنسان، فسوف أنتقم ما كنت وما كان إلى يوم الوقت المعلوم، إغواء مخيراً لا مسيراً، كما غويت من ذي قبل تخيراً دون تسيُّر، فالإغواء البدائي ظلم أجيب عنه من ذي قبل، والإغواء الجزاء عدل هو قضية الربوبية العادلة، وكذلك إظهار الغواية بسبب الأمر بالسجود لآدم، فلولاه لم تظهر، ولكنه ابتلاءٌ عادل قضيةَ التربية الإلهية عدلاً منه وفضلاً.

ولكن اللعين يتربص بآدم وذريته الدوائر، لأن آدم هو رأس الزاوية في

---

(١) سورة الحجر، الآيتان: ٣٠، ٣١.
(٢) سورة الحجر، الآيتان: ٣٤، ٣٥.
(٣) سورة الصف، الآية: ٥.
(٤) سورة محمد، الآية: ١٧.

ابتلاء الغواية، وذلك من ردّات الفعل الإبليسية حيث لا يستطيع الانتقام من ربه أو محاربته أو الفرار عن رجمه ولعنته، لذلك عزم على إخراجه وذريته عن أهليتهم لذلك التكريم، ولكي يثبت أن أمر السجود لم يكن في محلِّه اللايق، ولقد غفل اللعين أن المعني من ذلك السجود هم المخلصون من ذريته وليس له سلطان عليهم، فلم يرجع من كيده إلّا إلى ميده، ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾(١)!.

وهنا الشيطان يفوِّق لنا سهم الوعيد، تهدداً عارماً ماكراً يحدد فيه ساحة المعركة الساخبة الدائبة إنها ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ وطبعاً هي الحياة الأرضية بحذافيرها، من إنسان الأرض بأفكاره وأعماله، ومن زخرفات الأرض.

وهنا «أغرق لكم بالنزع الشديد ورماكم عن مكان قريب» هو الأرض التي نعيشها والأعمال التي نعملها: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ﴾(٢) مهما لا يستقل فيما يستغل من تزيين أعمالهم لولا أن فسح الله له المجال، ولذلك قد ينسبه إلى نفسه المقدسة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾(٣): تزييناً للقبيح وتجميلاً، أو زيادة للجميل تزييناً وتجميلاً، إغراءً للغاوين الذين ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾(٤).

فلا زينة مصطنعة مختلَقة إلّا وعليها مسحة شيطانية إغراءً للبسطاء والوسطاء وللأخسرين أعمالاً ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾(٥).

---

(١) سورة غافر، الآية: ٢٥.
(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٣٨.
(٣) سورة النمل، الآية: ٤.
(٤) سورة الروم، الآية: ٧.
(٥) سورة الكهف، الآية: ١٠٤.

وذلك التزيين قد يكون للعقل أو العلم، وأخرى للنفس الأمارة والحس، تزييناً للمعصية كأنها مباحة أم عبادة، أم تزييناً للعبادة أكثر مماهيه لكي يغترَّ بها صاحبها، أمّاذا من تمويه لخلاف الحق، منافقة فيه غير موافقة، للواقع هنا أم في الأخرى، ولكي يضل الإنسان عن الصراط المستقيم، وفي كل ذلك يصدقه أبناء الحمية، وإخوان العصبية، وفرسان الكبر والجاهلية ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾.

وفي مسرح التزيين مصرح الغواية ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ كما الجحيم: لا تُبقي ولا تذر، ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾.

فـ ﴿عِبَادَكَ﴾ دون العباد، تخصهم بعباد الله دون عباد الشيطان، ولكن فيهم من يتبعه بعض الأحيان، سواءً شمله الغفران أم لم يشمله، فـ ﴿الْمُخْلَصِينَ﴾ يخرجهم أولاء عمن لا يغويهم، وتحتصر الغواية بغير المخلصين، وهم الذين أخلصهم الله لنفسه بعدما أخلصوا له أنفسهم قدر الطاقة دون تقصير.

فالعباد ثلاثة عبّاد الشيطان وعباد الرحمن وبينهما عباد عوان خلطاً بين طاعة الشيطان وطاعة الرحمن، فالأولون كالكرة أمام اللاعب بها، تتوجه حيث تُوجَّه دون صعوبة، والآخرون يُتعبون الشيطان على قدر تمسكهم بالرحمن، وأما عباد الرحمن فليس للشيطان عليهم أي سلطان، لأنهم في صيانة العصمة الإلهية علماً وعملاً.

وليس أنه لا يزين في الأرض للمخلَصين، فإنه يزين لهم ولمن سواهم، ولكن لا يقدر على إغواء المخلَصين، إذ لا ينغرُّون بإغراءاته ولا يستغفلون بإغفالاته حيث يبصرون بالدنيا غايتها فتبصِّرهم، ولا يبصرون إليها فتُعميهم.

فالاستثناء - إذاً - يخص ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ رعاية لأدب اللفظ والمعنى.

أم ويعمه حيث لا يؤثر فيهم تزيينه كما لا يؤثر إغوائه، فهو آيس من

المخلَصين تزييناً وإغواءً، أم أنه يحاول لهم أقوى تزيين وأغوى الإغواء، ولكن هؤلاء الأكارم ليسوا لينغرُّوا بمغرياته مهما ملأت الدنيا وهلعت، فسواء غربت لهم أم طلعت هم عنها آمنون، لا مدخل له إليهم ولا سبيل له عليهم، والله على ما نقول وكيل ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[1] ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾[2] ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[3]. فهم في عصمة بكافة حقولها، عقلية وعلمية وإيمانية وعملية، لا يخطئون في الله تقصيراً ولا قصوراً ﴿كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾[4].

وليست فرية الغواية لأحدهم إلّا غواية من الشيطان في تفهُّم المَرام والمُرام، من كتاب الله وسواه من حجة بالغة تتحدث عنهم، أم تُحدِّثهم أنفسهم القاصرة المقصرة فيحسبون المخلَصين كأمثالهم! وهم في صيانة الله وعصمته وكما القرآن ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[5] وهم الذكر الناطق، المفسِّر للصامت، المطبِّق له على أنفسهم وسواهم، فكيف يُعصم ولا يُعصمون! فالله يستخلص لنفسه من يخلص نفسه لله، ويجرِّدها له وحده، ويستخدمها له وحده، ويعبده كأنه يراه، وهذه الرؤية الدائبة هي العاصمة له بإذن الله.

﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾:

هنا من المضحك المبكي الرواية المختلقة أن ﴿صِرَٰطٌ عَلَيَّ﴾ بالاضافة[6] وهي لا تستقيم أدبياً إذ إن ﴿مُسْتَقِيمٌ﴾ نكره فكيف تأتي صفة لـ ﴿صِرَٰطٌ عَلَيَّ﴾

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٢٤.
(٢) سورة يونس، الآية: ٧٣.
(٣) سورة الصافات، الآية: ٤٠.
(٤) سورة الإسراء، الآية: ١٩.
(٥) سورة الحجر، الآية: ٩.
(٦) تفسير البرهان ٢: ٣٤٤ بسند عن أبي حمزة الثمالي عن أبي عبد الله عليه السلام قال سألت عن =

وهي معرفة على الإضافة! فهي - إذاً - قيلة نكرة، ولا تستقيم معنوياً، إذ لو كان المعني هنا غير صراط الله لكان محمد أحرى بكونه رأس الزاوية في الصراط، وعلى هامشه علي عليه السلام وقد نسي المختلِقُ النكرةُ أن يضيف لام التعريف إلى ﴿مُسْتَقِيمٌ﴾ النكرة بعدما حذف التنوين عن «صراطٌ»!.

﴿قَالَ﴾ الله بعد قالِ الشيطان بتهدُّده عبادَه ﴿هَٰذَا﴾ الذي قلت من شريطة الإخلاص المستفادة من المخلَصين هو ﴿صِرَٰطٌ عَلَيَّ﴾ ثابت، فرضته على نفسي، رحمة للمخلَصين، ونقمة على غير المخلَصين أم بلية ليتوبوا ويثوبوا إليّ أو يذوقوا وبال أمرهم، فلا صراط إلي مستقيماً إلا ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ... إِنَّ عِبَادِى...﴾ وقد يعني ﴿هَٰذَا﴾ كلا السلب والإيجاب في كلمة الإخلاص ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ طرداً للشيطان في اختلاقه آلهة دون الله، وذلك السلب يتطلب وجود الشيطان وإنظاره في إضلاله، ثم اثباتاً للرحمن، فهما ﴿صِرَٰطٌ عَلَيَّ﴾ لأنهما «صراط إلي» صراطٌ مستقيم لا عوج له، وبيان آخر لـ ﴿هَٰذَا...﴾: ﴿إِنَّ عِبَادِى...﴾ فلم يجعل الله سلطاناً للشيطان على عباده، بل لهم السلطان عليه.

= قول الله عز وجل : ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الحجر: ٤١] قال: والله علي عليه السلام وهو والله الميزان والصراط المستقيم.

أقول: تأويله أنه من باب الجري بياناً لمصداق ثالث من الصراط المستقيم وقبله الرسول وقبل الكل ومع الكل صراط الله، ومثله تأويلاً ما رواه العياشي عن أبي جميلة عن أبي عبد الله عليه السلام وعن جابر عن أبي جعفر عليه السلام في الآية قال: هو أمير المؤمنين عليه السلام.

وفيه عن أبي الحسن محمد بن أحمد بن علي بن الحسين بن شاذان في مناقب أمير المؤمنين عليه السلام المائة قال: الخامس والثمانون عن جعفر بن محمد عن أبيه عن علي بن الحسين قال قام عمر بن الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: إنك لا تزال تقول لعلي بن أبي طالب عليه السلام أنت مني بمنزلة هارون من موسى وقد ذكر هارون في القرآن ولم يذكر علياً؟ فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : يا غليظ يا أعرابي إنك ما تسمع الله يقول: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الحجر: ٤١].

أقول: هذه فرية وقحة على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والغليظ الأعرابي هو المفترى عليه مهما كان عمر ما كان.

وقد يعني ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ شطراً مما تقوّله إبليس مع تصحيحات تالية، ثم كل ما يتلوه إلى ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾.

إذاً فـ ﴿صِرَٰطٌ عَلَيَّ﴾ هو تحقيق كلمة التوحيد سلباً وإيجاباً في الدنيا، ثم الجزاء الوفاق في الأخرى جنةً أو ناراً.

ثم وليس ﴿هَٰذَا﴾ الذي تتهدد به عبادي استقلالاً منك واستغلالاً تتغلب به على إرادتي أنا، كما يلمح له قولك ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ كأنني بذلك أفقد ما أريد، حيث تعاكس أنت ما أنا أريد، كلا! ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ فرضته عليّ قبل أن تُخلق وتَعصي وتتهدد.

فـ «صراط إلي» تقرباً وزلفى للسالكين، ليس إلّا ﴿هَٰذَا﴾ الذي قلت هو ﴿صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾.

لا يصل السالكون إليّ إلا بمكافحة كافة العراقيل دونما تقصيرٍ، ثم علي أن أجذبهم اليّ إتماماً لتلك المكافحة، فالغاوي - إذاً - ليس آويا إليّ خالصاً، واصلاً دونما حجاب إلّا حجاب الذات، فلا بد لهذه الرحلة من راحلة الإخلاص وخرق كافة الحجب بينك وبين ربك، والشيطان كلب هراش لا يدعك تُكَفّي رحلتك إلّا بإطلاق العبودية لله والإخلاص فيها، ومهما كانت نيته وطويته سيئة ولكنما الصراط صالح ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[1].

ذلك هو حكمي بحكمتي العالية ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾[2].

فلو شئت لمنعتك وما أنظرتك، فليس تهدُّدُك في عبادي عليّ، فإن

(١) سورة الأنفال، الآية: ٣٧.

(٢) سورة النحل، الآيتان: ٩٩، ١٠٠.

﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ لا صراطك إلّا بما سمحت لك تكويناً، ولم أرضه تشريعاً، «إنك لا تملك أن تدخلهم جنة ولا ناراً»[١].

والسلطان المنفي عنه يعم سلطان البرهان فطرياً وعقلياً ورسالياً وسائر البرهان، وكذلك سلطان القوة البدنية، فإنما هو يكيد كيداً ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾[٢] ومن يتبعه من الغاوين الذين يتولونه وهم به مشركون، هم الذين يسلطونه على أنفسهم تغافلاً عن كافة البراهين وتخاملاً، فإذا خفّوا استحوذ عليهم الشيطان ونجى الذين سبقت لهم من الله الحسنى.

أترى الشيطان قرر لنفسه نفس ما قرره الرحمن دون زيادة ولا نقصان، إذاً فهو على صراط الله المستقيم؟ كلّا! فإن هناك فوارق عدة في نفس التعبير وشاكلة المعنى، إضافة إلى أن هذا صراط تكويني من الله لحكمة، والشيطان يسلكه بسوء طوية وعناد.

فقد حصر الشيطان عباد الله في المخلَصين ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ وكأنّ مَن سواهم عباده وهم الأكثرية الساحقة من العباد حيث المخلصون المعصومون قلة قليلة!

﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ اقتساماً للعباد بينه وبين ربه، ثم الله يرد عليه بـ ﴿إِنَّ عِبَادِى...﴾ أنهم كلهم عباد الله أطاعوه أم عصوه، وقصر سلطان إبليس على الغاوين منهم وهم أهل الجحيم، كما إنه ادعى استقلالاً في استغلال الغاوين ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ فيرد الله عليه أنه بإذنه تكويناً وقضاء ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ حيث الصراط إليّ يتطلب سَلَب الشيطان بمكائده، وقضيتُهُ وجود الشيطان بشيطناته مُنظَراً إلى يوم الوقت المعلوم، وهذا هو الجانب السلبي

---

(١) نور الثقلين ٣: ١٦ عن تفسير العياشي عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال قلت: أرأيت قول الله: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحِجر: ٤٢] ما تفسير هذه الآية؟ قال: قال الله إنك لا تملك أن تدخلهم جنة ولا ناراً.

(٢) سورة النساء، الآية: ٧٦.

من الصراط: ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾ ثم يلحقه الجانب الإيجابي ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ وكما خُيِّل إليه أن له إغواءَ غير المخلصين ابتدائياً، بقوة له ذاتية أم بإذن الله، وهذا ظلم في ساحة الربوبية، فأجاب عنه ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ فتُغويهم كما غووا، وذلك التسليط من الله جزاء وفاق ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾(١) مهما كان بيد الشيطان أمّن هو؟.

لذلك فاللّوم الأول هو على الغاوين، ثم على إبليس اللعين حيث يدعوهم لمزيد: ﴿فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾(٢) ف ﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾(٣) ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾(٤).

وغلطة إبليسية رابعة أن له إغواء غير المخلصين كفراً، حيث الإغواء هنا يخصه، لأن ﴿جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فلا تشمل غواية المؤمنين، وقد رد الله عليه ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ حملاً على الكفر ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ الكافرين، أو الذين يميلون إلى كفر.

ففي واقع الحال ليس يخرج عباد الله عن كونهم عباده مهما عبدوا غيره، فالاستثناء في ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ متصل كما في ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ دونما انقطاع هنا أو هناك.

ثم وليس سلطانه على الغاوين تسييراً على الغواية ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾(٥). وإنما هو بين سلطات ثلاث، شريرة من الغاوين إذ يتبعونه: ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ وأخرى من الشيطان إنه

(١) سورة الصف، الآية: ٥.
(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٢٢.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٢٧.
(٤) سورة الحج، الآية: ٤.
(٥) سورة إبراهيم، الآية: ٢٢.

يزيدهم غواية، وخيرة ابتلائية من الرحمن إنه سلطه عليهم جزاءً بما كانوا يعملون، وامتحاناً فيما هم يأملون.

إذاً فهو في الحق ليس سلطاناً، مهما عبر عنه بسلطان، لأن له اختياراً في إغوائهم دونما إجبار، ولا قوة في إجبار.

ذلك وهذا الكلب الهراش لا يتلقف إلّا الشاردين، كما يتلقف الذئبُ الشاردةَ من القطيع، دون الواردين اللازمين الطريق، الطاردين كل رفيق، إلا من يرافقهم في الله.

وترى ﴿عِبَادِى﴾ و«عبادك» المهدَّدين هم فقط ذرية آدم؟ و﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾[1]!.

فهم - إذاً - كافة العباد من ملك وإنس وجان ومن لا نعرفهم من سائر العالمين، فالمخلَصون منهم ليس له عليهم أي سلطان، وله على من سواهم سلطان على قدر غوايتهم، مهما كان رأس الزاوية هو الإنسان.

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾﴾:

أترى جهنم هي موعد غير المخلَصين - الغاوين - أجمعين، فالجنة - إذاً - تخص المخلَصين المعصومين؟ وكما في (ص): ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[2] وفي الأسرى ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾[3].

فما هو - إذاً - مصير المتقين غير المخلصين، والآية التالية لها تقول: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾[4] وهم أعم من المخلصين، إضافة إلى

---

(١) سورة مريم، الآيات: ٩٣-٩٥.
(٢) سورة ص، الآية: ٨٥.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ٦٣.
(٤) سورة الحجر، الآية: ٤٥.

صراحٍ من مئات الآيات التي تعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار، غفراناً لسيئات بتوبات أم تكفيرات أم شفاعات؟!.

قد تعني الآية في ذلك الشمول آية مريم ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾[١] فالذين اتقوا ينجون عن النار بما اتقوا وقدر ما اتقوا، كما وهنا ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ مآلاً لأمرهم، مهما لاقوا إمراً قبل النار أو فيها، برزخاً وفي القيامة.

أم أن آيات تكفير السيئات والتوبة والشفاعة تخصص العموم هنا، فأبواب الجحيم السبع تختص بمن سواهم، أم تشمل الداخلين في النار المشفوع لهم بعده، ثم يبقى الخالدون مؤبداً وسواهم في هذه الدركات.

أم أن السلطان المنفي «أن يحبب إليهم الكفر ويبغض إليهم الإيمان»[٢] فالمثبت منه هنا على الغاوين وهم الكفار من أهل النار، لذلك ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾[٣] ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾﴾[٤] فهم

---

(١) سورة مريم، الآيتان: ٧١، ٧٢.

(٢) نور الثقلين ٣: ١٥ في كتاب معاني الأخبار بإسناده إلى علي بن النعمان عن بعض أصحابنا رفعه إلى أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: ليس على هذه العصابة خاصة سلطان، قال: قلت: وكيف جعلت فداك وفيهم ما فيهم؟ قال: ليس حيث تذهب، إنما قوله: «ليس لك عليهم سلطان أن يحبب إليهم الكفر ويبغض إليهم الايمان».

وفيه عن تفسير العياشي عن أبي بصير قال سمعت جعفر بن محمد عليه السلام وهو يقول: نحن أهل الرحمة وبيت النعمة وبيت البركة، نحن في الأرض بنيان وشيعتنا عرى الإسلام وما كانت دعوة إبراهيم إلا لنا ولشيعتنا ولقد استثنى الله إلى يوم القيامة على إبليس فقال: إن عبادي ليس لك عليهم سلطان.

(٣) سورة الشعراء، الآية: ٩١.

(٤) سورة الشعراء، الآيتان: ٩٤، ٩٥.

﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾[(١)] ولكن المخلَصين لا تثبت عليهم أية غواية وحتى أدنى معصية.

وقد يؤيد ذلك التضيُّق في سلطان الشيطان المنفي هنا ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[(٢)] حيث تشمل كافة المؤمنين المتوكلين، مخلَصين وسواهم.

﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾[(٣)] فيخص سلطانه من يشرك دون المؤمنين مهما خفت درجاتهم!.

ثم السلطان وهو السلطة، الظاهرة في السيطرة التامة، هو بنفسه قاصر أن يشمل كل عصيان، مهما كان بإغواء الشيطان، فإنه استراق في الإغواء هامشياً بمعونة النفس الأمارة بالسوء، ثم في بقاء الإيمان والحياة الإيمانية سلطان الرحمن، وفيما له سلطان كما على الذين يتولونه والذين هم به مشركون، ليس هو في الحق سلطاناً له عليهم بل هو تسليطٌ منهم إياه على أنفسهم، إذاً فلا سلطان له تغلباً على عباد الله أياً كان وكما سوف يعترف ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي...﴾.

فالوسوسة الإبليسية لغير المخلَصين ليست سلطاناً عليهم إذ ما سلطوه على أنفسهم، ولم يستقبلوه في وساوسه، وإنما تفلتات في تلفتات وغفلات وهي اللمم.

وأصحاب الجحيم هم حزب الشيطان، الذين له عليهم سلطان وسيطرة جامعة جامحة في استلاب عقيدة التوحيد، إشراكاً بالله أم إلحاداً في الله، ثم

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٢.
(٢) سورة النحل، الآية: ٩٩.
(٣) سورة النحل، الآية: ١٠٠.

الموحدون هم مصيرهم الجنة مهما ذاقوا وبال تخلفات لهم في الدنيا أو البرزخ أم وفي الآخرة.

فالسلطان سلطانان، سلطان الرحمن وسلطان الشيطان، ولا يستطيع أي مسلط عليه أن يكون إلّا تحت سلطان واحد في العقائد الرئيسية، إذ لا يمكن الجمع بين التوحيد وخلافه، وبين عقيدة المعاد وخلافها، وكذلك النبوة وخلافها، فمن يعيش تحت سلطان الرحمن معتقداً بهذه الثلاث، ليس ليعيش تحت سلطان الشيطان نكراناً، وأما الأعمال الصالحة والطالحة فهي تابعة لسلطان العقيدة بمراتبها، فالطالح عقيدياً هو طالح - بطبيعة الحال - عملياً، وأما الصالح عقيدياً فله أحياناً صالح الأعمال مخلصاً، وثانية مخلصاً، وثالثة ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾[1] في رجحان الصالحات أو الطالحات، فهؤلاء هم تحت سلطان الرحمن، وهم من حزبه مهما اختلفت درجاتهم، ثم الآخرون هم تحت سلطان الشيطان المعنيون هنا من الغاوين ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾.

فالسلطان - وتولي الشيطان - والشرك به - وإن المؤمنين ليسوا من أهل الجحيم - هذه عساكر من البراهين على تضيُّق معنى الغواية هنا بالشرك أم أي كفر، إلحاداً وما دونه!.

﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾:

وترى ماذا تعني ﴿سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ﴾؟ أهي كأبواب الحيطان تهدي الواردين إلى عرصة واحدة؟ فلماذا ﴿لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ وكل إلى عرصة واحدة! و﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[2] تمانع عرصةً واحدة،

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠٢.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٤٥.

بل هي عرصات، تتطلب كلٌّ باباً أم أبواباً! وإنها أبواب يدخلها الداخلون لا أن يدخلوا منها: ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾(١) (٢) فهي - إذاً - دركات وطبقات(٣) فوق بعض وسِفل بعض، فإن أهلها دركات، دركات في دركات كلٌّ كما عمل، مهما تراؤوا جميعاً مع بعض.

وكما يقال سبعة أبواب من البيوت وهي سبعة بيوت، ويعبر عن الأمور المختلفة الأنواع - درجات ودركات - أبواباً، ولكل باب منهم جزءٌ مقسوم تناسب تلكم الأبواب، كما ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾(٤).

أم وهي - على ماهيه - أسباب الدخول في الجحيم كأبواب سائر العذابات والرحمات، وكما نجد أمهات الملكات الرذيلة ثلاثاً هي الشيطنة: المكر - والأكولية: البقر - الافتراس: النمر - وباجتماع ثنتين منها

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٧٢.

(٢) وكذلك نجد أبواب جهنم في ١٦: ٢٩ و٤٠: ٧٦، ففيهما كما في الزمر ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ [النحل: ٢٩] لا من أبوابها..

(٣) الدر المنثور ٤: ١٠٠ - أخرج ابن أبي حاتم عن سمرة بن جندب عن النبي ﷺ في قوله: ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ [الحجر: ٤٤] قال: إن من أهل النار من تأخذه النار إلى كعبيه وإن منهم من تأخذه النار إلى حجزته ومنهم من تأخذه إلى تراقيه منازل بأعمالهم فذلك قوله: لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم، وفيه أخرج ابن المبارك وهناد وابن أبي شيبة وعبد بن حميد واحمد في الزهد وابن أبي الدنيا في صفة النار وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في البعث من طرق عن علي عليه السلام قال: أبواب جهنم سبعة بعضها فوق بعض فيملأ الأول ثم الثاني ثم الثالث حتى يملأ كلها.

وفي نور الثقلين ٣: ١٨ عن الخصال للصدوق في سؤال بعض اليهود علياً عليه السلام عن الواحد إلى المائة قال له اليهودي فما السبعة؟ قال: سبعة أبواب النار متطابقات.

وفيه وعن المجمع روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أن جهنم لها سبعة أبواب أطباق بعضها فوق بعض ووضع إحدى يديه على الأخرى فقال: هكذا، وإن الله وضع الجنان على العرض ووضع النيران بعضها فوق بعض فأسفلها جهنم وفوقها لظى وفوقها الحطمة وفوقها سقر وفوقها الجحيم وفوقها السعير وفوقها الهاوية أقول: والروايات متهافتة من طريق الفريقين في أسماء الطبقات السبع، ولا حجة ظاهرة في القرآن لواحدة منها.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ٤٤.

باختلاف مفرداتها أو الثلاث، تكتمل الدركات السبع لرذائل الأخلاق، وهي الأبواب الأسباب لدخول الجحيم، وإلى أبواب الطبقات، مهما كانت لكل طبقة - أيضاً - أبواب! وقد يعني الرسول ﷺ من تقسيمه الثلاثي: «جزءٌ أشركوا بالله وجزء شكوا في الله وجزء غفلوا عن الله»(١) إنهم الأجزاء الرئيسية، مهما انقسم كلٌّ إلى هذه السبع، فقد تجر الغفلة عن الله إلى ما لا يجره الشرك بالله والشك في الله.

وقد تعني ﴿سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ هذه الثلاث كلها، أبواباً وطبقات وأسباباً لتناسب اللفظ والمعنى.

فأبواب النار تقتسم أصحابها أجزاء مقسومة، كما وأبواب الجنة وهي عرصة واحدة، بل والصراط الذي يمشون عليه فـ «إن الصراط بين ظهري جهنم دحض مزلة والأنبياء عليه يقولون اللهم سلم سلم، والمار كلمع البرق، وكطرف العين، وكأجاويد الخيل والبغال والرُّكّاب على شد الأقدام، فناجٍ مسلم ومخدوشٌ مرسَل ومطروح فيها ولها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم»(٢).

أجل يتجزأ أهل النار بين أبوابها الطباق أجزاء مقسومة حسب أقسام معاصيهم ومآسيهم قضية العدل، ولا تَجَزُّءَ لأهل الجنة بين طبقات، وإنما جنة الرضوان والزلفى والفردوس تقتسم بين أصحابها درجات حسب

---

(١) المصدر - أخرج ابن مردويه في تاريخه عن أنس قال قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [الحجر: ٤٤].
وفيه أخرج ابن مردويه عن أبي ذر قال قال رسول الله ﷺ لجهنم باب لا يدخل منه إلا من أخفرني في أهل بيتي وأراق دماءهم من بعدي وفيه أخرج أحمد وابن حبان والطبري وابن مردويه والبيهقي في البعث عن عتبة بن عبد الله عن النبي ﷺ قال: للجنة ثمانية أبواب وللنار سبعة أبواب وبعضها أفضل من بعض.

(٢) الدر المنثور - أخرج ابن مردويه والبيهقي في المبعث عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ إن الصراط..

الدرجات، وسائر الجنة ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۝٣١ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ۝٣٢﴾[1].

ولماذا ﴿جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ دون جماعة مقسومة، حيث الجزء منطقياً للكل والجماعة والأفراد للكلي؟ علّه مهانة لهم وإهانة كأنهم ليسوا أناساً أم وسائر العقلاء، وإنما هم ركامٌ من حطب فإنهم حصب جهنم، ثم ﴿مَّقْسُومٌ﴾ يعني على نفس الباب، فالأجزاء الرئيسية سبعة، ثم كل جزء مقسوم على طابقه، فكما الطبقات تختلف عذاباً، كذلك كل طبقة تختلف مكاناتها.

فمثلاً أصحاب الدرك الأسفل منهم المنافقون ومنهم المكذبون بآيات الله ومنهم مَن دونهم أو فوقهم ولكنهم قريبون مع بعض في العذاب بأسبابه، فهم أجزاء في باب واحد.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٤٥ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ۝٤٦﴾:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ هم أعم من المخلَصين، من مخلِصين على درجاتهم، العائشين حياة التقوى مهما كان منهم من لمم وصغائر، أم وكبائر مكفَّرة بأسبابها.

أو لأن ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ هنا وجاه «الغاوين»: الكافرين، فهم إذاً الموحدون، الذين اتقوا الإلحاد في الله والشرك بالله فماتوا موحدين فإن مصيرهم إلى الجنة مهما كان لهم قصور أو تقصير، ولكنه لا يشمل الموحدين المحكوم عليهم بالنار كما في آيات عدة، فقد تعني ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ تقوى العقيدة والعمل، من استقرت فيهم ملكة التقوى، أن مَلِكَتْهم التقوى دون الطغوى، ثم العوان بين «الغاوين» و«المتقين» منهم مستضعفون مُرجَون لأمر الله، ومنهم من يعذَّبون في النار ثم يخرجون عنها قريباً أم بعيداً، ومنهم الأطفال

---

(١) سورة فصلت، الآيتان: ٣١، ٣٢.

والمجانين، لا طاغين ولا متقين، فإنهم أيضاً من أهل الجنة، إذاً فـ ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ تخص من عاش حياة التقوى مهما خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، ما دام الأصل فيها خلاف الطغوى.

ألا وإن التقوى مطايا ذُلُلٌ حمل عليها، وأُعطوا أزمتها فأوردتهم الجنة، وفتحت لهم أبوابها، ووجدوا ريحها وطيبها وقيل لهم ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾[1].

والباء في ﴿بِسَلَٰمٍ﴾ تعم السببية والمعية: ادخلوها مصاحبين سلام، بسبب سلام قدمتموه لأنفسكم، سلام تحية وإكرام، لفظياً وواقعياً ﴿ءَامِنِينَ﴾ من كل اضطراب من غل في صدور أو نَصَب أم خروج.

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾:

وهنا نتأكد أن ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ يخص غير المخلَصين إذ ليس في صدورهم غِل، فهم المرسل إليهم المؤمنون العاملون الصالحات على درجاتهم بدرجاتها: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[2].

والغِلُّ هو العداء والضِّغن، ولا يخلو عن لمم منه مؤمن إلّا مخلص: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[3].

فالعداء والضغن إذا كانا للذين آمنوا بإيمانهم فهما عداءٌ للإيمان،

(١) نور الثقلين ٣: ١٩ في روضة الكافي خطبة لأمير المؤمنين وفيها: . . .
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٤٣.
(٣) سورة الحشر، الآية: ١٠.

ولكنهما هنا غبطة أم تحسُّد على من سبق في إيمان وهي رذيلة باطنية قد تجمع مع الإيمان، ثم في الجنة وفيها تظهر معالي السابقين، وهي بطبيعة الحال مسرح الاغتباط، فمن فضل الله على أهل الجنة نزْعُ ما في صدورهم من غلٍّ أياً كان سببه، قبل الجنة وفيها، وبذلك يصبحون ﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾.

أجل ليس بين المتقين عداءٌ وضِغنٌ إلّا لمم من الغبطة المنزوعة عنهم هناك فـ ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾[1].

فهناك تزول كافة الخلافات بين كتلة الإيمان، حيث تظهر الحقائق والاستحقاقات عن بكرتها، فلماذا إذاً التحسُّد والاختلاف.

ففي قبال الحقد المكين اللعين الذي يغلي به صدر إبليس والغاوين، ينزع عنهم كل حقد فإنه نَصَب فـ ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ أياً كان وأيان ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ طبعاً ولا خارجين فإن الجنة عطاءٌ غير مجذوذ، مهما كانت النار - قضيةَ العدل - بلاءً هو مجذوذ.

وقد يلمح المضي في ﴿وَنَزَعْنَا﴾ أن الله ينزع عنهم كل غل قبل الخطاب: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾ والغل خلاف الأمن والسلام.

وكما يروى عن الرسول ﷺ قوله: يُحبس أهل الجنة بعدما يجوزون الصراط حتى يؤخذ لبعضهم من بعض ظلاماتهم في الدنيا ويدخلون الجنة وليس في قلوب بعضهم على بعض غل[2] ﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٦٧.

(٢) الدر المنثور ٤: ١٠١ - أخرج ابن أبي حاتم عن الحسن بلغني أن رسول الله ﷺ قال: . .
وأخرجه مثله ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن قتادة في الآية قال حدثنا أبو المتوكل الناجي عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة فوالذي نفسي بيده لأحدهم أهدى لمنزله في الجنة من منزله كان في الدنيا.

المتحابين في الله في الجنة ينظر بعضهم إلى بعض[١].

فهم - إذاً - في زوايا ثلاث من مثلث الرحمة الإلهية في الجنة، دخول فيها بسلام وأمن بما اتقوا من جانب الرب، ومن أنفسهم، ومن العوامل الخارجية، خلاف الغاوين العائشين كل سأم من كل الجوانب.

والأخوة الإيمانية بطبيعة الحال درجات في كافة النشآت فمثل علي عليه السلام ليس إلّا أخا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وكما آخى بينه وبين نفسه يوم الدنيا، فقد آخى بين عمر وأبي بكر، وبين عثمان وعبد الرحمن بن عوف في المرة الأولى، ثم في الثانية بين أبي بكر وخارجة بن زيد، وبين عمر وعتبان بن مالك.

أما علي عليه السلام فكان في كلتا المرتين أخا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تفضيلاً له على من سواه كما تواتر عن الفريقين[٢]. وكما كان يقول له الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «أنت أخي في الدنيا والآخرة»[٣] «أما أنت يا علي فأخي وأبو ولدي ومني وإلي»[٤] «مكتوب على باب الجنة: لا إله إلا الله محمد رسول الله علي أخو رسول الله.. قبل أن تخلق السماوات والأرض بألفي عام»[٥].

---

(١) المصدر أخرج ابن أبي حاتم والطبراني وأبو القاسم البغوي وابن مردويه وابن عساكر عن زيد ابن أوفى قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فتلا هذه الآية:...

(٢) حديث المؤاخاة ذكره العلامة الأميني في الغدير ٣: ١١٣ - ١٢٥ عن خمسين مصدراً من طرق إخواننا وممن رواه ابن عباس وابن عمر وزيد بن أرقم وزيد بن أبي أوفى وأنس بن مالك وحذيفة بن اليمان ومخدوج بن يزيد وعمر بن الخطاب والبراء بن عازب وعلي بن أبي طالب ونفر آخرون عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك ٣ - ١٤ عن ابن عمر من طريقين صحيحين وأخرج الذهبي في تلخيصه مسلماً لصحته والترمذي فيما نقله عنه ابن حجر في ٧٣ من صواعقه، وأرسله كل من تعرض لحديث المؤاخاة من أهل السير والأخبار إرسال المسلمات.

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك ٣ - ٢١٧ بسند صحيح على شرط مسلم واعترف الذهبي بذلك في تلخيصه.

(٥) مناقب أحمد - تاريخ الخطيب ٧: ٣٨٧ - الرياض النضرة ٢: ١٦٨ - تذكرة السبط ١٤=

وقد وردت حول تفسير الآية مصداقياً إلّا ﴿مِّنْ غِلٍّ﴾ روايات عدة عن الرسول ﷺ يقرر فيها هذه الأخوة السامية بينه وبين علي عليه السلام (١) مما يجتث جذور المختلقات الزور والغرور.



= مجمع الزوائد ٩: ١١١ - مناقب الخوارزمي ٨٧ - شمس الأخبار ٣٥ عن مناقب الفقيه ابن المغازلي - كنز العمال ٦: ٣٩٩ عن ابن عساكر. فيض الغدير ٤: ٣٥٥ - كفاية الشنقيطي ٣٤ - مصباح الظلام ٣: ٥٦ نقلاً عن الطبراني (الغدير ٣: ١١٧).

(١) البرهان ٢: ٣٤٨ من طريق المخالفين ما نقله أبو نعيم الحافظ عن رجاله عن أبي هريرة قال قال علي بن أبي طالب: يا رسول الله ﷺ أنا أحب إليك أم فاطمة، قال: فاطمة أحب إلي منك وأنت أعز علي منها وكأني بك وأنت على حوضي تذود عنه الناس وأن عليه أباريق عدد نجوم السماء وأنت والحسن والحسين وحمزة وجعفر في الجنة ﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ وأنت معي وشيعتك ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧] لا ينظر أحدكم في قفاء أخيه.

وفيه عن أحمد بن حنبل في مسنده يرفعه إلى زيد بن أوفى قال دخلت على رسول الله ﷺ في مسجده فذكرت قصة مؤاخاة رسول الله ﷺ بين أصحابه فقال علي له يعني رسول الله ﷺ لقد ذهبت روحي وانقطع ظهري حين رأيتك فعلت بأصحابك ما فعلت بغيري فإن كان هذا من سخط فلك العتبى والكرامة فقال رسول الله ﷺ: والذي بعثني بالحق نبياً ما أخرتك إلا لنفسي فأنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي وأنت أخي ووارثي، قال: وما أورث منك يا رسول الله ﷺ؟ قال: ما أورثت الأنبياء قبلي، قال ما أورثت الأنبياء قبلك، قال: كتاب الله وسنة نبيهم وأنت معي في قصري في الجنة مع ابنتي فاطمة وأنت أخي ورفيقي ثم تلا رسول الله ﷺ ﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧] المتحابون في الله ينظر بعضهم إلى بعض.

أقول: في تركه ﷺ صدر الآية ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ [الأعراف: ٤٣] دليل أنها لا تصدق في مثل الرسول وعلي عليه السلام.

﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبِّئۡهُمۡ عَن ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗا قَالَ إِنَّا مِنكُمۡ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ لَا تَوۡجَلۡ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرۡتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلۡكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُواْ بَشَّرۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُواْ بَلۡ جِئۡنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمۡتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَٱتَّبِعۡ أَدۡبَٰرَهُمۡ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٞ وَٱمۡضُواْ حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيۡنَآ إِلَيۡهِ ذَٰلِكَ ٱلۡأَمۡرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقۡطُوعٞ مُّصۡبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٖ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ لَظَٰلِمِينَ

﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾

تذييل لما سبق وتقدِمَة لما يلحق بالنسبة للصالحين والطالحين، يتضمن نماذج من رحمة الله وعذابه، ممثَّلة في بشرى إبراهيم بغلام عليم، وإنذار قوم لوط وأصحاب الأيكة والحجر وما حلّ بهم من عذاب أليم:

﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾:

هنا نبأ الرحمة يتقدم نبأ العذاب جرياً على أصله الموعود: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾[1] فهي تشمل المتقين، بطبيعة الحال، والطاغين إذا اقتضت الحال أن يثوبوا إلى ربهم قبل فوات المجال، فما دام يصح الغفران عدلاً أو فضلاً لم يكن للعذاب مجال، إلّا إذا كان الغفران ظلماً بالمتقين، وعبثاً للطاغين، وتسوية بين المحسنين والمسيئين.

والنبأ هو خبر ذو فائدة عظيمة وعائدة جسيمة، فنبأ الرحمة فائدة لمن يستحقون الرحمة، ونبأ العذاب تحذيرٌ لهم عن التورُّط في استحقاق العذاب، وحجة على الغاوين غير الآوين إلى ربهم.

وقد ينبئ ﴿عِبَادِىٓ﴾ أن محور الرحمة والغفران هو ربقة العبودية ابتداءً من العقيدة وانتهاءً إلى العمل، فما لم يتحول عبد الشيطان إلى عبدٍ للرحمن لم يستحق تلك الكرامة الغالية.

ونبأ الرحمة والغفران إضافة إلى تقدمه ذكراً متأكد في البيان بمثلث

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢.

التأكيد ﴿أَنِّيٓ﴾ - ﴿أَنَا﴾ - ﴿ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ حيث اللام الداخلة على الوصفين لها دلالتها على تأكيد.

ثم نبأ العذاب الأليم إضافة إلى تأخره ذكراً لم يُصرَّح فيه بالنبإ إلّا عطفاً على نبإ الرحمة، ولا فيه ما في الرحمة إذ لم يقل: «إني أنا المعذب»... تدليلاً على أصالة الرحمة ما أمكنت، وهامشية العذاب إذا وجب عدلاً من أحكم الحاكمين.

فهي - إذاً - أرجى آية في الذكر الحكيم بعد آية الزمر: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾﴾[1].

آيتنا تلك تجعلنا بين الخوف والرجاء دون فوضى جزاف لا في الرحمة ولا في العذاب، وقد يعنيه المروي عن رسول الهدى «لو يعلم العبد قدر عفو الله لما تورع من حرام ولو يعلم قدر عذابه لجمع نفسه»[2].

فليعلم العبد القدرين جميعاً حتى يجمع نفسه متورعاً من الحرام، غير قانط من رحمة الله، لا مستهتر لا يرعوي، ولا آيس غوي.

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾﴾:

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ

(١) سورة الزمر، الآيتان: ٥٣، ٥٤.

(٢) الدر المنثور ٤: ١٠٢ - أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في الآية. قال: بلغنا أن نبي الله ﷺ قال: ... وفيه «اطلع علينا رسول الله ﷺ من الباب الذي يدخل منه بنو شيبة فقال ألا أراكم تضحكون ثم أدبر حتى كان عند الحجر رجع إلينا القهقرى فقال: إني لما خرجت جاء جبرئيل فقال: يا محمد إن الله يقول لم تقنط عبادي: نبئ عبادي..

قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾[1] [2].

﴿وَنَبِّئْهُمْ﴾ نبأ الرحمة الخارقة للعادة، البارعة لنبي الرحمة ﴿عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ الخليل، إنباءً مختصراً غير محتصر، فالذاريات بما معها من آيات تفصله تفصيلاً ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ﴾ فجأة دونما استئناس ولا تعريف بأنفسهم أمّا يقصدون، وإلا فكيف ﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾؟ فإنما ﴿فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ وهو عليه السلام رد عليهم السلام ﴿قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾[3] لا نعرفهم!.

وهنا نتأدب بالأدب الرسالي، وهو واجب تكريم الضيف وتقديم الإضافة الميسورة له مهما كان منكراً لا نعرفه ولم يستأنس معنا من ذي قبل.

و﴿سَلَٰمًا﴾ بعد «قالوا» ليس فقط صيغة السلام، وإلّا كان «سلامٌ» كما في جوابهم، فقد يكون: كلاماً سلاماً، أو قولاً سلاماً أم أي سلام يحق على الوارد أن يقوله ومنه تحية السلام، وحتماً كانت في قولهم سلاماً، وإلّا لما كان له الجواب «سلامٌ» و«عليكم» المحذوفة، وهنا نتأدب بأدب الدخول للضيف المكرمين مهما كانوا منكرين، ومنه واجب السلام قولاً وفعلاً ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾[4].

ثم ﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ لم يكن إلّا بعد ﴿سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ وبعد ما قدم لهم ما قدم ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾[5]

---

(١) سورة الذاريات، الآيات: ٢٤-٢٨.
(٢) راجع الفرقان ٣٦: ٣٢٤ - ٣٣١ - تجد فيه تفصيل القصة.
(٣) سورة الذاريات، الآية: ٢٥.
(٤) سورة النور، الآية: ٦١.
(٥) سورة هود، الآية: ٧٠.

وليكن إيجاس الخيفة والوجل مسنوداً إلى سبب ظاهر، دون أنهم - فقط - قوم منكرون! فلا تحل أية تهمة على من لا تعرفه بسند أنك أنت لا تعرفه، وحتى إذا صدر منه ما يخيف فلا توجس منه خيفتك، بل أظهر هاله مصارحاً كما صرح إبراهيم: ﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ مصارحة بالحق ما أحلاها، دون مسايرة محايرة بإيجاس الخيفة، وقد تخلّف تبعات سيئة شئت أم أبيت.

﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾﴾:

ونفس البشارة بهذه الخارقة الغريبة لمحة صارخة مصارحة أنهم لم يكونوا بشراً، بل هم ملائكة يحملون وحي الله إليه في هذه البشرى السارة ﴿بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ ومن قبل في إسماعيل ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾[1] وطبعاً لا حلم صالحاً دون علم.

وفي الصافات ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾[2] فـ ﴿عَلِيمٍ﴾ هنا تعني علم الوحي النبوة؟ ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾[3] [4].

﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾﴾:

مس الكبر ضعفاً في القوة جنسية وسواها من ناحية، وامرأته سارة ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾[5] من أخرى، عقمٌ مثلث الزوايا بين الزوجين! هذا الذي يُحيره في هذه البشارة ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ استبعاداً لها عن صدقها، فعلهم - إذاً - ليسوا ليحملوا

---

(١) سورة الصافات، الآية: ١٠١.

(٢) سورة الصافات، الآية: ١١٢.

(٣) سورة هود، الآية: ٧١.

(٤) نور الثقلين ٣: ٢٠ وفي تفسير العياشي عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام في حديث طويل: والغلام العليم هو إسماعيل من هاجر.. أقول وهذا خلاف نص الآيات في بشارة إبراهيم ولا سيما الأخيرة.

(٥) سورة الذاريات، الآية: ٢٩.

وحي الله في هذه البشرى، وكما هم في ظاهر حالهم ليسوا بملائكة! فقد لا تكون بشارة بالحق، فلم يكن - إذاً - استغراباً من قدرة الله، ولا قنوطاً من رحمة الله، فلما:

﴿قَالُوا۟ بَشَّرْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ ۝٥٥﴾:

صدّقهم حينذاك، ونفي عن نفسه القنوط ناسباً له إلى الضالين، وهو من أهدى المهتدين.

﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ۝٥٦﴾:

استفهام إنكاري كتعريض بالملائكة، أتنسبوني إلى القنوط من رحمة ربي وليس إلّا للضالين؟ فما كان استعجابي لبشراكم استبعاداً رحمة ربي، وقنوطاً منها، وإنما تردداً هل إنها من ربي؟ وكيف أطمئن إلى حالهم الملائكية من قالهم، طبعاً هو بوحي من الله، فما كان يعرفهم وهم في صورة البشر إلّا بوحي وقد أنكرهم في البداية، ثم أطمئن إلى بشراهم بما عرفه الله إياهم.

فالضالون عن الله هم الذين لا يستروحون رَوحه ورحمته، ولا يستشعرون رأفته ورعايته، فأما القلب الندي بالإيمان، الموصول بالرحمن، فلا ييأس من رحمة ربه مهما كانت غريبة خارقة، ومهما كان هو في شدة مدلهمَّة يغيب معها الأمل في ظلام الحاضر، فـ ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[1] مهما كانت بعيدة عن المسيئين.

فالقنوط من رحمة الرب خروج عن الحالة الوسطى الإيمانية: بين الخوف والرجاء، وتهمة على الرب وسوء ظن به[2] إنه عاجز أم ضنين أم

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٦.

(٢) نور الثقلين ٣: ٢٢ عن التوحيد للصدوق بإسناده إلى معاذ بن جبل حديث طويل عن النبي ﷺ يقول فيه: قال الله يا بن آدم بإحساني إليك قويت على طاعتي وبسوء ظنك بي قنطت من رحمتي.

غير رحيم، فمهما كانت الرحمة غالية، والعبد غير لائق لها، ولكن الرب أهل للرحمة إذا كان العبد أهلاً للرحمة، ف «الفاجر الراجي لرحمة الله أقرب منها من العابد القنط»[1] حيث الفاجر الراجي قد ينجو برجائه فيصلح، والعابد القَنِط لا ينجو مهما عبد فيفسد، فالقانط من رحمة ربه ضال عن ربه معرفة وعملاً، إذ لم يعرفه بالقدرة والرحمة الواسعة، فلا يعمل عمل الراجي، إذا أذنب لا يرجو غفرانه، وإذا أطاع لا يرجو مزيده! وهكذا إنسانٍ ضالٌ عقائدياً وعملياً، وأين إبراهيم شيخ المرسلين من هؤلاء الضالين؟.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾﴾:

الخطب هو الأمر العظيم الذي يكثر فيه التخاطب والحوار، وكيف عرف أن لهم خطباً غير ما بشروا؟ علّهم قدّموا أموراً بعدها تدل على أمر عظيم غيرها، فلذلك يسألهم استفهاماً واستعلاماً بعدما تأكد أنهم مرسلون، وهم بدأوا ببشارة الغلام العليم، ليتهيأ الجو لبيان الخطب العظيم، حتى تخف دهشته، ثم وهذه البشارة يكفي لها منهم واحد، فلماذا ذلك الجمع إلّا لخطبٍ غيرها، مهما كانت هي منها.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٖ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾:

صحيح أن رسالة العذاب كانت على قوم لوط المجرمين، ولكن إبراهيم إمام عليه وعلى قومه، فحفاظاً على كرامة القيادة العليا الرسالية، لا بد وأن يخبر أولاً ماذا يقصد لقيادة جزئية وهنا بين المستثنى منه والمستثنى مقالة لإبراهيم إذ استوحش من عموم العذاب: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ

(١) الدر المنثور ٤: ١٠٢ - أخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: . . .

﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾[1]. ﴿قَالُوا إِنَّا...﴾ ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾﴾[2] أترى إبراهيم لم يحر كلاماً مع ربه بعدما سمع ذلك الخطب الجلل؟ أجل ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾[3].

﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا﴾ كأصل في هذه الرسالة مهما حملت لك بشارة ﴿إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ أجرموا وقطعوا ثمار الحياة الإنسانية، حيث قطعوا أنسالهم بما تعودوا من إتيان الرجال ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾[4] وتقطعون السبيل وهذا من أنحس الإجرام.

﴿أُرْسِلْنَا﴾، ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ...﴾[5]، ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ﴾ وهم لوط وأهله الآهلون للنجاة من أقارب أم أغارب، وهم كل من آمن به ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لا لقرابة ونسبة فلذلك ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾ الماضين في المستثنى منهم في ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ﴾.

والغابر - لغوياً - هو الماكث بعد مضي من هو معه، وهو هنا يعم مكوث العمر أنها كانت ﴿عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾[6] ومكوث أمر الكفر حيث ظلت كافرة وقد مضى من معها من أهله عن الكفر وآمنوا به كلهم أجمعون، وكذلك غابر كلمة العذاب التي حقت على الكافرين.

---

(١) سورة العنكبوت، الآيتان: ٣١، ٣٢.
(٢) سورة الذاريات، الآيتان: ٣٣، ٣٤.
(٣) سورة هود، الآيات: ٧٤-٧٦.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ٨١.
(٥) سورة الذاريات، الآية: ٣٣.
(٦) سورة الشعراء، الآية: ١٧١.

و﴿قَدَّرْنَآ﴾ هنا يعم تقدير عمرها، وتقدير كفرها، ثم تقدير عذابها، تقديراً دون تسيير في أوسطها حيث اختارت هي الكفر: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾(١) ثم الأخيرة هي من مخلفاته، وتقدير غابر العمر إملالٌ وامهالٌ لفسح المجال علّها ترجع عن غيها، أم تطول حجة الله عليها فيطول عذابها جزاءً وفاقاً.

ذلك عرض العذاب على آل لوط في لُقياهم لإبراهيم وقد جادل وسمع الجواب.

ثم من عند القائد الأعظم إلى صاحب لواء في رسالته الجزئية ليخبروه بذلك الخطب:

﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٦١ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ۝٦٢﴾:

﴿ءَالَ لُوطٍ﴾ هنا هم لوط وأهله، وهو شخصياً محطٌّ لهذه الرسالة، لذلك هو الذي ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ وهنا نصدق تماماً أن «سلام على آل ياسين» يعني ياسين: محمداً وآله المعصومين، وكذلك سائر الآل إلّا أن تدل قرينة على خروج الأصل لاختصاصه كما نصلي على محمد وآل محمد ﷺ.

﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾(٢) وهذه دلالة منفصلة أن ﴿مُّنكَرُونَ﴾ فيه ضيق ذرعه، ولكونهم بصورة غلمان مُردٍ حِسان وهو يعرف شأن قومه الشائن بحق الغلمان، لذلك طمئنوه من أنفسهم و«قالوا» ما قالوه.

وقد يعني ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ فيما يعنيه، إني لست لأصدقكم فإنكم غير معروفين، لذلك استدركوا و:

(١) سورة الصف، الآية: ٥.
(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٣٣.

﴿قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾﴾:

وهنا يصدِّقون مرة ثانية في خطبهم بنفس النمط الذي صدقهم إبراهيم، إلَّا أن هنا بين النكران والعرفان أمراً فادحاً إمراً: ﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ...﴾.

فلو كان يعرفهم عند مجيئهم لما استوحش قائلاً ﴿فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ فإنما عرفهم بعدما خرجوا أم عنده ثم العذاب، فيا له من موقف حرج مرج أمام هؤلاء المرسلين قبل أن يعرفهم، فهو في حيرة بين واجبه لضيفه وضعفه عن حمايتهم في وجه قومه المجرمين، فجاءه التوكيد بعد توكيد يطمئنه ﴿بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾.

و﴿بِالْحَقِّ﴾ هنا الوعد الحق على قومه، ثم أمر الإسراء، وطبعاً بعد أن عرفهم:

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾:

السرى - كما فصلناها في الأسرى - هو سير الليل، ثم ﴿بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾ يؤكد ليله أم ويعني أليل الليل وأظلمه، «قطع من الليل» من أواخره حيث العيون نائمة، والأجواء ناعمة ملائمة.

﴿وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ﴾ سِراً في مؤخرهم أجمعين، لكيلا يبقى أحدٌ منهم إلا سائراً، أو يتلكأ تلفُّتاً إلى أرض الوطن لحاجة وسواها، فتفلتا عن موكب الخلاص، أم تثاقلاً عن السرعة اللازمة، بل: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ إلى الوراء نظراً فضلاً عن وقفة، أو رجعة ﴿إِلَّا امْرَأَتَكَ﴾[1] حيث المنظر المُنتظَر

---

(١) سورة هود، الآية: ٨١.

عاجل هائل قد يبعث لقطع الحراك، أم لفتور عن العراك ﴿وَٱمْضُواْ﴾ في ذلك السرى ليلاً ﴿حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ فإن أمامكم هدي رباني، مهما كان إمامهم لوط أم رسل الوحي.

هذا ولذلك الموكب الناجي بشرى القضاء على المجرمين، نجاتهم أولاء أجمعين: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ لوط، وحياً صارماً مقضياً لا قبل له ﴿ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ العظيم الإمر وهو: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ المجرمين ﴿مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ ﴿...وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾[(١)] ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[(٢)].

وقطْع دابرهم لا يعني - فقط - قطع حياتهم عن بكرتهم، بل وكل ما دبروه وادبروه من حاجيات الحياة، حيث ﴿جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾[(٣)] فما أبقى ذلك الأمر لهم كياناً ولا كائناً إلّا دمّر.

نرى السياق يقدم ذلك المساق لعُظمه، بارعاً للمؤمنين وقارعاً للكافرين، ولكي لا يفاجأ القارئ بما يُفجع من الحالة الهائلة لآل لوط لما جاء أهل المدينة إلى ضيفه يهرعون:

﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾﴾:

﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ...﴾[(٤)]: يُساقون بعنف وتخويف حيث هم سيِّقة الشيطان، وهم ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ بما تسامعوا من

---

(١) سورة هود، الآية: ٨١.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٤٥.
(٣) سورة هود، الآية: ٨٢.
(٤) سورة هود، الآية: ٧٨.

الضيف الواردين ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ بالعثور على شُبّان بمختلف الجمال الرائع فهم إليهم هارعون.

فاجعة فاجئة بشعة منقطعة النظير في تاريخ الحيونات والشهوات الشاذة، المريضة العريضة، أهل مدينة يهرعون مستبشرين إلى بيت النبوة السامية ليرتكبوا أبشع الجرائم اللّاإنسانية بحق ضيف النبي الكريم، لا يكاد يتصور لولا وقوعه!.

فحتى لو كانت هذه العملية طبيعية أو شرعية، يختجل الإنسان أن يأتي بها جهاراً، وهؤلاء النحسون النجسون يتجمهرون للحصول عليها جهاراً وهي أبشع الشذوذات الجنسية المتخلفة، حالة من الارتكاس والحمأة الحيوانية عديمة النظير، هم يتلمظون عليها، هارعين مستبشرين إليها!.

وترى ﴿أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ﴾ هم كلهم رجالاً ونساءً وأطفالاً؟ طبعاً لا! إلا رجالاً يأتون الذكران، وهم كلهم أم جلهم لحد يعبر عنهم بـ ﴿أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ﴾ دون «من أهل المدينة».

فما هو دور لوط في هذه الجيئة الفجيعة، وليست له قوة ظاهرة قاهرة مدافعة؟:

﴿قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾﴾:

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾[1].

هنا يستحثُّ لوط حِسَّهم الإنساني، ويستثير رواسب المروءة والحياء ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ فللضيف حق تجب رعايته على أية حال، وللمضيف حق وجاه ضيفه ألّا يُفضح ولا يخزى، فحتى لو كانت هذه العملية النكراء

(١) سورة هود، الآية: ٧٨.

مباحة، فالتهجُّم على بيتي وحمل ضيفي على ما يكرهون محرمة في شِرعة الإنسانية، وكيف يأمرهم بتقوى الله وهم كافرون بالله؟ علّه لجوءٌ إلى أقل قليل من معتقدهم بالله، إنه الله مهما كان له شركاء، وهذه العملية محرمة في شرعة الله وفي شرعة الناس، فلا أقل من أنكم من الناس، لكم ما لسائر الناس من عطف إنساني وسنة متبعة عند الناس، ولا أقل أنكم تعترفون بالله الذي حرم هذه العملية النكراء ﴿فَلَا تَفْضَحُونِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ﴾!

﴿قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ (٧٠)﴾:

﴿قَالُوا. . .﴾ وهم يؤنبون لوطاً بدل أن يتأنبوا، كأنما هو الجاني إذ خالف مناهيهم ومنها ﴿عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ فالواو هنا تعطف إلى محذوف من قبيل المذكور: ألم ننهك عن الأمر والنهي فينا، وعن التطهُّر بيننا وعن ﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ الذين نرغب فيهم ضيوفاً لك وسواهم أن تمنعنا عنهم، ونهيناك أن تضيف أحداً من العالمين حتى لا نهرع إليهم عندك، إذاً فأنت السبب في هذه الهجمة الجماهيرية إذ هيأتَ لها جوها، فأنت أنت المقصر في هذا البين ونحن الواصلون هنا إلى بغيتنا!.

﴿قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (٧١)﴾:

﴿بَنَاتِي﴾ طبعاً هن من صلبه، دون تجوّز في التعبير أن يريد بنات المدينة كلهن، أو الخليات من الأزواج، وتأكيداً للحقيقة قولهم ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾[1] فإنهم لم يكونوا ليؤمنوا أن أهل المدينة ولده تنزيلياً كما قيل حتى تكون بناتها بناته حسب هذا القيل، إذاً فهن بناته صلبياً دون ريب.

ثم ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾[2] تعني إن كنتم ولا بد فاعلين فعل الجنس فهؤلاء بناتي وقد خلقهن الله لحظوة الجنس!.

---

(١) سورة هود، الآية: ٧٩.

(٢) سورة يوسف، الآية: ١٠.

وترى لوط النبي يعرض بناته ليفجر بهن الفجرة؟ عرضاً لما هم عنه معرضون!: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾[١]؟.

كلا! إنه عرض يلائم عِرض النبوة السامية في ذلك المسرح المُحرج المُهرج، فحتى لو كان عَرضاً للسفاح لكان أهون مما هم يريدون من اللواط ولكنه - بطبيعة الحال - عَرض للنكاح: ﴿هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ . . .﴾[٢]. ولا طهارة في السفاح فضلاً عن كونه أطهر؟، اللهم إلّا أن يعني من «أطهر» هنا أدنى حرمة ودناءة، والتخفيف عن الحرمة هو من واجبات الداعية، وهو يعلم إنهم لا يأتون إلّا حراماً لواطاً أم سفاحاً لا حلالاً ونكاحاً.

ثم إنكاح المسلمة للكافر وإن كان محرماً في شرعة الإسلام، ولكنه كان محللاً قبلها، بل وفي بداية الإسلام قبل الهجرة وقد زوج النبي ﷺ بنته من أبي العاص بن الربيع وهو كافر قبل الهجرة!، ثم حرم بآية البقرة ﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا﴾[٣] وقد تلمح له آية الممتحنة ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾[٤] بالأولوية القطعية في تزويج المؤمنة بالكافر.

وحتى لو كان محرماً في شرعة إبراهيم - ولوط من أمته - لكان نكاحاً محرماً تكليفياً لا وضعياً وهو أدنى حرمة من السفاح، كما السفاح أدنى من اللواط، وفي دوران الأمر بين محظورين يؤخذ بأخفهما، ولا ريب أن بناته أم سائر البنات المؤمنات هن أخف حرمة على أية حال من اللواط[٥] ومما يلمح له عرض البنات للذين يريدون اللواط حلية إتيان النساء من أدبارهن

---

(١) سورة هود، الآية: ٧٩.
(٢) سورة هود، الآية: ٧٨.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٢١.
(٤) سورة الممتحنة، الآية: ١٠.
(٥) تفصيله إلى سورة هود فلا نعيد.

ولا ناسخ لها في القرآن[١] والسنة ليست لتنسخ القرآن، ولا فرق بين حكم القرآن صراحاً إسلامياً، أم نقلاً عن شرايع سابقة، في عدم تقبُّل النسخ، إلّا أن ينسخه القرآن نفسه، ولا نسخ لجواز إتيان النساء من أعجازهن، وقد نُسخت حلية التناكح بين المؤمنة والكافر، فآية لوط - إذاً - منسوخة من هذه الجهة، كما نسخت حلية التناكح بين مؤمن ومشركة، فآية امرأة نوح وامرأة لوط منسوخة من هذه الجهة.

وعلى أية حال إنه هتاف للفطرة الإنسانية مهما كانت دخيلة غير سليمة لعلها تستيقظ في هذا العرض لِعرض النبوة السامية.

ولكنما القوم المرضى هم غارقون في سعارهم وشعارهم المتهتك اللعين، ولحد القول:

﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝٧٢﴾:

فهم لا يفيقون ولا يسمعون هواتف الفطرة، وعواطف الإنسانية، والشرعة الإلهية، لا! وحتى الفطرة الحيوانية السليمة، دائبون في سكرتهم، غارقون في سعرتهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾ تشبيهاً للمتلدد في غمرات الغي، بالمتردد في غمرات السكر، حيث يترددون في غيهم، ويتسكعون في ضلالهم!.

﴿لَعَمْرُكَ﴾ هنا قسماً بحياة الرسول الأعظم ﷺ يخصه في سائر القرآن دون سائر النبيين[٢] فهو فضيلة له خاصة لا يدانيه فيها ولا يساميه أحدٌ من العالمين، ولا نجد قَسماً إلهياً في القرآن بهذه الدرجة السامية إلّا «وربك» فإنها فوقه بغير حساب.

---

(١) راجع آية الحرث في البقرة حيث رجحنا فيها الحرمة.

(٢) الدر المنثور ٤ : ١٠٢ أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: ما حلف الله بحياة أحد إلا بحياة محمد قال: لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون وحياتك يا محمد!.

﴿لَعَمْرُكَ﴾ وأنت في أعلى عليين ﴿إِنَّهُمْ﴾ وهم في أسفل سافلين ﴿لَفِى سَكْرَتِهِمْ﴾ بسعار حيواني، وثورة جنسية متخلفة في أسفل دركات البهيمية ﴿يَعْمَهُونَ﴾: يترددون حائرين مائرين.

وقد يعني العَمر فتحاً ما هو أوسع من العُمر ضماً، إنه حياته ﷺ في كافة النشآت وليس لها انقطاع، فإنه ممن شاء الله ألّا يصعق في الصعقة العامة: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾[1].

أترى بعدُ أنه خطاب للوط عليه السلام ولم يخاطَب إمامه إبراهيم عليه السلام هكذا ولا إمامهما محمد ﷺ! فلعمره ﷺ إنه ليس ﴿لَعَمْرُكَ﴾ إلّا له، حيث الخطابات القرآنية هي بطبيعة الحال موجهة إلى الرسول ﷺ إلّا بقرينة قاطعة هي هنا فاقدة، بل ولا لمحة هنا لخطاب غيره، فلم يقل ﴿قَالُوٓا۟﴾ حتى يكون الخطاب من الملائكة وهو بطبيعة الحال في هذا المجال للوط عليه السلام وإنما ﴿لَعَمْرُكَ﴾ دون «قال - أو - قالوا».

وقد بدأت الإنباتات موجهة إليه ﷺ من ذي قبل ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ...﴾ ﴿وَنَبِّئْهُمْ...﴾ وكل ما هنالك فيما بعد هي مواد الإنباتات للرسول ﷺ وإلى قوله تعالى ﴿لَعَمْرُكَ﴾ فأين لوط ومن فوق لوط في ذلك المسرح مخاطباً بـ﴿لَعَمْرُكَ﴾؟!.

وما يصنع لوط بهؤلاء السكارى العمهين ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ...﴾ ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾[2]:

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٦٨.
(٢) سورة هود، الآيتان: ٨٢، ٨٣.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾﴾:

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ بعدما أسرى بأهله بقطع من الليل ﴿مُشْرِقِينَ﴾ داخلين هؤلاء الحماقى في شروق الشمس، وآل لوط عنهم بعيدون لا يرون العذاب ولا يحسونه!.

فهنالك ﴿ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ عذاباً في البداية ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ تدميراً كاملاً عن بكرتها، فما أبقت الصيحة عالياً إلا أسفله، ثم ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ - فهل ترى لهم من باقية؟.

وهذه الصيحة نموذجة يسيرة من صيحة الإماتة في قيامة التدمير، تجعل عالي المدينة سافلها، ولكي لا تبقى منهم باقية ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ وكما في أصحاب الفيل وإضرابهم من أهل السجيل.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾:

الوسْم هو التأثير، والسمة هي الأثر، فـ «المتوسمين» هم المتأثرون بتأثير، الناظرون المتفكرون المعتبرون، والمتفرسون[1] المتبصرون «فأول

(١) الدر المنثور ٤ : ١٠٣ - أخرج البخاري في تاريخه والترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم وابن السني وأبو نعيم معاً في الطب وابن مردويه والخطيب عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله ﷺ : اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله ثم قرأ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٥] قال: المتفرسين. وفيه أخرج الحكيم الترمذي والبزاز وابن السني وأبو نعيم عن أنس قال قال رسول الله ﷺ : إن لله عباداً يعرفون الناس بالتوسم.
وفي نور الثقلين ٣: ٢٤ عن بصائر الدرجات عن أبي جعفر عليه السلام قال: ليس مخلوق إلا وبين عينيه مكتوب مؤمن أو كافر وذلك محجوب عنكم وليس محجوباً عن الأئمة من آل محمد ﷺ ثم ليس يدخل عليهم أحد إلا عرفوه مؤمن أو كافر ثم تلا هذه الآية: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٥]. ورواه مثله عن أبي عبد الله عليه السلام : وفي آخر عنه عليه السلام قال: نحن المتوسمون والسبيل فينا مقيم.

المتوسمين رسول الله ﷺ ثم أمير المؤمنين عليه السلام من بعده ثم الحسن والحسين والأئمة من ولد الحسين عليهم السلام إلى يوم القيامة...»[(١)].

---

(١) نور الثقلين ٣: ٢٤ عن عيون أخبار الرضا عليه السلام بسند عن الحسن بن الجهم قال: حضرت مجلس المأمون يوماً وعنده علي بن موسى الرضا عليه السلام وقد اجتمع الفقهاء وأهل الكلام من الفرق المختلفة فسأله بعضهم فقال: يا بن رسول الله ﷺ بأي شيء تصح الإمامة لمدعيها؟ قال: بالنص والدليل، قال له: فدلالة الإمام فيما هي؟ قال: في العلم واستجابة الدعوة، قال: فما وجه إخباركم مما يكون؟ قال: ذلك بعهد معهود إلينا من رسول الله ﷺ قال: فما وجه أخباركم مما في قلوب الناس؟ قال له: أما بلغك قول رسول الله ﷺ: اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله على قدر إيمانه ومبلغ استبصاره وعلمه، وقد جمع الله للأئمة مناماً فرقه في جميع المؤمنين وقال عز وجل في كتابه العزيز: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٥] فأول المتوسمين رسول الله ﷺ ثم.. قال: فنظر إليه المأمون فقال له: يا أبا الحسن زدنا مما جعل الله لكم أهل البيت، فقال الرضا عليه السلام إن الله تعالى قد أيدنا بروح منه مقدسة مطهرة، ليست بملك، لم تكن مع أحد ممن مضى إلا مع رسول الله ﷺ وهي مع الأئمة عليهم السلام منا تسددهم وتوفقهم وهو عمود من نور بيننا وبين الله تعالى.

وفيه عن معاني الأخبار للصدوق - الهلالي أمير المدينة يقول: سألت جعفر بن محمد فقلت له: يا بن رسول الله ﷺ في نفسي مسألة أريد أن أسألك عنها قال: إن شئت أخبرتك بمسألتك قبل أن تسألني وإن شئت فاسأل - قال فقلت له: يا بن رسول الله ﷺ وبأي شيء تعرف ما في نفسي قبل سؤالي عنه؟ قال: بالتوسم والتفرس أما سمعت قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٥] وقول رسول الله ﷺ: اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله.

وفيه عن تفسير العياشي عن جابر بن يزيد الجعفي قال قال أبو جعفر عليه السلام بينما أمير المؤمنين عليه السلام جالس بمسجد الكوفة قد احتبى بسيفه وألقى برنسه وراء ظهره إذ أتته امرأة مستعدية على زوجها فقضى للزوج على المرأة فغضبت فقالت: لا والله ما هو كما قضيت، لا والله ما تقضي ولا تعدل بالرعية، ولا قضيتك عند الله بالمرضية قال: فنظر إليها أمير المؤمنين عليه السلام فتأملها ثم قال لها: كذبت يا جرية يا بذية، أياً سلسلع أياً سلفع، أياً التي تحيض من حيث لا تحيض النساء، قال: فولت هاربة وهي تولول وتقول: يا ويلي ويلي ويلي ثلاثاً، قال فلحقها عمرو بن حريث فقال لها: يا أمة الله أسألك، فقالت: ما للرجال والنساء في الطرقات؟ فقال: إنك استقبلت أمير المؤمنين علياً بكلام سررتيني به ثم قرعك أمير المؤمنين بكلمة فوليت مولولة؟ فقالت: إن ابن أبي طالب والله استقبلني فأخبرني بما هو كتمته من بعلي منذ وليعصمتي، لا والله ما رأيت طمثاً من حيث يرينه النساء، قال: فرجع عمرو بن حريث إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال له: يا أمير المؤمنين عليه السلام ما نعرفك بالكهانة، فقال =

والتوسم فرع الإيمان والتقوى، فهو درجات كما الإيمان درجات ولحد القمة المحمدية ﷺ.

فالتوسم في وجه عام هو التفرس للسر من العلن، وليس ليعلن لكل أحد، وإنما لمن ينظر بنور الله من المتفرسين، فالسيما وسمٌ للمتوسمين كما يُعرف الفقراء غير السائلين: ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾[(١)] وكما يعرف غير المؤمنين في لحن القول: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾﴾[(٢)] كما ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَٰهُمْ ۚ﴾[(٣)] و﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ﴾[(٤)]. فكل من سيما الخير وسيماً الشر لأهليهما بارزة للمتوسمين، وقد يتفرس المتوسمون دون رؤية إلى سيماهم، وذلك اسمى التوسم لأسمى المتوسمين ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾.

وتلك بصيرة لمن يخرق حجب النور بعد خرقه حجب الظلمات، فليس جدار الظاهر حاجباً له عن رؤية الباطن، والتوسمات درجات حسب الدرجات، كما الغفلات دركات حسب الدركات.

= له: وما ذلك يا بن حريث؟ فقال له: يا أمير المؤمنين إن هذه المرأة ذكرت أنك أخبرتها بما هو فيها وإنها لم تر طمثاً من حيث تراه النساء؟ فقال له: ويلك يا بن حريث إن الله تبارك وتعالى خلق الأرواح قبل الأبدان بألفي عام وركب الأرواح في الأبدان فكتب بين أعينها كافر ومؤمن وما هي مبتلاة به إلى يوم القيامة ثم أنزل بذلك قرآناً على محمد ﷺ فقال: إن في ذلك لآيات للمتوسمين، وكان رسول الله ﷺ المتوسم ثم أنا من بعده ثم الأوصياء من ذريتي من بعدي، إني لما رأيتها تأملتها فأخبرتها بما هو فيها ولم أكذب.

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٧٣.
(٢) سورة محمد، الآيتان: ٢٩، ٣٠.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٤٦.
(٤) سورة الفتح، الآية: ٢٩.

ثم ﴿ذَٰلِكَ﴾ هنا هو الأمر البعيد المدى، عالي الصدى، وهو مثنّى البشرى، بشرى الغلام العليم لإبراهيم، وبشرى العذاب العظيم على قوم لوط المجرمين، آيةٌ لتحقيق الحق، وآية لإبطال الباطل، وفيها آيات عقلية وفطرية وواقعية، يتفرسها المتوسمون على قدر أوعيتهم بوعيهم، وواقعية الآيات في بشرى إبراهيم وبشرى العذاب، واقعة بسبيل مقيم.

﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾:

ففي إبراهيم نسله الميمون من ولديه إسماعيل وإسحاق، ولا سيما النسل المحمدي الإسماعيلي، ثم سائر الرسل الإبراهيميين من إسحاق ويعقوب.

فهذه الآية المباركة منذ إبراهيم مستمرة على مدار الزمن الرسالي، مقيمة بسبيل الرسالات وإلى القايم المهدي عليه السلام الذي يحمل كافة الرسالات ويطبقها في دولته المباركة العالمية.

وقد يروى عن أئمة الهدى عليهم السلام: «نحن المتوسمون والسبيل فينا مقيم»[(١)] وهو السبيل الرسالي مهما لم يكونوا هم من المرسلين، و«لا يخرج منا أبداً»[(٢)] إذ لا نبي بعد محمد ولا أئمة بعدهم فالى أين يخرج ذلك السبيل؟ و«السبيل طريق الجنة»[(٣)] إذ لا سبيل إليها إلّا دعوة الرسالة والولاية.

---

(١) نور الثقلين ٣: ٢٢ عن أصول الكافي أحمد بن مهران عن عبد العظيم بن عبد الله الحسني عن ابن أبي عمير قال أخبرني أسباط بياع الزطي قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام فسأله رجل عن قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ [الحجر: ٧٥-٧٦] قال: . . .

(٢) المصدر بسند عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية فقال: هم الأئمة وإنها لبسبيل مقيم قال: لا يخرج منا أبداً.

(٣) المصدر عن أبي عبد الله عليه السلام قال: نحن المتوسمون والسبيل فينا مقيم، والسبيل طريق الجنة.

وأما الآيات في قوم لوط، ومنها العلامات الدالات على واقع الواقعة المزمجرة المدمرة، من بقايا الآثار ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ﴾ للعابرين ﴿مُّقِيمٍ﴾ سبيل هو مقيم لم ينمح بعد ولم يعف أثره، فالذين يمرون بين الحجاز والشام يشاهدون تلك الآيات، فإن قرى لوط هي في طريق مطروق بينهما، والسبيل إلى الحجاز مقيم ما قام الإسلام، وهي بنفس السبيل.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾:

هناك «في ذلك آيات للمتوسمين» وهنا ﴿لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ علّه حيث التوسم ظرف للتعرُّف إلى آيات وهو لبالغي الإيمان، وأما الإيمان - فقط - أياً كان، فلأهله «آية»: إن الله ﴿يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾[(١)].

ولكنما «المتوسمين» تشمل كافة المؤمنين، لأنهم درجات كما هم، إذاً فـ «آيات» هي واقع العلامات، و«آية» هي الدالة تبشيراً وإنذاراً مهما قلت أو كثرت، تعددت أم تفردت.

﴿وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾﴾:

﴿وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾[(٢)] ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لْـَٔيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾[(٣)] ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾﴾[(٤)]، فأصحاب الأيكة هم من قوم شعيب فـ «إن مدين وأصحاب الأيكة أمتان بعث الله إليهما شعيباً»[(٥)] والأيكة واحدة الأيك وهو

(١) سورة الأنفال، الآية: ٧.
(٢) سورة ق، الآية: ١٤.
(٣) سورة الشعراء، الآيات: ١٧٦-١٧٨.
(٤) سورة الشعراء، الآيتان: ١٨٩، ١٩٠.
(٥) الدر المنثور ٤: ١٠٣ أخرج ابن مردويه وابن عساكر عن ابن عمرو قال قال رسول الله ﷺ إن مدين وأصحاب الأيكة..

الشجر الملتف بعضه ببعض، إذ كانوا يسكنون في بقعة كثيفة الأشجار ومتلفتها، وقد ذكر مدين في آيات عشر ولم يذكر أصحاب الأيكة إلّا في أربع دون أن يذكر هنا شعيب إلّا هنالك مما يدل على أن المحور الرئيسي لدعوته هم مدين وعلى هامشهم أصحاب الأيكة، ولكلٍّ عذاب خاص، فأولاء لهم ﴿عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ﴾ وهؤلاء اخذتهم الصيحة.

وعل «ان» هنا شرطية أم وصلية ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٖ مُّقِيمٍ﴾ - ﴿وَإِن كَانَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ لَظَٰلِمِينَ﴾ فسبيلهم كقوم لوط مقيم ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾ كما من أولاء «وأنهما» معاً ﴿لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ﴾ وهو السبيل الممر، فهما في سبيل واحد بين الشام والمدينة وهذا «إمام مبين» ثم إمام في الأخرى هو كتابهم الذي يؤتونه بشمائلهم، وهو رسلهم الذين يُعرضون عليهم وعلى كتاباتهم، وهو أئمة الضلال: ﴿يَوۡمَ نَدۡعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمۡۖ﴾(١) وكل ذلك مبين في حقه وباطله، في أولاه وأخراه.

﴿وَلَقَدۡ كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡحِجۡرِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٨٠﴾:

الحجر اسم واد كان يسكنه ثمود قوم صالح، فهم ثمود المذكورون في القرآن (٢٦) مرة، مما يدل على مدى طغيانهم وعذابهم، فلذلك تتسمى هذه السورة باسم واديهم دون الطغاة الآخرين المذكورين فيها! وكيف هنا وفي أصحاب الأيكة «كذب المرسلين» ولكلٍّ رسول واحد معروفٌ؟ لأنهم كانوا مكذبين بالرسالة الإلهية عن بكرتها، كانت مع شعيب أم صالح أمّن هو، إذاً فتكذيبهم برسول واحد تكذيب المرسلين أجمعين، وهناك بين المكذبين من يصدقون رسولاً أم رسلاً ويكذبون آخرين.

ولأن الرسالة الإلهية ذات طبيعة وسنة واحدة، ففي الحق تصديق بعض وتكذيب بعض لا يساعد حق الرسالة، فالمؤمنون ببعض وهم كافرون

(١) سورة الإسراء، الآية: ٧١.

بآخرين، في الحق هم كافرون بالكل، مهما كانوا حسب الظاهر مصدقين بمن يشتهون.

ولكنما الكفر الصراح بأصل الرسالة هو أنحسه وأنجسه كما في أصحاب الأيكة وأصحاب الحجر، ولذلك يفرد تكذيبهم المرسلين بالذكر، دون المصدقين بعضاً.

﴿وَءَاتَيْنَاهُمْ ءَايَاتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾﴾:

والإعراض عن آيات الرسالة إعراضٌ عن الرسالة ككل دونما تبعيض، و﴿ءَايَاتِنَا﴾ هنا تعني خاصة الآيات التي تصلح لهم وتُصلحهم دون آيات الرسالات كلها، أم إن آية واحدة لرسالة هي آيات الرسالات كلها، لأنها كلها ذات دلالة واحدة، مهما اختلفت صورها، حيث السيرة واحدة.

﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾﴾:

حيث كانوا يسكنون غيراناً مصطنعة زعماً منهم أنهم آمنون عن بأس الله ﴿أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾﴾[1].

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾:

لمحة لامعة خاطفة، من الأمن في الغِيران الصلبة في صلب الجبال، إلى الصيحة المصبحة المدمرة المزمجرة، دون أن يغني عنهم ما كانوا يكسبون من حياد وحائطة..

إنها مما تلمس القلوب لمسة عنيفة، وتذكر أصحاب القلوب أن كل شيء لا محالة ذاهب ضائع، فلا وقاية من بأس الله إلّا وقاية تقوى الله.

(١) سورة الشعراء، الآيات: ١٤٦-١٤٩.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾﴾:

هنا حصر للكون كله المعبر عنه دوماً بالسماوات والأرض - أو - وما بينهما - حصر له بسبب الحق ومصاحبته مصدراً وصدوراً وغاية، فلولا أن الساعة آتية لكان الخلق لعباً وباطلاً ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾[1] ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟

(١) سورة الدخان، الآيتان: ٣٨، ٣٩.

﴿الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾[1].

فللخلق غاية لا بد وأن ينتهي إليها وهو الساعة ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾ لا محالة وإلّا لبطل الخلق وكان لعبة جارفة ظالمة، مجازفة غير هادفة، وجملة القول هنا أن الصنع الحكيم وصنع الحكيم لزامه الغاية الحكيمة، فليس خلق السماوات والأرض وما بينهما دون غاية حكيمة، ولنأخذ مثالاً ماثلاً لنا أنفسنا فإننا خلقنا في أحسن تقويم، فليكن في خلقنا وما خلق من أجلنا غاية حكيمة، وهي هنا بطبيعة الحال التكامل بالاختيار، ثم ليكن هناك حياة أخرى ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾[2] لولاها لبطلت الغاية الأولى من السعي للكمال، واختلت العدالة الإلهية التي من قضاياها الجزاء العدل!.

وهنا تقرير غرير في تصميم الكون كله، أن لم يصاحب ذلك التصميم بخداع أم باطل سواه، فأي باطل في الكائنات طارىء بسوء الاختيار ممن يسيء منهم، وليس عنصراً أصيلاً من عناصر التصميم في الخلق الأوّل.

فهنالك «الحق» كله في أصل الخلق، في قوامة العناصر المتألّف منها، والنواميس التي تحكمها، دون فوضى أو تزعزع واضطراب.

و«الحق» في التدبير، تكويناً وتشريعاً، والحق في المسير والمصير، وكلٌّ يظهر عند الساعة المصير، ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ...﴾[3].

فمهما خلط حق الخلق بباطل من بعض الخلق ففي الساعة يخلص الحق من الباطل ويُقتص من أهل الباطل.

فـ ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾ والجزاء فيها لا محالة آت ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ ولا تك في ضيق مما يمكرون، فلولا الساعة بعد الدنيا لكانت

---

(١) سورة ص، الآيتان: ٢٧، ٢٨.

(٢) سورة طه، الآية: ١٥.

(٣) سورة غافر، الآية: ٥٩.

المكافأة هنا فرضاً لزاماً، وعراكاً دواماً، فزعزعة في الحياة، وغصة دائبة، إذ لا يسطع المظلومون أن ينتصروا من الظالمين، وإذا الظلم لا يطاق و﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾[1] حيث يدمر الظالمين قبل الساعة، فالعدل هنا وفي قيام الساعة هو لزام خلق السماوات والأرض بالحق، فكما أنه لولا الساعة لكان الخلق لعباً باطلاً، كذلك لولا عذاب الاستئصال في قارعة الأحوال والأهوال لكان باطلاً لعباً.

فلأن الساعة آتية فاصفح الصفح الجميل، جميلاً في المواجهة وهو «العفو من غير عتاب»[2] فقد يعفو بعتاب وليس صفحاً، لذلك ﴿فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾[3] وقد يصفح ولا يغفر ﴿وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[4].

فالصفح وسط بين الأمرين، إذ لا يغفر عن مشركي مكة حينذاك وهم ظالمون، وإنما يصفح عنهم جملاً بعفوٍ مؤقّت من غير عتاب، وجميلاً في الحفاظ على الأهم تقية، حيث السورة مكية ولا سبيل هناك لأي انتقام مهما كان صالحاً لزاماً، فالجميل في التقية قبيح في غيرها، كما الصفح تقيةً في مكة هو قبيح في المدينة إذ لا تقية.

ولماذا ﴿فَٱصْفَحِ...﴾ لـ ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ فقد رباك لحمل هذه الرسالة السامية الأخيرة وهو الخلاق العليم، يعلم ماذا خلق، ولماذا خلق، وكيف يحافظ على خلقه، فمما يحافظ على كيانك الرسالي في مكة

---

(١) سورة القيامة، الآية: ٣٠.

(٢) نور الثقلين ٣: ٢٧ عن عيون أخبار الرضا عليه السلام حديث طويل وفيه قال في الآية: العفو من غير عتاب وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه وابن النجار عن علي بن أبي طالب عليه السلام في الآية قال: الرضا بغير عتاب.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٠٩.

(٤) سورة التغابن، الآية: ١٤.

﴿ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ﴾ ثم في المدينة وقد قويت شوكة الإسلام، فللجميل جمال آخر منه حرب الأعداء الذين لا ينتهون.

ولعل «الصفح» هنا دون «صفحاً» للتدليل على أن الصفح في العهد المكي لزام على أية حال، فلا يكفي «صفحاً» في بعض الأحوال، فالفترة المكية هي فترة التقية الواقية لأصل الدعوة وكيان الداعية، ثم في المدينة صفحاً جميلاً أم انتقاماً جميلاً.

فآية السيف المدنية تبدل جمال الصفح تقية في مكة، إلى جلال الحرب، مهما كان الصفح في المواجهة دون تقية ثابتاً دون تبديل، ﴿فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ﴾ الصالح لهذه الرسالة والمرسل إليهم، دون سكوت عن الظالمين المصرين إلَّا في تقية حفاظاً على أهم الفرضين.

﴿فَٱصۡفَحِ...﴾ ولا تشغل قلبك بالحَنْق والحقد، فالحق لا بد أن يحق والباطل لا بد أن يزهق ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٨٦﴾﴾:

خلق ما علم وعلم ما خلق، دونما جهل أم فوضى جزاف، لا في تكوين ولا في تشريع.

فيا صاحب الرسالة السامية، صحيح أنك يضيق صدرك بما يمكرون وما يفتعلون، صداً عن الدعوة، واستئصالاً للداعية، ولكنا آتيناك قوة هي أقوى من كل محاولة:

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾:

فقد يختصر الحق كله ويُحتصر في ﴿سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ﴾ ففي صلة ذلك الإيتاء بخلق ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ...﴾ إن فيها إعلاناً صارخاً، إن القرآن هو العنصر الأصيل، وهو رأس الزاوية في الخلق كله، كما ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ

ٱلْإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝﴾[١] خير بيان لذلك الإعلان ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[٢]؟!.

فهنالك السماوات السبع والأرضون السبع، وهنا ﴿سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ وأين سبع من سبع؟.

فكما أنه لولا الساعة لبطل الخلق كله، كذلك لولا القرآن لبطل الخلق كله، لأنه هو الذي يعرِّف لنا المبدأ والمعاد وما بين المبدأ والمعاد، نسخة كاملة تدوينية عن كتاب التكوين تحلِّق عليه، وتوجّه إليه، إلى آيات آفاقية وأنفسية، استجاشة للقلوب لإدراكها، وترى ما هي ﴿سَبْعًا﴾ وما هي ﴿ٱلْمَثَانِى﴾ معطوفاً عليها ﴿وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾؟.

فهل أن ﴿سَبْعًا﴾ هي السبع الطوال[٣]؟ والآية مكية وهي كلها مدنيات، و﴿ءَاتَيْنَٰكَ﴾ دليل نزولها بمكة قبل آية المثاني! ثم ولا فضل لها على سائر القرآن يقتضي إفرادها بالذكر مقدماً على القرآن العظيم!.

أم هي القرآن كله لأنه ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ...﴾[٤] وليس القرآن سبعاً مهما كان مثاني! ثم هذه السبع من المثاني وليست هي المثاني ككل! والقرآن هو المثاني كلها! وأخيراً هو عطف للشيء على نفسه أن تكون ﴿سَبْعًا﴾ هي ﴿وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾!.

أم هي البطون السبعة في القرآن، الخاصة بالرسول ﷺ وذويه

---

(١) سورة الرحمن، الآيات: ١-٤.
(٢) سورة الرحمن، الآية: ١٣.
(٣) كما يروى عن ابن عمر وسعيد بن جبير في بعض الروايات ومجاهد وهي: البقرة - آل عمران - النساء - المائدة - الأنعام - الأعراف - الأنفال والتوبة معاً، قالوا: وسميت هذه السور مثاني ولأن الفرائض والحدود والأمثال والعبر ثنيت فيها!..
(٤) سورة الزمر، الآية: ٢٣.

المعصومين؟ وهو غير صحيح ولا فصيح، فهنا ﴿سَبْعًا﴾ والبطون «سبعة»! ومع الغض عن الغلطة الأدبية فالفصيح - إذاً - «القرآن العظيم وسبعةً منه»!.

لا ريب أن ﴿سَبْعًا﴾ هي الآيات، حيث ﴿ٱلْمَثَانِى﴾ هي القرآن كله بدليل آية الزمر: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ...﴾[١] ولا مثاني في القرآن إلّا هذه التي تعني القرآن كله.

فـ ﴿سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾ هي آيات سبع من القرآن المثاني، ولا سبع في القرآن منضَّدة تليق بهذه المكرمة البارعة إلّا فاتحة الكتاب[٢] كما تواتر بها الحديث من طريق الفريقين، وكما أن لهذه السبع منزلتها بين سائر القرآن، كذلك مثانيها، وقد ذكرنا سبعاً من مثانيها في تفسير السبع المثاني: فاتحة الكتاب، فلا نعيد.

ولأن مثانيها تفوق سائر المثاني نراها تتسمى في الروايات بـ «السبع المثاني» والنص هنا ﴿سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾ وإن كانت ﴿ٱلْمَثَانِى﴾ علّها تعم القرآن وسواه مما يثنى، وهذه السبع خير ما يثنى قرآناً وسواه، فلا تعني ﴿سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾ إلّا سبع الفاتحة وكما تواتر عن النبي ﷺ «فاتحة الكتاب هي السبع المثاني»[٣].

فـ ﴿وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ قريناً وقسيماً لما آتاه الله يلمح أن السبع أعظم القرآن وأقواه مثانيَ، وهو الحق يقال أنها تجمع القرآن كله محكمة مختصرة، والقرآن العظيم تفسير وتفصيل لها عظيم.

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٢٣.

(٢) هو قول علي وعمر وابن مسعود وأبي هريرة والحسن وأبي العالية ومجاهد والضحاك وسعيد ابن جبير وقتادة، وأئمة أهل البيت أجمع.

(٣) منها ما في الدر المنثور ٤: ١٠٥ - أخرج الدارمي وابن مردويه عن أبي بن كعب قال قال رسول الله ﷺ: أقول: وقد فصلنا البحث حول المثاني وأخرجنا شطراً من أحاديثها في سورة الحمد فراجع.

و﴿ءَاتَيْنَٰكَ﴾ في جمعية الصفات، وبَعد تأكيدي: لقد، تجمع في السبع والقرآن العظيم كافة العطيات الربانية لأعلى قممها وأعلى قيمها!.

ولو كانت للرسول ﷺ عطية مثلها لردفت بها، أم لو كانت فوقها لفضلت عليها، لكنها عطية منقطعة النظير في كيان البشير النذير وعلى حد قوله ﷺ: «ومن أوتي القرآن فظن أن أحداً من الناس أوتي أفضل مما أوتي فقد عظم ما حقر الله، وحقر ما عظم الله»[1] وإيتاؤه ليس فقط نزوله، بل وقراءَة وتفهماً وإيماناً وتطبيقاً ونشراً، وفي كل ذلك يربو القرآن على ما سواه على مرّ الزمن، ولأن فيه تبيان كل شيء، وليس في سواه إلّا تبيان لبعض الشيء مهما كان وحياً أو سواه.

و﴿ٱلْمَثَانِي﴾ جمعٌ علّها لمثنى: المعطف، فهي المعاطف، يعطف بعضه إلى بعض، وينطق بعضه ببعض، وكما يعطف الفِطَر والعقول إلى نفسه، وهو متعاطف مع الكون كله، وأثناء الوادي معاطِفه وأجراعُه، وكل شيءٍ عطفته فقد ثنيته.

أم لمثنى الاثنين لما يثنى ويتجدد حالاً بعد حال من فوائده «لا يعوجُّ فيقام ولا يزيغ فيستعتب ولا تنقضي عجائبه» وكما تتكرر عجائبه لفظياً ومعنوياً بقمة الإعجاز فيهما، وكما هو مثنى النزول محكماً ومفصلاً.

أم من الثناء، فإن القرآن ثناء على الله، وثناء على أهل الله، وثناءٌ ممن يتلوه حق تلاوته، ومثلث المثاني صادق في تلك المثاني.

و﴿سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾ وهي أم الكتاب لها رؤوس الزوايا من معاني المثاني، عطفاً وثناءً وتكراراً، في نفسها وبالنسبة للقرآن العظيم، ثم ومثاني أخرى ليست فيما سواها من القرآن.

---

(١) نور الثقلين ٣: ٢٩ عن أصول الكافي بسند عن أبي عبدالله عليه السلام قال قال رسول الله ﷺ: . . .

فالسبع المثاني آيات سبع تغلق أبواب الجحيم السبعة، ولأنها تقضي على الرذائل السبع، ويا للسبع من مكرمات في التكوين والتدوين، سماوات سبع وأرصنون سبع، وأيام الأسبوع السبعة كآيات آفاقية سبع، ومعها آيات أنفسية سبع[1] ثم الطواف بالبيت سبع والسعى سبع ورمي الجمرات سبع.

والسبع الثاني تحلق على المثاني الآفاقية والأنفسية والأحكامية، نسخة إجمالية عن كتابي التكوين والتدوين، منقطعة النظير بين المثاني كلها.

فلما أوتيت يا حامل لواء الحمد ﴿سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ ف :

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾:

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ... مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾[2].

ترى الرسول قد يمد عينيه إلى ما مُتِّعوا به رغبة فيه وطلباً له وهو أعبد العابدين وأزهد الزاهدين؟ كلا! ومد العينين هنا قد يعني استعجاباً من متاعهم أو استعظاماً لما أوتوا وهم كافرون، لا! ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾[3]. والرسول لم يكن ليمد عينيه بأي مدٍّ، رغبة أو استعظاماً، والنهي لا يدل على اقتراف سابق، فقد يكون تأكيداً لاستمرار الترك وليعلم الناس أنه تركٌ مفروض فيتبعوه في تركه.

أقصر نظرك على ما آتيناك ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ

---

(١) هي: الفطرة - العقل - الصدر - القلب - اللب - الفؤاد، ومع الكل الروح، وهذه هي وجوه الإنسانية الباطنة، ثم الوجوه الظاهرة هي الحواس الخمس، وإقامة الوجه للدين حنيفاً في آيتها تعني هذه الوجوه كلها بكل الوجوه.

(٢) سورة طه، الآيتان: ١٣١، ١٣٢.

(٣) سورة المؤمنون، الآيتان: ٥٥، ٥٦.

﴿وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[١] فـ ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ. . .﴾ ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾، فلا يمدن إليهم ومتاعهم نظرة اهتمام، أو نظرة استجمال أو تمنٍّ على أية حال، فإنه شيء زائل باطل، وهو معه الحق الباقي ﴿سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾!.

وليس القصد هنا اقتناع المحرومين بحرمانهم دون تعرض للمتميعين، حين تختل الموازين الجماعية وينقسم المجتمع إلى حارمين ومحرومين! وإنما القصد إلى معنى خاص في ذلك السياق بمكة التقية للحفاظ على كيان الدعوة والداعية والمؤمنين، والموازنة بين الحق الكبير والعطاء العظيم الذي أوتيه الرسول ﷺ والمتعة الصغيرة الحقيرة التي أوتوها! ومن ثم في المدينة القوة يتصدى لهم كما يجب، ودون طمع في مال أو منال على أية حال!.

وهنا ﴿أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ تقصر متاع الحياة على بعض الكفار دون بعض، والأزواج المُمَتَّعون أعم من أزواج الجنس ذكراً وأنثى، أم أزواج الاقتصاد، أو العقيدة كسائر الكفار فإنهم أزواج، فالكفر ملة واحدة، و﴿مَا مَتَّعْنَا بِهِۦ﴾ هي ﴿زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ من أعوان وبنين، أم دُولة المال أو دَولة الحال، أم أية زهرة دنيوية فانية، وذلك عزاء الله لرسوله العظيم وعلى حد قوله ﷺ: «من لم يتعز بعزاء الله تقطعت نفسه على الدنيا حسرات، ومن رمى ببصره إلى ما في يدي غيره كثر همه ولم يشف غيظه، ومن لم يعلم أن لله عليه نعمة إلّا في مطعم أو ملبس فقد قصر علمه ودنا عذابه، ومن أصبح على الدنيا حزيناً أصبح على الله ساخطاً. . .»[٢] «وكان ﷺ لا

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٢٨.

(٢) نور الثقلين ٣: ٣٠ عن تفسير القمي بسند عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ من لم يتعز. . . ومن شكى مصيبة نزلت به فإنما يشكو ربه، ومن دخل النار من هذه الأمة ممن قرأ القرآن فهو ممن يتخذ آيات الله هزواً، ومن أتى ميسرة فتخشع له طلب ما في يديه ذهب ثلثا دينه، وفيه عن تفسير العياشي عن حماد عن بعض أصحابه عن =

ينظر إلى ما يستحسن من الدنيا»[١].

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ لماذا ظلوا كافرين ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ هؤلاء القلة القليلة المؤمنة في مكة، الصابرة على كل أذى، المحاطة بكل لظى وشذى.

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ فهم الذين يحق عليهم أن يحزنوا لحالتهم الرديئة، ومسيرهم ومصيرهم الرديء، وأنت تعلم أنه قضية عدل الله لكل مسيء، وأن حق الساعة يقتضيه، فدعهم ومصيرهم، فذلك هو الحزن الممنوع، وهنالك حزن ممنوح هو أن يحزن على أن الله مولاه يُعصى، وهو قضية الإيمان، وليس هو حزناً عليهم حتى يدخل في نطاق النهي.

﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ هنا، وفي الشعراء ﴿... لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٢]، وطبعاً قضية الإيمان هي الإتباع ولا سيما في ذلك الظرف الحرج المرج.

والطائر يخفض جناحه لأفراخه تلطفاً بها وتعطفاً، فلا يطير عنها وإن في أحرج الحالات وأهرج المجالات، فمعناه هنا: ألِن كنفك لهم، ودُم على لطفك بهم ما دمت وداموا، تعبير عبير يمثل لطف الدعاية والرعاية، وحسن المعاملة ورقة الجانب في صورة محسوسة وسيرة مدروسة، لا تلفُّت منها، ولا تفلُّت عنها لأنها قضية الرسالة السامية الحانية.

﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾ أيَّ جناحٍ، وبأي خفض يُطمئِن إليك المؤمنين،

= أحدهما عليه السلام في الآية قال: إن رسول الله ﷺ نزل به ضيقة فاستسلف من يهودي فقال اليهودي: والله ما لمحمد ثاغية ولا راغية (هما الشاة والناقة) فعلى ما أسلفه؟ فقال رسول الله ﷺ إني لأمين الله في سمائه وأرضه ولو ائتمنتني على شيء لأديته إليك، قال: فبعث بدرقة (الرّس من الجلود) فرهنها عنده وأنزلت عليه هذه الآية.

(١) المصدر عن المجمع.

(٢) سورة الشعراء، الآية: ٢١٥.

الخائفين من بأس الكافرين. فلا يَطير طيرُك، ولا يهفو حلمك، ولا يطيش وقارك وقرارك، بل كن بهم لطيفاً رؤوفاً رحيماً كما كان ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1] مع ما كان يرى من بعضهم من جفاوة، فلم يكن يجابههم إلّا بكل حفاوة، وحتى بالنسبة لغير المؤمنين علّهم يؤمنوا ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ...﴾[2].

وهكذا كان معهم طيلة الحياة الرسالية دون أية فظاظة وغلظة وحتى بالنسبة لمن يستحقها! فضلاً عن ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[3]!.

﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾﴾:

و﴿إِنِّىٓ أَنَا﴾ تأكيد في بعدين، و﴿ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾ محلى باللام كحصر النذارة فيه أم حصره في النذارة، تأكيد ثالث، كأن لا شأن له إلّا النذارة وهو شأن الداعية أمام الكل، ثم هو بشير للمؤمنين.

وقد يعني ﴿ٱلْمُبِينُ﴾ هنا إضافة إلى إبانة الحق كما يحق، إبانته لنذارته بدعوة جاهرة باهرة دون تقية وستار، وكما تلمح له ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[4] إنه كان في تضييق وتقية في أصل الدعوة بداية الرسالة.

﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾:

﴿كَمَآ أَنزَلْنَا﴾ كأنها تشبيه إيتاء السبع المثاني والقرآن العظيم بما أنزل ﴿عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾: ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٢٨.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.
(٣) سورة الأنفال، الآية: ٦٤.
(٤) سورة الحجر، الآية: ٩٤.

﴿ٱلْمُقْتَسِمِينَ. . .﴾ أنزلنا عليك بما آتيناك، وأين إنزال من إنزال وأين مَنزل من مَنزل؟ ففي منزل القلب المحمدي خالصة النور، مشعة على العالمين، وفي منازل قلوب المقتسمين نارٌ! وترى ﴿ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾ هم - فقط - المشركون دون الكتابيين، لأن مكية السورة لا تناسب والتنديد بهم ولمّا يُبتلَى بهم المسلمون إذ لم يكونوا في مكة حاضرين؟ وذلك بيان لواقع مرير مضى منذ بداية الرسالات، ويستقبل حتى القيامة الكبرى! والقرآن يواجه عامة المكلفين في خطابات على نحو القضايا الحقيقية لمثلث الزمان! فقد يعرض أهل الكتاب في ذلك العرض العريض، ومعهم المشركون وجماعة من المسلمين، فكلٌّ من المقتسمين!.

فمن المشركين «رهط من قريش عضهوا كتاب الله فزعم بعضهم أنه سحر وزعم بعضهم أنه كهانة وزعم بعضهم أنه أساطير الأولين»(١).

وكيف أنزل القرآن عليهم كما أنزل على الرسول والمؤمنين؟ لأنه كتاب المكلفين كافة، مهما اختلف النزول «على» في درجات، فعلى الرسول وحياً دون حجاب، وعلى المرسل إليهم بواسطة الرسول ﷺ.

ومن أهل الكتاب هوداً أو نصارى مقتسمون «آمنوا ببعض وكفروا ببعض»(٢).

---

(١) الدر المنثور ٤: ١٠٦ - أخرج ابن أبي حاتم وابن المنذر عن مجاهد قال في الآية: وفي تفسير العياشي عن زرارة وحمران ومحمد بن مسلم عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام عن قوله: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ [الحجر: ٩١] قالا: هم قريش.

(٢) وفيه أخرج ابن إسحاق وابن أبي حاتم والبيهقي وأبو نعيم معاً في الدلائل عن ابن عباس أن الوليد بن مغيرة اجتمع إليه نفر من قريش وكان ذا سن فيهم وقد حضر الموسم فقال لهم: يا معشر قريش إنه قد حضر هذا الموسم وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا فاجمعوا فيه رأياً واحداً ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً فقالوا أنت فقل وأتم لنا به رأياً نقول به، قال: لا - بل أنتم قولوا لأسمع قالوا نقول كاهن، قال: ما هو بكاهن لقد رأينا الكهان فما هو بزمة الكهان ولا بسجعهم، قالوا: فنقول: مجنون قال: ما هو بمجنون =

ومن المسلمين مقتسمون رغم إسلامهم، عاملين ببعض وتاركين بعضاً، أم معتقدين ببعض، ومؤولين بعضاً يخالف آراءهم أم أهواءهم، أمّاذا من اقتسامات للقرآن.

وأما ﴿عِضِينَ﴾ فقد تكون جمعاً من أصل العُضو والعضو بمعنى الجزء من الكل، والتعضية هي تجزئة الأجزاء، أو من العَضة وأصلها عضهة وهي شجرة، إذاً فهي التشجير أن يجعل بعضه يشاجر وينافر بعضاً، أم هي الأكذوبات: نميمة وسحراً وكهانة وأساطير، وقد جعل القرآن عضين بكل معانيها من الفرق الثلاث.

فالمشركون اقتسموا القرآن - على حد زعمهم - فيما بينهم بافتراءات عدة كلها عضين: أكاذيب[1].

وأهل الكتاب آمنوا ببعض وكفروا ببعض وكما تهواه أنفسهم، فما وافق كتاباتهم صدقوه زعماً أنه منها، وما خالفها كذبوه زعم الافتعال، فقد جعلوا القرآن أجزاء مجزأة كالأعضاء المعضاة المتفرقة.

وفريق من المسلمين اقتسموا القرآن عضين، فمنهم من آمن ببعض وأوّل

= لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه ولا بحائحه ولا وسوسته، قال: فنقول شاعر قال: ما هو بشاعر لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر، قالوا فنقول: ساحر - قال: ما هو بساحر لقد رأينا السحار وسحرهم فما هو بنفثه ولا بعقده - قالوا: فماذا نقول؟ قال: والله إن لقوله حلاوة وإن عليه طلاوة وإن أصله لعذق وإن فرعه لجناء فما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا أعرف أنه باطل وأن أقرب القول أن تقولوا هو ساحر يفرق بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه وبين المرء وزوجته وبين المرء وعشيرته فتفرقوا عنه بذلك فأنزل الله في الوليد وذلك من قوله: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا - إلى قوله - سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ [المدّثر: ١١-٢٦] - وأنزل الله في أولئك النفر الذين كانوا معه: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ [الحِجر: ٩١] - أي: أصنافاً - ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الحجر: ٩٢-٩٣].

(١) الدر المنثور ٤: ١٠٦ - أخرج الطبراني في الأوسط عن ابن عباس قال سأل رجل رسول الله ﷺ قال: أرأيت قول الله: ﴿كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾ [الحِجر: ٩٠]؟ قال: اليهود والنصارى - قال: الذين جعلوا القرآن عضين؟ قال: آمنوا ببعض وكفروا ببعض.

بعضاً كما يهواه، ومنهم من آمن به عقائدياً وكفر ببعضه عملياً، ومنهم من آمن به كهالة قدسية تُقدَّس - فقط - ظاهرياً، وأما في الدراسة والتدبر فلا، كما الحوزات العلمية هكذا جعلوا القرآن عضين.

ومن المقتسمين المسلمين الذين جعلوا القرآن عضين من يقول بتحريفه لفظياً بزيادة أو نقصان أم في تأليفه وترتيبه، جعلاً خاطئاً مسنوداً إلى نفس آية العضين، خلافاً لنصوصٍ من القرآن الحكيم.

ومنهم من يحرفه معنوياً بغيةَ الوصول إلى آرائه وأهوائه، ومنهم... كل من يقتسم القرآن خلاف تقسيمه لفظياً أو معنوياً، ويبعضه ويشجره ضرباً للقرآن بعضه ببعض ونثره نثر الدقل فتصبح آياته المتلائمة كأنها متناقضة!.

﴿فَوَرَبِّكَ﴾ الذي رباك بـ ﴿سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ ﴿لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ دون إبقاء على أحد منهم مهما اختلفت دركاتهم في عضهاتهم للقرآن ﴿لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ... عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

وترى كيف ﴿لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾؟ ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾[1] إن السؤال المنفي هنا غير المثبت هناك، فهنا سؤال الاستعلام إذ ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾[2] فلماذا - إذاً - الاستعلام، وهناك سؤال التوبيخ والتبكيت وهو موجَّه على كل المذنبين إلّا من رحم الله.

فهنالك مسؤولية كبرى على كل هؤلاء المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين، أياً كان اقتسامهم له وعضههم إياه، فإنه أكبر ناموس رباني عبر الرسالات طول الزمان وعرض المكان، فأي مس من كرامته مس من كافة الكرامات الربانية.

وكما ﴿ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾ يُقتسمون إلى ثالوث المشركين والكتابيين وجماعة

(١) سورة الرحمن، الآية: ٣٩.
(٢) سورة الرحمن، الآية: ٤١.

من المسلمين، كذلك ﴿عِضِينَ﴾ بين تفرقه وتشجره للقرآن كله كما كان في نادي المشركين.

أم تبعيضاً لآياته كالكتابيين، وهما عضين عقائدي فضلاً عن العلمي والعملي.

أم تبعيضاً علمياً أو عملياً أم هما معاً كما في كثير من المسلمين، فالحوزات العلمية - في الأكثرية الساحقة - جعلوا القرآن عضين علمياً، حيث يختصون البحوث الحوزوية بغير القرآن جاعلين إياه وراءهم ظهرياً، أم يختصون آيات فقهية بالبحث دون سواها ويا ليت! أم آيات توافق نظرياتهم العلمية في بحوثهم الحوزوية دون سواها إلّا تأويلاً لها عطفاً للقرآن على الرأي.

وإذا كان المشركون والكتابيون حيث يقتسمون القرآن عضين وهم به كافرون - يسألون توبيخاً وتبكيتاً، فبأحرى أن يسأل المسلمون المقتسمون علمياً أو عملياً وهم به مؤمنون!.

وقد تلمح ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ أن مختلف الهزء بالقرآن ورسول القرآن من دركات جعل القرآن عضين.

﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (٩٤) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِءِينَ (٩٥) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٩٦)﴾:

ولمّا يُجعل القرآن برسوله عضين في مختلف دوائر السوء، وفي مطلع الدعوة القرآنية، ومولد الوحي ورسوله، لذلك ﴿فَاصْدَعْ...﴾.

والصدع هو الشق في الأجسام الصلبة، فقد يعني هنا - فيما يعني - شُقَّ أمواج الفتن بسفن النجاة، واترك التقية والاستخفاء في الدعوة إلى كل استجلاء وبهور.

أم هو مأخوذ من الصديع وهو الصبح، فيعني: بالغ في إظهار أمرك

على إمره، والدعاء إلى ربك، حتى يكون الدين في وضوح الصبح لا يشكك نهجه، ولا يُظلم فجُّه، وكما قال ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾.

فمنذ صادِع الأمر وبارِعه صدع بالأمر، ولمّا يصدع به منذ بداية الرسالة، إلّا بلاغاً في تقية وخفاء، ولا نرى في سائر القرآن مكية ومدنية أمراً بالصدع إلا هنا، مما يؤيد أنه بداية الدعوة المعلنة في مكة المكرمة، كما وردت به متظافرة الرواية(١).

ولئن قلت أين التقية والتخفّي في صدع الأمر، وقد أمر به في بادئ

(١) الدر المنثور ٤ : ١٠٦ - أخرج ابن جرير عن أبي عبيدة أن عبد الله بن مسعود قال: ما زال النبي ﷺ مستخفياً حتى نزل: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤] فخرج هو وأصحابه، وفيه أخرج ابن إسحاق وابن جرير عن ابن عباس في الآية قال: هذا أمر من الله لنبيِّه بتبليغ رسالته قومه وجميع من أرسل إليه ومثله عن ابن زيد.

أقول: وقد قدر زمن اختفاء الدعوة في أكثر الروايات بثلاث سنين، وفي بعضها بخمس كما في كتاب كمال الدين وتمام النعمة بإسناده إلى محمد بن علي الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: اكتتم رسول الله ﷺ مختفياً خائفاً خمس سنين ليس يظهر أمره وعلي عليه السلام معه وخديجة ثم أمره الله أن يصدع بما أمر فظهر رسول الله ﷺ فأظهر أمره وفي تفسير العياشي عن محمد بن علي الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: اكتتم رسول الله ﷺ بمكة سنين ليس يظهر وعلي معه وخديجة ثم أمره الله أن يصدع بما يؤمر وظهر رسول الله ﷺ فجعل يعرض نفسه على قبائل العرب فإذا أتاهم قالوا: كذاب امض عنا.

وفي أصول الكافي بسند متصل عن أبي جعفر الثاني قال قال أبو عبد الله عليه السلام سأل رجل أبي فقال: يا بن رسول الله ﷺ سآتيك بمسألة صعبة، أخبرني عن هذا العلم ما له لا يظهر كما كان يظهر مع رسول الله ﷺ قال: فضحك أبي عليه السلام وقال: أبى الله أن يطلع على علمه إلا ممتحناً للإيمان، كما قضى على رسول الله ﷺ أن يصبر على أذى قومه ولا يجاهدهم إلا بأمره، فكم من اكتتام قد اكتتم به حتى قيل له ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤] وايم الله أنه لو صدع قبل ذلك لكان آمناً ولكنه إنما نظر في الطاعة وخاف الخلاف، فلذلك كف، فوددت أن عينك تكون مع مهدي هذه الأمة والملائكة بسيوف آل داود بين السماء والأرض تعذب أرواح الكفرة من الأموات وتلحق بهم أرواح أشباههم من الأحياء، ثم أخرج سيفاً ثم قال: ها أن هذا منها، قال فقال أبي: إي والذي اصطفى محمداً على البشر، قال فرد الرجل اعتجاره وقال: أنا إلياس، ما سألتك عن أمرك وبي منه جهالة، غير أني أحببت أن يكون هذا الحديث قوة لأصحابك.

الأمر ﴿قُمْ فَأَنذِرْ...﴾(١) ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا...﴾(٢) ﴿إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾(٣) والقيام في الإنذار سبحاً طويلاً لا يلائم القليل القليل، فإنه ليس قياماً فضلاً عن الطويل!.

ثم ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾ دليل ثان على جاهرة الدعوة قبل ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾! وترى المشركين كيف جعلوا القرآن عضين قبل أن يقرأ عليهم فيعرفوه؟.

قلنا: القفزة في الدعوة الرسالية خلاف سنتها وطبيعتها، فلا بد وأن تتدرج حتى تستحكم عراها شيئاً فشيئاً، وليس القيام في المدثر والمزمل إلا لأصل الدعوة المتدرجة، ومثل هذه الدعوة المنقطعة النظير لم تكن لتخفى على زعماء الضلالة، وهم المشركون المقتسمون المستهزئون الذين جعلوا القرآن عضين، وقد ذكر منهم خمسة(٤)، حال أنهم بعد جاهرة الدعوة الباهرة، الصارحة الصارخة، أصبحوا مئات أضعافهم، أتباعاً ومتبوعين من المشركين في العهد المكي، وكذلك الكتابيين والمنافقين في العهد المدني.

ثم في مستقبل الأمر ﴿بِمَا تُؤْمَرُ﴾ لمحة لامعة أن الصدع هنا ليس إلا بأمر جديد، وأما السابق عليه فقد ائتمره، والأمران هما في بلاغ الشرعة، خفية في الأول وجاهرة منذ الصَّدْع(٥).

---

(١) سورة المدثر، الآية: ٢.
(٢) سورة المزمل، الآية: ٢.
(٣) سورة المزمل، الآية: ٧.
(٤) لقد تظافرت الروايات من طريق الفريقين أنهم خمسة مهما اختلفت فيها أسماؤهم وهم على ما رواه القمي في تفسيره: الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل والأسود بن المطلب والأسود ابن عبد يغوث والحارث بن طلاطلة الخزاعي. ومثله في الدر المنثور بتفاصيل عدة في دفع شرهم وهلاكهم، كما و﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ﴾ تلمح له.
(٥) في البحار ٦: ٣٥٦ الطبعة القديمة نقلاً عن المنتقى قال: لما أنزل الله تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤] قام رسول الله ﷺ على الصفا ونادى في أيام الموسم: =

وعلَّ ﴿بِمَا تُؤْمَرُ﴾ تعم مادة الأمر «الذي به تؤمر» ونفس الأمر تأويلاً إلى المصدر[1]. ﴿فَٱصْدَعْ﴾ بأمرك في دعوة عامة جاهرة دونما تخفٍّ ولا تقية ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ﴾ مجابهة ﴿ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أو الخوف منهم ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾.

وجملة القول هنا إن الرسالة كما هي مرحلية في نفسها تذرعاً بالعبودية والمعرفة إلى القمة المعنية بها، كذلك هي مرحلية عُدَّةً وعِدةً في المرسل إليهم، فليست قفزة كالسيل الجارف تجرف بكل عُدَّاتها كافة عِدَّاتها في أوّل بزوغها، فإنها جيئَة فجيعة تضم غروبَها حين طلوعها حيث لا تتحملها المدعوّن بها.

= «يا أيها الناس ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فرمقه الناس بأبصارهم - قالها ثلاثاً، ثم انطلق حتى أتى المروة ثم وضع يده في أذنه ثم نادى ثلاثاً بأعلى صوته يا أيها الناس إني رسول الله ثلاثاً فرمقه الناس بأبصارهم ورماه أبو جهل قبحه الله بحجر فشج بين عينيه وتبعه المشركون بالحجارة فهرب حتى أتى الجبل فاستند إلى موضع يقال له المتكئ وجاء المشركون في طلبه وجاء رجل إلى علي بن أبي طالب عليه السلام وقال: يا علي قد قتل محمد فانطلق إلى منزل خديجة فدق الباب فقالت خديجة: من هذا؟ قال: أنا علي قالت: يا علي ما فعل محمد؟ قال: لا أدري إلا أن المشركين قد رموه بالحجارة، وما أدري أحي هو أم ميت فأعطيني شيئاً فيه ماء وخذي معك شيئاً من هيس وانطلقي بنا نلتمس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإنا نجده جائعاً عطشاناً فمضى حتى جاز الجبل وخديجة معه فقال علي: يا خديجة استبطني الوادي حتى استظهره فجعل ينادي يا محمداه يا رسول الله نفسي لك الفدى في أي واد أنت تُلقى وجعلت خديجة تنادي من أحسّ لي النبي المصطفى من أحس لي الربيع المرتضى من أحس لي المطرود في الله من أحس لي أبا القاسم وهبط عليه جبرئيل عليه السلام فلما نظر إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم بكى وقال: ما ترى ما صنع بي قومي كذبوني وطردوني وخرجوا علي فقال: يا محمد ناولني يدك فأخذ يده فأقعده على الجبل ثم أخرج من تحت جناحه درنوكاً من درانيك الجنة - ثم ساق عرض الملائكة له نقمة الله من هؤلاء وقوله صلى الله عليه وآله وسلم جواباً عن مقالاتهم: قد أمرتم بطاعتي؟ قالوا نعم فرفع رأسه إلى السماء ونادى إني لم أبعث عذاباً إنما بعثت رحمة للعالمين دعوني وقومي فإنهم لا يعلمون...

(١) ف «ما» على الأول موصولة حذف ضميرها الراجع إليها، وفي الثاني مصدرية وهي القدر المتيقن.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾:

ضيق صدر لأشرح العالمين صدراً، لله وفي الله، لا عن الله، وإنما عما يرى من الكفر بالله والهزءِ والتكذيب بآيات الله: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[1].

ف ﴿وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾[2] و﴿بِمَا يَقُولُونَ﴾ ولينشرح صدرك عن هذا الضيق بعد انشراحه برَوْح الله ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ. . .﴾.

هذه زوايا ثلاث من الاتجاه إلى الله، تشكِّل الحياة النفسية الرسالية لأوّل العابدين، وعلى حد قوله ﷺ: «ما أوحي إلي أن أجمع المال وأكون من التاجرين ولكن أوحي إلي أن سبح بحمد ربك وكن من الساجدين. واعبد ربك حتى يأتيك اليقين»[3] فقد «صبر ﷺ حتى نالوه بالعظائم ورموه بها فضاق صدره فأنزل الله ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ. . .﴾[4].

والتسبيح بالحمد هو سلب ما لا يليق بساحة قدسه تعالى من خلال إيجاب ما يليق، فقولك إنه عالم لا يصح أن يُعنى منه إلّا أنه ليس بجاهل، وأما إيجاب علم له تصورناه فلا، فإننا لا نحيط علماً بذاته تعالى ولا صفاته، إذاً فكل صفاته ترجع إلى سلبيات.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٣٣.

(٢) سورة النحل، الآية: ١٢٧.

(٣) الدر المنثور ٤: ١٠٩ - أخرج هذا المعنى عن رسول الله ﷺ جماعة منهم سعيد بن منصور وابن المنذر والحاكم في التاريخ وابن مردويه والديلمي عن أبي مسلم الخولاني قال قال رسول الله ﷺ: . . وعن ابن مسعود وأبي الدرداء عنه ﷺ مثله.

(٤) نور الثقلين ٣: ٣٧ عن أصول الكافي بسند متصل عن حفص بن غياث قال قال لي أبو عبد الله عليه السلام يا حفص إن من صبر صبراً قليلاً وإن من جزع جزع قليلاً ثم قال: عليك بالصبر في جميع أمورك فإن الله بعث محمداً ﷺ فأمره بالصبر والرفق فصبر حتى. .

ثم ﴿وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ ليس يعني أنه لم يكن منهم ثم أمر أن يكون منهم، وإنما هو استمرارية كينونة السجدة، أن يصبح كل كيانه سجدة لله، فارغاً عما سوى الله، كما «وكان ﷺ إذا حزنه أمر فرغ إلى الصلاة»[1] وهكذا يستعان بالصبر والصلاة، وكما أمرنا ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾[2].

وعل ﴿ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ هنا هم «المصلين» أخذاً بأهم مواضع الصلاة ومواضيعها، أم الخاضعين لحد النهاية في صلاة وسواها، وكان الرسول ﷺ كل حالاته صلاةً، ولكن الصلاة أفضل من سواها.

إن دوامة التسبيح بالحمد في كل قال وحال، وكل حلٍّ وترحال، يجعل العبد منقطعاً إلى الله، موقناً أنه لا يفعل جزافاً، فدوامة الكفر لهؤلاء الحماقى هي من فعلهم وليسوا ليضروا الله شيئاً فلماذا - إذاً - يضيق صدرك بما يقولون؟ ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾.

ثم كيان السجدة ككل، يتمم ذلك الانقطاع، حيث تريح الساجد عن أي تعلق بغير الله حتى التعلق الرسالي المزعج للرسول حين يرى بالغ التكذيب من حماقى الطغيان.

ومن ثم ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ تحلّق على حياة التكليف ككل، أنها - فقط - عبادة الرب.

وهناك يخاطب الرسول ثالثة ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ...﴾ لا سواه، حتى تتأول العبادة بغرض اليقين، فإذا جاء اليقين فلا عبادة كما يقوله بعض الصوفية، ولكم تكلمة في ختام البحث حق اليقين.

وترى كيف يخاطب الرسول ﷺ وهو أوّل العابدين والموقنين أن

(١) المصدر عن مجمع البيان عن ابن عباس...

(٢) سورة البقرة، الآية: ٤٥.

﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ وكأنه حتى الآن ما أتاه اليقين وهو بالغ أعلى ذروة من حق اليقين؟ ولأنه منذ بداية الرسالة - بل بداية التكليف - كان حاصلاً على يقين فليكن تاركاً لعبادة ربه، فكيف يؤمر الحال ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾؟.

فهل اليقين هو الموت حيث تنقطع به العبادة وكما ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤٦ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ ۝٤٧﴾[1]؟.

كلّا! حيث اليقين هنا هو اليقين: كشف القناع عما كان عليه القناع لمن كان يكذب بيوم الدين، أم ومن كان عليه قناع دون تكذيب والرسول ليس له قناع عن أية حقيقة قبل الموت حتى يكون الموت له حالة اليقين!.

ثم التعبير الصحيح والفصيح عن الموت هو الموت دون اليقين الذي هو لزام الموت لمن لم يبلغ قبله إلى درجة اليقين!.

ومن ثم ليس الرسول ليترك عبادة ربه بعد الموت مهما اختلفت صورتها أم وسيرتها عما قبل الموت، فنفس الاتجاه إلى الرب، ولا سيما في الذروة الخالصة بعد الموت، إنها عبادة ومخ العبادة، فكيف يقال له ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾: الموت؟ وتركه لعبادة ربه وإنْ في لحظة في أية نشأة من النشآت، إنه موت عن القدسية المعرفية والعبودية!.

أم إن اليقين هنا هو المتيقن مفعولاً لا مصدراً، ف ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ﴾ العالم المتيقن موتاً وقيامة؟ فكذلك الأمر إلَّا في البعض من مشاكله.

أم إن اليقين هو اليقين، ولكنه له درجات، كلٌّ حصيلة درجة من العبودية، كما أن كل درجة من العبودية حصيلة درجة تناسبها من اليقين، فكما أن اليقين المعرفة لا حدّ له ولا نهاية، كذلك العبودية - هي على غرارها - دون حدٍّ ولا نهاية.

---

(١) سورة المدثر، الآيتان: ٤٦، ٤٧.

ولأن المعرفة متدرجة إلى كمال وأكمل في النشآت الثلاث، كذلك العبودية المناسبة له، ولا نهاية للنشأة الأخيرة للصالحين، فلا نهاية فيها - إذاً - لليقين الناتج عن عبودية، مهما اختلف زمن التكليف عما بعده صورة أم وسيرة متعالية.

لكلٍّ من زوايا اليقين الثلاث درجات، من علمه وعينه وحقه، ولا نهاية لدرجات حق اليقين، وهكذا يؤمر الرسول أن يعبد ربه ما هو حي في أية نشأة من النشآت، وهو لا تصعقه الصعقة المميتة للأحياء في الدنيا وفي البرزخ، فهو إذاً - عبادة لربه ويقين منذ الدنيا إلى يوم الدين لا نهاية له في يوم الدين.

أتراه تهنأ له الجنة دون عبادة، وليست جنته الروحية إلا ذروة العبادة، وطبعاً دون تعب ولا شغب.

وقد يوسع نطاق الخطاب هنا في ﴿وَٱعۡبُدۡ﴾ فيشمل سائر المكلفين، فمن اليقين لهم موتهم إلا المحمديين المعصومين، فالدنيا لمن سواهم حجاب، فإذا جاء الموت فلا حجاب، وفرض العبادة إنما هو في نشأة التكليف، لكن العارفين ليسوا ليتركوا العبادة بعد الموت وإن لم يكن هناك تكليف، إذ لا تكلُّف هناك في عبادة الرب، بل التكلف أن يكلَّف العارف بالله أن يترك عبادة الله، ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ﴾[1] تشتمل - بأحرى - شهيَّاتٍ روحيات معرفيات من عبادات لله تعالى.

فقيلة القائل إن العبادة إنما هي لغاية المعرفة اليقين، فإذا جاء اليقين فلا عبادة، إنها قيلة باطلة في أصلها وفرعها، فحتى لو كان لليقين نهاية فلا نهاية للعبادة، حيث العبادة هي قضية المعرفة، لزاماً دائبة معها، ففي ضعف المعرفة ضعف العبادة، وفي قوتها قوتها، فكيف يصح ترك العبادة إذا قويت

(١) سورة فصلت، الآية: ٣١.

المعرفة، فحتى لو كلف العارف بالله أن يترك العبادة كان تكليفاً شاقاً لا يطاق!.

فـ ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ فيما تعني اليقينُ المعرفةَ، ليست لتحدد واقع العبادة لحد المعرفة اليقين، مهما كان الخطاب في «فاعبد» لغير أول العابدين، وأما فيما هو له يخصه أم ويعم على هامشه سائرَ العارفين، فلأن العبادة من وسائل المعرفة، كما المعرفة من بواعث العبادة، لذلك ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ بل ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1] فالعبادة غرض أقصى من خلقهم، وهي لزام خلقهم ما هم كائنون، ولكي يأتيهم اليقين حتى يعبدوه أكثر مما كانوا يعبدون.

فالعبادة والمعرفة هما فرقدان كلٌّ لزام زميله، وتقدمة له وتكملة، فكلما ارتقى كلٌّ ارتقى قرينه، والفصل بينهما صعب أم لا يمكن حين يصل كل إلى ذروة عالية من مدارجه.

أتراك حين تعرف مولاك أكثر مما كنت تعرفه تخف له طاعتك؟ أم تشف على قدر معرفتك؟ فكما المعرفة كمال العارف بالله، كذلك العبادة كمال العابد لله، فكيف بالإمكان أن يترك العبادة في يقين المعرفة، وقضيتها الذاتية كمال للعبودية أكثر وأقوى وأرقى؟.

وحتى لو أمر العارف اليقين أن يترك العبادة أو يخف فيها، أم لا يؤمر بالعبادة، كان ذلك عذاباً عليه وعقاباً، فكيف يفسر ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ بأنه إذا أتاه اليقين فلا عبادة، لأن العبادة هي ذريعة الوصول إلى المعبود، فإذا وصل بطلت الذريعة.

فإنه لا وصول إلى المعبود، وإنما هي درجات المعرفة يتدرجها العارف

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

بالله بسُلَّم العبودية، كما درجات العبودية يتدرجها بسلَّم المعرفة ثم لا حدّ لها يقف عنده حتى بالموت.

وأما قيلة القائل أن العابد مَثَله مثل الفحم يُحرق فيحترق حتى يصبح كله ناراً يُحرق ولا يحترق، فالعابد يصل في القرب إلى معبوده لحدّ تفنى نفسه فيه، فيمحو العابد بعبادته ثم ليس هناك إلّا المعبود لا عابد ولا عبادة، وكما يقول قائلهم «أنا هو وهو أنا» «ليس في جبتي الا الله».

فإنها قيلة عليلة في كافة الموازين، وكيف بالإمكان الوحدة الحقيقية في غير الواحد، أن يتوحد الثاني السالك مع الأول المسلوك إليه، فهل يفنى عن بكرته حقيقياً - ولم يفن ـ! فأين إذاً «أنا» حتى يكون «أنا هو وهو أنا»؟.

أم يفنى عن إنيته نفسه معرفياً، فلا يعرف العارف إلّا ربه، جاهلاً متجاهلاً نفسه؟ فها هو الموجود العارف ربه في مقام قاب قوسين أو أدنى، لم يخرج عن كونه عبداً عارفاً وإنما وصل إلى قمة من العبودية والمعرفة، فكيف إذاً «أنا هو وهو أنا» وقد اندكت الإنية والأنانية، وأصبح معرفياً أصغر مما كان وأفقر إلى ربه المعروف والمعبود، فيصبح كالرسول محمد ﷺ أوّل العابدين ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾[1].

وعلى أية حال فمحال أن يصبح العبد نفس ذات المعبود، على أي تأويل في وحدة الوجود، أم يصبح في قمة المعرفة غنياً متعالياً عن العبودية والافتقار إلى المعبود، وقد كان يقول أول العابدين «الفقر فخري» وكان إذا حزنه أمر فرغ إلى الصلاة.

وما ترك العبودية لله للعارف بالله إلّا كأسفل درك من الجحيم، فكيف يؤمر به أم لا يؤمر بها؟.

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٨١.

فما هذه القيلات العليلات إلّا جهالات وظلمات بعضها فوق بعض، ركامات من جحيم اللّامعقولات، وعرفانيات لا تعرف مقام الربوبية ولا يعرفها العارفون بالرب، غباوات وغشاوات وطنطنات لا تملك أية برهنة إلا ادعاءات جوفاء خواء والله تعالى ورسوله والعارفون بالله منها براء.

وقد يقال إن المعني من اليقين هنا هو الحد المحال وهو الحيطة المعرفية بالله، إذاً فلا ترك للعبادة حتى الوصول إلى تلك المعرفة المستحيلة في أية نشأة من النشآت.

وجوابه ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ﴾ دون «لو» وتلك كغاية للعبادة المتمكنة هي بطبيعة الحال ممكنة! أو يقال ﴿ٱلْيَقِينُ﴾ هو الموت، وحتى يأتيك هي غاية للعبودية المأمور بها ولا أمر بعد الموت إذ لا تكليف؟ وقد مر تزييفه وهنا مزيد أن أمر العبادة التي هي لزام المعرفة، لا فكاك لها عن أية مرتبة من المعرفة في الدنيا أو الآخرة.

كلام حول المعرفة والعبودية:

لا ريب أنهما المحوران الأصيلان لكافة الفضائل والفواضل، وأنهما لزام بعضهما البعض، فهل هما متوازيان متساويان حيث هما الغايتان، فالعبودية غاية الخلق والمعرفة غاية العبودية كما لكل آية؟.

لكلٍّ من المعرفة والعبودية مراحل عدة، فالمعرفة العقلية لأبسط مراحلها هي مقدمة ضرورية لأبسط مراتب العبودية، فإذ لا معبود معروفاً فأين العبادة، فهنا المعرفة تتقدم على العبودية تقدمةً ضرورية، ثم هما فرقدان اثنان يكمِّل بعضهما البعض، كلما ازدادت العبودية عمقاً ازدادت المعرفة وكلما ازدادت المعرفة ازدادت العبودية عِدة وعُدة، بفارق أن العبودية لا سبيل لها أصلاً وتكاملاً إلّا المعرفة ولكنما المعرفة تتكامل بسائر الأدلة كما تتكامل بالعبودية وهذه أعمقها لعمق المعرفة.

فالأدلة الفطرية والعقلية والحسية أماهيه عساكر عدة لتكامل المعرفة، ولكنها ما لم تكن عشيرة العبودية لا تتكامل كما يحق، فلا بد لكمال المعرفة تناصر دليليها، ومن ثم كمال العبودية، فالأصل الأصيل بينهما هو العبودية حيث تضم إلى نفسها المعرفة، فلذلك ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1] وأما ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ فهو اليقين المعرفة الاطمئنان في العبودية وليست لها نهاية إذ ليس للمعروف المعبودية حد ولا نهاية.

وهنا نتبين أن آية البقرة الجاعلة العبودية الهدف الأقصى والأسمى الوحيدة من الخلقة، لا تعارض آية الحجر القائلة ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ فإن ﴿حَتَّىٰ﴾ لا تعني الغاية الذاتية لما قبلها، بل هي الزمنية، المترتبة على العبودية، وإلى غير النهاية، دون الغاية المنحصرة، وأية منافاة بين أن تكون العبودية غايةَ المعرفة، ثم هي تُغَيّى زمنيّاً باليقين وهي أخص من مطلق المعرفة، حيث يعني طمأنينة المعرفة غير المتناهية.

فمع أن معرفة الله هي من الأصول الأصيلة بل هي رأس الزاوية، ولكنها لا تُعنى بحد ذاتها، اللهم إلا تذرعاً إلى العبودية، فحتى لو دار الأمر بين المعرفة والعبودية فالعبودية هي الفضلى دون المعرفة، ولكنه لا يراد من المعرفة إلّا للعبودية، كما وإن العبودية تزيد في المعرفة.

وحديث الكنز «كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لكي أعرف» وإن كان يجعل أصل الخلق لمعرفة الله، ولكنها لزام عبودية الله، كما أن العبودية لزامها المعرفة، والأصل الأوّل هو العبودية.

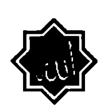
فمثل المعرفة والعبودية في التمازج والتمايز مثل العلم والعمل، فلا علم إلّا بعمل، كما لا عمل إلّا بعلم، ولكن العلم ذريعة العمل الصالح

---

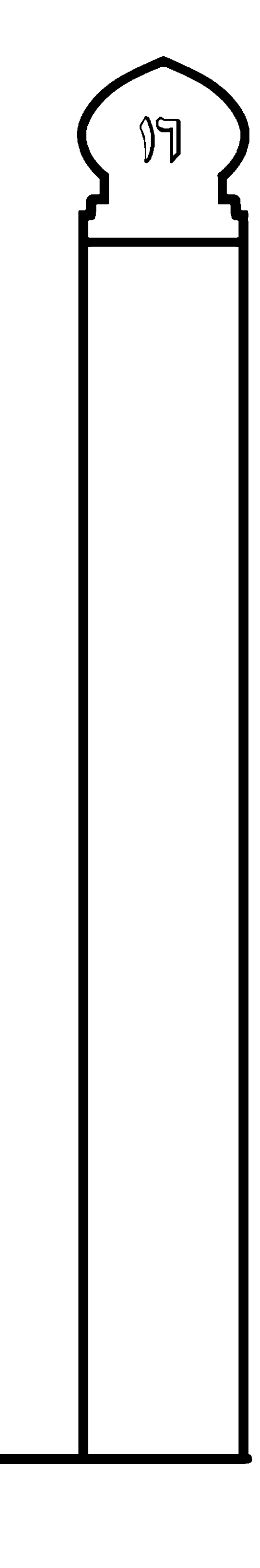
(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

وليس العمل ذريعة اللهم إلّا لمعرفة أكمل هي أيضاً ذريعة العبودية، وكما التزكية هي حجر الأساس والتعليم ذريعتها، ثم كُلٌّ يزيد الآخر فاعلية.

أو يعني ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ الإبانة لرباط وثيق عريق بين العبودية واليقين، فما دامت العبودية دام اليقين على ضوئها وقدرها، وإذا وقفت العبودية أو خفت وقف أو خف اليقين، فإنه طمأنينة المعرفة ومعرفة الطمأنينة للقلوب: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[1]! والعبودية هي غاية المعرفة كما المعرفة راية العبودية فـ : ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.



(١) سورة الرعد، الآية: ٢٨.



سُورَةُ النَّحۡلِ



مكيّة وآياتها ثمان وعشرون ومائة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١ يُنَزِّلُ
ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ
إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ٢ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا
يُشۡرِكُونَ ٣ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ٤
وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٥
وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ٦ وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ
إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ
٧ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ
٨ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ
٩ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ
فِيهِ تُسِيمُونَ ١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ
وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ١١ وَسَخَّرَ
لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ
فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٢ وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ

مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾

إنها سورة النحل حيث تذكر في عداد النعم البارعة سيرة النحل بما نحلها الله فانتحلت، ولماذا «النَّحل» والسورة تعالج موضوعات العقيدة الكبرى: الألوهية والوحي والبعث، مع إلمام بموضوعات جانبية أخرى، هي في ظاهر الحال أحرى أن تتسمى السورة بأسمائها؟

علّه إشعاراً بتحليق القرآن سوراً بأسمائها وآياتها كل اسم ورسم، وإشارة إلى أن مثل النحل والنمل والبقرة والفيل أمّا هي من هذا القبيل وما فوقها وما دونها، كل ذلك على حد سواء في ميزان الله، خلقاً وحكمة بارعة فـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ...﴾[1] وفي النحل صلة بوحي النبوة حيث يوحى إليها مهما اختلفت مراتبه: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ...﴾[2] فكما الجن والإنسان والملائكة، لكلٍّ سورة، ومن النبيين

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦.
(٢) سورة النحل، الآية: ٦٨.

لكل سورة، ومن الكائنات شمساً وقمراً وبروجاً، أمّاذا من مختلف الكائنات حية وميتة، كذلك للنحل والنمل والعنكبوت، كما للبقرة والفيل، لأن خلق الله كلها من فعل الله، لها أهميتها لمن تدبر ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾[١].

وكما أن القرآن كتاب تدوين تشريع يحلق على كتاب التكوين ويجاوبه على أية حال، كذلك أسماء سوره تحلق على كل الكائنات، حية وميتة، ظاهرة وباطنة، أرضية وسماوية، دنيوية وأخروية أمّاهيه، طَبقاً عن طبق ونسخة طبق الأصل، حيث الكاتب لكلا الكتابين واحد هو الله الواحد القهار.

وتراها مكية كلّها أم مدنية كلها؟ جوُّ السورة يلمح بمكيتها إلا آيات عدة، كآيتي الهجرة[٢] وآية التبديل[٣] والارتداد[٤] والمعاقبة[٥] أمّاهيه كأضرابها، فهي مدنية لأقل تقدير بينها، ولمحة أخرى إنها مكية ومدنية نازلة قرب بعض، وقد تكون من آية الهجرة الأولى مدنية وما قبلها مكية، نازلة هي وتلك وراء بعض دونما فصل، أم بفصل غير فاصل، هذا ولكنما احتمال مكية آيتي الهجرة قائم إذ قد تعنيان الهجرة الأولى، وآية التبديل والارتداد تعمان العهدين المكي والمدني ومكيتها أولى، حيث الإكراه على الارتداد لم يكن إلّا فيها! وآية المعاقبة لا تختص حالة الحرب غير

(١) سورة فصلت، الآية: ٥٣.
(٢) ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً . . .﴾ [النحل: ٤١] ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٠].
(٣) ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ١٠١].
(٤) ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦].
(٥) ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [النحل: ١٢٦].

الموجودة في مكة، فقد تعني المعاقبات الشخصية المناسبة جو مكة، أو الحربية بالنسبة للمدنية كضابطة شاملة للعهدين.

أجل مثل قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾(١) لا تناسب إلّا المدنية فإنها نازلة بشأن سلمان وقد آمن في المدينة، وعلى أية حال فلا ريب أن بعض الآيات فيها مدنية، والأكثرية الساحقة بين مكية أم مرددة بين العهدين.

﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ①﴾:

المعنى المناسب هنا من معاني الأمر الثلاثة هو الحكم والفعل إذ لا معنى لإتيان شيء الله، ولأن حكمه أيضاً من فعله فهو - إذاً - الفعل، وهو هنا بطبيعة الحال فعل يستعجل به المستعجلون له مؤمنين أم كافرين.

وهنا أياً كان ﴿أَمْرُ اللَّهِ﴾ فهو الآتي مستقبلاً عاجلاً أم آجلاً، بدليل ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ حيث الماضي لا يُستعجل له في الحال، و«إن الله إذا أخبر أن شيئاً كائن فكأنه قد كان»(٢).

إذاً ف ﴿أَتَىٰ﴾ هنا ماض يضارع المضارع في المعنى لأنه متحقق الوقوع كأنه قد مضى، فإنه ماض في إرادة الله، ماش في حكم الله، أم يعم الماضي المستمر في اكتماله إلى المستقبل، أم في نظيره.

وترى ما هو ﴿أَمْرُ اللَّهِ﴾ هنا؟ إنه يحمل سمات عدة إضافة إلى استقباله، أنه مستعجل، وفيه تَرَح للمشركين وفَرَح للمؤمنين.

---

(١) سورة النحل، الآية: ١٠٣.

(٢) نور الثقلين ٣: ٣٨ في تفسير العياشي عن هشام بن سالم عن بعض أصحابنا عن أبي عبد الله عليه السلام قال سألته عن قول الله: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ - قال: إذا أخبر الله النبي صلى الله عليه وآله وسلم بشيء إلى وقت فهو قوله: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ حتى يأتي ذلك الوقت وقال: إن الله...

إنه ليس أمر الوحي والرسالة المحمدية فإنهما ماضيان غير مستعجَلين لأحد اللهم إلا في استكمال مستقبل! ولا أمر الموت لكل أحد لأنه يشمل مثلث الزمان دون اختصاص بالمستقبل منذ ذلك العهد المكي، ولا أي أمر مضى أم يعمه والحال والاستقبال.

إنه أمر انتصار الحق واحتضار الباطل، بعدما نكب الحق في العهد المكي من قبل السلطات والدعايات الشركية الحمقاء، فيشمل أمر الدولة الإسلامية التي أسسها الرسول في المدينة: ﴿فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾[1] وكما يشمل انتصارات مستقبلة أخرى للمؤمنين ونكبات لآخرين.

إذاً فهو «خروج محمد ﷺ»[2] ثم خروج القائم من آل محمد ﷺ[3]

(١) سورة البقرة، الآية: ١٠٩.

(٢) الدر المنثور ٤: ١٠٩ - أخرج ابن مردويه من طريق الضحاك عن ابن عباس في الآية قال: خروج محمد ﷺ.

(٣) المصدر: ١١٠ - أخرج ابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه والحاكم وصححه عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: تطلع عليكم قبل الساعة سحابة سوداء من قبل المغرب مثل الرّس فما تزال ترتفع في السماء حتى تملأ السماء ثم ينادي مناد أيها الناس فيقبل الناس بعضهم على بعض هل سمعتم فمنهم من يقول: نعم ومنهم من يشك ثم ينادي الثانية، يا أيها الناس فيقول الناس هل سمعتم فيقولون: نعم - ثم ينادي أيها الناس ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١] - قال رسول الله ﷺ: فوالذي نفسي بيده إن الرجلين لينشران الثوب فما يطويانه وإن الرجل ليملأ حوضه فما يسقي منه شيئاً وإن الرجل ليحلب ناقته فما يشربه ويشغل الناس.

أقول: هذا ينطبق على خروج المهدي عليه السلام وكما في نور الثقلين ٣: ٣٨ عن كتاب كمال الدين وتمام النعمة بإسناده إلى أبان بن تغلب قال قال أبو عبد الله عليه السلام أوّل من يبايع القائم عليه السلام جبرئيل ينزل في صورة طير أبيض فيبايعه ثم يضع رجلاً على بيت الله الحرام ورجلاً على بيت المقدس ثم ينادي بصوت ذلق تسمعه الخلائق: أتى أمر الله فلا تستعجلوه.

وفي تفسير البرهان عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال هو أمرنا أمر الله عزّ وجلّ فلا يستعجل به يؤيده بثلاثة أجناد الملائكة والمؤمنين والرعب وخروجه كخروج رسول الله ﷺ والشيخ أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في مسند فاطمة قال أخبرني أبو الفضل محمد بن عبد الله قال أخبرنا محمد بن همام قال أخبرنا جعفر بن محمد بن مالك قال حدثنا علي بن يونس الخزاز =

ثم خروج الأموات يوم القيامة من أجداثهم وفي كل ذلك فرحات للمؤمنين وترحات للكافرين، فقد يعم الاستعجال كلا الفريقين، ومنه استعجال الكافرين عذابات الاستئصال قبل يوم الدين دون اختصاص لـ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ بهم مهما ذكروا باستعجالهم في آيات عدة، ومما يؤيد الشمول ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ دون «عما تشركون» والخطاب الثاني هو قضية الحال بعد الخطاب الأوّل لو كان يخصهم.

فهنالك استعجالات كافرة ناكرة ليوم الدين: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾[1] وأخرى ناكرة لعذابات الاستئصال الموعودة للظالمين قبل يوم الدين ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾[2] ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾[3].

وهنا استعجال خير للنبي والذين معه والله ينهاه إلى ما هو خيرٌ منه ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[4] ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾[5] وبطبيعة الحال يستعجل أهلُ الخير خيرهم رغبة فيه كما المنتظرون لخروج المهدي عليه السلام يستعجلونه، والمنتظرون قبله في إقامة دولة الحق تقدمةً له يستعجلونه!، مهما لم يذكر استعجالهم في القرآن إلّا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وكفى به ذكراً عنهم، وقد ذكر في أحاديث.

= عن إسماعيل بن عمر عن أبان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إذا أراد الله قيام القائم بعث جبرئيل في صورة طائر أبيض فيضع إحدى رجليه على الكعبة والأخرى على بيت المقدس ثم ينادي بأعلى صوته ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١] قال فيحضر القائم عليه السلام فيصلي عند مقام إبراهيم ركعتين ثم ينصرف وحواليه أصحابه وهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، إن فيهم لمن يسري من فراشه ليلاً فيخرج ومعه الحجر فيلقيه فتعشب الأرض.

(١) سورة الشورى، الآية: ١٨.
(٢) سورة الشعراء، الآية: ٢٠٤.
(٣) سورة ص، الآية: ١٦.
(٤) سورة طه، الآية: ١١٤.
(٥) سورة القيامة، الآية: ١٦.

فأمر الله الآتي يعم كل أمر آت يسر المؤمنين ويضر الكافرين، وكل يستعجله ولكن «لا تستعجلوه» فإنه يأتي في دوره الصالح وفق الحكمة العالية الربانية، دون تعجيل ولا تأجيل عن أجله المقرر له، صيغة سائغة حاسمة جازمة في مطلع السورة، ذات وقع في النفوس مهما تماسكت أو تكابرت: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ...﴾ موحياً بصدور أمر جازم كأنه واقع ولمّا يقع.

و﴿أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ مذيّلاً بـ ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تلميحة بينة أنه أمر التوحيد بكل أبعاده، إزالة للشرك بكل إبعادٍ له في أبعاده في آخر الزمن حيث دولة القائم المهدي عليه السلام: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾(١) وفي القيامة الكبرى جزاء بما كانوا يعملون، وقد يحتمل أن أمر الله هنا هو دين الله كما ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُم بَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ... ثُمَّ جَعَلْنَـٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا﴾(٢).

وشرعة القرآن وإن كانت شريعة من الأمر، ولكنها في الحق شريعة هي كل الأمر حيث تجمع الشرائع كلها وزيادة هي رمز الخلود، وذلك أمر يحتوي على كل أمر مستعجَل فيه، بمستقبله فقط أم تلوَ ماضيه.

فـ ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ تعني ماضي ذلك الأمر ومستقبله، فماضيه يُطمئَن إليه، ومستقبله يُستعجَل به، للذين ذاقوا بأس المشركين في العهد المكي، وقد كانوا يوعدون: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾(٣) فأين هو اليسر المستقبل في ذلك الأمر الآتي من ذي قبل؟

فقد كان يستعجل نضوبَ ذلك الأمر ونضوجه الرسولُ والذين معه، استعجالاً لاستكمال أمر القرآن المفصل، بعدما أتى أمره المجمل وشيءٌ من

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٣٣.
(٢) سورة الجاثية، الآيتان: ١٧، ١٨.
(٣) سورة الشرح، الآيتان: ٥، ٦.

المفصل، حتى نهى الرسول أن يعجل به: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾[1] وعن أن يحرك به لسانه ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾[2].

ومن ثم استعجال في أمر الجهاد والدفاع ذريعةً للحفاظ على كيان الإسلام وتأسيس دولة الإسلام، ولكن ﴿فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾[3].

ثم انتصارات للمسلمين تلوَ بعض ولحد الدولة الإسلامية العالمية الموعودة زمن المهدي من آل محمد عليه السلام، وما إلى ذلك من بُعدي الأمر: شِرعة ودولة تضمن تطبيقها، فأمر الشرعة بلا دولة - كأمر الدولة بلا شرعة - أمر إمر، والجمع بين الأمرين بكما لهما هو بغية كل مؤمن بالله، وهو لعبة الاستهزاء لكل كافر بالله.

ف ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ بشارة للأولين ونذارة للآخرين الذين كانوا يستعجلونه مستهزئين ومستهترين، هارعين إلى أذى المؤمنين.

فالفريقان - إذاً - مستعجلان لذلك الأمر الآتي من ذي قبل، بشأن استقباله، فريق يستبشرون، وآخرون يستهزئون.

والشرعة القرآنية في بُعديها حكماً وحكومة ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ﴾[4] فهكذا ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

إذاً فكل أمر مستقبل مستعجل به لكتلتي الإيمان والكفر مطوي في ذلك الأمر، سواء أتى ماضياً بنفسه ويأتي مستقبلاً بكما له، أم أتى ماضياً بنظيره،

---

(١) سورة طه، الآية: ١١٤.
(٢) سورة القيامة، الآية: ١٦.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٠٩.
(٤) سورة الفتح، الآية: ٢٩.

ثم المستقبل يستقبل ذلك النظير، كما هي سنة الله للمؤمنين وللكافرين على مدار الزمن.

فـ ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ حيث يظهر في الأمر الآتي توحيده تعالى ونفي الشركاء.

﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾:

ظاهرُ مقابلة الملائكة بالروح أنه غيرهم، فإنما ينزّلون به، فهل يُنزَّل كائن بنفسه؟ فما هو - إذاً - الروح من أمره؟

الروح من أمره في وجه عام هو كل روح: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾[1] ولكنه على كل عباده دون ﴿مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟...﴾!

وفي وجه خاص كما هنا هو روح النبوة وروح الوحي ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾[2] وفي وجه أخص هو روح الرسالة القرآنية، وجبريل: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾[3] والروح زعيم الملائكة ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾.

فالروح - أياً كان - ليس إلّا من أمر الله مهما اختلفت درجات ذلك الأمر، وهو - ككل - فعل الرب إنشاء يختلف عن سائر المواد لأنه سلالة الكائن المادي، مفاضة من الرب.

وقد تتعلق ﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ بـ «ينزل»: تنزيلاً صادراً من أمره، وكذلك بمقدر في وجهيه: «الملائكة الكائنة من أمره» «الروح الكائن من أمره» فهو - إذاً - مثلث الأمر، وهو صالح لفظياً ومعنوياً.

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.
(٢) سورة غافر، الآية: ١٥.
(٣) سورة الشورى، الآية: ٥٢.

و﴿بِٱلرُّوحِ﴾ هي بمصاحبة الروح وبسببه، فالروح المصاحب للملائكة هنا هو روح العصمة[1] والوحي[2] وجبريل، ولا تنافيه المقابلة بين الملائكة والروح، فإنه من ذكر الخاص بعد العام في زاوية واحدة من الأربع تتحملها الآية كلها، وذلك تشريف من الله لأنبيائه أن ينزل الوحي مع جموع الملائكة وجبريل الأمين.

ثم وأشرف من ذلك الروح زعيم الملائكة فإنه أفضل من جبريل وسواه.

وقد تعني الباء كلا المعنيين، كما أن ﴿مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ تتعلق بمتعلقاتها الثلاثة، والروح تعني روح الإيمان، وروح العصمة، وروحي الوحي قرآناً وسواه، وروح القدس، والروح زعيم الملائكة، فالمحتملات - إذاً - ثلاثون، بضرب الباءين في مثلث التعلقات، ثم ضرب الستة في الأرواح الخمسة، ومهما كانت كلها صالحة من الواجهة الأدبية، ولكن البعض منها غير صالحة معنوياً.

والسببية منها تعنيها في بعدين: بشري هو صلاحية مهبط التنزيل، وإلهي هو الحكمة الربانية المقتضية لذلك التنزيل مكاناً وزماناً ومكانة، فالبُعد البشري هو بعض السبب حيث لا يكفي بنفسه لذلك التنزيل، كما البعد الإلهي لا يسبِّب إلّا بعد اكتمال البعد البشري.

فالمعنى - إذاً - ينزل الملائكة على من يشاء من عباده بسبب الروح من أمره وهو الإيمان الصالح لكون القلب مهبط الوحي أو الإلهام أو العصمة، وبسبب روح الوحي الواجب نزوله على محطةٍ مّا ليتحقق الإنذار بالوحي، فإن التنزيل من قضية الحكمة الربانية على من يشاء من عباده، والروح السبب لذلك التنزيل هو ذو بعدين، بشري هو الظرف لذلك التنزيل، أن

---

(١) الدر المنثور ٤: ١١٠ - أخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في الآية قال: بالنبوة وكذلك.
(٢) عنه قال: القرآن.

يكون القلب صافياً وافياً ضافياً لحد يصلح لتنزل الروح: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾[1] وإلهي هو أمر الله الملائكة أن يتنزلوا ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾[2] [3] ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾[4].

و﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ لا تعني فوضى المشيئة حيث المُنزِّل هو الله العدل الحكيم، والمَنزلِ ﴿عِبَادِهِۦ﴾ فالعبودية القمة هي الشرط الأصيل في ذلك التنزيل، ثم الله يصطفي من الأصفياء من يشاء ويرضى كأصلح مَن في الكون، ولأصلح درجات الدعوة، حسب الحكمة البالغة الإلهية، فـ ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾[5] رسالة يتبناها العلم والتقى وكما هي تتبنى العلم والتقى.

ومما تُنزله لنا ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ أن هناك سنة إلهية دائبة كقاعدة رصينة، ألّا ينزِّل الوحي على الأنبياء إلا بواسطة ملائكة الوحي، وإن كان نبي الأنبياء محمد ﷺ يستثنى منها في حلقات من الوحي كما في ليلة المعراج لما وصل إلى عمق المعراج، وكذلك في ليلة القدر حيث أوحي إليه فيهما - على أقل تقدير - وحي بلا حجاب، فـ ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾[6].

ولماذا هذا التنزيل الفضيل ككل على أهل التنزيل؟ لـ﴿أَنْ أَنذِرُوٓاْ. . .﴾ كما هنا، و﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾[7] كما في المؤمن، فالإنذار هو المحور العام الرئيسي في كافة الدعوات الرسالية لكافة المرسل إليهم، وله دعامتان

(١) سورة الشعراء، الآيتان: ١٩٣، ١٩٤.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٩٠.
(٣) لقد فصلنا البحث حول الروح بكل أبعاده ومصاديقه في الإسراء والقدر - فراجع.
(٤) سورة مريم، الآية: ٦٤.
(٥) سورة الأنعام، الآية: ١٢٤.
(٦) سورة الشورى، الآية: ٥١.
(٧) سورة غافر، الآية: ١٥.

اثنتان: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ بكل ما للتوحيد من مبانٍ ومعانٍ تحلِّق على كافة العقائد والنيات وسائر الطويَّات والأقوال والأعمال.

و﴿فَٱتَّقُونِ﴾ كنتيجة حاسمة جازمة لذلك التوحيد المنذَر به، وعلى المؤمن بالله أن يحلق على حياته كلها ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ سلباً لكل باطل على هامش سلبها، وإيجاباً لكل حق على ضوء إيجابها، فيطارد كل منكر بقلبه ولسانه، ببيانه وكل إسراره وإعلانه في كافة مَيادين الحياة، ثقافية وعقائدية، سياسية واقتصادية أمّاهيه من أطوارها.

وللتقوى واجهتان، معرفية بدافع حب الله وهي للأخصين من عباد الله، أن لولا الجنة ولا النار لكانوا يتقون الله ولا يطغون.

ومن ثم تخويفية موصولة بواقع يوم التلاق، فلولا يوم التلاق لما اتقى الله إلّا الأقلون عدداً، الأكثرون في المعرفة الصالحة عُدَداً.

فالتقوى بكافة بنودها ودرجاتها هي قضية للتوحيد المنذر به بكافة بنوده ودرجاته، كلٌّ تلوَ بعض ولِصقَ بعض، فالتوحيد الخاوي عن التقوى ليس إلّا صورة تصورية خاوية عن المعنى، أم وتصديقية عقلية، ولمّا تصل إلى درجةٍ من اليقين المبتغى.

وكيف تتفرع التقوى هنا على التوحيد، وليس فيه بمجرده عقيدة يوم التلاق؟

إن الإنذار بالتوحيد لا يعني إلا خالص التوحيد وصائبه دون شائبه، ولزامُه عدل التوحيد وتوحيد العدل، إضافة إلى العلم والقدرة والحكمة الإلهية وهذه تتطلب يوم التلاق، ما لولاه لكان الله - والعياذ به - جاهلاً أم عاجزاً أم ظالماً أم متعدداً أمّا هي من لزامات ترك الجزاء للذين أحسنوا والذين أساؤوا.

و﴿فَٱتَّقُونِ﴾ تعم التقوى العلمية والعقائدية والعملية بين المبدأ والمعاد،

فهي والتوحيد هما تمام الشرعة بأصولها وفروعها دون إبقاء، مهما اختلفت بعض الفروع شكلياً بين شرايع الدين، وفي تقديم ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ على ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ إعلان بتقدم التوحيد على سائر الأصول والفروع، وتقدم القوة النظرية على العملية، وإن الثانية من مخلَّفات ونتائج الأولى.

ثم لـ ﴿يُنَزِّلُ﴾ حالة ماضية عن حالة نزولها، ومستقبلة حتى خاتمة الوحي على خاتم الرسل، ومستقبلة أخرى وماضية، ماشية ماضية على أصحاب الإلهام غير رجالات الوحي، كما كانت تنزل وحتى الآن على العترة الطاهرة المحمدية عليهم السلام في الدرجة العليا، ثم على سائر السابقين والمقربين والصديقين والشهداء والصالحين حسب درجاتهم، وعلى كل هؤلاء ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ...﴾[1].

و﴿أَنْ أَنذِرُوٓا۟...﴾ تشمل كل منذر إلهي بوحي أو الهام أياً كان، مهما كان الإنذار بالوحي هو رأس الزاوية في هندسة الإنذار وحسابه.

وكما أن هناك أرواحاً شخصية توحيدية كذلك - وعند توفر الشخصيات - روح جماعي للإنذار، كما في الدولة الإسلامية المحمدية والمهدوية المحمدية ودويلات إسلامية هي عوان بينهما.

فلا تحمل الرسالات الإلهية عن بكرتها إلّا الإنذار بالمبدأ والمعاد بعد تثبيتهما وإياها، كما تحملها آية النحل هنا، وهناك آية المؤمن، متجاوبتين في تلازم الأصلين: المبدأ والمعاد، وبينهما ما بينهما من النبوءات وشرايع الدين، ثم الإنذار أعم من التبشير.

فالنفس التي لا توحِّد المعبود نفس حائرة حالكة هائلة تتجاذبها السبل

---

(١) سورة فصلت، الآيتان: ٣٠، ٣١.

المتفرقة، وتُخايل لها الأوهام، وتمزقها التصورات المتناقضة وتناوشها الوساوس والهواجس.

ومن هنا عرضٌ لأفواج الكائنات بادئاً بخلق الأرض والسماوات، فسحاً لمجال التفكير في الآفاق وفي أنفسهم، وكما قدم الآفاق على أنفسهم:

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٣﴾:

فالحق قوام الخلق، وهو قوام تدبير الخلق، وحق التدبير هو وحدة النظام، ومن حقه قيام يوم القيام، ثم لا تدخُّل لغير الله خلقاً وتدبيراً وقياماً ﴿تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾! في تكوين أم تشريع أمّا ذا من شؤون الربوبية.

و﴿بِٱلْحَقِّ﴾ هنا تتعلق بالكائن المقدر للسماوات والأرض، كما تتعلق بـ ﴿خَلَقَ﴾ ومن ثم:

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٤﴾:

﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ هنا بنو آدم فلا يشمل آدم وزوجه ولم يُخلقا من نطفة فإنما هو من تراب، وهي منه نفسه أم من ترابه، و﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ هي نطفة من مني يُمنى وقد عبر عنها في العَلق بالعلق: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾[(١)] فالنطفة هي العلق حيث تعلّق بالرحم وهي كالدودة العالقة، والعلق هي جنس ما تتعلق من علقات، وهي البحر المنوي الغائص في خِضِمِّه ملايين العلقات والدودات الجرثومية.

ويا لها من نقلة قصيرة بين المبدأ والمصير، بين النطفة العالقة الساذجة، وبين الإنسان المعلّق الخصيم، يخاصم خالقه وكل حق منه! فما لك أيتها الدودة الضئيلة والحشرة الذليلة والخصام مع أحسن الخالقين جهرة دونما استحياء؟! وعلى حدِّ المروي عن رسول الله ﷺ يقول الله أتعجزني

(١) سورة العلق، الآية: ٢.

وقد خلقتك من مثل هذه حتى إذا سويتك فعدلتك مشيت بين برديك وللأرض منك وئيد فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت الحلقوم قلت أتصدق وأنى أوان الصدقة[١].

هذا! كما ويخاصم في سبيل الله ليحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين.

أترى بعد ﴿خَصِيمٌ﴾ هي - فقط - صفة ذم للإنسان جدالاً بالتي هي أسوأ أم سوءاً، لمكان الذم في يس ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾[٢]؟ أم في سواها؟

وهذا من ضرب القرآن بعضه ببعض، وتفسير آية بما ليس في محتواها! فهناك الذم لائح فخصامه - كذلك - مذموم، ومنه خصامه المذكور في إحياء الموتى، وهنا لا ذم ولا مدح فتعم الخصامين: ممنوحة ممدوحة جدالاً بالتي هي أحسن، وهو منطق الحق، تفكراً فتحدثاً عن كل ما جلّ ودق ليحل الحق في أعلى محلّ، «فيكون خصيماً متكلماً بليغاً»[٣]، ثم مذمومة مقبوحة كالجدال بغير التي هي أحسن كمن يجادل في الله بغير علم ولا هدًى ولا كتاب منير.

وعلى أية حال فالمخاصمة الباطلة خصام باطل والمخاصمة الحقة خصام حق، فلا يحق تفسيره - فقط - بالباطل لأنه في بعض آياته مذموم

---

(١) الدر المنثور ٤: ١١٠ - أخرج ابن سعد واحمد وابن ماجة والحاكم وصححه عن بسر بن جحاش، قال: بصق رسول الله ﷺ في كفه ثم قال: يقول الله...

(٢) سورة يس، الآيتان: ٧٧، ٧٨.

(٣) نور الثقلين ٣: ٣٩ وفي تفسير القمي عن أبي جعفر عليه السلام في الآية قال: خلقه من قطرة من ماء نتن فيكون خصيماً متكلماً بليغاً.

بقرينة أنه باطل، فإنه تفسير باطل، فمثل قوله: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾[١] كآية يس وأضرابها، مقرونة بذم الخصام.

ثم ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾[٢] خصيمها الرسول ﷺ هو خصيم حق، ولكن لا يحق له أن يجادل الخائنين الذين لا يسمعون، ومن خصام الحق اختصام الملإ الأعلى: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾[٣] و﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾[٤] و﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾[٥] ومنه حقاً أو باطلاً وإنما هو مجرد الجدال: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾[٦] برهاناً لواقع فضل الذكور على الإناث.

ثم من الخصيم حقاً أو باطلاً مبين، ومنه من لا يكاد يبين لكلل وضعف في أداة البيان، لساناً وغير لسان.

ومن قوة الاختصام تحليقه على كافة القوّات جوارحية وجوانحية، استخداماً لها لتثبيت ما يُرام، فإنْ حقاً فقوة للحق وعزّة، وإن باطلاً فقوة له وغِرّة.

فيا عجباً من نطفة قذرة ضئيلة كيف تصبح خصيماً مبيناً، فإنْ حقاً فليشكر خالقه، وإنْ باطلاً فليختجل من خالقه «سبحان الخلاق العظيم»! إذاً فآيتنا ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ تتحمل الحسن والقبيح، والحسن هنا أحسن بمناسبة المقام وهو الاستدلال بخلق الله على الله، دون تقرير وقاحة الناس وتماديهم على الله!.

(١) سورة الزخرف، الآية: ٥٨.
(٢) سورة النساء، الآية: ١٠٥.
(٣) سورة ص، الآية: ٦٩.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ٤٤.
(٥) سورة ص، الآية: ٢١.
(٦) سورة الزخرف، الآية: ١٨.

﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ۝٥﴾:

﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ﴾ مذكورة جمعاً في (٣٢) موضعاً إضافة إلى سورة الأنعام، مما يدل على عظم النعمة فيها، وهي ثمانية أزواج: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖ﴾[١] ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ ... وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ ٱثۡنَيۡنِۗ...﴾[٢] إذاً فهي أربعة أصناف، ويدمج الأولين مع بعض باسم الغنم فهي ثلاثة.

وترى «الأنعام» ككل هي - فقط - هذه الأربعة؟ ﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ﴾[٣] مذكورة بعدها كأصناف منها كما ﴿وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗاۚ﴾[٤] لا تناسب هذه الأربعة إلّا الإبل! وهناك منها صنوف أخرى كالظبي وأضرابها مذكورة في القرآن وغير مذكورة!

إن هذه الأربعة هي رؤوس الأنعام ورؤساؤها، ثم الخيل والبغال والحمير، ثم أضرابها، و«من الأنعام» في ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ﴾ مما يلمح بعدم انحصارها فيها، وإنما تذكر فيها تذكر لبالغ أهميتها، لا وانحصارها فيها، وكما تشهد له ذكر الثمانية بعد ﴿وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗاۚ﴾ فإن الثمانية ليست حمولة وفرشاً إلّا الإبل، فلتكن هي أهم الأنعام وجلّها لا كلها: كما وتلمح أن منها ما خلقها في غير هذه الأرض، نظيرةً لما في الأرض أم مغايرة، إذاً فآيات تحليل الأنعام تشمل الثمانية وسواها، اللّهم إلّا بقرينة قاطعة تخرج من سواها كما قد تخرجها من الحِلِّ في بعض حالاتها كالصيد حالة الإحرام ﴿...أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٦.
(٢) سورة الأنعام، الآيتان: ١٤٣، ١٤٤.
(٣) سورة النحل، الآية: ٨.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٤٢.

﴿وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾[١] فصيد الأنعام حالة الإحرام يستثنى من الحل، فليكن قسم من الصيد من الأنعام ولا صيد في هذه الأربعة، اللهم إلّا في الوحش كالظبي وأمثالها، فآية المائدة - هذه - وهي آخر ما نزلت، إنها من الأدلة القاطعة على عموم الأنعام دون اختصاص بالأربعة.

و﴿لَكُمْ﴾ في ﴿خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ ذات تعلقين اثنين، أحدهما بـ ﴿خَلَقَهَا﴾ إعلاماً بأنها مخلوقة لصالحكم في الحياة مادية ومعنوية، وثانيهما بـ ﴿فِيهَا دِفْءٌ﴾.

فقد ﴿خَلَقَهَا لَكُمْ﴾ و﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ - ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾....

وليست الأنعام فحسب ﴿خَلَقَهَا لَكُمْ﴾ بل ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[٢]. فـ «كُم» أيّاً كان، هم المحور الأصيل في خلق الأنعام وكافة النعم، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾! والمذكور من نعمة الأنعام هنا خمسٌ أولاها ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ وهو خلاف البرد، وما يدفىءُ به، فرجل دفآن وامرأةٌ دفآى وبيت دفيء، كل ذلك بمعنى، ولم يُذكر دفء الأنعام إلّا في هذه اليتيمة.

ومن دفئِها البُيوت والملابس والأحذية والجوارب المصطنعة من جلودها وأصوافها وأوبارها وأشعارها: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾[٣].

ومنه أرواثها التي يتدفأ بها في البرد أم الطبخ أماذا من تدْفِيئات.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٩.
(٣) سورة النحل، الآية: ٨٠.

﴿وَمَنَٰفِعُ﴾ من كل أجزائها إلّا ما حرمه الله، وهذه المنافع - على مر الزمن - لا تُعد ولا تُحصى ومن أهمها: ﴿وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾ من لحومها ومن محاصيل ألبانها جِبناً وسِمناً وزبداً. ومن منافعها هي الزراعية، سماداً من أوراثها ككل، وإثارة للحرث من أبقارها ومن أشباهها، ومنها شحومها المعمول منها موادٌ شحمية، وما إلى ذلك من منافع مكشوفة لحد الآن كاستيلادها، وبيعها أو إيجارها، أو المنافع التي تكشف على مر الزمن والحاجيات المتجددة.

﴿وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ۝٦﴾:

و﴿تُرِيحُونَ﴾ من الإراحة، إراحة لأنفسكم ولها مساءً حين ترجعون إلى بيوتكم، ﴿وَحِينَ تَسۡرَحُونَ﴾ أنتم معها في المراعي التي تسرحونها فيها سراحاً جميلاً لكم ولها، وفي كل ذلك إراحةً ومسرحاً ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ﴾ الاستمتاع فارهةً رائعةً، وأهالي الأرياف يدركون ذلك الجمال تماماً أكثر مما يدركه أهالي المدن.

ولماذا يتقدم جمال الإراحة على جمال السرح بعكس الترتيب؟ علّه لأنها ترجع مليئة البطون حافلة الضروع، حاضرة الألبان، ولكنها عند السرح جائعة عادمة الألبان، فهي عند الإراحة أجمل منها من السرح، مهما كان للسرح جمال آخر ليس فيها.

فالجمال في الحياة الإنسانية عنصر أصيل من عناصرها، فليست نعمة الأنعام أمّاهيه من نعمة، هي - فقط - مجرد تلبية الحاجيات الضرورية الحيوانية من طعام وشراب وركوب أماهيه، بل وتلبية للأشواق الزائدة على الضروريات الحيوية، لحاسة الجمال ووجدان الفرح المرتفع عن حمأة الحيوانية، وكما أن عنصر الجمال للروح كمال، كذلك للجسم، مهما كان الأصل هو جمال الروح، والجسم بجماله تقدِمةٌ وذريعة إلى جمال الروح، و«إن الله جميل يحب الجمال».

﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ۝٧﴾:

﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ﴾ من القرائن الواضحة على عدم اختصاص الأنعام بالأربعة، فإن الحمولة منها ليست إلّا واحدة هي الإبل، ثم هناك حمولة أخرى هي الخيل والبغال والحمير ركوباً وحملة لسائر الأثقال: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗاۚ﴾[1].

وترى ذلك البلد هو - فقط - مكّة المكرمة كما في رواية؟[2] ولا يخصه حمل الأثقال! وهناك بلادٌ أبعد منه، ثم وليست مكة بعيدة إلّا للنائين عنها، و«كم» في ﴿أَثۡقَالَكُمۡ﴾ تعم كل الناس، الذين خُلقوا من نطفة وخُلقت لهم الأنعام! ولا سيما أهل مكة حيث السورة مكية فكيف لا تشمل أهلها، وتخص النائين عنها!

﴿إِلَىٰ بَلَدٖ﴾ هي «الى مكة والمدينة وجميع البلدان»[3] للنائين عنها، وقد تختص مكة من بينها مصداقاً لـ ﴿بَلَدٖ﴾ لأنها أصدق مصاديق ﴿بَلَدٖ﴾ دون البلوغ إليها فريضة على من استطاع إليها سبيلاً، فقد سهّل الله - فيما سهَّل -

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٤٢.
(٢) نور الثقلين ٣: ٤٠ عن الكافي أبو علي الأشعري عن محمد بن عبد الجبار عن صفوان بن يحيى عن عبد الله بن يحيى الكاهلي قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول ويذكر الحج فقال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: هو أحد الجهادين، هو جهاد الضعفاء ونحن الضعفاء، أما إنه ليس شيء أفضل من الحج إلا الصلاة، وفي الحج هاهنا صلاة، وليس في الصلاة قبلكم حج، لا تدع الحج وأنت تقدر عليه، أما ترى أنه يشعث رأسك ويقشف فيه جلدك وتمتنع فيه من النظر إلى النساء وإنا نحن هاهنا ونحن قريب ولنا مياه متصلة ما نبلغ الحج حتى يشق علينا فكيف أنتم في بعد البلاد، وما من ملك ولا سوقة يصل إلى الحج إلا بمشقة في تغيير مطعم أو مشرب أو ريح أو شمس لا يستطيع ردها، وذلك قوله: ﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [النحل: ٧] وفي العلل رواه مثله.
(٣) نور الثقلين ٣: ٤٠ عن تفسير القمي في الآية قال: إلى مكة و...

بالأنعام، البلوغَ إلى هذا البلد، والأكثرية الساحقة من المكلفين بعيدون عنها، لا يبلغونها إلَّا بشق الأنفس، لولا الرواحل الماشية، ولأن قاصديها فرضاً وندباً كثير فقصدها غير يسير إلَّا بشق الأنفس حتى للقريبين منها، ثم القاطنون فيها قلة أمام الكثير الكثير من قاصديها، وهم لهم شق الأنفس حين يقصدون الحج في رحلات إلى منى وعرفات، فالسفرات الشاقة إلى هذا البلد أكثر من غيرها وأشد عوداً وعُدداً لفرضها أو ندبها دون سواها.

و﴿أَثْقَالَكُمْ﴾ هنا تعم الراكبين عليها بأثقالهم التي يحملونها زاداً لأسفارهم، وشق الأنفس هي إنصافها من عُظم المشقة وبعد الشُّقة، حيث الشِّق هو أحد قسمي الشيء، وكأن الأنفس تنشق منقسمة إلى شقين، أم تنشق عن الأبدان كأنها ميتة، استعارة لطيفة لعُظم المشقة وبعد الشُّقة، أو إنه المشقة نفسها حيث تنصب وتدأب لبلوغ ذلك البلد.

وهنا لمحة لامعة أن رَكوب الأنعام ليست إلا للرُّكوب وحمل أثقال في السير، أم أكلٍ غير مرغوب كما يستفاد من آيات حِلِّه عموماً وإطلاقاً ف «إياكم أن تتخذوا ظهور دوابكم منابر فإن الله إنما سخرها لكم لتبلغوا إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس، وجعل لكم الأرض فعليها فاقضوا حاجاتكم»[(١)] و«اركبوا هذه الدواب سالمة ودعوها سالمة ولا تتخذوها كراسيَّ لأحاديثكم في الطرق والأسواق فرب مركوبة خير من راكبها وأكثر ذكراً لله تعالى منه»[(٢)] وأطوع[(٣)] فلا يجوز التحميل عليها فوق طاقتها أم فوق

(١) الدر المنثور ٤: ١١١ - أخرج ابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: إياكم.

(٢) المصدر - أخرج أحمد وأبو يعلى والحاكم وصححه عن معاذ بن أنس عن أبيه أن النبي ﷺ مر على قوم وهم وقوف على دواب لهم ورواحل فقال لهم اركبوا هذه الدواب. . .

(٣) المصدر أخرج ابن أبي شيبة عن عطاء بن دينار قال قال رسول الله ﷺ لا تتخذوا ظهور الدواب كراسي لأحاديثكم فرب راكب مركوبة هي خير منه وأطوع لله منه وأكثر ذكراً وأخرج=

حاجتكم، ولا ضربها إلا تقصيراً منها على قدره ولحد بلوغ الحاجة، ولا إجاعتها وتعطيشها ولا أي ظلم بها وتعدٍّ عليها، وانما لتبلغوا منها حاجة ميسورة غير معسِرة لها ولا مُحرجة إياها، بنفقة ميسورة محبورة، وإراحة متعوّدة محتاجة هي إليها.

﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ﴾ بكم ﴿رَّحِيمٌ﴾ حيث سهَّل لكم الحياة في كافة أصولها وفروعها.

أترى الشِّرعة القرآنية الخالدة كيف تخص خطابها في هذه الرأفة والرحمة بأصحاب الآبال والحمير والبغال، ونحن نعيش منذ قرن وإلى يوم الدين رواحل بحرية وتحت البحرية، وبرية وجوية غير حيوانية، والنعمة فيها أتم وأعم وأنعم من الأنعام وقد مضى دورها؟.

هنا إضافةٌ إلى إجابة الآية التالية، اتجاهٌ إلى الحاجة الأكثرية طول الزمان وعرض المكان، وعلَّ الرواحل المصطنعة تقضي نحبها بعد أمدٍ بعد أداء دورها، ثم وفي أدوارها أيضاً نرى للأنعام دوراً هاماً ولا سيما للضعفاء في حمل الأثقال براً، وليست الآية بصدد عرض كافة الحوامل، إلا البرية وهي الأكثرية، وأكثرها فيها هي الأنعام، ولا عطلة فيها على مرّ الزمن مهما تعطلت المركبات الصناعية بغور البترول اماهيه من حمولاتها.

﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨﴾:

«و» خلق ﴿وَٱلْخَيْلَ﴾ ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؟

لقد ﴿خَلَقَ﴾ الأنعام دفئاً وأكلاً ومنافع وجمالاً وحملاً للأثقال، «و» خلق ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ وهي الأنعام التي تخص بأنها

= أحمد والبيهقي عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: لو غفر لكم ما تأتون إلى البهائم لغفر لكم كثير.

حمولة وفرش، وليست للأكل، مهما حلت له بدليل آية حِل الأنعام ككل إلّا ما يتلى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾[١] وليست هذه الثلاث مما يتلى علينا! ولا تصلح ﴿لِتَرْكَبُوهَا﴾ هنا، و﴿حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾ في: (٦: ١٤٢) و﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾[٢] لا تصلح بياناً لما يستثنى عن محلَّلة الأنعام، حيث الحمولة والفرش من الأنعام هي التي يستفاد منها هكذا مهما حل أكلها، وكذلك الأكل هي التي تؤكل مهما حل جعلها حَمولة وفرشاً كالإبل والبقر، ولا تصلح دليلاً لحرمة الأكل إن خُصَّت الأنعام بالثلاث، وقد يُؤوَّل نهي النبي ﷺ - إن صح عنه - عن لحوم الخيل والبغال والحمير[٣] إلى الكراهية المصطلحة دون الحرمة، وقرينة السياق لا تعارض صريح القرآن، والسنة لا تنسخ الكتاب.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١.
(٢) سورة غافر، الآية: ٧٩.
(٣) الدر المنثور ٤: ١١١ - أخرج أبو عبيد وأبو داود والنسائي وابن المنذر عن خالد بن الوليد قال: نهى رسول الله ﷺ عن أكل كل ذي ناب من السباع وعن لحوم الخيل والبغال والحمير.
وفيه عن جابر بن عبد الله قال طعمنا رسول الله ﷺ لحوم الخيل ونهانا عن لحوم الحمر الأهلية، أقول: والخيل والحمير في الآية في سياق واحد حلاً أو حرمة فلا يفرق بينهما إلا في مراتب الكراهية. وعن جابر في نقل آخر أنهم ذبحوا يوم خيبر الحمير والبغال والخيل فنهاهم النبي ﷺ عن الحمير والبغال ولم ينههم عن الخيل.
أقول وعلّ الكراهية في هذه الثلاث، إضافة إلى مصلحيات صحية، هي لأنها أصلح للحمل من الأكل، ففيما يستفاد منها للحمل لا تؤكل لأنه إسراف.
وفي نور الثقلين ٣: ٤١ عن تفسير العياشي عن زرارة عن أحدهما عليه السلام قال: سألته عن أبوال الخيل والبغال والحمير؟ قال: فكرهها، فقلت: أليس لحمها حلال؟ قال فقال: أليس قد بين الله لكم ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [النحل: ٥] وقال في الخيل: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل: ٨] فجعل الأكل من الأنعام التي قص الله في الكتاب وجعل للركوب الخيل والبغال والحمير وليس لحومها بحرام ولكن الناس عافوها.
=

أو يقال «﴿وَنَهَى﴾ ليس إلا قولة الراوي، وأما كيف نهى هنا وهناك فغير واضح، والفارق هو الكتاب والسنة.

ولأن ذكر هذه الثلاث بعد عموم الأنعام، ذكر للخاص بعد العام، فقد تختص من بينها بالركوب والزينة كفائدة زائدة على الأكل وسواه من منافع، وكراهية أكلها على حليته مستفادة من عدم ذكرها في عداد الأنعام التي تؤكل، مهما أدمجت في عموم ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾[١] ولم يُتلَ هناك ولا في غيرها حرمة هذه الثلاثة، وقد تلي هنا حرمة عرضية ﴿غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ﴾[٢] و﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾[٣] مما يبرهن أن لو كان هناك محرم ذاتياً لتلي علينا.

وطبعاً شرطَ سائر مبرراته ومنها عدم الإسراف، فالفرس الرَّكوب الذي يسوي - مثلاً - ألف دينار، وهنالك من الغنم بوزنه يسوي مائة دينار، ولحم الغنم أشهى وأطعم من الفرس، هناك يحرم لحم هذا الفرس لأنه من السَّرَف المنهي، لا لأنه فرس!. ومن ثم فـ «ليس جعله الله للأكل»[٤] فلا يؤكل إلَّا عند الحاجة أو عدم السرف.

ثم ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ تعقيب عجيب للأنعام أكلاً وحمولة وفرشاً، ليظل المجال مفتوحاً في التصور البشري لتقبُّل أنماط جديدة من الركوب والزينة، ولكي يجدُّوا السير في اصطناعها حسب المستطاع كما جدُّوا

= وفي تفسير البرهان ٢: ٣٦١ - الشيخ في التهذيب بإسناده عن أحمد بن محمد عن محمد بن الخالد عن قاسم بن عروة عن ابن بكير عن زرارة عن أحدهما في أبوال الدواب تصيب الثوب فكرهه فقلت أليس لحومها حلالاً؟ قال: بلى ولكن ليس مما جعله الله للأكل.

(١) سورة المائدة، الآية: ١.

(٢) سورة المائدة، الآية: ١.

(٣) سورة المائدة، الآية: ١.

(٤) مضت روايته آخر ما أوردناه تحت الرقم (١) قبل صفحة.

ووجدوا جُدَداً من وسائل السير برية وبحرية وجوية، ما تحير العقول، ولقد جدّت لحد الآن وسائل حديثة ما كان ليعلمها أهل ذلك الزمان، وستجدُّ وسائل أخرى هي أحدث وأرقى لا نعلمها نحن، والقرآن يهيئ لكل جديد وجديد القلوب والأذهان، لمستقبلات الزمان، بجملة جميلة دون مجاملة ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

لا تقل إن هذه المصطنعات ليست من خلق الله، فإن المخترعين والمكتشفين أياً كانوا وأيّان، هم - بعلومهم وأفكارهم وكل وسائلهم - من خلق الله، وخلقهم - لو صح التعبير - هو من خلق الله، مهما كان لهم حول وقوة لاستقبال كل ما تتمّخض عنه العلم والقدرة، فإن كل ذلك من خلق الله!.

فذلك إنباءٌ عام عن كل ما يستجدُّ من وسائل النقل دون إبقاءٍ، فإن «يخلق» تحلّق على كل زمان ومكان، و﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ يشمل كافة المجاهيل زمن نزول القرآن من مركبات وآليات مستحدثة بعدها إلى يوم الدين. و«يخلق» هنا يعم كل خلق «لا يعلمون» سواء ما لن يعلمه إنسان على طول الخط كالمركبة المعراجية التي عرجت بالرسول إلى أعلى الآفاق السماوية، وأضرابها من أسباب السماء.

و﴿لِمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾[1] زمن نزول القرآن إلى زمن اختراع الآليات والمَرْكبات الحديثة البترولية والكهربية أم والذّرية أماهيه.

و﴿لِمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾ في كل زمن عما يستقبلهم من مخترعات جديدة.

الخلق يعم خلق المادة المخلوق منها البعض من هذه المركبات، أم خلق تركيباتها كالبخار والكهرب والجزئيات بذراتها، في كل تطوراتها الحديثة على ضوء تقدم العلم، تشملها كلها ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ما

(١) سورة النحل، الآية: ٥٦.

للإنسان فيه صنع أم لا صنع له فيه، فكلٌّ من خلق الله، فيا ربنا إنا علمنا بما علمتنا ما لم نكن نعلمه من عجائب الكهربات والجزئيات والذرات، خزنتها لنا ونحن في طفولة العلم، ولما بلَّغتنا إلى رجولته وترعرع نوع الإنسان، كشفت لنا عن خزانتك وحملتنا عليها في البر والبحر والفضاء.

اللهم إننا بعدُ أطفال جهال لا نزال نستقبل جدداً برحمتك، فكما ارتقت مدينتها المادية بنبوغ العقل ونبوع العلم، فنتائج لهما قامت مقام الدواب، فعلِّمنا ما نرتقي به إلى عوالم روحية راقية لنقوم مقام الملائكة فتكشف لنا أسباب السماء كما كشفت أسباب الأرض.

أجل وإن شرعة القرآن مَشرعة مفتوحة مَرِنة قابلة لاستقبال طاقات الحياة ومقدراتها كلها، فهي تحضِّر الإنسان بكافة الحضارات التي تتطلبها هذه الطاقات، شرعة حضارية تَمشي مع الزمن، وتُمشِّي أهل الزمن، ولِيجدَّ الركب الإنساني مسيره إلى مصيره مادياً ومعنوياً على قرار القرآن وغراره، دونما وقفة عن الحِراك، ولا أن يُغلب في العِراك.

وترى ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ تختص بخلق المركبات الحديثة - فقط - بدلاً عن حمولة الدواب وفرشها؟ والعطف عام يحلِّق على كل ما يصلح معطوفاً عليه من خلق السماوات والأرض، وخلق الإنسان من نطفة، وخلق الأنعام دِفئاً ومنافع وأكلاً وجمالاً وحمولة، فقد يخلق الله سماوات جديدة وأرضاً جديدة بعد القيامة الكبرى، ثم وإنساناً جديداً، أهو هذا الإنسان حيث يُحيى بحياة جديدة على غرار النطفة التي خلق منها أول مرة، أم وإنسان آخر يُخلق كما خلقنا، ويعيش كما عشنا أم سواها ثم تقوم قيامته كما قامت قيامتنا؟ اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾!.

ومن ثم أنعاماً جدداً بحذافيرها، وأبدالاً من الأنعام في كل معطياتها، فالدفء الذي كان من جلود الأنعام وأشعارها وأوبارها وأوراثها، يحصل من الكهرب الذي ينوب منا بها، وكذلك سائر منافعها، فترى الكهرباء سبباً

لظهور الأزهار بسرعة هائلة، ولكثرة البيض بتغذية الدجاج ليلاً على ضوئها، ثم ونورها مدهش وجميل فهي زينة بعد التدفئة والأكل.

أجل، وكل المنافع العائدة من الأنعام، المعلومة لدينا، تضاف إليها منافع زائدة من خلفاء الأنعام، المجهولة عندنا أياً كنا وأيان، وفي أي زمان ومكان، فإن ﴿لَا تَعْلَمُونَ﴾ تعم كل إنسان أم جان أم أياً كان من كائن يصح خطابه.

وعلى أية حال فـ ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ تحمل بطياتها كلمّا يحصل من جديد في الاستقبال، من كافة صنوف المخترعات التي هي في مستوى علم الإنسان، وما ترتفع عن مستواه من سائر الأسباب الأرضية وفوق الأرضية، وقد سخر بعضاً منها للأخصين من عباده الصالحين كذي القرنين، وسليمان وداود وصاحب الأمر عليه السلام وسائر المعصومين، ووليهم الأولى بها الرسول الأقدس محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (٩)﴾:

﴿وَمِنْهَا﴾ تعني من السبيل مؤنثاً، فلماذا ﴿جَائِرٌ﴾ مذكراً؟ عله اعتباراً بالبعض المستفاد من ﴿وَمِنْهَا﴾ و﴿السَّبِيلِ﴾ جاءت في سائر القرآن بمختلف صيغها (١٧٥) مرة هي في عشر منها بصيغة الجمع وفي سائرها مفرد، ولكن الصراط لم يأت إلَّا مفرداً مما يدل على وحدته وكثرتها، فمن السبيل سبيل الله وهي أكثرها ذكراً سبيلاً قاصداً، ومنها سبيل الطاغوت وهي الجائر، وقد تلمح ﴿جَائِرٌ﴾ مذكراً والسبيل تؤنث في ﴿وَمِنْهَا﴾ إنها ذات وجهين ذكورة وأنوثة، والوجهان مذكوران في آيات عدة، فـ ﴿لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾[1] ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾[2] هما وأضرابهما

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٩٩.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٤٥.

في وجه الأنوثة، ثم ﴿وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾[١] ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾[٢] هما آخران في وجه الذكورة، والوجهان وجيهان سناداً إلى مجيئهما في القرآن.

والسُّبل منها قاصدة إلى الله ومنها جائرة تفرِّق عن سبيل الله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾[٣].

وقد «كتب - الله - على نفسه الرحمة» ومنها ﴿قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ تشريعاً وتكويناً، في الآفاق وفي الأنفس، ولكنها في كلٍّ أبعادها تخيير لا تسيير ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ تسييراً على سبيله القاصدة غير القاسطة الساقطة: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾[٤].

و﴿قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ قد تعني المصدر، فعلى الله نفسه قصد السبيل، وهي بطبيعة الحال السبيل المستقيم وإلى الصراط، أو تعني الفاعل صفة مضافة إلى موصوفها: «السبيل القاصدة» للحقِّ ﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾ حيث لا تقصد الحق، والمعنيان - علهما - معنيّان تعنيان «وعلى الله قصد السبيل القاصد» قصداً أنفسياً وآفاقياً إلى الصراط المستقيم.

فالسبيل إلى الصراط المستقيم هي سبيل قيِّمة مستقيمة إلى الله، وهي السبيل إلى صراط الإنسانية الكاملة ومتطلباتها على ضوء الوحي بصورة شاملة وكما عرضنا في ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾.

ثم السبيل على مصدرية القصد هي سبيل الله، وهي مرجعاً لضمير «منها» أعم منها استخداماً، وعلى فاعليتها هي مطلقها دون استخدام الضمير «ها» فإنها السبيل القاصد، مرجعاً لها دون وصفها.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٤٦.
(٢) سورة الحجر، الآية: ٧٦.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٥٣.
(٤) سورة السجدة، الآية: ١٣.

و﴿قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ هو سبيل الله، وهو سبيل صالح الإنسان في كل أدواره الحيوية الصالحة، ليصنع نفسه كما يرضاه الله، وليتقرب إلى الله زلفى، دون وصول إلى الله، أم اتصال بالله، فضلاً عن الاتحاد مع الله كقالة بعض المتصوفة القائلة: «أنا هو وهو أنا»!.

وكيف تكون السبيل جائراً وصاحبها هو الضال نفسه حيث ينحرف عن سبيل الله، وينجرف إلى سبيل الطاغوت، وجار عن الطريق تعني ضل عن نهجه وخرج عن سمته؟ إن السبيل الجائر هو سبيل الشيطان، المتخلف عن سبيل الرحمن، فالجائر يقصد السبيل الجائر المائر الحائر، والسائر إلى الله يقصد القاصد غير المائر والحائِر، فلذلك ﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾ كما منها غير جائر وهو قصد السبيل.

فالفطرة التي فُطِر الناس عليها هي من قصد السبيل، وسَترها عما هي وما تقتضيه هو من جائرها، والعقل من قصدها، والهوى المتغلبة على العقل من جائرها، فـ «إنارة العقل مكسوف بطوع الهوى».

والشرعة الإلهية من قصدها، والشرعة غير الإلهية من جائرها.

والإبصار بالدنيا إلى ما وراءها هو من قصدها، والإبصار إليها من جائرها وعلى حدِّ قول الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ في صفة الدنيا «من أبصر بها بصَّرته ومن أبصر إليها أعمته».

فـ ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ كما كتب على نفسه ﴿قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ تكويناً وتشريعاً ﴿فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾[1]!.

وترى ما هي الصلة بين آية قصد السبيل والتي قبلها من خلق السماوات والأرض والإنسان والأنعام؟.

(١) سورة فصلت، الآية: ٥٣.

علها أنهما تبينان ظاهر السبيل وباطنها وهما سبيلان في حياة الإنسان، بهما يتكامل في بعدية الجسداني والروحاني.

فكما أن الله خلق السماوات والأرض والإنسان والأنعام، وليجتاز الإنسان في فسيح الكون مسافات ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ﴾. كذلك خلَق الفطرة والعقل، وشرّع الشرع لاجتياز العقبات الكؤودة إلى الله ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ﴾ بل ولا بشق الأنفس، وهي البلدة الإنسانية الروحانية، والربانية، فلولا قصد السبيل على الله، وجعلها من الله، لم يكن للإنسان سبيلٌ إلى الله، وإنما قصد السبيل على الله دون جائِر السبيل، إذ ليس جائرها إلَّا خروجاً عن قصدها، وليس ذلك الخروج مجعولاً كأصلٍ وجاه قَصدِ السبيل، فإنما هو تخلُّف عن الأصل! وأما آيات الإزاغة والإضلال والختم، فإنها لا تدل على أن جائر السبيل أصل أولي كقاصدها حتى تكون على الله كما القاصد، وإنما الجائر فيها جزاءٌ وفاق كأصل ثانوي: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[1] وأما القصد فليس جزاء للقاصدين، بل هو يعم كافة المكلفين فطرة وعقلية وشِرعة، فـ ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[2] إذاً فقصد السبيل أصلٌ هو قضية الفضل، وجائرها الجزاء الوفاق فرعٌ هو قضيةُ العدل، وأين عدل من فضل وفرع من أصل؟.

فالهدى الأولية أصل ثابت تعم كل شيءٍ: ﴿الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[3] ومن الهدى بيان الحق عن الضلال تعريفاً بهما لكي يكون السالك

---

(١) سورة الصف، الآية: ٥.
(٢) سورة الإنسان، الآية: ٣.
(٣) سورة طه، الآية: ٥٠.

على بصيرة من أمره: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾[1] ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾[2] إلهاماً بلا إلمام إلَّا في تقواها، فهو إلهام التعريف بهما.

ولأن قصد السبيل هو مما كتب الله تعالى على نفسه من الرحمة، وقصد الجائر هو خلاف الرحمة، فلم يدخل هو في قصده إلا ثانوياً إذا استحقه الجائر، جزاءً بما جار، وأنه ليس في المرحلة الثانوية إلَّا هادياً لمن اهتدى أو مضلاً لمن ضل، وأما أن يهدي من ضل تسييراً فذلك خلاف الرحمة على المهتدين وخلاف الحكمة للضالين!.

ولماذا هناك ﴿قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ مصدراً، وهنا ﴿جَآئِرٌ﴾ فاعلاً؟ لأن المصدر أدل على المبالغة، مهما دل عليها جائر السبيل بسبيل أدنى، وإن ﴿قَصْدُ﴾ قد يُعنى منه إضافةٌ إلى فاعله، إضافةٌ إلى فاعله: السبيل القاصد، يعني فعل القصد من الله، وكأنه لا فعل له إلَّا قصد السبيل ليسلكها العالَمون.

إذاً فعلى الله قاصد السبيل، وقصد ذلك السبيل، تقريراً للسبيل القاصد، وعناية إلى قاصدها ليقصدها كما يحق ويصح.

ولأن ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ قد يخيَّل إلى جماعة أنه تسيير، وإلى آخرين أن الأكثرية الساحقة غير السالكة سبيله القاصد متغلِّبون على قصد السبيل وقد كتبها الله على نفسه، لذلك يذيِّلها بما يزيل هذه وتلك ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ بياناً أن ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ لا يعني الإرادة التكوينية والتسيير، بل ما يلائم الاختيار دون أن يُغلب الله على أمره.

فمن المستحيل في الحكمة الربوبية أن يشاء هدى المكلفين دون اختيار ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ دون أن يفلت أي فالت، أو أن يلفت إلى غير القاصد أي لافت.

---

(١) سورة البلد، الآية: ١٠.

(٢) سورة الشمس، الآيتان: ٧، ٨.

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ١١﴾:

الماء نعمة بالغة فائقة، ولا سيما النازل من السماء، وكل مياه الأرض في الأصل هي من السماء، و﴿أَنزَلَ﴾ هنا دون «ينزل» قد تعني ذلك النزول الأوّل: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَسۡكَنَّٰهُ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابِۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾[1] مهما يستمر على طول الخط بَعد الأوّل في تبخُّرات إلى السماء ثم سحاب ثم ترى الودق يخرج من خلاله، وماء السماء ﴿مِّنۡهُ شَرَابٞ﴾ يصلح له لكل شارب إنساناً وحيواناً ﴿وَمِنۡهُ شَجَرٞ﴾ وهو هنا كل متشجر من نابتات الأرض، الشامل لغير ذي ساق قائم بنفسه حيث ﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ رعياً للمواشي، فإنه الأكثرية الساحقة من أُكُلها، دون ذي السوق القائمة، اللهم إلّا أوراقها.

فليس الشجر - فقط - ذا الساق القائم، بل كل نابت كما هنا، أم هو غير ذي ساق كما في ﴿وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ﴾[2] فالقول إنه - فقط - ذو الساق خلاف المستفاد من شجر القرآن.

ثم هناك ﴿شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ أنعامكم كالعُشب وأوراق الأشجار، وهنا شجر فيه تَسيمون أنفُسكم كالزرع وسائر الخضروات والثمرات.

﴿يُنۢبِتُ﴾ الله ﴿لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ﴾ كلما يزرع ﴿وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ﴾ كأفضل ما يزرع ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ﴾ النابتة من الأرض ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الإنبات الإحياء ﴿لَأٓيَةٗ﴾ على إمكانية الإحياء بعد الممات ﴿لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ كيف ظهرت الحياة من اجتماع عدة ميتات ماءً وأرضاً وحبات، فليكن كذلك

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١٨.

(٢) سورة الصافات، الآية: ١٤٦.

وبأحرى إحياء الأموات يوم القيامة، حيث الإحياء هنا فضل غير مفروض، وهو هناك عدل مفروض وكما فيه آية على المبدأ الواحد القاصد المختار بدليل مختلف الخلق، المنسجم بعضه مع بعض، فالمادة غير العاقلة لا تصدر منها إلَّا واحدة - لو صح الصدور - والآلهة المتعددة لا تأتي إلَّا بخلائق متفاوتة «سبحان الخلاق العظيم»!.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ﴾ هو جعل الليل والنهار والشمس والقمر ملبية لحاجيات إنسان الأرض، مهما كان فيها منافع لما في السماء ومَن فيها، وهذه الأربع ذوات آثار حاسمة في الحياة الأرضية، فكلٌّ دون قرينه لا تلبّي الحاجة كما تجب، أم وتعسّر الحياة أو تحيلها.

ولماذا ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ﴾ دون النجوم فإنها ﴿مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ هنا وفي الأعراف (٥٤)؟ بفارق أن ﴿مُسَخَّرَٰتٍ﴾ هنا مرفوعة وهناك منصوبة؟ علّه لأن غالبية انتفاعات النجوم ككل هي لسائر الخلق، مهما كانت لنا نافعة، كما ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾[1] فـ ﴿وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍ﴾ معطوفةٌ جملة على الجملة السابقة.

فمن النجوم ما لا تنالها العيون المسلحة فضلاً عن المجردة، فضلاً عن أن نهتدي بها في ظلمات البر والبحر أم أية عائدة منهما، اللهم إلَّا بعيدة غير مشهودة.

ولأنها كلها مع الأربع الأولى، مسخرات بأمره وتدبيره، كما هي كائنات بخلقه ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾[2] فليست لتتفلت عن أمره أو تتلفت إلى غير

(١) سورة الأنعام، الآية: ٩٧.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٥٤.

أمره، فهي منضَّده منظَّمة كما أمر الله، منساقة إلى ما ساقها الله، فهي إذاً من آيات الله كوناً وكياناً وتوحيداً لله ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾:

الذرءُ هو اظهار المُبدىء: ﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾(١) ﴿جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾(٢) وسخر لكم ﴿وَمَا ذَرَأَ﴾ وأظهر ﴿لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ ذرأ للزرع والضرع وسواهما من ألوان المعادن وسائر المركبات العنصرية، وأصلها واحد كما عرفه العلم اليوم فهو ذرء لمختلف الألوان ذرياً وجزيئياً وعنصرياً وألواناً أخرى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ۚ﴾(٣) ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ بذكريات علمية وعقلية، فمختلف الألوان لا يُذرأ من أصل واحد ولون فارد إلَّا بمختلف ألوان الذرء بمختلف القصد والاختيار.

فالأصل واحدٌ في الظاهر وهو المادة الأرضية، وواحد في الواقع علمياً حيث العناصر والجزئيات والذرات المختلفة ترجع إلى شحنة موجبة (بروتون) وأخرى سالبة (الكترون) أم وثالثة أو رابعة خنثى (نيوترون) (بوزيترون) أما ذا؟ وهذه أيضاً ترجع إلى المادة الفردة الأمّ!.

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٧٩.
(٢) سورة الشورى، الآية: ١١.
(٣) سورة الرعد، الآية: ٤.

عجائب الألوان فيما ذرأ في الأرض:

وإليكم مثالاً دقيقاً لمختلف الألوان في خلق واحد: فراشة أبي دقيق:

فأجنحة الواحدة منها تبلغ مساحتها (١٥) بوصة وقد رسمت في هذه الساحة الصغيرة بيوت متجاورة صغيرة بشكل هندسي منتظم، وتلك البيوت تبلغ في بوصة واحدة مربعة (٩٩) ألف بيت، لأنها (١٦٥) صفاً وكل صف فيه (٦٠٠) بيت، إذاً فجميع البيوت المنظمة في أجنحة الفراشة تبلغ ١,٥٠٠,٠٠٠ بيت وهي عبارة عن مخازن كل مخزن فيه كيس مختوم، وهو إما مملوءٌ هواءً أو مادة ملونة، والملونة متى وقعت عليها الشمس ظهرت لنا بصورة بديعة تسر الناظرين، والهواء المحبوس في الكيس هو الذي يعكس ما تراه في الحشرة إذ ترى زرقة وبياضاً وصفرة بانتظام، سبحان الخالق الملك العلام!»[١].

وترى لماذا ذلك النظام الهام وتلك المواد الملونة والهواء، الذي ملئت به تلك الحقائب البالغة ١,٥٠٠,٠٠٠؟ كل ذلك لأمور منها حفظ الفراشة من أعدائها، فإذا رأت مهاجماً عليها ضمت أجنحتها ووقفت على زهرة فصارت تشبهها فتلتبس بها فتحفظ من العدو! ولماذا ذلك الحفظ البالغ؟ لأمور منها أن تعيش على ورق قطننا وتمتع في قصور ونور فيخسر الزارعون وهي الجانية الكاسبة! فما أعجب ذلك الصنع البارع البديع، هواء محبوس يعكس الضوء، ومادة ملونة تظهر بنور الشمس، سبحان الخلاق العليم الحكيم.

كما وأنك ترى هذه البيوت على نوعين، بيوت فيها مادة ملونة، وأخرى هواء يقوم مقام الزجاج، وفراشتها كذلك نوعان، قسم يعيش في البرازيل زاهي اللون وبديعه، قد أعطي مادة بشعة الطعم منتنة الريح تفرزها الفراشة

(١) للعالم الامريكي (فرنن كلوح) البيولوجي - لألوان حشرة أبي دقيق.

على مهاجميها فترتد عنها، وقسم آخر لم يُعطَ هذه المادة، يسمى الأول الملك والثاني نائب الملك، فالأول تخافه أعداؤه لتلك المادة، والثاني لمشابهته الأول في لونه، فتظن الطيور أنهاهيه.

فإذ قد نرى بعيون مسلحة في فراشة واحدة صنوف الألوان وألوان الصنوف، فكيف ترى - إذاً - ذلك الكون الشاسع العظيم، سبحان الخلاق العظيم!.

وفي مختلف الألوان إضافة إلى ألوان من هذهِ الحِكَم، ونضارة المنظر، ألوان أخرى من فوائد طبية وسواها.

فهل خطر ببالك يوماً مَّا أن لون الزرقة كلون السماء والبحر الملح يقويك إذا كنت نحيف الجسم أو في دور النقاهة؟! أو أن اللون البنفسجي يمنع عنك الأرق والسهر فتنام! أو أن لون الصفرة مُنَشِّط منبِّه كما ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾[1]! وهو يفيد أصحاب الماليخوليا، ويهدئ الأعصاب ويلطِّف ثورتها ما لم يكثر استعماله فيعاكس الأثر! أو أن لون الحمرة يحدث تخديراً بتكرار النظر كما تفعل المواد المخدرة.

وأنها تزيد المجنون جِنة ويهيِّجه كما يحصل لثيران إسبانيا في صراعها! أو أن المجنون إذا كان في غرفة زرقاء، هدأت أعصابه! وأن البائس اليائس إذا داوم النظر إلى الحمرة زالت علته!.

أو أن الزكمة والشلل وبعض الأمراض المزمنة تخف آلامها بالنظر إلى الصفرة! وأن المحموم يستضر بها! وإن اللون البرتقالي منبِّه! والخضرة تهدئ الأعصاب.

إن الأطباء في بضع السنين الماضية قاموا بتجارب لاختيار تأثير العلاج بالألوان، وأوّل من أشار بمعالجة الألوان الدكتور (أدوين دابت) من أطباء

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٦٩.

(نيوجرسي) بأمريكا، وقد ألف كتاباً بشأنه طبع في أواخر القرن (١٩) وما فيه: إن اللون كالموسيقى يؤثر في المجموع العصبي تأثيراً عظيماً يظهر أثره جلياً في علاج الاصطدامات العصبية والنورستانيا والسوداء، كذلك ويؤثر في العقل ثم ينشأ عنه ردة فعل في المجموع العصبي على سبيل أشبه بالاستهواء أو الإيحاء، والثابت الآن أن اللون الأزرق يفيد في تقوية الضعاف في طور النقاهة، والبنفسجي خاصته الشفاء ويفيد في علاج الأرق.

إن الإفراط في النظر إلى اللون الأحمر قد يفسد التوازن العقلي كما ذكر الدكتور رابت أن المجانين والمصابين بأمراض عقلية إذا وضعوا في غرفة حمراء ساءت حالهم بسرعة، وبالعكس إذا وضعوا في غرفة زرقاء هدأت حالهم، وقد استعمل الدكتور (بونزا) مدير مستشفى المجانين بمدينة (اليساندريا ببيد مونتي) غرفة حمراء لبعض المصابين بحالات اليأس فكانت النتيجة مدعاة إلى الارتياح.

واستعمل اللون الأصفر في معالجة الزكام والشلل وبعض الأمراض المزمنة فخفت كثيراً، وقد ثبت إنه مضر بالحميات وقد يؤدي لهم إلى الالتهاب والبحران، وأما المصابون بالجنون فقد أفادهم كثيراً خلاف الأحمر.

واللون البرتقالي هو من الألوان المنبهة، واللونان: القاني والبنفسجي الفاتح هما من الألوان الملطفة للأعصاب، والأخضر مهدئ للاضطرابات العصبية كالمخدِّرات، وذكر الدكتور (بونزا) تجارب أجراها بغرف ملونة فقال: إنه وضع رجلاً مصاباً بالماليخوليا والعبوسة وقلة الكلام في غرفة حمراء، فبعد ثلاث ساعات أصبح الرجل طروباً ضحوكاً، ووضع عليلاً آخر كان يرفض الأكل وقد نحل جسمه، فبعد أربع وعشرين ساعة نشأت فيه شهوة الطعام ورجع إلى حالة طبيعية.

ويؤخذ من تقارير مستشفى (لندن) أن العلاج بالألوان قد جاءت بفائدة عظيمة جسيمة في الأمراض المختلفة، وأن الألوان: الأصفر - القرنفلي - الوردي - الأزرق السماوي - الأخضر - والبنفسجي بنوعيه القاتم والفاتح، هي أهم الألوان العلاجية.

وذكر الدكتور (رابت) أن الأزرق هو أهم الألوان في علاج اضطرابات العقل والأعصاب، وأن عامة الألوان تؤثر في الرجال أكثر من النساء، وأن الحيوانات تتأثر كثيراً باللون القرمزي، والأصفر الفاتح، والأخضر الطبيعي، وأن الطيور تتأثر باللون الأخضر، والحيَّات باللون الأصفر لحد يستهويها ويسقطها في شبه سبات مغناطيسي، وأن اللونين: الأزرق الباهت والأخضر الباهت يلطِّفان أعصاب الطفل المتهيج، وأن تسعة وتسعين في المائة من الناس بحاجة إلى اللون الوردي(١).

* * *

وترى ما هو الفارق بين هذه الصنوف الثلاثة من الآيات حيث فرق بين أقوامها بـ «يتفكرون ويعقلون ويذكرون»؟.

علّه لأن الحجة الأولى تحمل ما يكفي في إنتاجها مطلق التفكر، دون إمعان زائد إلَّا نضد المبادئ ومن المبادئ إلى المراد، والفكر حركة من المبادئ ومن المبادئ إلى المراد.

ولكنما الحجة الثانية بحاجة إلى تفكير زائد وعقل رائد ومقدمات علمية سائدة، غوراً في أغوار العلويات، في تسخُّر الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم المسخرات.

والحجة الثالثة بحاجة إلى مقدمات علمية وأخرى فلسفية، استبطاناً

---

(١) كل ذلك ينقله الشيخ الطنطاوي في جواهره: ٨: ١١٠ - ١١٤ عمن ذكرناهم، اختصرنا منه ما يهمنا هنا.

لمختلف ألوان الكائنات أنها ترجع إلى لون واحد ومادة فردة أولى، فاستنباطاً من اختلاف الألوان أن هناك تصميماً واختياراً وانتخاباً، فليكن الخالق مريداً حكيماً مختاراً، ومن وحدة النضج وتلائم النسج أن المصمِّم واحد لا شريك له، وفي هذه الثلاث استجاشة لإعمال الفكر والعقل والعلم، ولكي نعرف مبدأ الكون ومسيره ومصيره، فنكون على بصيرة من أمرنا في الحياة كل الحياة.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾:

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(١).

فالبحر هناك كما هنا يعم العذب الفرات والملح الأجاج، سخره الله لمن سخر ومنهم نحن الآكلون منه لحماً طرياً.. إذ لم يأت هنا «لكم» وإنما ﴿لِتَأْكُلُوا۟...﴾ مما يلمح أنه مسخر لجموع منهم نحن الناس، فالبحر مسخر لحيوانه، ولجنّه كما لإنسانه أمّن هو من المسخَّر لهم، غير المذكورين هنا.

و﴿لِتَأْكُلُوا۟﴾ هنا كغاية أولى لتسخير البحر، ضابطة عامة لحل كل لحم في البحر طري، من أنواع الأسماك والحيتان وسواها من ذوات اللحم، فإذا ثبت بكتاب أو سنة استثناء لحم من حِلّه استحرمناه، وإذا ثبت حلّ شيء منه بنص كالأسماك ذوات الأفلاس والروبيان استحللناه، وإذا ترددنا في ثالث حلاً وحرمة أبقيناه في عموم الحلّ سناداً إلى ضابطة

(١) سورة فاطر، الآية: ١٢.

﴿لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ إضافة إلى قاعدة الحل المستفادة من مثل ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[1] فالكلب والخنزير وكافة السباع البحرية محرمة كالبرية للنصوص المطلقة فيها الشاملة لهما، كما تحرم غير ذوات الأفلاس من الأسماك حسب النص الخاص، فإذا ترددنا في سمك ليس له فلس بالفعل أنه في الأصل من ذوات الأفلاس حتى تحل، أم غيرها حتى تحرم، كالخاويار، حللناها تمسكاً بإطلاق الحِلِّ، حيث الثابتة حرمتها منها هي فقط غير ذوات الأفلاس في الأصل، وهذا مشكوك باق تحت رحمة الإطلاق.

وكذلك الأمر في ﴿وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ كاللؤلؤ والمرجان: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾﴾[2] فلا يختص بحلٍّ شيء منها، أم بحرمة لرجال أم نساء على كل حال أم في بعض الأحوال، إلّا بدليل قاطع يستثنى من ضابطة الحل هذه وهنا ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾ نص في حل لبسها للرجال حيث اللابس هنا هو المستخرج، والمستخرج الغائص هو الرجل في الأكثرية الساحقة، فهو اللابس مهما تلبسها النساء وبأحرى، فإنهن خلقن للحلية كما الحلية مخلوقة لهن في أصلها، ولا ينافي ذلك الأصل حليةُ الحلية لقبيل الرجال اللهم إلّا بدليل قاطع من كتاب أو سنة قطعية، كما وردت في حرمة التزين للقبيلين حالة الإحرام فهنا كضابطة عامة: لا شكَّ في حليّة لبس الحلية للرجال كما للنساء - بحرية أم بريّة - إلّا ما نص على تحريمه للرجال، أم وللنساء كما في الإحرام.

هنا يذكر من نعم البحر أربع: أكلاً داخراً ولبساً فاخراً، ثم جمالاً باهراً

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٩.
(٢) سورة الرحمن، الآيات: ١٩-٢١.

«مواخر فيه - فيه مواخر» وهي شقوق الأمواج في خِضمّ البحر الملتطم الحاصلة من جري الفلك والتطام البحر حيث المَخر هو الشق، ويا لها من جمال رائع ومنظر بارع، نضرة للناظرين، وفرحة للمسافرين، وبصورة عامة كنعمة رابعة رائعة تشمل كلَّ نِعم البحر لنا: ﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ مادياً ومعنوياً، ومن ثم ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمة ربكم الموهوبة المحبوَّة لكم في البحر نفسه، وفي حمل أثقالكم عليه.

وفي توصيف لحم البحر بالطري تفضيل لطري اللحم وطازجه على سواه، بحرياً أم برياً، وهكذا يراه علم الصحة، أن في طازج اللحم فائدة خاصة ليست في بائته أو جامده.

فلحم البحر من أفضل اللحم فكيف يفتي أنه ليس من اللحم خلافاً لنص القرآن[1]؟

﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾﴾:

هنا وفي لقمان ﴿وَأَلْقَىٰ... أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾[2] وفي الأنبياء ﴿وَجَعَلْنَا فِى

---

(١) فليقض العجب من فتوى أبي حنيفة أن لحم السمك ليس بلحم قائلاً: لو حلف: لا لا يأكل اللحم فأكل لحم السمك لا يحنث، وقد يروى أن أبا حنيفة لما قال بهذا القول وسمعه سفيان الثوري فأنكر عليه ذلك واحتج عليه بهذه الآية بعث إليه رجلاً وسأله عن رجل حلف لا يصلي على البساط فصلى على الأرض هل يحنث أم لا؟ قال سفيان: لا يحنث فقال السائل أليس أن الله تعالى قال: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ [نوح: ١٩] قال فعرف سفيان أن ذلك كان بتلقين أبي حنيفة. (تفسير الفخر الرازي ٣٠: ٦).
أقول: هذا النقض ليس بناقض في مفروض المسألة بل هو ناقص حيث السمك لحم على أية حال وليست الأرض بساطاً على أية حال، فإن نوى في حلفه «لا يصلي على البساط» كل بساط شامل للأرض ككل فالحلف باطل من أصله لأنه حلف بترك الصلاة فلا حنث - إذاً - في الصلاة على بساط الأرض، وكذلك الأمر إذا نوى بساطاً غير الأرض إذ لم يصل عليه.

(٢) سورة لقمان، الآية: ١٠.

ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ وفي فصلت ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوْقِهَا﴾[١].

و«في» في هذه الأربع دون «على» تلمح أنها راسية في أعماق الأرض، مندغمة بعضها في بعض في الأعماق، إضافة إلى علو رؤوسها في الفضاء، وهذه قسم من الجبال تحفظ الأرض عن الميدان: «ووتد بالصخور ميدان أرضه».

وهذه الرواسي الملقاة في الأرض منها ما ألقيت من سائر الكرات وعلّها أنسب بالإلقاء ولكنها ليست كبيرة شاهقة حتى تسمى ﴿رَوَٰسِيَ﴾ اللهم إلا في رسُوِّها نتيجةَ الإلقاء، ولكن الإلقاء لا يخص الملقاة من السماء، فإنما يشير إلى جعل معمّق في باطن الأرض ليس كما يجعل غير الرواسي! ومن الرواسي الصغار ما ألقيت عليها إثر البركانات في تفجرات هائلة حيث ترجع المواد المذابة إلى الأرض حافرة لها إلى الأعماق، وثالثة حصلت فيها نتيجةَ الأمواج حين كانت شَموساً بحِراكات مضطربة وكما يروى عن الامام علي عليه السلام في جواب السائل: مما خلقت الجبال؟ قال: من الأمواج» فإن أجواف الأرض الملتهبة أخذت في البرودة والانكماش، فتقلصت القشرة الخارجية من فوقها وتجمدت فتكونت الجبال وسائر المرتفعات.

ومن أهم الفوائد لرواسيها - المغفول عنها في العلم الحديث - ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾: ألقى.. عن أن تميد بكم، حفظاً لتوازن الأرض، هذه السفينة الفضائية في خِضِمِّ بحر الفضاء، المبتلاة بجواذب عدة وحركات ودورانات، وحفظاً لتوازن مَن على الأرض من إنسان وحيوان.

فمَيَدَان الأرض، وعلى أثره مَيدانُ من على الأرض قد وُتِّد بالصخور الراسية في الأرض.

---

(١) سورة فصلت، الآية: ١٠.

وهكذا جُعلت الأرض لنا ذلولاً: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾(١) حيث ذلَّت بالرواسي بعد شِماس، واستقرت بعد ارتكاس:

«وعدل حركاتها بالراسيات من جلاميدها وذوات الشناخيب الصم من صياخيدها فسكنت من الميدان برسوب الجبال في قطع أديمها» - «فسكنت على حركتها من أن تميد بأهلها أو تسيخ بحملها أو تزول عن مواضعها...»(٢).

وكما أن للأرض ميداً مادياً لولا أوتادها وحركاتها المعتدلة المعدِّلة لها، كذلك لها ميدٌ معنوياً لولا الأوتاد الروحية كالرسل والأئمة والعلماء الربانيون، وهذا هو المعني من «بنا يمسك الأرض أن تميد بأهلها»(٣) «ولا تخلو الأرض من قائم منا ظاهر أو خاف ولو خلت يوماً بغير حجة لماجت بأهلها كما يموج البحر بأهله»(٤)، و«كان أمير المؤمنين عليه السلام باب الله الذي لا يؤتى إلا منه وسبيله الذي من سلك بغيره هلك، وكذلك يجري لأئمة الهدى واحداً بعد واحد، جعلهم الله أركان الأرض أن تميد بأهلها»(٥) وفي الحق هم أوتاد الأرض ورواسيها الملقاة عليها من سماء الرحمة الروحية.

﴿وَأَلْقَى... وَأَنْهَـٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ فكما الرواسي ملقاة في

---

(١) سورة الملك، الآية: ١٥.

(٢) نهج البلاغة عن الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام وفي نور الثقلين ٣: ٤٣ عن كتاب الخصال عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عليهم السلام أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: - إلى أن قال: فخلق الله تعالى الجبال فأثبتها في ظهرها أوتاداً منها من أن تميد بما عليها فذلت الأرض واستقرت.

(٣) نور الثقلين ٣: ٤٤ عن كتاب كمال الدين وتمام النعمة بإسناده إلى سليمان بن مهران الأعمش عن الصادق جعفر بن محمد عن أبيه محمد بن علي عن أبيه علي بن الحسين عليهم السلام حديث طويل يقول فيه:...

(٤) المصدر بإسناده إلى إبراهيم بن أبي محمود قال قال الرضا عليه السلام:...

(٥) المصدر عن أصول الكافي بسند متصل عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان أمير المؤمنين عليه السلام....

الأرض أو مجعولة عليها، كذلك ﴿وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا﴾ قضيةَ العطف على الرواسي، ولأن مياه الأرض كلها ملقاة من السماء منذ البداية وعلى طول الخط، والجبال هي في الغالب منابع الأنهار حيث هي مساقط الثلوج والأمطار، ثم السبل هي ذات علاقة بالرواسي والأنهار.

﴿وَسُبُلًا﴾ علّها هنا هي ﴿فِجَاجًا سُبُلًا﴾[١] في الأنبياء، فقد سبّل الله هذه السبل بين الرواسي و﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ إلى مخازنها المائية ومعادنها الظاهرة والباطنة أمّا هيه من نعم فيها مخبوّة.

ثم و﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ إلى سبيل ربكم بعدما تعرفون نعمته عليكم ولعلكم تشكرون، وكما الرواسي وأنهاراً وسبلاً تعم الظاهرة والباطنة، كذلك الاهتداء يعمها كلها كما:

﴿وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ١٦﴾:

﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ... وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا ... وَعَلَٰمَٰتٍ﴾ وهذه من نعم الأرض فيها ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ نعمة سماوية لإنسان الأرض، وهذه سبيل ضمن قصد السبيل فـ ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ ظاهرية وباطنية ﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾ ينهى عنها.

فهنالك اهتداءات بعلامة أرضية وأخرى سماوية، ظاهرية هي ظاهرة لأهل الظاهر، وروحية هي باهرة لغير أهل الظاهر، فرسول الله ﷺ هو أنجم نجم به يهتدى، والأئمة هم أعلم العلامات، المهتدون به ﷺ الهادون لغيره[٢].

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٣١.

(٢) نور الثقلين ٣: ٤٥ عن أصول الكافي عن داود الجصاص قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: وعلامات وبالنجم هم يهتدون - قال: النجم رسول الله ﷺ والعلامات الأئمة عليهم السلام.

وفيه عن محمد عن الوشا قال سألت الرضا عليه السلام عن الآية فقال: رسول الله ﷺ قال: =

إذاً فنجم الهدى وعلاماتها هم باطن الآية، والعلامات الظاهرة والنجم هي ظاهرها، وكما كانت رواسي الأرض وأنهارها[١].

ثم الاهتداء الظاهر لا يخص أهل البحر كما العلامات لا تخص أهل البر حيث تنجم الهداية برياً وبحرياً بالعلامات وبالنجم، فمن العلامات هي معالم الطرق جبالاً وغابات وتلالاً وسائر المرتفعات والمنخفضات، وكذلك الرياح بل والأرياح، فقد ينقل عن جماعة كانوا يشمون التراب ويتعرفون برائحته الطريق.

والعلامة بوجه عام هي ما يعلم به الشيء المجهول، خلقية كانت كالتي ذكرت، أم وضعية، كما يهتدى باللّاسلكية والرادار أماهيه من وسائل مصطنعة هي كلها من إلقاءات الله في الأرض ولإنسان الأرض، وعلينا أن نستعلم علامات الله على ضوء تقدم العقل والعلم، علامات مادية كذريعة لأخرى روحية هي أحرى بالاستعلام لما ألقى لنا الملك العلام.

﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾:

هذه من الآيات التي تحصر الخلق - أياً كان - بالله، وتحسره عمن سوى الله مهما نسب إليه خلق كـ «إذ تخلق..» في المسيح فإنه يُلحَّق «بإذني» فهو الخالق حقاً والمسيح مجرى ظاهري له تثبيتاً لرباطه الرسالي بالله، تدليلاً من الخلق وهو فعله تعالى الخاص به، على أن الآتي به مخصوص بكرامة الرسالة الإلهية.

= نحن العلامات والنجم رسول الله ﷺ أقول قد وردت أمثالها بطرق عدة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام.

(١) تفسير البرهان ٢: ٣٦٢ - عن تفسير العياشي عن إسماعيل بن أبي زياد عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: ظاهر وباطن، الجدي عليه تبنى القبلة وبه يهتدي أهل البحر والبر لأنه لا يزول، أقول: هذا هو الظاهر، والباطن ما تقدم من تفسيره برسول الله ﷺ والأئمة عليهم السلام.

إذاً فلا ولاية تكوينية للمعصومين - أياً كانوا - منفصلة عن إذن الله، مخوّلة إليهم من الله، كما تدلنا على ذلك صارحة الآيات في المعجزات أنها من أفعال الله، صادرة بإذنه وإرادته: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْآيَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ...﴾[١] ﴿مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾[٢].

و«مَن» هنا دون «ما» برهان قاطع لا مرد له أنه يشمل كل الخلق بمن فيه وما فيه، وإنما «من». هنا رعاية للأشرف الأجل مهما كان أقل.

فلا يخص ﴿كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ بالأصنام والأوثان غير ذوات العقول، ولا بالطواغيت ذوي العقول، بل يعمهما والذوات القدسية المعبودة لهم من دون الله مهما خص ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝٢٠ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ۝٢١﴾[٣] فإن «من» هنا عام و﴿ٱلَّذِينَ﴾ هناك بقرينة هو خاص، ومن العام: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝١٩٠ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝١٩١﴾[٤] ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾[٥].

ولو أن في الذوات القدسية خالقاً - مثل المسيح المعبود من دون الله - لاستحق العبادة بنفس السند، والبرهان صارم، فعبادة مَن دون الله عارمة لمكان ﴿لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾.

وليس «من يخلق» لتعني الخالقية الاصيلة فقط حتى لا تنافي المخوَّلة المتقوَّلة، حيث الأصل في الخلق هو أصل الخلق دون خصوص الخلق الأصل.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٠٩.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٥٧.
(٣) سورة النحل، الآيتان: ٢٠، ٢١.
(٤) سورة الأعراف، الآيتان: ١٩٠، ١٩١.
(٥) سورة الفرقان، الآية: ٣.

و﴿أَفَمَن يَخْلُقُ...﴾ تفريع على خالقيته المقبولة لديهم فيما سبق من الخلق، أنه ﴿كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾؟ ككل من سوى الله من معبوداتهم وسواها، وقد سوّوا بينها وبينه في العبادة وهو ضلال مبين: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾[1] فأين الرب الخالق والمربوب المخلوق ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[2] ضلالَ هذه التسوية الظالمة؟.

فالتسوية بين الفاضل والمفضول ضالة مرذولة، فضلاً عن تفضيل المفضول على الفاضل، ضابطة صارمة تقضي على كل تسوية هابطة، أم تفضيلة ساقطة خابطة، في كل ما دق وجلّ.

ويا له من تقرير في أحسن الأوان، والنفوس متهيئة بعد سرد هذه النعم للإذعان، فما هنا من جواب إلّا: اللّهم لا وكلّا - فلا مساواة أو مساماة بين من يخلق وبين من لا يخلق، ولا يحتاج «لا» هنا إلى إمعان وتفكير زائد اللّهم إلّا تذكراً لخلق الله دون سواه ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾؟ ثم وليست نعم الله التي خلقها بالتي تحصى، إذاً فعظمته وحرمته أيضاً لا تُحصى:

﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾:

فمن ذا الذي بإمكانه أن يحصي نعمة الله، وعدُّها كأصلها من نعمة الله، حتى ولو أحصاها فإحصاؤها أيضاً من نعمة الله، كما ومعرفة عدم إحصائها والعجز عنه نعمة ثالثة من الله، ولأن نعم الله لا تُحصى، فإحصاؤها بحاجة إلى علمٍ لا يحصى وقدرة لا تُحصى، ولو أحصيت هكذا، فمن ثم شكرٍ لا يُحصى وعبادةٍ لا تُحصى، وأنى هذه الحشرة الجاهلة العاجزة القاحلة وإحصاء أو شكر نعم لا تُحصى؟.

فإذ لا نحصي نعمة الله لو عددناها، فكيف نشكرها كما هي على حدها

(١) سورة الشعراء، الآيتان: ٩٧، ٩٨.
(٢) سورة الصافات، الآية: ١٥٥.

بعدِّها، إحصاءً لشكرها، كلّا! ولا نشكرها كما نستطيع بل ونكفر بها كفراً أو كفراناً ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[١] [٢] بدلاً عن كونه شاكراً لأنعم ربه حسب المستطاع مهما كان قاصراً!

ولكن ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ قصور الشكر وتقصيرَه، كفراناً يوم الآخرة، وكفراً يوم الدنيا فـ ﴿أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[٣] في موضع العفو والرحمة، مهما كان ﴿عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾[٤] في موضع النكال والنقمة.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾﴾:

إسراراً لكفران أم شكران أو إعلاناً، فلا يعزب عن علمه أياً كان اتجاهك إلى نعمة الله، وهو غفور ستور لكفر أم كفران ما لم تجاهر به، وهو يُظهر الشكران وإن لم تجاهر به، كما إنه برحمته الشاملة يغفر القاصرين وجملةً من المقصرين.

﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾:

وحين تكون كل نعمة من خلق الله برحمته، ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ليست لهم نعمة يخلقونها، فإنهم ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا﴾ ولا نعماً لأنفسهم فضلاً عن سواهم. ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ بذواتهم وصفاتهم ونعمهم، فهم إذاً من نِعمة الله التي خلقها وأنتم تبدونها نَعمَة وكفراً، ثم وهم ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ وهم في حياتهم الدنيا وبعد موتهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ فكيف - إذاً - تعبدونهم مع الله أو من دون الله؟.

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٣٤.

(٢) راجع تفسير الآية في سورة إبراهيم ففيه تفصيل ولا نعيد.

(٣) سورة الحجر، الآية: ٤٩.

(٤) سورة الحجر، الآية: ٥٠.

أترى ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ هنا تخص غير ذوي الشعور من معبوديهم لمكان ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾؟ ويشاركهم الأحياء ذوو الشعور والعقول في ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾؟ ومجرد الحياة والشعور لا يبرِّر عبادتهم وهم «لا يخلقون ويخلقون»!.

قد يكون «أموات ولا يشعرون» تنزلاً عن الحجة الأولى: ﴿لَا يَخْلُقُونَ. . .﴾ بالنسبة للأصنام، فحتى لو صحت عبادة من لا يخلق ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ فلا بد - إذاً - لأقل تقدير - من حياتهم لكي يعلموا حال عُبّادهم، ولا بد من شعورهم زمن بعث عبادهم ليبعثوهم للجزاء، أم يجازوهم حين يبعثون، فكيف أصبحوا أرباباً وهم «لا يَخلقون ويُخلقون» وهم ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾؟ أم وحتى الطواغيت ذوي العقول الأحياء، هم ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ - «كفار غير مؤمنين»(١) فاقدين حياة الإيمان بالله، فكيف يشركون بالله، ولو كان لله شركاء لكانوا من أوّل المؤمنين به.

أم أنَّ هذه الأربع هي مواصفاتٌ لما سوى الله، التي تجعلها لا تحق لها العبادة على أية حال، فكما أنهم - أجمع - ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ - فقد لا يخلق ولا يخلق: إله منعزل عن الخالقية! وهم ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ -! كذلك هم - أجمع - ﴿أَمْوَٰتٌ﴾ عن كونهم خالقين عالمين إسراراً وإعلاناً ﴿غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ بحياة الخالقية والعلم المحيط، وحق الألوهية أن تكون الآلهة «أحياء غير أموات» لا يطرؤهم الموت، ولكنهم ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ ليست لهم تلك الحياة الخالقة المحيية أبداً مهما كانوا أحياءً!.

---

(١) نور الثقلين ٣: ٤٦ عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال سألته عن هذه الآية - قال: . . . وأما قوله: ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ [النحل: ٢١] يعني كفار غير مؤمنين. . أقول هذا تفسير ببعض مصاديق ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ تفسيراً تطبيقياً كما يعرف بكامل الحديث فراجع.

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ لا هم ولا معبودوهم، حيث العلم بأيّان البعث وإبّانه كأصل البعث هما من مختصات الربوبية: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾(١) فسلب الشعور عن ﴿أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ يعم كل ما سوى الله من عقلاء وسواهم، من ملائكة وأنبياء وسواهم، ومن قضايا الربوبية العادلة الحكيمة العلم بأيّان البعث والقدرة عليه وهم لا يشعرون أيان يُبعثون! فبجنب الحياة السرمدية الإلهية، وهي ذاتية العلم والقدرة اللّانهائية، كُل حي ميتٌ حتى الرسول ﷺ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾(٢) لا - فقط - سوف تموتون، وإنما «ميِّت وميتون» على أية حال حيث تفقدون حق الحياة التي من حقها الخلق والعلم، والقدرة على الخلق والنشور.

ثم «الذين» مفعولاً مقدماً على «يعبدون» برهان ثان على قصد العموم، فكل معبود من دون الله، غير ذوي عقول كالأصنام، أم ذوو عقول من طواغيت، أم صالحين كالملائكة والنبيين، تشملهم «الذين» تغليباً لموصول ذوي العقول على غيرهم.

وكون «الذين» فاعلاً بحذف المفعول كـ«يعبدونهم - أو - يعبدونها» هو خلاف الأصل حيث الأصل خلاف الحذف، ثم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ يؤيدان عاقل الموصول.

إذاً فهذه مواصفات أربع للمعبودين من دون الله من أي الثلاث وأياً كانوا، والإله الحق: لا يخلق، وهو يَخلقُ - حي لا يموت - وهو يعلم مُرسى الساعة فإنه يُرسيها.

---

(١) سورة النمل، الآية: ٦٥.
(٢) سورة الزمر، الآية: ٣٠.

﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم
مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا
يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ
ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ
ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ
ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ
ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ
يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ
قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ
تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ
بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ
خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ
رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ
خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ
تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ
كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ

يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾

﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾﴾:

﴿إِلَٰهُكُمْ﴾ أنتم المؤمنين بالله، أم ﴿إِلَٰهُكُمْ﴾ أيها الخلق أجمعون، والإضافة هنا لبيان حق الألوهية، فسائر الإلهة المختلقة هم كما ليسوا بآلهتكم أنتم المؤمنين قضيةَ الإيمان، كذلك ليسوا آلهة لمن سواكم إلّا خيالاً خبالاً وأسماءً سمّوها هم وآباؤهم ما جعل الله لها من سلطان!: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾(١) ﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ

(١) سورة الكهف، الآية: ١١٠.

مُسْلِمُونَ﴾(١) ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾(٢).

ليس هناك أسباب واقعية أو معقولة لتأليه غير الله إلا عدم الإيمان بالآخرة، والاستكبار عن عبادة الله الواحد القهار، حيث الآخرة والعبادة الصالحة لهما لا تلائمان الشهوة الهائجة المائجة الحيوانية، ثم نكران الآخرة، وعبادة من لا يأمر ولا ينهى، ولا يُعبد إلَّا على وفق شهوات عابديها، هما تجعلان العابدين غير الله في أريحية الحيونة الحرة، دون حد ولا نهاية.

﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ الحياة بعد الموت، برزخيةً ويوم القيامة، هؤلاء ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾ لتوحيد العبودية، لأنها مقلوبة عن قالبها الإنسانية «وهم» مع ذلك الإنكار «مستكبرون» عائشون الاستكبار، عن الخنوع والخشوع للإله الواحد القهار، منعطفين إلى آلهة اختلقوها، عابدين - فقط - إياها، تاركين عبادة الله وإنْ بين المعبودين المشاركين له! متفلتين عن توحيده إلى الإشراك به ثم إلى توحيد العبادة لغير الله، غير متلفتين إليه إلَّا هيه! إنّ الإيمان بالآخرة هو من فروع التوحيد الصحيح، فهؤلاء يتذرعون بإشراكهم نكرانهم ليوم الدين، لا لريب في آيات التوحيد، وإنما استكباراً كامناً في قلوبهم، يجعلهم ناكرين للتوحيد والآخرة.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾:

هؤلاء الحماقى قد يعلنون أنهم في ريب من وحدة الإله، لذلك فهم يشركون، وبالآخرة هم لا يؤمنون، ولكنهم يسرون النفرة العميقة عن الخضوع للحق والخنوع للواحد المطلق، والشغف الحالق بالتقاليد الجاهلة القاحلة العمياء، و﴿لَا جَرَمَ﴾ قطعياً دونما تفلُّت منهم أو تلفُّت عنهم ﴿أَنَّ

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤٦.
(٢) سورة طه، الآية: ٩٨.

﴿ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ﴾ يعلم ويعلن وعلى الأثر يجازي لـ ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ﴾ عليه وعلى الحقائق الناصعة الواضحة، المفترين على وحي الله أنه أساطير الأولين.

فالمتكبر - في صيغة سائغة فائقة - على حد المروي عن الرسول ﷺ من بطر الحق أو سفهه أو جهله ويغمص الناس أعمالهم فلا يرى أحداً أفضل منه ويغمص الحق فيجاوزه إلى غيره[1].

ويقابله المتواضع لله وفي الله وكما يروى «مر الحسين بن علي عليه السلام على مساكين قد بسطوا كساء لهم فألقوا كسرا فقالوا: هلم يا بن رسول الله ﷺ فأكل معهم ثم تلا ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ﴾[2] [3].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۙ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾:

حرب دعاية منظمة، في شيطنة مدروسة مدبَّرة على الدعوة والداعية، يديرونها في كل زمان ومكان ﴿يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾[4]! ولماذا ﴿رَبُّكُمۡۙ﴾ دون «ربنا» وهو أحرى، أو «رَبِّ الْعالَمِينَ» وهو الأخرى؟ ﴿رَبُّكُمۡۙ﴾ استجاشة لخامد فطرتهم وفكرتهم، إن

---

(١) الدر المنثور ٤: ١١٤ - أخرج عن جماعات كثيرة عن رسول الله ﷺ هذه التعقيبات تعريفاً بالمستكبرين ومنها ما أخرجوه عن قتادة أنه قال ذكر لنا أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا نبي الله إنه ليعجبه الجمال حتى يود أن علاقة سوطه وقبالة نعله حسن فهل ترهب عليّ الكبر؟ فقال نبي الله ﷺ: كيف تجد قلبك؟ قال: أجده عارفاً للحق مطمئناً إليه قال: فليس ذاك بالكبر ولكن الكبر أن تبصر الحق وتغمص الناس فلا ترى أحداً أفضل منك وتغمص الحق فتجاوزه إلى غيره، وفي نور الثقلين ٣: ٥٦ عن روضة الكافي بسند متصل عن حفص بن غياث عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال: ومن ذهب يرى أن له على الآخر فضلاً فهو من المستكبرين فقلت: إنما يرى أن له عليه فضلاً بالعافية إذ رآه مرتكباً للمعاصي؟ فقال: هيهات هيهات فلعله أن يكون قد غفر له ما أتى وأنت موقوف تحاسب، أما تلوت قصة سحرة موسى عليه السلام...

(٢) سورة النحل، الآية: ٢٣.

(٣) نور الثقلين ٣: ٤٧ عن تفسير العياشي عن مسعدة قال:...

(٤) سورة الصف، الآية: ٨.

الربوبية العادلة لزامها إنزال ما يكمل المربوبين عن نقصهم، وينجيهم عن بأسهم، وأنتم عارفون أنه رب العالمين وربكم أنتم المشركين، ولكنهم اثّاقلوا إلى حمقهم في عمقهم و﴿قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ فرية وقحة على الله كأنه لا يعرف إلَّا ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أم يخون بذلك المربوبين.

والأسطورة هي الخرافة أو الحكاية الخليطة من صادقة وكاذبة..

﴿قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ متهمين القرآن العظيم في هذه الحرب العشواء أنه أساطير الأولين وحكاياتهم الوهمية الخارقة الجارفة[1] لأنه يحمل - فيما يحمل - عواقب الماضين صالحين وطالحين، كأمثولات مضت عَبْر التاريخ وغَبْر الزمان، دعاية ضالة مضلَّة لا تحمل - شاؤوا أم أبوا - علموا أم لم يعلموا - لا تحمل إلَّا حِمل كاملة الأوزار:

﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾:

﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ﴾ هي غاية واقعية مهما كانت معلومة مقصودة، أم مجهولة غير مقصودة، فذلك الحمل لا جرم واقع يوم القيامة لا مردَّ له مهما كانوا له وللقيامة ناكرين.

---

(١) الدر المنثور أخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال: اجتمعت قريش فقالوا: إن محمداً رجل حلو اللسان إذا كلمه الرجل ذهب بعقله فانظروا أناساً من أشرافكم المعدودين المعروفين أنسابهم فابعثوا في كل طريق من طريق مكة على رأس ليلة أو ليلتين فمن جاء يريده فردوه عنه فخرج ناس في كل طريق فكان إذا أقبل الرجل وافداً لقومه ينظر ما يقول محمد ووصل إليهم قال أحدهم: إن فلان بن فلان، فيعرفه نسبه ويقول له: أنا أخبرك عن محمد إنه رجل كذاب لم يتبعه على أمره إلا السفهاء والعبيد ومن لا خير فيهم، وأما شيوخ قومه وخيارهم فمفارقون له، فيرجع الوافد فذلك قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ...﴾ [البَقَرَة: ١١] فإن كان الوافد ممن عزم الله له الرشاد فقالوا له مثل ذلك قال بئس الوافد لقومي إن كنت جئت حتى إذا بلغت مسيرة يوم رجعت قبل أن ألقى هذا الرجل وأنظر ما يقول وآتي قومي ببيان أمره فيدخل مكة فيلقى المؤمنين فيسألهم ماذا يقول محمد فيقولون خيراً...

فقد يقصد الفاعل بفعله غاية يصل إليها أم لا يصل، وقد تقصده الغاية التي هي لزام فعله وإن لم يقصدها، بل أنكرها ورفضها وحاول في سلبها وإثبات ما يعارضها، و﴿لِيَحْمِلُوٓاْ﴾ هنا غاية قاصدة غير مقصودة كما في أضرابها مثل ما في موسى ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾(١) ومن ذا الذي ينجي غريقاً ويربيه كأحسن ما يُرام ليكون بالمآل له عدواً وحزناً، بل هي غاية قاصدة بأمر الله لا مقصودة لآل فرعون.

والأوزار هي الأثقال، وهي هنا الخطايا والآثام، حيث تقطع المتون وتنقض الظهور: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾(٢).

وترى هذه ﴿أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ و﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾(٣) و﴿كُلُّ ٱمْرِيٍٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾(٤) كما هي قضية العدل على أية حال؟

فما هي - بعد - ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم﴾ ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾(٥) أعبثاً في التخفيف ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم﴾ وظلماً أن يُحمَّلها هؤلاء المضلِّلون!؟.

فهل إن «مِن» هنا زائدة فـ ﴿أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم﴾ يحمّلها أنفسَها المضلَّلون أنفسُهم، وكما أن أوزار المضلِّلين لهم أنفسهم حِملاً وحَملاً على سواء؟ فهذه قولة زائدة لفظياً إذ لا زائدة في القرآن! ومعنوياً حيث المضلِّل عليه وزران وزر الضلال ووزر الإضلال، ثم ليس على المضلَّل إلَّا وزر الضلال، فلا بد للمضل من وزر زائد على ضلاله بإضلاله، وهو مثل أوزار الذين يضلونهم.

---

(١) سورة القصص، الآية: ٨.
(٢) سورة العنكبوت، الآية: ١٣.
(٣) سورة هود، الآية: ١١١.
(٤) سورة الطور، الآية: ٢١.
(٥) سورة الأنعام، الآية: ١٦٤.

﴿وَمِنْ أَوْزَارِ﴾ لا تعني بعضاً من نفس الأوزار حتى يقتضي المباعضة في أصل الأوزار، وإنما جنساً مماثلاً لما عملوا كما هم ضلوا قدر ما أضلوا فـ «من» جنسية تفيد المماثلة، لا تبعيضية، وهذه قضية الجمع بين قبيلي الآيات، تقديماً لصريح آية الوازرة وأمثالها، على ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم﴾ المرددة بين التبعيض والمماثلة فلا ﴿أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم﴾ إذ ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[1] ولا بعض الأوزار بنفس السند، وإنما مِثل أوزارهم ما بقوا وبغوا، المعبر عنها بـ ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ. . .﴾ حيث تعني مثل الأوزار فإنه جنسها، فكما عليهم تلكم الأوزار لو عملوا أعمالها، كذلك عليهم مثلها حيث سنوا سنتها.

أو يقال إن لضلال ﴿الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم﴾ بعدين، ثانيهما أنه أثر الإضلال، إذاً فلكلٍّ من المضلِّل والضال نصيباً من وزر ذلك الضلال، من دون أن ينقص أولئك من أوزارهم شيءٌ فـ «من» هنا تبعيضية، فإن واجهة الضلال للضالين عليهم أنفسهم، وواجهة الإضلال فيه على المضلِّين، تأمل ولقد تواتر الخبر بين الفريقين عن النبي ﷺ أن «من سن سنة حسنة كان له مثل أجر من عمل بها إلى يوم القيامة ولا يُنقص أولئك من أجورهم شيءٌ ومن سن سنة سيئة كان عليه وزر من عمل بها إلى يوم القيامة من غير أن ينقص أولئك من أوزارهم شيء»[2].

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٦٤.

(٢) هذا وفي لفظ آخر بمعناه في الدر المنثور ٤ : ١١٧ - أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس قال: قال النبي ﷺ : أيما داع دعى إلى الهدى فاتبع فله مثل أجورهم من غير أن ينقص أولئك من أجورهم شيء وأيما داع دعى إلى ضلالة فاتبع عليه فإن عليه مثل أوزار من اتبعه من غير أن ينقص من أوزارهم.

وفي نور الثقلين ٣: ٤٨ عن تفسير القمي عن الصادق عليه السلام : والله ما أهريقت محجمة من دم ولا قرع عصا بعصا ولا غصب فرج حرام ولا أخذ مال من غير حلّ إلا وزر ذلك في أعناقهم من غير أن ينقص من أوزار العاملين شيء.

ويصدقه القرآن في آيات عدة كـ ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾[(١)] ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾[(٢)].

ومن خطبة لعلي أمير المؤمنين عليه السلام على ضوء ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ -:

واعلموا أن لكلٍّ حق طالباً ولكل دم ثائراً، والطالب كقيام الثائر بدمائنا، والحاكم في حق نفسه هو العادل الذي لا يجور، وهو الله الواحد القهار، واعلموا أن على كل شارع بدعة وزره ووزر كل مقتدٍ به من بعده، من غير أن يُنقص من أوزار العاملين شيءٌ، وسينتقم الله من الظلمة مأكل بمأكل ومشرب بمشرب، من لقم العلقم ومشارب الصبر الأدهم، فليشربوا بالصلب من الراح السّم المذاق، وليلبسوا دثار الخوف دهراً طويلاً، ولهم بكل ما أتوا وعملوا من أفاريق الصبر الأدهم ما فوق ما أتوا وعملوا، أما إنه لم يبق إلّا الزمهرير شتاءهم، وما لهم من الصيف إلا رقدة وتحسبهم ما زودوا وحملوا على ظهورهم من الآثام، فيا مطايا الخطايا ويا زور الزور، أوزار الآثام مع الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون، اسمعوا وعُوا وتوبوا وابكوا على أنفسكم فسيعلم الذين ظلموا، فأقسم ثم أقسم لتحملُنَّها بنو أمية من بعدي وليعرفنها في دارهم عما قليل، فلا يبعد الله إلّا من ظلم وعلى البادي يعني الأول وما سهل لهم من سبل الخطايا مثل أوزارهم وأوزار كل من عمل بوزرهم إلى يوم القيامة ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾[(٣)].

---

(١) سورة يس، الآية: ١٢.
(٢) سورة الطور، الآية: ٢١.
(٣) نور الثقلين ٣: ٤٩ عن تفسير القمي حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن جميل عن أبي =

و﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ هنا لها تعلقات عدة على البدل ﴿لِيَحْمِلُوا﴾ بغير علم ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ﴾ بغير علم ﴿يُضِلُّونَهُم﴾ بغير علم جهالةً منهم بسوء الفعل والعاقبة، وبغير علم جهلاً من الذين يضلونهم!.

مربع من الجهل والجهالات قاصرة مقصرة، ومقصرة قاصرة، مهما اختلفت دركات التقصير بين أصول الضلالة والذيول، ولذلك ترى - أحياناً - حِمل المضلِّلين أكثر من الضالين، وأخرى «لكلٌ ضعفٍ» حيث أصبحوا - هم - أيضاً من المضلِّلين كما ضلوا بآخرين، ولكن على أية حال حمل ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم﴾ مضاف إلى أوزارهم كاملة يوم القيامة.

وأما ﴿كَامِلَةً﴾ لأوزارهم، فهي كمال الوزر بكمال الضلال في إضلال، فعليهم أبعاد ثلاثة من الأوزار، من ضلالهم وإضلالهم ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ والثالث أوزر لأنه حسب عديد عامليه المضلَّلين أكثر ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾[1].

وقد تلمح ﴿كَامِلَةً﴾ للكفار إن الله لا يحمل عصاة المؤمنين أوزارهم كاملة، لمكان اختصاصهم هنا بـ ﴿كَامِلَةً﴾ وذلك مسرود في آيات التكفير لهم بتوبات أم شفاعات أم تكفير لسيئات باجتناب كبائر المنهيات.

ذلك المكر الماكر وليس مبتكراً من هؤلاء، فليسوا - هم - أوّل من ينكر وأوّل من يمكر و:

﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾:

= عبد الله عليه السلام قال: خطب أمير المؤمنين عليه السلام بعد ما بويع له بخمسة أيام خطبة فقال فيها: واعلموا...

(١) نور الثقلين ٣: ٤٨ عن تفسير العياشي عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام في الآية يعني ليستكملوا الكفر ليوم القيامة، وأما قوله: ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم - يعني يتحملون كفر الذين يتولونهم.

ليسوا هم بدءاً وبدعاً من الماكرين المضلِّلين و﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من حماقى الطغيان، حيث كانوا كأمثالكم، يأتون - بزعمهم - بنيان الشرعة الإلهية من قواعدها، وقد أتوا كتابات الله والقرآن العظيم، وهي القواعد الرسالية، كما أتوا الرسل، ولم يكونوا ولن، أن يهدموا بنايات القواعد الرسالية ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ﴾ بقوته القاهرة باطنةً وظاهرةً ﴿بُنْيَـٰنَهُم﴾ الذي بنوا ريبة في قلوبهم في تهديم بنايات الرسالات ﴿مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ اجتثاثاً لها من جذورها ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ إبطالاً لكيدهم من حيث لا يتوقعون فقد كان «بيت غدر يجتمعون فيه إذا أرادوا الشر»[١] و«بيت مكرهم»[٢].

ذلك، وكما أتى الله بنيانهم وبناياتهم السَّكَنية إيتاءً ماكراً قاهراً كما أتوا ﴿مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ دون السقوف، والظالم إنما يخاف البأس من فوقه فيتترس من فوقهِ عمَن فوقَه، ولكن الله يأتيهم بقهره من قواعدهم ﴿وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ مكراً بمكر ونكراً بنكر، منهم على ضعف وجهالة، ومن الله على قوة ونبالة جزاءً وفاقاً.

وترى بعدُ ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ﴾ هي إتيان الذات المقدسة؟ وبنيانَهم دون «إلى» المعدية لـ «أتى» دليل أوّل على إنه ليس إتيان الذات، وقدر تقدَّر «على» فهو إتيان القدرة القاهرة الإلهية على بنيانهم.

ثم ﴿ٱللَّهُ﴾ دون «الرب» كما في ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾[٣] تلميحة لطيفة أن ذلك إتيان الألوهية بكامل القدرة القاهرة على بنيانهم.

---

(١) نور الثقلين ٣: ٤٩ عن تفسير العياشي عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال في الآية: . . .

(٢) المصدر عن أبي السفاح عن أبي عبد الله عليه السلام من القواعد يعني بيت مكرهم.

(٣) سورة الفجر، الآية: ٢٢.

إذاً فإتيانه قواعدهم هو مشيئته تعالى تدميرها[1] فلا يراد به الحضور عن غيبة، والقرب بعد مسافة، وإنما حضور المشيئة لحاضر المكر وقتَه وقدَره.

وترى كيف ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ وخرور السقف هو بطبيعة الحال من فوقهم لا من تحتهم مهما كان على أثر إتيان بنيانهم من القواعد؟

علَّه لأنه ربما يخر السقف وليس فوقهم إذ ليسوا تحته، ﴿فَخَرَّ... مِن فَوْقِهِمْ﴾ تأشير إلى أنهم كانوا تحته فخر عليهم.

ثم المصداق الأعلى للقواعد والسقف هو قواعد المكر وسقفها التي جعلوها فوقهم في حياتهم الماكرة ضد الرسالات.

ثم ومن الذين ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ أول جبار في الأرض: نمرود وقد أتى الله صرحه من قواعده، كما بعث عليه بعوضة في منخره فمكث أربعمائة سنة يضرب رأسه بالمطارق وارحم الناس به من جمع يديه فضرب بهما رأسه[2].

فأي بنيان مرصوص أمام ما أتى الله مرضوض، مشهد كامل شامل لكل بوار ودمار لمن يمكر الله والله خير الماكرين، الذين يقفون لدعوة الله، ويمكرون بشرعة الله، ويحسبون مكرهم لا يُرد ﴿وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وابتلائهم بداء الجهل العضال من العذاب، ثم هم في عذاب فوق العذاب ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ جزاءً بما كانوا يعملون.

وإنه لمشهد مكرور على مدار الزمن ومرّ التاريخ، ودعوة الله بشرعته

---

(١) المصدر عن الحسن بن زياد الصيقل عن أبي عبد الله عليه السلام قال سمعته يقول: «قد مكر الذين من قبلهم ولم يعلم الذين آمنوا» - ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ﴾ [النّحل: ٢٦] قال محمد بن كليب عن أبيه قال: إنما شاء.

(٢) الدر المنثور ٤ : ١١٧ - أخرج عبد الرزاق وابن جرير عن زيد بن أسلم قال: أوّل جبار كان في الأرض نمرود فبعث الله عليه بعوضة... وكان جباراً أربعمائة سنة فعذبه الله أربعمائة سنة كملكه ثم أماته الله وهو الذي كان بنى صرحاً إلى السماء الذي قال الله: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾.

ماضية ماشية رغم كافة العراقيل، حيث يأتي الله بنيانهم من القواعد، ويأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون.

هذا بالنسبة ليوم الدنيا وقد تشمل البرزخ حيث يستمر عذابهم القاضي عليهم هنا طول حياتهم البرزخية:

﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾﴾:

هناك يخزيهم أخزى من البرزخ والدنيا، مشهد من مشاهد خزيهم يوم القيامة بسؤال التأنيب التبكيت ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ الذين زعمتم أنهم شركاء و﴿كُنتُمْ﴾ حتى الموت ﴿تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ﴾ دعاة التوحيد بشقاق متعنِّت عارم، تجعلون لهم شقاً من الألوهية ولله شقاً آخر، بل وشِقهم أوفر وأوقر من شق الله حيث كنتم تعبدونهم من دون الله، وتؤصِّلونهم في مقدرات الحياة دون الله؟ فأين هؤلاء الآلهة المختلفة؟

وإذ ليس لهم جواب إلَّا السكوت، اختجالاً من موقفهم البائس اللعين، وأنهم لا يجدونهم كما كانوا يزعمون، بل ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾[1] فـ ﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[2].

لذلك يأتي الجواب من الذين أوتوا العلم ﴿إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ آلهة ومألوهين، وأما المعبودون الصالحون، الرافضون لعبادتهم، فـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾[3].

وترى من هم ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ هنا وِجاه المشركين الجاهلين؟ أهم

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٩٨.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٩٩.
(٣) سورة الأنبياء، الآية: ١٠١.

كافة الموحدين، وقد عبر عنهم في آيات عدة هكذا ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾[1] ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ﴾[2] ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ. . .﴾[3].

وكما عبر عن المشركين بالذين لا يعلمون: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ﴾[4]؟.

إنهم كل من أذن له الرحمن وقال صواباً، إذ ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾[5] فلا يختص بالمعصومين مهما كانوا أليق وأحرى، أم يختص بهم كرامةً لهم ولأنهم أليق بذلك وأولى، أم هم الأُصلاء الأولون ويتبعهم الباقون كما اتبعوهم يوم الدنيا وذلك أشد على الكافرين وأخزى، رغم ما كانوا يخزون المؤمنين بإيمانهم يوم الدنيا، ولو كان هذا القول مخصوصاً بهم لجيء بما يخصهم كـ «المخلصين - السابقين - والمقربين»!.

وترى إذا كان ﴿ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ مختصين بهما، أفلا يعذب فسقة الموحدين؟. . بلى ولكنهم الأصلاء في ذلك وسائر أهل العذاب فروع يتّقدون في النار بهذه الصِّلاء!. . ثم الجمع بين الخزي شركاً والسوء فسقاً يختص بالكافرين أُصلاء وَأتباعاً، ولا ينافيه سوءٌ دون خزي على سائر الفاسقين[6] وكما هو الضرورة المستفادة من آي من الذكر الحكيم.

---

(١) سورة القصص، الآية: ٨٠.
(٢) سورة الحج، الآية: ٥٤.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٨.
(٤) سورة البقرة، الآية: ١١٨.
(٥) سورة النبأ، الآية: ٣٨.
(٦) هنا ﴿يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ. . .﴾ [النحل: ٢٧] لمحة بالغة أن المعز من الخزي هو التأنيث بـ ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ. . .﴾ [النحل: ٢٧] وأمثال ذلك مما يوازي التأنيث بالشرك لما يوازي الشرك.

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٢٨﴾:

تعريف جامع للكافرين الناكرين لتوحيد الله ويوم الدين ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ حال ﴿تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ تاركين حياة التكليف ظالمي أنفسهم دونما توبة.

وكيف ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ وهم قد ظلموا كثيراً من المستضعفين، وظلموا النبيين وكل حق ناصع قاطع من رب العالمين، ومن يظلم نفسه دون سواه هو في أهون الظلم وأدناه وقد تشمله المغفرة!.

إن الظلم أياً كان يرجع بضره وشَرِّه إلى نفس الظالم في مثلث الحياة، ولا سيما منذ الموت، وسابق التعريف بهؤلاء الظالمين يكفينا دليلاً أنهم أظلم الظالمين ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[(١)] وهم الذين اتخذوا العجل من قوم موسى، ظلم الشرك.

فليس الله ليُظلَم كما لا يَظلم، ثم سواه يَظلمون أو يُظلمون أم يَظلمون ويُظلمون، و﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ هم - فقط - الظالمون، ولأنه راجع إليهم على أية حال، فهم ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ كسراً لشوكتهم مهما خُيِّل إليهم أنهم «ظالمي غيرهم» لا يصلهم من ذلك شيءٌ.

﴿فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ﴾ الذي ما كانوا يلقونه يوم الدنيا بل كانوا يُلغونه، ولكنهم ساعة الاحتضار يستسلمون ولا يفيدهم بعد انقضاء التكليف، إذ لا حول لهم ولا قوة ولا حيلة إلا أن يلقوا السلم، فإلقاء السلم هنا بعد إلغائه هناك هو طلب المسامحة عن ذل واستكانة، والتماس شفاعة، أم هو الاستسلام لحكم الله، فهم كمن طرح آلة المقارعة، ونزع شِلَة المحاربة، فهي إذاً نظيرة ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾[(٢)] أي لا تستسلموا لها.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٥٧.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٥.

وعلى أية حال ﴿فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ﴾ ماكرين منافقين حيث مقالهم تبرئةً لهم ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ﴾! وهم في ذلك الكذب الماكر يدَّعون العصمة في اعمالهم، فإن «من سوء» المدعى نفيه يستغرق كل سوء قصوراً أو تقصيراً، ويا له من كذب كاذب!.

وكيف يسمح لهم بغير الصواب. ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾[١] ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾[٢]؟.

إن ذلك مخصوص ببعض المواقف يوم القيامة، وهذا حين الاحتضار، وهم بين نشأتي الحياة الدنيا والبرزخية، وهم من شدة خوفهم يلقون ذلك السلم الماكر، زعماً منهم متعوداً أن يفيدهم، والله يأذن لهم لكي يفضحهم فإذا هم مفضوحون بتكذيب صارح صارخ: ﴿بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾! فكما أن عدم الإذن في كلام - فضلاً عن الكذب هناك - ليس إلا هتكاً وعذاباً، كذلك الإذن فيه أحياناً هتك وعذاب قضيةَ الجواب كلاماً وغير كلام، وعلى أية حال ليس ليفيدهم هناك صدق ولا كذب، فلن ينفعوا أنفسهم على أية حال كما لن يضروا الله شيئاً بحال.

ثم وكيف ﴿تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ هنا ثم ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾[٣] بعد، وفي ثالثة ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾[٤] وفي رابعة ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾[٥]؟.

الله هو المحيي والمميت لا سواه، ولكنه يرسل ملك الموت لقبض الأرواح، وملك الموت يبعث جماعة من أعوانه لقبض أرواح المؤمنين

---

(١) سورة النبأ، الآية: ٣٨.
(٢) سورة المرسلات، الآية: ٣٦.
(٣) سورة النحل، الآية: ٣٢.
(٤) سورة السجدة، الآية: ١١.
(٥) سورة الزمر، الآية: ٤٢.

وآخرين للكافرين بإذن الله، وقد يتولى الله قبض أرواح بنفسه المقدسة دون وسيط كالسابقين مثل لرسول محمد ﷺ[(١)] والمحمديين طول الخط الرسالي فهو المميت لا سواه كما هو المحيي لا سواه، وإنما الملائكة كأرواح السابقين مثل الرسول محمد ﷺ والمحمديين طول الخط الرسالي، فهو المميت لا سواه كما هو المحيي لا سواه، وإنما الملائكة وسائل ظاهرية للأمانة كما للإحياء، كما الإلقاء بالنفس من شاهق من أسبابها فهو تبارك وتعالى أجل وأعظم من أن يتولى ذلك بنفسه، وفعل رسله وملائكته فعله، لأنهم بأمره يعملون، فاصطفى جل ذكره من الملائكة رسلاً وسفرةً بينه وبين خلقه وهم الذين قال الله فيهم ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾[(٢)] فمن كان من أهل الطاعة تولت قبض روحه ملائكة الرحمة، ومن كان من أهل المعصية تولت قبض روحه ملائكة النقمة، ولملك الموت أعوان من ملائكة الرحمة والنقمة يصدرون عن أمره وفعلهم فعله وكل ما يأتونه منسوب إليه، وإذا كان فعلهم فعل ملك الموت وفعل ملك الموت فعل الله، لأنه يتوفى الأنفس على يد من يشاء ويعطي ويمنع ويثيب ويعاقب على يد من يشاء وإن فعل أمناءه فعله كما قال: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾[(٣)] [(٤)].

---

(١) ملحقات إحقاق الحق ٦: ١٣٩ و١٦: ٥٠٥ من قول عزرائيل للنبي ﷺ ليلة المعراج: «قد وكلني الله بقبض أرواح الخلائق ما خلا روحك وروح ابن عمك علي بن أبي طالب فإن الله يتولاكما بمشيته - كيف يشاء ويختار» أخرجه تسعة من أعلام إخواننا السنة.

(٢) سورة الحج، الآية: ٧٥.

(٣) سورة الإنسان، الآية: ٣٠.

(٤) نور الثقلين ٣: ٥١ عن الاحتجاج للطبرسي عن أمير المؤمنين عليه السلام حديث طويل يقول مجيباً لبعض الزنادقة وقد قال أجد الله تعالى يقول: ﴿يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السّجدَة: ١١] و﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزُّمَر: ٤٢] و﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٢] وما أشبه ذلك، فمرة يجعل الفعل لنفسه ومرة لملك الموت ومرة للملائكة؟ ==

﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾:

﴿أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ هي طبقاتها السبع، بأبوابها السبع، والأبواب الأسباب لدخولها وهي الرذائل السبع، دون السبع الثانية إلى عرصة واحدة، حيث التعبير الصالح لها «فادخلوا من أبواب جهنم» دون ﴿أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ فإنها مَدخَل لا مُدْخل، ثم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ تخلدهم في تلكم الأبواب، ولا خلود لأي داخل من باب في الأبواب[1]!.

وهل أنها ﴿أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ في الحياة البرزخية كما هي قضية الحال لحال الاحتضار، ولمّا تقم القيامة حتى يدخلوا أبواب جحيمها؟ وليس هنالك خلود حيث تنتهي حين تقوم القيامة الكبرى!.

أم أنها ﴿أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ الآخرة، أمراً في الحال، بياناً للمآل، وتطبيقاً في الاستقبال؟ وجهنم البرزخ أقرب للدخول، وأحرى من الآخرة أمراً بالدخول، والخلود هو البقاء مدة طويلة، والحياة البرزخية طويلة أمام الدنيا، مهما كانت قصيرة أمام الآخرة!.

أم أنهما معاً معنيّان، أمراً استمرارياً بدخول أبواب جهنم برزخاً وفي الآخرة، وذلك أحرى، ﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ في الآخرة والأولى،

= فأما قول الله عزّ وجلّ: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزُّمَر: ٤٢] و﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ وما أشبه ذلك، فمرة يجعل الفعل لنفسه ومرة لملك الموت ومرة للملائكة، فأما قول الله عزّ وجلّ: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزُّمَر: ٤٢] وقوله: ﴿يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ﴾ [السّجدَة: ١١] و﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعَام: ٦١] و﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ و﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [النّحل: ٢٨] فهو تبارك وتعالى أجل وأعظم من أن يتولى ذلك بنفسه...

أقول أجل إنهن أجلّ من ذلك، وهذا يلمح بأنه يتولى بنفسه قبل أرواح الأجلاء من خلقه، ثم من دونهم ملك الموت ثم ملائكة الرحمة، ثم للكفار ملائكة العذاب.

(١) راجع إلى تفسير الآية ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ...﴾ [الحِجر: ٤٤] في الحجر.

والآخرة لهم أنكى وأبقى ذلك بما هنالك للضفَّة الجهنمية، ثم إلى ضفّة الجنة وأصحابها حرفاً بحرف وأين حرف من حرف؟

﴿۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْۚ قَالُواْ خَيْرًاۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌۚ وَلَدَارُ ٱلْأٓخِرَةِ خَيْرٌۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾﴾:

﴿خَيْرًاۗ﴾ هنا هي خير تلخيص لما أنزل ربكم، وقد يعم كل نازل من مقام الربوبية تكويناً وتشريعاً، ومن كتابات الدعوة والرسل الداعية، وما سهّل الرب لهم حتى تسهّل لهم قبول الدعوة، كل ذلك تعنيها ﴿خَيْرًاۗ﴾!.

فـ ﴿خَيْرًاۗ﴾ هنا وِجاه ما هناك ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ثم ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ...﴾ هنا وِجاه ما هناك «ليحملوا - إلى - مثوى المتكبرين» إذ لو كانت هذه من مقالتهم بعد ﴿خَيْرًاۗ﴾ لكانت قضية الحال فصاحة وبلاغة «لنا في هذه الدنيا حسنة.. ولدار الآخرة خير لنا» فإنهم هم المتقون أنفسهم، كما و﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا...﴾[1] دون «ندخلها» قرينة أخرى على أنها مقالة الرحمة جواباً عن قولهم ﴿خَيْرًاۗ﴾.

فـ ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌۚ﴾: أحسنوا في هذه الدنيا عقيدة وعملاً صالحاً، لهم ﴿حَسَنَةٌۚ﴾ في كل النشآت، كما لهم ﴿فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌۚ﴾ والأصل تعلق «في هذه» بـ ﴿أَحْسَنُواْ﴾ وتعلقه فقط بـ ﴿حَسَنَةٌۚ﴾ تختص الحسنة بهذه الدنيا وهو خلاف الضرورة، اللهم إلّا تعلقاً هامشياً أن لهم حسنة في هذه الدنيا كما في الآخرة، وكما يتطلبون في دعائهم: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[2].

ومن حسنة الدنيا للذين أحسنوا في هذه الدنيا نصر الله الموعود لهم:

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٢٣.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٠١.

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَٰدُ﴾[١] وكما منها حياتهم فيها بحذافيرها وظلماتها وظلاماتها وشهواتها، فإنهم يجتازونها سالمين وكما يروى عن رسول الهدى ﷺ: جزناها وهي خامدة!.

لكن ﴿وَلَدَارُ الْأَخِرَةِ خَيْرٌ﴾ حسنة من الدنيا للذين أحسنوا فيها ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ أهي الدار الآخرة، حيث الدنيا لهم مدرسة ودار مجاز، لا دار مقام، مهما كانت هي - أيضاً - كذريعة وعلى هامش الآخرة نعم الدار حيث المتقون دنياهم آخرة لأنها مزرعة الآخرة؟ أم هي الدنيا لقرن ﴿دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ بالآخرة[٢]، أم هي دورهم كلها في النشآت الثلاث ثانيتها دار البرزخ، فلأنهم يتقون محاظيرهم، فلنعم دارهم حيثما دار، تقوى في الأولى، ونتيجة التقوى في الأخريين، مهما كانت الآخرة أنعم وأحسن الحسنيين.

ف ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ حيثما دار في النشآت الثلاث وأوسطها البرزخ، مهما كانت الآخرة أنعم وأرقى، وهي:

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾﴾:

فمهما كانت لهم الحياة الدنيا الإيمانية، ﴿جَنَّٰتُ﴾ ومن وراءها في البرزخ جنات، ولكنها غير عدن مهما كانت البرزخ أطول من الدنيا، وفي النشأة الثالثة والأخيرة لهم ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ واستقرارٍ لا موت فيها ولا خروج عنها لأنها عطاء غير مجذوذ، فهي هي دار المتقين مهما كانت لهم في الأولى والثانية دار حياة وعيشة حسنة.

---

(١) سورة غافر، الآية: ٥١.

(٢) نور الثقلين ٣: ٥٢ عن تفسير العياشي عن ابن مسكان عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: ولنعم دار المتقين - قال: الدنيا - أقول وهذا تفسير بالمصداق الأدنى فأوسطه البرزخ وأعلاه الآخرة.

﴿جَنَّتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ في قيامة الإحياء، بعدما كانوا في جنات برزخية، ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ وبطبيعة الحال لا يشاؤون فيها إلا كما يناسب ظروف الجنة وأهلها المتقين ﴿كَذَلِكَ﴾ العظيم الرحيم العميم ﴿يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾:

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢)﴾:

وهذه الجنة - وهي عند ما يُتوفَّون - هي البرزخية، وليست هي العدن التي لا يدخلونها إلَّا في الآخرة، فهذه - أذن - من الآيات الدالة على الحياة البرزخية. و﴿طَيِّبِينَ﴾ هنا مقابل «ظالمين» هناك هم الطيبون من الظلم ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[1] من أظلم الظلم وهو الشرك، ثم سائر الظلم، فهم - إذاً - مَن ليست له حين يُتوفّى إلَّا الجنة، كما الأولون هم من ليست لهم إلَّا النار، وبينهما عوان يجمع لهم بين العذاب والثواب، لم يذكروا هنا وهناك.

ثم الطيب هو ما يُستطاب كما هو ما يستطيب، والطيبون عند توفيهم تستطاب أقوالهم ونياتهم وأعمالهم، وهم عند الله مرضيون يستطابون، فأوّل ما يقال لهم ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ﴾ قولاً وفعلاً وحالاً، ومن سلامهم فعلاً: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ على ضوء الإيمان والطيب.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٣٣)﴾:

﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ وينتظرون حماقى الطغيان، أصحاب القلوب المقلوبة المنكرة المستكبرة، الكافرة المضلّلة، ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن...﴾؟ هنا، وفي البقرة ﴿... إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَإِلَى

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٨٢.

ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾[١] ثم في الأنعام: ﴿. . . إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾[٢]: انتظارات مبكِّرة لِما يأتي في وقته المقرر له، هنا أم عند الموت أم يوم القيامة، أم مستحيلة كإتيان الله مع الملائكة، ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ﴾[٣]؟ ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ﴾ -: ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾[٤] ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ في ذلك العذاب الماكر الباكر ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ حيث تطلبّوه مبكّراً واستحقوه من قبل بما عملوا، وأولى لهم حين تطلبّوه.

ونَظِرَتهم أن تأتيهم الملائكة، علَّها إتيانهم لهم بالوحي، أم بتصديق محمد ﷺ حيث يدعي الوحي، أم بالعذاب الموعود لهم إن لم يؤمنوا وهم مستمرون في التكذيب والتأنيب والتضليل، واللفظ وقضية الحال يناسبان ثالوث الانتظار الاحتضار.

﴿أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ﴾ علّه هو أمر الله فلا تستعجلوه، سواء أكان أمر انتصار الحق، هنا وفي الآخرة، هزءًا، إذ ما كانوا به يؤمنون، أم أمر استئصالهم، أم أمر القيامة حتى يصدقوها بالمشاهدة فكذلك الأمر، وهنا ﴿رَبِّكَ ۚ﴾ تلمح بأنه انتظار لما ينكرونه تعنتاً، لأنه من اختصاصات وحي الرسالة.

وعجبٌ من أمر هؤلاء - الإمر - فإنهم يرون ويسمعون ما حلّ بمن

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٠.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٥٨.
(٣) سورة فاطر، الآية: ٤٣.
(٤) سورة النحل، الآية: ٢٦.

قبلهم، ممن سلكوا مسلكهم، ثم هم من بعدهم يظلون سادرين ما سادروا، ضالين كما ضلوا، غافلين عن سنة الله في الغابرين، وإنها لن تحابيهم ولا تتوقف إزاءهم وقفة عن أذاهم إذا هم سادرون كما هم، كأنهم أقوى منهم! فما أغفلهم وأغواهم عن مصيرهم بمسيرهم:

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾﴾:

عمل السوء سيئة، وأثره بطبيعة الحال سيئة، في الدنيا وفي الآخرة، وهنا ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ علها هي الأعمال نفسها، حيث ظهرت بشيء من حقائقها يوم الدنيا عذاباً يمثل الأخرى، وقد عبّر عنه بـ ﴿سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ دون ما عملوا، فإن للأعمال الخاطئة نشآت ثلاث، يوم الدنيا حيث تظهر بشيء من حقائقها كما تناسب الدنيا وليست هي دار جزاء، ثم تظهر بشيء أوفر في البرزخ، ثم في الأخرى يجزاه الجزاء الأوفى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾[1].

فلأن السيئة وِجاه الكبيرة هي القليلة وجاه الكثيرة، فـ ﴿سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ هي قليلة من كثيرة، فإن ﴿مَا عَمِلُوا﴾ كبائر ما أكبرها، وما أصابهم ليس إلّا شطر قليلٌ من حقائقها الجهنمية.

ولأن ﴿مَا عَمِلُوا﴾ ليست إلّا خطايا، فـ ﴿سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ ليست إضافة تقتسم ما عملوا إلى سيئات وسواها، ولا إضافة الصفة إلى موصوفها، إذ تشمل كل خطاياهم وما أصابهم إلا سيئاتها هنا، بل هي إضافة الجزء إلى الكل، فلم يصبهم كل ما عملوا لأنه مؤجل إلى الآجلة، وانما بعضٌ مما عملوا قليل، فإنه للعاجلة، كما البرزخ بينهما للبرزخ بينهما، هذا، مهما كان هناك ﴿سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ الظهور التام لأعمالهم يوم القيامة، إضافة الصفة

(١) سورة النحل، الآيات: ٣٩-٤١.

إلى موصوفها، حينما تقوم قرينة: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾[١] فإنها بعد ذكرى من سوء العذاب يوم القيامة، وأما هنا فهو يوم الدنيا.

﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ حيطة مُزَمجِرة مدمِّرة هنا ﴿مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ من عذاب الاستئصال، وكما كانوا ينظرونَ مْرُ رَبِّكَ نظرة الهزء، المتعنتة.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٣٥)﴾:

هؤلاء ﴿الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ هم الذين خولطوا فخالطوا بين المشيئة التكوينية والتشريعية، فلأنهم يرونهم مشركين، فلو شاء الله ألّا يشركوا ما كانوا مشركين، إذاً فقد شاء الله شركهم فأشركوا كما شاء إيمان الموحدين فوحّدوا.

فـ «لو» هنا - على حد تعبيرهم الخالط الغالط - تحيل مشيئة التوحيد لهم، استدلالاً بواقع شركهم، وأن مشيئة الله لا تُغلب، إذاً فقد شاء واقع الشرك منا فأشركنا، أم لم يشأ منا شيئاً لا شركاً ولا سلبه فلماذا تدعوننا إلى رفضه، أم شاء التوحيد فتغلبت مشيئتنا على مشيئة الله وذلك كفر بالله، فهكذا يتبرر شركنا بالله، حفاظاً على كرامة الله!.

ومنهم الجبرية الناكرة للاختيار في الأفعال، يقولون مثل قولهم، و﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من المشركين، استصواباً لفعلهم بذلك البرهان الماكر الحاكر، ولكن: ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ أنه ما شاء ولن يشأ شركَهم في شِرعته، ودعاهم ببلاغ رسالي مبين في الآفاق وفي

(١) سورة الزمر، الآية: ٤٨.

أنفسهم إلى توحيده، وخيّرهم بين الإيمان والكفر، ورغّبهم في الإيمان وندّدهم بالكفر ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾؟!.

فقد شاء الله ألا تعبدوا إلَّا إياه أمراً مخيراً، ولم يشأ الله أن تعبدوا سواه أمراً مسيَّراً:

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ فَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾:

و﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا﴾ - إلى - ﴿ٱلطَّٰغُوتَ﴾ يحمل أمره التشريعي، ثم ﴿فَمِنْهُم... ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ يحمل التكويني، وإنه لا يهدي إلَّا من اهتدى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾[1] ولا يضل إلَّا من ضل: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[2] تشريع يحبِّذ الإيمان، وتكوين بعد الكفر أو الإيمان، فليست بداية الكفر أو الإيمان - إذاً - تسييراً دون اختيار، وإنما مزيد الكفر والإيمان جزاءً وفاقاً.

وهؤلاء الذين ضلوا باختيارهم وعلى علم، معاندين للحق ومحايدين للباطل، ليس الله ليهديهم تسييراً بعدما اختاروا الضلالة فأضلهم كما ضلوا، وإن كنتم في ريب من بعث الرسل حاملين مشيئة الله التشريعية في التوحيد والمعاد والشرعة الموصلة بين المبدأ والمعاد، أم في ريب من عاقبة المكذبين لهذه الرسالات ﴿فَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ تأريخياً وجغرافياً، سيراً بأنفسكم في أكناف الأرض؟ وذلك غير ميسور لأكثر أهل الأرض! أم سيراً في التأريخ الجغرافي والجغرافيا التاريخي نظراً في السِّيَر؟ وفيها حق وباطل! أم نظراً في القرآن؟ وهو أضمن سير وأسلمه، وفي مثلث السير ذكرى مهما اختلفت الدرجات.

---

(١) سورة محمد، الآية: ١٧.

(٢) سورة الصف، الآية: ٥.

﴿إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٣٧﴾:

﴿لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّ﴾ به. بما ضل، ولا ﴿مَن يُضِلُّ﴾ سواه بما أضل، فمن ضل وأضل ليس الله ليهديه سواء السبيل، اللهم بإكراه وهو خلاف سنة الله ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ﴾[1]، ثم ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ يهدونهم بعدما أضلهم الله وما هدى، ولا من ناصرين ينجونهم من عذاب الله الموعود لهم، ولماذا ﴿مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ وهي لا تنفي سوى الجمع فعلَّ لهم ناصراً إن لم يكن ناصرون؟.

«من» هنا تجتث جذور النصرة أياً كانت ومن أي ناصر، والجمع هنا أبلغ لاستغراق النفي، فـ «من ناصر» قد يُعنى به ناصر يزعمونه كأصنامهم، و﴿مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ يحلِّق على كل ناصرٍ أياً كان، إلهياً رسالياً وملائكياً، أم سواهم، فلا نصرَة هناك بعد إن لم ينصره الله ولن..

رجعة تفصيلية إلى الآيات الثلاث:

«ما عبدنا» مفعول لـ ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ كما قال الله ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا﴾[2] وترى كيف تتعلق المشيئة بالعدميات؟.

إن ﴿مَا عَبَدۡنَا﴾ في ظرف إرادة العبادة، أمرٌ إعدامي وليس عدمياً لا تتعلق به المشيئة، فالأمور بين عدمي ووجودي، والثاني إيجادي وإعدامي، والمشيئة المتعلقة بـ ﴿مَا عَبَدۡنَا...﴾ تتعلق بإعدام التوحيد، إيجاباً لعبادة ما سوى الله وسلباً لعبادة الله، وهما أمران وجوديان دون العدمي الذي لا تتعلق به مشيئة الإعدام فإنه تحصيل للحاصل، ولا مشيئة لإيجاد حيث

(١) سورة يونس، الآية: ٩٩.
(٢) سورة النحل، الآية: ٣٥.

المعدوم لا يوجد، ولا يعني الخلقُ الإيجادَ من اللّاشيء، بل هو بين الإيجاد لا من شيء والإيجاد من شيء.

فعلى زعمهم الخالط هنا مشيئتان اثنتان، منا أن نعبد سواه، ومنه ألّا نعبد سواه، و﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا...﴾ وتغلبت مشيئته على مشيئتنا، فلم يشأ - إذاً - ألّا نعبد، بل شاء أن نعبد، أم لم يكن له دور إيجابي أو سلبي في عبادتنا، فهي - إذاً - مشيئتنا فقط: أن نعبد سواه، أم ويشاء ما شئناه فتوافقت المشيئتان وتجاوبت.

و«مِن» الأولى في ﴿مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ﴾ بيانية، والثانية جنسية تستأصل كل شيء، مشيئة تجعلنا لا نشرك به شيئاً أبداً، بل نعبده موحدين إياه.

ف ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ تشمل كلا النفي والإثبات المعنيَّين ب ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾:

مشيئَة إلهية تمنعنا عن عبادة ما سواه، وتحملنا أن نعبده لا سواه، فقد تعلقت المشيئة هنا بأمرين وجوديين، إيجاد التوحيد وإعدام الشرك، والثاني أصعب من الأول حيث يتطلب مشيئة أقوى منه، ومثالاً عليهما العبادات الإيجابية كالصلاة والسلبية كالصوم، فهل الصوم لا يحتاج إلى مشيئة وإرادة وهو صد النفس عن المشتهيات المبطلة له، وذلك أصعب من مشيئة الصلاة.

وهكذا يكون دور السلب في ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾ فإنه أصعب من دور الإيجاب في ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فكيف يعتبر سلب الإشراك أمراً عدمياً لا تتعلق به مشيئة، بل هو إعدامي أقوى من الإيجاد و﴿مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ﴾ هو ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ الجامعة بين السلب والإيجاب، وهي تتطلب مشيئتين اثنتين، فأين تعلقها بأمرٍ عدمي حتى تتطلب توجيهات في الحق هي تحمليات لا تتحملها الآيات!.

وهكذا الأمر في ﴿وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ﴾ فكنا - إذاً - موحدين

إياه مطيعين له فيما أحل أو فرض أم حرم، فواقع شركنا وتحريمنا، دليل على واقع اللّامشيئة الإلهية للإيمان والطاعة، بل وواقع مشيئة الإشراك والمعصية!.

ثم وفي «لو» المحيلة لأصالة أصل التوحيد أولاً: ﴿مَا عَبَدْنَا﴾ ولفروع الشرعة التوحيدية ثانياً: ﴿وَلَا حَرَّمْنَا﴾ إحالةٌ لصحة الشرعة التي يحملها رسل الله، وذلك أعضل داء بين عضال الأدواء لهؤلاء الحماقى، تكذيباً غالياً قالياً لكافة الرسالات الإلهية بصورة الاحترام وسيرة الاخترام، حانقاً خانقاً مريباً للذين لا يعقلون: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ...﴾[١] ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾[٢].

ذلك ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ ولقد أبانوا ببلاغهم ليل نهار الحقَّ كله كما يحق، وتقبَله الفِطَر والعقول ولكنهم لا يعقلون!.

إنهم - ككل - لا يحملون إلا شرعة الله، وأما مشيئة الله أن يحملوا بها الكافرين على الايمان؟ فلا! ولا إن الله يحمل أحداً على كفر أو إيمان ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[٣] دونما حملٍ يسيِّر، وإنما هو توجيهٌ يخيِّر كما في تكوينهم، ثم يختار لهم كل خير.

ذلك نكرانهم لأصلي التوحيد والنبوة وفروع الشرعة، ومن ثم ثالث ثلاثة نكران الآخرة:

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٨)﴾:

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٢٠.
(٢) سورة الزخرف، الآية: ٢٢.
(٣) سورة الكهف، الآية: ٢٩.

هنا بعدما كلّوا عن التدليل لعدم البعث أم إحالته، كما فعلوا بما افتعلوا في أصلي التوحيد والنبوة والشرعة الإلهية ككل، هنا يقسمون بالله جهدَ أيمانهم بهامّتها في نهايتها: ﴿لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ﴾ متظاهرين أنهم يحترمون الله فيما كانوا يخترمون: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ فهم - إذاً - يحلفون بمن يحترمونه وفوق المؤمنين به المفترين عليه أنه بعث برسالة التوحيد والمعاد! وقد يقوم حلفهم مقام البرهان، فسواء قال الله: لا أبعث من يموت، أم قاله هؤلاء المخصوصون بالله!.

والجواب عن ذلك الإقسام الخاوي عن أي برهان كلمة واحدة ﴿بَلَىٰ﴾ ولماذا؟ لأن الحلف لا يقوم مقام البرهان في الأصول العقائدية العقلية، سلبياً وإيجابياً، ولا سيما الفطرية كأصل الحياة بعد الموت، فإنها تعم الجهال والمجانين، فضلاً عن العقلاء المدعين العلم.

ثم وفيما يقوم الحلف مقام البنية القائمة مقام البرهان، لا يقبل الحلف إلّا بما يؤمن به الحالف، فكما أن حلف الملحد في الله لا يُقبل، كذلك المشرك بالله، بل ولا الموحد المتزعزع في إيمانه، فكيف يُقبل - إذاً - من المشرك المتهتك ساحة الربوبية أكثر من الملحد، حيث يفتري على الله أنه لم يشأ منه الإيمان، أم أجبره على اللّاإيمان؟ رغم بعث الرسل تترى داعية إلى الإيمان.

إذاً فلا رد على ذلك الحلف برهانياً إذ لا يملك برهاناً يُرد بمثله، اللهم إلّا ﴿بَلَىٰ﴾ جواباً عن «لا» ولكن الله يبرهن هنا بعد ﴿بَلَىٰ﴾ بأجمل بيان وأكمله: ﴿وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا﴾: وعداً منه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنۡهَا مَحِيصٗا ﴿١٢١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ﴿١٢٢﴾﴾[1].

---

(١) سورة النساء، الآيتان: ١٢١، ١٢٢.

ولقد أصبحت حتمية يوم البعث لحدٍّ تسمى في آيات عدة بالوعد ويوم الوعد وإلى أن سماه الناكرون له بالوعد ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[1] [2] وليس ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ﴾ - فقط - بما أخبرنا بألسنة رسله حتى تُنكر بـ ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ. . .﴾ بل وسائر الآيات الإلهية آفاقية وأنفسية تؤكد أنه ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ﴾.

فالفطرة العاشقة لاستمرارية الحياة بعد الموت - دونما فتور في هيمانها لها مع العلم بواقع الموت، ولا فَترة لها فيما تعشقه رغم ما يرى من عامة الموت، وحتى إذا قرب صاحبها إلى الموت، واحتمال أن المعشوق لا يعدو الخيال، فضلاً عن حتمية الخيال - مما يهدم صرح العشق، ولكنما الفطرة تعشق الحياة المستمرة واقعياً، ويزداد له تعشقاً كلما يكبر صاحبها وإلى قرب الموت، وذلك دليل قاطع لا مرد له على حتمية الحياة بعد الموت فطرياً.

ثم العقل الحاكم إن السماوات والأرض لم تخلقا عبثاً ولا الإنسان عبث في ذلك الكون الشاسع، وقضيةُ عدل الله العليم القدير الرؤوف الرحيم أن الإنصاف للمظلومين من الظالمين ضرورة قاطعة قاصعة.

كل ذلك يؤكد ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ ثابتاً لا حول عنه ﴿حَقًّا﴾ لا يبطل ولا يزول، فإنه أصل أصيل في كتابي التكوين والتشريع، فلو خالف وعده فقد خالف ربوبيته، وخالف أحكام الفطرة التي فطر الناس عليها، وأحكام العقل، وأحكام كل حَكَم عدل حكيم.

ونقمة الظالمين أحياناً يوم الدنيا لا تكفي انتصاراً للمظلومين، لو لا حياة بعد الموت تُكفَّى فيها نقماتهم، وتُكَفِّي للعادلين والمظلومين نعماتهم.

---

(١) سورة يونس، الآية: ٤٨.

(٢) وكذلك في ١٠: ٤٨ و٢١: ٣٨ و٢٧: ٧١ و٦٧: ٢٥ و٣٦: ٤٨ و٦٧.

إذاً فيوم الوعد ليس وعداً باطلاً، أم حقاً زائلاً يقبل البداء، ﴿بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ عليه في كتاب التكوين فطرة وعقلاً وعدلاً، وعليه في كتابات التشريع طول التأريخ الرسالي دونما تخلف وخلاف، وليس الله ليترك ما عليه - وهو لزام ربوبيته - لما يحلفون بالله كاذبين جهد إيمانهم ﴿لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ إن ذلك وعدٌ عليه، تجاهلاً مقصراً، لا جهلاً قاصراً الإقسام للمشركين وقد نطق به القرآن في آيات عدة!.

وعلى هامش نكران البعث يوم البعث نكران الرجعة قبل البعث في دولة القائم عليه السلام، وقد تعنيه الآية تأويلاً من باب الجري في المصداق الأدنى، فإنهما من باب واحد مهما اختلف النكر بين النكرانين، فهناك مشركون وهنا طائفة من المسلمين.

وترى كيف أقسم المشركون بالله، وأصنامهم التي أشركوها بالله هي أعزُّ لهم من الله؟ إذ يعبدونها من دون الله؟

إنهم مؤمنون بالله أنه الأصل بين الآلهة، مهما يعبدون الأصنام دون الله، ولكنهم - وهم أمام المؤمنين بالله - لا بد وأن يقسموا بمن يتصادقون في الإيمان به وهو الله، لا سيما وأنهم المتظاهرون بمظهر الدافع عن الله، وهنالك إقسامات لهم بالله تحملها آيات أخرى[1].

فتباً لمن يختلق ما يخالف القرآن ثم ينسبه إلى أهل بيت القرآن أن «تباً لمن قال هذا»[2].

---

(١) كالآية: : ٦: ١٠٩ و٣٥: ٤٢ و١٤: ٤٤. مهما وردت آيات أخرى في إقسام المنافقين كالآية: ٢٤: ٥٣ و٥: ٥٣.

(٢) نور الثقلين ٣: ٥٤ عن روضة الكافي سهل عن محمد عن أبيه عن أبي بصير قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام قوله تبارك وتعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ . . .﴾ [الأنعام: ١٠٩] قال: فقال لي: يا أبا بصير ما تقول في هذه الآية؟ قال: قلت إن المشركين يزعمون ويحلفون لرسول =

﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ (٣٩)﴾:

فهب أنه لا برهان على ضرورة البعث بعد إمكانيته، ولكن الله الذي يعلم ذلك الاختلاف الدائب بشأن البعث تثبيتاً وإنكاراً، عليه أن يبين الحق ليزول الخلاف، بياناً لا مرد عنه ولا محيصَ، ويتصادق في تصديقه المختلفون، ولم يفعل هكذا يوم الدنيا، فليكن بعدها يومٌ - ولا أقل - للبيان ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ بياناً عياناً بواقع البعث وما فيه من الفتح بين المختلفين، وفصل القضاء لهم ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ عين اليقين ﴿أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ فيما كانوا يحلفون ويختلقون من شبهات حول البعث.

وهنا البيان الموعود لهم يوم البعث، منه واقع البعث فإنه بيان العيان، ومنه ظهور كافة الحقائق التي أنكروها يوم الدنيا، تقصيراً عنها لا قصوراً فيها، إذ حجبوا أنفسهم عنها فأنكروا، ولكنهم في الأخرى يُزَّيل بينهم وبينها فيصدقونها متحسرين من تكذيبها في الأولى: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾(١).

ومن ثم بيان العيان لملكوت عقائدهم وأعمالهم حيث تبرز فيها ف ﴿إِنَّمَا

= الله عليه السلام أن الله لا يبعث الموتى، قال فقال: تباً لمن قال هذا، سلهم هل كان المشركون يحلفون بالله أم باللات والعزّى؟ قال قلت جعلت فداك فأوجدنيه، قال فقال: يا أبا بصير لو قد قام قائمنا بعث الله قوماً من شيعتنا قباع سيوفهم على عواتقهم فيبلغ ذلك قوماً من شيعتنا لم يموتوا فيقولون بعث فلان وفلان من قبورهم وهم مع القائم فيبلغ ذلك قوماً من عدونا فيقولون يا معشر الشيعة ما أكذبتم هذه دولتكم وأنتم تقولون فيها الكذب لا والله ما عاش هؤلاء ولا يعيشون إلى يوم القيامة، قال: فحكى الله قولهم فقال: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨] أقول ورواه مثله باختلاف يسير سيرين وإبراهيم القمي عن بعض رجاله عنه عليه السلام.

ولا سبيل لتصديق هذه الروايات إلا أنها تأويل للبعث إلى نطاقه الأعم من أعلاه إلى أدناه، وتبّاً لمن قال هذا تب للاختصاص، مهما كان ظاهره الاختصاص.

(١) سورة ق، الآية: ٢٢.

تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[(١)] ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾[(٢)].

ففي مثلث البيان العيان ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰذِبِينَ﴾ ويعلم الذين آمنوا صدقهم أنفسهم فيشكرون.

وإزاحة عن شبهة القدرة لذلك البعث الباعث لتحقيق عدل الله وفضله:

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾:

إنما قوله تعالى - فيما يريده تكويناً - فعلُه، تعبيراً بما نعرفه سهلاً هيِّناً، فكما القول - أياً كان في التكوين - عندنا سهل، دون حاجة إلى أية محاولة إلَّا لفظة القول، كذلك الله ربنا سبحانه في فعله أياً كان، ليست له محاولة إلا مجرد حوله وقوته، دونما أية صعوبة ولا أي فصل زمني إلَّا أن يشاء ذلك قضيةَ الحكمة العالية الربانية.

ونفاذ مشيئته بالنسبة لأي تكوين هو على حد سواء، سواء أكان تكويناً للكائن الأوّل لا من شيءٍ، أم تطويراً له بعد تكوينه إلى أطوار أخرى كما يشاء وعلى أية حال «فإرادته إحداثه لا غير ذلك»[(٣)] فلو أن «كن» هنا قولٌ

---

(١) سورة الطور، الآية: ١٦.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٣٠.

(٣) في الكافي بإسناده عن صفوان بن يحيى قال قلت لأبي الحسن عليه السلام أخبرني عن الإرادة من الله ومن الخلق - قال: الإرادة من الخلق الضمير وما يبدو لهم بعد ذلك من الفعل، وأما من الله تعالى فإرادته إحداثه لا غير ذلك لأنه لا يروّي ولا يهم ولا يتفكر وهذه الصفات منفية عنه وهي صفات الخلق، فإرادة الله الفعل لا غير ذلك يقول له: كن فيكون بلا لفظ ولا نطق بلسان ولا همة ولا تفكر ولا كيف لذلك كما أنه لا كيف له.

وفي الدر المنثور ٤: ١١٨ - أخرج أحمد والترمذي وحسنه وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان واللفظ له عن أبي ذر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: يقول الله يا بن آدم كلكم مذنب إلّا من عافيت فاستغفروني أغفر لكم وكلم فقراء إلا من أغنيت فسلوني أعطكم وكلكم ضال إلا من هديت فسلوني الهدى أهدكم ومن استغفرني وهو يعلم أني ذو قدرة على =

فليكن له مخاطَب، وكون المخاطب قبل الخطاب أو حينه يُحيل تكوينه، فإنه تكوين للكائن، فإنما هي إرادة تتعلق بتكوين غير الكائن، إما في أصله كالكائن الأول: المادة الأمِّ، فإنه تكوين لا من شيءٍ، أم في تحويره تكويناً للشيء شيئاً آخر، فإنه تكوين من شيءٍ، و«كن» يعمهما مهما اختلف تكوين عن تكوين.

والشيء المراد تكوينه في البعث ليس إلَّا خلق الأمثال، فالأرواح كائنة كما هيه، والأجساد بموادها كما هيه، وكل ما حصل هنالك بالموت هو انفصال الروح عن هذا البدن، ثم تحول البدن رميماً رماداً، فلا مُعادَ في المعاد إلَّا خلق الصورة الإنسانية كما الأوّل ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾[1] وإعادة الروح في البدن بنفس الصورة.

صحيح إن إعادة المعدوم بحذافيره ممتنعة، ولكن لا مُعادَ في المَعاد معدوماً، وإنما وصلٌ بعد فصل للروح مثل الأول، وخلق للصورة مثل الأولى، إنشاءً كما الأول، دون أية إعادة للأوّل.



= أن أغفر له غفرت له ولا أبالي ولو أن أوّلكم وآخركم وحيكم وميتكم ورطبكم، ويابسكم اجتمعوا على قلب أشقى واحد منكم فأنقص ذلك من سلطاني مثل جناح بعوضة، ولو أن أوّلكم وآخركم وحيكم وميتكم ورطبكم، ويابسكم سألوني حتى تنتهي مسألة كل واحد منهم فأعطيتهم ما سألوني فانقص ذلك مما عندي كغرز إبرة لو غمسها أحدكم في البحر وذلك أني جواد ماجد واحد عطائي كلام وعذابي كلام إنما أمري لشيء إذا أردته أن أقول له كن فيكون.

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٩.

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ
وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ
يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ
أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ
ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ
مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ
لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوۡ
يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ
مِن شَيۡءٖ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدٗا لِّلَّهِ وَهُمۡ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾
وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمۡ لَا
يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴿٥٠﴾ وَقَالَ ٱللَّهُ
لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِي
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ
فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ
عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْۖ
فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَجۡعَلُونَ لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ نَصِيبٗا مِّمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡۗ تَٱللَّهِ لَتُسۡـَٔلُنَّ
عَمَّا كُنتُمۡ تَفۡتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ
﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ

مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةًۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَۚ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰۚ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةًۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾:

قد تلمح ﴿هَاجَرُوا﴾ بمضيها أنها هي السابقة على نزول الآية إذاً فهي الهجرة إلى المدينة، فالآية إذاً مدنية في سورة مكية، ولكنها قد تعني الهجرة إلى الحبشة، السابقة على هذه الآية في مكة، ثم المهاجرة هي حجر الأساس في حكم الآية، سواء أكانت سابقة أم لاحقة، إذاً فهي تشمل بتجريدها عن مضيها كل مهاجرة في الله من بعدما ظلموا، من مكة إلى الحبشة، ومن المدينة إلى مكة حيث كان من الأنصار مهاجرون لأن المدينة كانت دار شرك، ثم من مكة إلى المدينة، ومن ثم كل انتقالة في الله من مكان إلى مكان أياً كان وأيان ما طلعت الشمس وغربت.

فقد يهاجر - للحفاظ على إيمانه أم نشر الإيمان - عن وطن أم مال وأهلين، وأخرى عن حياة عن بكرتها حيث تكون حياة الإيمان في خطر

السقوط، فإذا دار الأمر بين حياتي أنا وحياة الإيمان فالإيمان أحرى بالبقاء.

وفي الخبر «لا يدخل الجنة إلا من هاجر» حيث تعم صيغة المهاجر كلَّ أهل الجنة، وغير المهاجر في النار، فليس - فقط - مهاجرة خاصة من مكان إلى آخر، بل هجران المعاصي والتباعد عن المآسي، وتحقيقاً لكلمة الحق ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

«لا إله» تقتضي المهاجرة عن إبعاد ثلاثة من المحرمات وهي النفسية والجماعية والمعيشية تحت السلطة الطاغوتية، كما ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ تثبيت لثلاثة أخرى هي النفسية والجماعية وتثبيت السلطة الربانية، فالمؤمن مهاجر على أية حال ما دام هنالك فسق أو كفر فردي أم جماهيري أم في الحكم حيث المسؤولية لنفي الباطل وتحقيق الحق تشكِّل الحياة الإيمانية.

ثم المهاجرة هي التباعد فقد تكون مهاجرة في الله كما هنا، أم مهاجرة في الشيطان، ثم الأولى قد تكون من بعدما ظُلموا كما هنا وهي أفضلها، وأخرى من بعدما ظَلموا بمقامهم في دار المجرمين ثم تابوا وهاجروا وهي أوسطها، وثالثة لم يَظلموا ولم يُظلموا وإنما يهاجرون لبسط الدعوة الإلهية فكالأولى، أم تزيدها فضلاً حيث تكون الدعوة أفضل وأشمل دون اختصاص بالحفاظ على إيمان المهاجر.

فكلما كانت الهجرة في الله أصعب، والدعوة فيها إلى الله أتم وأتعب، كانت الهجرة أفضل وأوعب، والآية تبين موقف المهاجرة الفضلى الشاملة للرسول والذين معه وهي ذات درجات حسب الدرجات، مهاجرة إلى الحبشة[1] . . . .

(١) الدر المنثور ٤ : ١١٨ - أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في الآية قال: هم أصحاب محمد ظلمهم أهل مكة فأخرجوهم من ديارهم حتى لحق =

ثم إلى المدينة المنورة[١] وفي الكل مهاجرة من الشهوات والإنيات والأنانيات إلى الله وفي الله، مهما كان فيها تنقُّل مكاني أم لم يكن حيث إن حجر الأساس فيها التباعد عما سوى الله إلى الله وفي الله، مهما اختلفت الظروف والأشكال، فالمهاجرة في الله لا تحدّ بحدود المكان والزمان وإنما هي المكانة والإيمان يهاجرُ للحافظ عليه والمزيد فيه. فـ «إن المهاجر من هجر ما نهى الله عنه، هجر السوء والخطايا والذنوب»[٢] ولقد «كان من الأنصار مهاجرون لأن المدينة كانت دار شرك»[٣] «كانوا من المهاجرين لأنهم هجروا المشركين»[٤].

فالمسلم المصابر على إيمانه، المتثابر في الله، إنه من المهاجرين أينما حل أو ارتحل أم سكن واستكن، وجملة القول في المهاجرة ككل أنها تنقسم حسب الأحكام التكليفية، خمس بخمسة فصالحاتها درجات كما طالحاتها دركات.

ثم المهاجرة في الله هي تُجسِّد كلمة التوحيد بسلبها: «لا إله» في سلبيات المهاجرة، وبإثباتها: «إلا الله» في إيجابياتها، فكل من يحمل كلمة التوحيد فهو مهاجر في بعديها على أية حال، حيث الحواجز في السلوك إلى الله كثير، فالموحد هو دائب المهاجرة في الله.

﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ حياة حسنة كما يطلبونها ليل نهار: ﴿رَبَّنَآ

= طوائف منهم بأرض الحبشة ثم بوأهم الله المدينة بعد ذلك فجعلها لهم دار هجرة وجعل لهم أنصاراً من المؤمنين. .

(١) المصدر أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال: إنهم قوم من أهل مكة هاجروا إلى رسول الله ﷺ بعد ظلمهم وظلمهم المشركون.

(٢) صحيح البخاري باب الإيمان ٤.

(٣) سنن النسائي البيعة ١٣.

(٤) سنن النسائي البيعة ١٣.

ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾[١] فالمهاجرة في الله تسهِّل كل صعب، وتحسّن كل سوءٍ ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[٢].

لا تفكر أنك إذا هاجرت وطنك وشغلك في الله تلقي بنفسك إلى التبعثر والحيرة دون بواء، فقد وعدك الله بترك بوائك في الله ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ رغم أن الدنيا دار عناء وشقة سيئة، وذلك طرف من الأجر ضئيل فإن متاع الدنيا أياً كان قليل ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ﴾ وحسنتها ﴿أَكْبَرُ﴾ من أجر الدنيا وحسنتها ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ والبواء هنا لا تخص دار الهجرة مهما كانت من البواء الحسنة، حيث النص ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ سواءً أكانت بواء دار الهجرة أم الرجوع إلى أرض الوطن أم فيهما، وعلى أية حال فهي البواء والحياة الحسنة، الملائمة للحفاظ على كرامة الإيمان، مهما كانت فيها صعوبات في ظاهر الحال..

وترى من هم المعنيون هنا بـ ﴿يَعْلَمُونَ﴾؟ أهم المهاجرون في الله؟ وهم بطبيعة الحال يعلمون، وإلّا فلم يهاجرون إن لم يكونوا يعلمون!، ثم و«لو» المحيلة عادياً لمدخولها تحيل لهم أن يعلموا خير أجر الآخرة، وإنه أكبر، فليسوا - إذاً - إلّا المشركين السابق ذكرهم، ثم وليست ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ لتختص علمهم بحسنى الآخرة، بل وقبلها حسنى الدنيا، والكفار لا يعلمون الحسنيين، إذ لا يعرفون حسنى الحياة الدنيا، ولا يصدقون الأخرى فضلاً عن حسناها!

فليعلموا ولن.. أن للمهاجرين في الله من بأسهم، في الدنيا حسنة رغم أنها سجنهم، ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾!.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٠١.
(٢) سورة النساء، الآية: ١٠٠.

ثم هناك مهاجرة عوان بين ما في الله وما في الشيطان، مهاجرة عن أرض الوطن تجارية أماهيه، مباحة لا واجبة ولا راجحة، أم راجحة لا تنوي بها رجحانها عند الله، وحتى إذا كانت واقعاً في الله ولكنك لا تنوي تلك النية الخالصة، أم لا تهوى إلَّا متاع الدنيا المباحة، فكل هذه خارجة عن المهاجرة في الله، فلا أجر لها لا هنا ولا في يوم الله، مهما لم يكن لها وزر أم كان، اللهم إلَّا لتقصُّد الحلال ابتعاداً عن الحرام، فإنه عبادة ومرضاةٌ لله، فلتكن من مصاديق المهاجرة في الله مهما كان من أدناها.

﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾﴾:

والمهاجرون في الله الذين لهم أجرهم هنا وفي الأخرى، هم ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ قبل أن يهاجروا أو بعدها، صبراً على الظلم حيث لا يطيقون دفعه، حفاظاً على إيمانهم مهما ظُلموا دونه، ثم هاجروا ابتعاداً عن الظلم وعن نقصان الإيمان في تداوم الظلم، وصبروا في مهَاجرهم على بُعد الوطن والمال والعيال، دون أن يفتكروا في الرجوع إليه، أم يغتموا للبعد عنه ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ في مهاجرتهم في الله، وتصبُّرهم في سبيل الله، دونما اعتماد على طاقاتهم النفسية مهما كانت نفيسة.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾:

﴿أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ هنا وفي الأنبياء ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ﴾[1].

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٨.

إنهم هم المسؤول عنهم في كيان الرسل والرسالات من قبل، أهم ملائكة لا يأكلون الطعام ولا يمشون في الأسواق، أم هم البشر جسد لا يأكلون الطعام وهم خالدون لا يموتون؟.

﴿مِن قَبۡلِكَ﴾ هنا تضرب إلى أعماق الماضي منذ خُلِق رجالٌ ونساء من إنس أو جان أو أياً كان، قبل هذا النسل الموجود من القبيلين وبعده.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا ... إِلَّا رِجَالٗا﴾ رسالة دون وسيط إلى العالمين، حيث إن رسل الوحي الملائكية مرسلون إلى هؤلاء الرجال، ثم هم إلى العالمين، والأوّلون لا رجال ولا نساء، فالحصر حقيقي يستغرق كافة الرسالات المتصلة بالمرسل إليهم طول التاريخ الرسالي دونما استثناء، لأنهم هم المعروفون عند أهل الذكر بالرسالات، عرفاناً شهودياً بالرسل الذين هم لِصقُهم في الدعوة دون وسيط، دون الملائكة الذين هم مادة المشكلة عند المرسلين: لماذا ما أرسلوا، هم إليهم؟.

﴿رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ﴾ وحيَ الرسالة الشرعة التكليفية، مما يؤكد انحصار هذه الرسالات في الرجال دون النساء أو الخناثى، أم صنف آخر هو سنخ واحد بلا ذكور وإناث كالملائكة، فذلك الوحي - إذاً - منحصر فيهم منحسر عمن سواهم، وهذه قضية الحكمة العالية الربانية أن يرسل إلى كل صنف من صنفه ومن أفضله: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ...﴾[(١)] - ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ﴾[(٢)] ولا ريب أن قبيل الرجال أفضل من قبيل النساء فإنهم قوامون على النساء، وهم أصلح دعوة وأحرى منهن في الواجهة الجماهيرية دعاية سليمة عن النزعات المعرقلة عن مسير الرسالات ومصيرها.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٣٠.

(٢) سورة يوسف، الآية: ١٠٩.

وأنتم معشر المشركين الشاكِّين في نوعية الرسل والرسالات، عليكم أن تسألوا في ذلك أهل الذكر حتى يعلِّموكم ما لا تعلمون، فـ «لا ينبغي للعالم أن يسكت على علمه ولا ينبغي للجاهل أن يسكت على جهله وقد قال الله: ﴿فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فينبغي للمؤمن أن يعرف عمله على هدى أم على خلافه[1] فلولا واجب الجواب عن السؤال لم يكن مجال لواجب السؤال، إذاً فواجب الجواب مستفاد من الأمر بالسؤال، ومهما كان الجواب مشروطاً بشروط، فكذلك السؤال دونما فوضى هنا أو هناك.

وهذه ضابطةٌ قائمة دائمة لقبيلي العلماء والجهال، ضابطةٌ عن التردي في هوَّات الجهالات، فالعلم مطلوب لكل ذي مُسكة وإدراك، والجهل مرفوض، والبقاء على الجهل مع إمكانية التعلم جهل على جهل لا يرتضيه أي عاقل ولا مجنون، ولا سيما بالنسبة للأمور التي هي محور الحياة الإنسانية وفي قمتها قصة الوحي الرسالي حيث يتبنى الحياة جديدة جادة في كافة الحقول الحيوية.

والإنسان أياً كان له إحدى حالات أنفسية أربع بالنسبة لأي أمر كان، علماً أو ظناً أو شكاً أو احتمالاً، ولا بد لكلٍّ من حجة تثبته، فأي ادعاء في هذه الأربع سلباً أو إيجاباً لا يحتمل القبول عند أصحاب العقول إلّا بدليل.

والمشركون لا برهان لهم لسلب الوحي مادة وكيفية وحَمَلة، اللهم إلا ادعاءات جوفاء، أم أحلاف هي لا تنفع في أمور الشرعة الأصلية، إلّا في الدعاوي الشخصية عند فقدان الدليل، فهم لا يستطيعون سلب الوحي بدليل، وإذا هم لا يصدقونه بالبينات وبالزبر، فهل لهم البقاء على ما لا يعلمون؟ كلّا! ﴿فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فالذين عاشوا جو

(١) الدر المنثور ٤ : ١١٩ - أخرج ابن مردويه عن جابر قال قال رسول الله ﷺ: . . .

الرسالات على مدار الزمن ولا سيما علماءهم، هم المسؤولون عنهم للمشركين الشاكين في نوعية الرسالات.

فأنتم المتشككون في كيان الرسل والرسالات عليكم لزاماً فطرياً وعقلياً أن تسألوا أهل الذكر، المحشورين بهذه الرسالات، فأهل البيت أدرى بما في البيت، وأهل الوحي - رسلاً وأئمة ومؤمنين به - هم أدرى بكيانات الوحي والموحى إليهم، فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون، فأهل الذكر ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾ حيث يتذكرون بهما طبيعة الرسالات هم أدرى بها وأحرى أن يُسألوا ممن لا ذكر له بهما إذ ليس من أهلها كالمشركين والملحدين.

﴿فَسْـَٔلُوٓاْ . . . إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فحين يكون الإنسان ممن يعلم، أو بإمكانه أن يعلم دون مراجعة إلى من يعلم، فلا سؤال إذاً ممن يعلم، فأنتم الناكرون لرجولة الرسالات لو تعلمون شريطة الرجولة والمسانخة بين الرسل والمرسل إليهم فهو الحجة عليكم، وإذ لا تعلمون فاسألوا الذين هم يعلمون، ولا حجة لكم ثالثة في ذلك الحقل أنكم تعلمون شريطة اختلاف الجنس بين الرسل والمرسل إليهم، فإن كانت ولن فأتونا بسلطان مبين أو علم يقين!.

هنا مورد الآية هو السؤال عن نوعية الرسالات، وقد يكفي للجواب عن هذا السؤال «أهل الذكر بالبينات والزبر» وهم كافة أهل الكتاب ولا سيما علماءهم أياً كانوا، فإن الشرعة الكتابية ذكرٌ لهم بالغ دون ريبة أن طبيعة الرسالات الإلهية بشرية في رجال كسائر البشر، إلّا أنه يوحى إليهم.

ثم السؤال عن المهام الحيوية والجواب عنها لا يفرضها - فقط - وحي الله، حيث الفطرة والعقلية المتكاملة الإنسانية فطرياً، هما الحاكمان بفرضهما قبل حاكم الوحي.

ومن ثم ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ﴾ وفي نطاق عام يتخطى ذلك السؤال من هؤلاء

المشركين، إلى كل سؤال في أي زمان أو مكان، من أي إنس أو جان أو أياً كان، لكل من يجهل ما يتوجب عليه علمه، وليس ليعلم بمحاولته نفسه حيث الجملة المستقلة في آية، ولا سيما كضابطة لمقدمتها، ليست لتختص بمورد نزولها، أو المذكور قبلها، ولا سيما إذا كانت مبَرهنة، وهنا ﴿فَسْئَلُوٓاْ﴾ تفريعه على ﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ والمسلمون أحرى بذلك.

وهنا المعنيُّون من ﴿أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ هم الرعيل الأعلى الذين لا يجهلون، وهم محمد ﷺ والمحمديون من عترته المعصومون، ومن ثم العلماء الربانيون الحاملون علومهم.

فحين يجب السؤال عن أهل الكتاب وليسوا هم في عصمة علمية ولا عملية، فهلا يجب السؤال عن المعصومين عليهم السلام؟ وهم أصدق مصاديق أهل الذكر! فالذكر هو محور المسؤولية - أياً كان - و﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ هو محور السائلية، وهما درجات حسب درجات العلم فرضاً ونفلاً.

فـ ﴿ٱلذِّكْرِ﴾ هو كل كتاب سماوي[1] وهو بالأحرى القرآن[2] وهو رسول القرآن[3]، فأهله هم في مثلث من الدرجات كما الذكر درجات، ولكل سائل حال، ولكل سؤال مجال.

---

(١) كما في قوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنبياء: ٢].

(٢) ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤] وفي نور الثقلين ٣: ٥٥ عن بصائر الدرجات عن أبي جعفر الباقر عليه السلام في الآية قال: الذكر القرآن وآل الرسول أهل الذكر وهم المسؤولون.

(٣) ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۝١٠ رَّسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ﴾ [الطلاق: ١٠-١١] آياتنا وفي نور الثقلين ٣: ٥٤ عن أصول الكافي عن أبي جعفر عليه السلام في الآية قال رسول الله ﷺ الذكر أنا والأئمة عليهم السلام أهل الذكر وفيه عن عبد الرحمن بن كثير قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام فاسألوا أهل الذكر... قال: أهل الذكر محمد ﷺ ونحن المسؤولون.

وأحرى بأئمة المؤمنين، الاثني عشر المعصومين، أن يُعنَوا كقمة عليا من أهل الذكر بعد الذكر نفسه قرآناً ورسول القرآن، فهم أهل الذكر: الرسول، وهم أهل الذكر: القرآن، أهلوه بأهليةٍ ذات بعدين، نَسَبياً، وأحرى منه روحياً(١) وأحرى منهم من هم به ﴿أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ كالرسول الأقدس محمد ﷺ.

---

(١) المصدر عن الوشاء قال: سألت الرضا عليه السلام فقلت جعلت فداك: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣] فقال: نحن أهل الذكر ونحن المسؤولون، فقلت: فأنتم المسؤولون ونحن السائلون؟ قال: نعم - قلت: حقاً علينا أن نسألكم؟ قال: نعم - قلت: حقاً عليكم أن تجيبونا؟ قال: لا - ذلك إلينا إن شئنا فعلنا وإن شئنا لم نفعل أما تسمع قول الله تبارك وتعالى: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص: ٣٩].

وفيه عن أصول الكافي عن حمزة بن الطيار أنه عرض على أبي عبد الله عليه السلام بعض خطب أبيه حتى إذا بلغ موضعاً منها فقال له: كف واسكت ثم قال عليه السلام: لا يسعكم فيما ينزل بكم مما لا تعلمون إلّا الكف عنه والتثبت والرد على أئمة الهدى حتى يحملوكم فيه على القصد ويجلو عنكم فيه العمى ويعرفوكم فيه الحق قال الله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

وفيه عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال: إن من عندنا يزعمون أن قول الله عز وجل: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣] - أنهم اليهود والنصارى؟ قال: إذاً يدعونكم إلى دينهم ثم قال بيده إلى صدره: ونحن أهل الذكر ونحن المسؤولون.

أقول: هذا رد على اختصاص أهل الذكر بأهل الكتاب والآية مطلقة في السائلين والمسؤول عنهم، فالسائل المسلم لو سأل أهل الكتاب عما يحتاج إليه لدعاه إلى دينه - ولكن الآية مطلقة وأصدق مصاديق المسؤول عنهم هم الرسول وعترته المعصومون، وأصدق مصاديق السائلين هم المسلمون، ومن الشاهد على أن المقصود نفي الانحصار، ما رواه في عيون الأخبار في باب مجلس الرضا عليه السلام مع المأمون في الفرق بين العترة والأمة حديث طويل وفيه قالت العلماء: فأخبرنا هل فسر الله تعالى الاصطفاء في الكتاب؟ فقال الرضا عليه السلام: فسر الاصطفاء في الظاهر سوى الباطن في اثني عشر موطناً وموضعاً فأول ذلك قوله عز وجل - إلى أن قال - وأما التاسعة فنحن أهل الذكر الذين قال الله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣] - فقالت العلماء: إنما عنى بذلك اليهود والنصارى - فقال أبو الحسن عليه السلام: سبحان الله وهل يجوز ذلك إذاً يدعونا إلى دينهم ويقولون إنه أفضل من دين الإسلام؟ فقال المأمون: فهل عندك في ذلك شرح بخلاف ما قالوا يا أبا الحسن عليه السلام =

هذه هي سنة الرسالة الإلهية كعادة مستمرة طول الخط الرسالي: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾[١] ولا رسالتي بدعة بين الرسالات، فإنها سلسلة موصولة بين الله وبين العالمين، و﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾[٢] رسالةً واتجاهاً.

فلا هم حاملون مشيئة الله تكوينياً حتى يحملوا عباد الله على طاعته، كيف! والله هو نفسه لا يحمل خلقه هكذا على طاعته أو يزجرهم عن معصيته ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾[٣].

ولا إنهم ملائكة، أم جسد لا يأكلون الطعام أو هم خالدون، ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فإنما هم يحملون بلاغاً لمشيئة الله التشريعية إلى المكلفين، ومن ذلك أبطال القالة الجاهلة القاحلة، ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا... وَلَا حَرَّمْنَا...﴾.

= فقال: نعم - الذكر رسول الله ﷺ ونحن أهله وذلك بين في كتاب الله عزّوجلّ حيث يقول في سورة الطلاق: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ﴾ [الطلاق: ١٠-١١] فالذكر رسول الله ﷺ ونحن أهله فهذه التاسعة، ولقد أخرج تفسير أهل الذكر بالرسول ﷺ وبالعترة الطاهرة عليهم السلام جماعة من الحفاظ والمؤلفين والمفسرين من إخواننا منهم الطبري في تفسيره (١٤: ٦٩) عن أبي جعفر الباقر عليه السلام في الآية قال: نحن أهل الذكر والثعلبي كما في العمدة لابن بطريق ص ١٥٠ عن جابر الجعفي لما نزلت هذه الآية قال علي عليه السلام: نحن أهل الذكر، وابن كثير في التفسير (٢: ٥٧٠) عن أبي جعفر عليه السلام مثله والقطان في تفسيره كما في كفاية الخصام ٣٣٨ روى نزول الآية في علي عليه السلام والحافظ محمد بن مؤمن الشيرازي في المستخرج من التفاسير الاثني عشر كما في الكفاية في الآية أي فاسألوا عن أهل البيت والله ما سمى المؤمن مؤمناً إلا بسبب حب علي بن أبي طالب عليه السلام وأبو الثناء الألوسي في روح المعاني (١٤: ١٣٤). أورد اختصاصهم بأئمة أهل البيت عليهم السلام والقندوزي في ينابيع المودة عن الثعلبي عن جابر عن علي عليه السلام نحن أهل الذكر تعليقات إحقاق الحق لسماحة الحجة المرعشي النجفي (٣: ٤٨٢ - ٤٨٣).

(١) سورة الأحقاف، الآية: ٩.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٨٥.
(٣) سورة يونس، الآية: ٩٩.

وترى بماذا تتعلق ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾؟ إنها صالحة التعلق أدبياً ومعنوياً بكلٍّ من «أرسلنا - نوحي إليهم - فاسألوا - الذكر - إن كنتم لا تعلمون» وخماسية التعلقات تجعل الإرسال والوحي والسؤال والذكر ولا تعلمون، مربوطة بالبينات والزبر[1].

فلا تخلو أية رسالة إلهية عن البينات والزبر: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ...﴾[2] حيث يوحى إليهم بالبينات المعجزات كما بالزبر، وليسأل أهل الذكر بهذه البينات والزبر، سؤالاً بهما لأنهما خير مادة لسؤل الاستعلام، وذلك ﴿إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۝٤٣ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ﴾ وأما الذي يعلم طبيعة الرسالات بنفس البينات والزبر فلماذا يسأل وليس المسؤول بأحرى من السائل.

ثم ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ﴾ لا تختص بالمشركين الناكرين للرسالات الإلهية مهما كانوا هم مورد نزول الآية حيث المورد لا يخصص، بل هو عام لكلٍّ من هو داخل في نطاق ﴿إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ أياً كان اللّاعلم، في الشرعيات: عقليات أو تعبديات، وسواها من العلوم المرغوبة لأمور الدنيا المباحة وأمور الآخرة.

فإن كان العلم واجباً فالسؤال واجب، وإن كان راجحاً فراجح، و﴿إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ هو الحد النهائي لسماح السؤال أم وجوبه، فأن لا تعلم الآن ولا تفوت الأوان وتستطيع أن تعلم قبل فوات الأوان، دون عسر ولا حرج، ولا فوت لواجب العلم عملاً، فلا تشملك ﴿إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ فإنها تنفي الكينونة الممكنة للعلم، دون كل جهل وإن بالإمكان إزالته دون سؤال، ففرقٌ بين «أن لا تعلم» و﴿إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ فـ «فإن كنتم» تضرب

---

(١) والباء في الأول معية سببية وفي الثاني مصاحبة وفي الثلاثة الباقية سببية.
(٢) سورة الحديد، الآية: ٢٥.

إلى عمق الكينونة في ﴿لَا تَعْلَمُونَ﴾ كما هو المقرر أدبياً[1] ولو فرض السؤال أم سُمح له مع إمكانية العلم بمحاولة غير محرجة ولا عسيرة، لكان في ذلك إهمال الطاقات النفسية، بَتْلة وبَطْلة لما منح الله الإنسان من التعقل والتفكير، والآيات الآمرة بالتدبر والتفكير والتذكر بالتدبير تؤصِّل العلوم النفسية الناضحة من ذوات الأنفُس، الناضجة على ضوء المزيد من التدبر الناضج.

وهذه طبيعة الحال في كافة الحاجيات الحيوية أن للسعي الذاتي أصالةً فائقة حسب الإمكانيات الميسَّرة الميسورة، بل والمعسورة لمن لا تُحرجه، ثم إذا كلَّت فسعيٌ وراء الذات ممن له هذه الفعليات أو الإمكانيات، أم إذا قلت فعوان بينهما جمعاً بين سعيك مساعي الآخرين، فالسؤال وكذلك الجواب عنه بين واجب وراجح، فأصل العلم أصلياً وفرعياً واجب على كل مكلف في أبعاده الثلاثة الحيوية، ثم المزيد راجح، وعلى الجملة فـ «أعلم الناس من جمع علم الناس إلى علمه»[2].

فما دامت الأصالة كائنة أو ممكنة فالوكالة غير صالحة، اللّهم إلا تكملة للأصالة، وأهم الحاجيات الحيوية هو العلم الواجب ثم الراجح، أنك إن كنت لا تعلم، ولا تكفي فعليتك ولا قابليتك ولا فاعليتك لأن تعلم دون حرج منفي في الشريعة، فلا تكفي للعلم الكافي، إذاً ﴿فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ سؤالاً ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾ بعلم أو أثارة من علم، مسنوداً إلى عقل ضروري أم كتاب وحي.

وإن كنت عالماً أم كنت تعلم بمحاولات ذاتية فلا عليك سؤال ولا لك ذلك، اللهم إلا تكملة لما علمت، لا تسطع لها حيلة دون سؤال.

(١) فإن تلحيق الماضي بالمضارع هكذا نفي بات يحلق على أكثر مما مضى.
(٢) الخصال للصدوق عن الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام.

وكما العلم الذاتي يجب كونه باستدلال دون خيال أو ظن غير مسنود إلى برهان: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾ كذلك فليكن السؤال بالبينات والزبر دون تقليد أعمى، فـ «البينات» وهي البراهين العقلية المجردة والحسية ﴿وَٱلزُّبُرِ﴾ وهي كتابات الوحي، هما المحور الأصيل في كل سؤال وجواب جملةً وتفصيلاً.

فبينات الرسل تصدِّق زبرهم، وزبرهم تجاوب بيناتهم، إذاً فهم المحور الأصيل لكل دليل، وقد يعبر عنهما بـ «علم أو أثارة من علم» وعلى أية حال لا يُغني غير العلم عن الحق شيئاً، والاجتهاد والتقليد كلاهما يتبنّيان ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾ هنا جملة وهناك تفصيلاً.

ولأن القصد من السؤال في أصول الدين حصول العلم ثم التصديق والعمل، فالعلم هنا موضوعي وطريقي، فإذا سأل واقتنع ببرهانه فهو مصيب أخطأ أو أصاب، وإذا لم يسأل فلم يقتنع ويقي على ظنه، فهو مخطئ وافق الواقع أم خالف، والأوّل أقل خطأً.

وأما الفروع، فإن اجتهد أو قلّد أو جمع بينهما تجزئة للاجتهاد والتقليد أو احتاط، وكان متبعاً في كل ذلك واجبه الشرعي، فهو مصيب أخطأ أم أصاب، مهما كان للمصيب أجران وللمخطئ أجر واحد، وإن ترك الكل فإن وافق عمله الواقع صح، وإن خالف بطل مهما وافق رأي الأعلم، فإن صحة العمل محصورة في إصابة الواقع، أم تطرق إحدى هذه الطرق الأربع العاذرة، فالتارك للكل، غير المصيب للواقع، لا إصابة له ولا عذر، ولا تفيده الموافقة الواقعية لرأي الأعلم، فإن العذر ليس في واقعه، وإنما هو في تقليد وهو غير واقع.

ولأن القصد من السؤال هو معرفة الحق وهي ذريعة العمل وفقها، فإن وافق العملُ الواقعَ دون سؤال صح، أم وافق من يحق منه السؤال فكذلك، أم وافق رأي البعض من المجتهدين الجامعي شرائط التقليد ولكنه غير

الأعلم الأتقى ففي الصحة تردد أصحه البطلان، لوجوب تقليد الأعلم، وإن خالف الإجماع أو الضرورة بطل بالإجماع أو الضرورة.

والعلم بالأحكام مرحلي ابتداء بالاجتهاد المطلق، ثم المستطاع، ثم الاحتياط، ثم التقليد، وإن لم يجد الأعلم ولا رأيه ويفوت أوان العمل فالأقرب إلى الأعلم والأقرب، ثم إذا وجده سأله، فإن وافق السابق فهو الحق، وإن خالف صح ما سبق فإن للضرورات أحكامها في محالها.

فليس التقليد تقبلاً لقول الغير دون أي دليل، ولا فارق بين الاجتهاد والتقليد إلَّا إجمالاً هنا وهناك التفصيل، فإذا تأكدتَ من صلاحية أهل الذكر للسؤال، ويجيبك ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾ وهما في الإسلام الكتاب والسنة القاطعة، وتعرفت قدر المستطاع إلى مستند الجواب، عندئذٍ سُمِح لك أن تسأل أهل الذكر، تقليداً عاقلاً عالماً عن العالم العاقل، ومادة لجواب في السؤال على أية حال هي ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾ فالأولى هي البراهين القاطعة العقلية كما المعجزات، دون أن تحتمل أيّ شكٍ وريبة، والثانية هي البراهين النقلية من كتاب ووحي وسنة قاطعة، وهما مجموعان في القرآن بل هو أفضل البينات والزبر، وكضابطة عامة فيما يُسأل عنه آية الزمر: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾[١].

فـ ﴿أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ هنا هم الأحسن قولاً في الزمر، دون أي عالم وهناك من هو اعلم، اللهم إلَّا إذا لم تجد سبيلاً إلى الأعلم، أم تتحرج في الفحص عنه. فـ ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[٢] وقد يروى التعميم عن الرسول ﷺ أنه لا ينبغي للعالم أن يسكت على علمه ولا ينبغي للجاهل أن

(١) سورة الزمر، الآيتان: ١٧، ١٨.

(٢) سورة الحج، الآية: ٧٨.

يسكت على جهله، وقد قال الله: ﴿فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ وينبغي للمؤمن أن يعرف عمله على هدًى أم على خلافه ولكن ذلك العموم لا يطارد الخصوص، إذ لا عسر ولا حرج، وكما تُخصِّصه وآيةَ الذكر آيةُ الزمر، وكما إذا تمكنت من سؤال الإمام المعصوم لا يحل لك ولا يكفي سؤال مَن سواه، كذلك السؤال عن أي كتاب وعندك كتاب الله وعلى هامشه سنة رسول الله، وقد يروى عن الإمام الصادق عليه السلام: «العلم ثلاثة كتاب وسنة ولا أدري» فليس وراء الكتاب والسنة، وأمّا يصدقانه، إلّا «لا أدري» فإنه - إذاً - علمٌ و«أدري» جهل، لأنه غير مسنود إلى علم أو أثارة من علم.

وكما أن أفضل الذكر هو القرآن، كذلك أعلم أهل الذكر هو رسول القرآن، ثم أهله المعصومون وهم أهل الذكر: القرآن، وأهل الذكر: رسول القرآن[1] ومن ثم سائر العلماء الربانيين الأمثل منهم فالأمثل علماً وتقوى وعقلية أمّا هيه من شروطات الذكر الحجة.

﴿... وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ فإن القرآن هو أصل الذكر وفصله، بياناً وافياً لما نزل إلى أنبياء الله من قبل، وأفضل أهله هو الرسول فاسألوه ﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٤٣ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾ - ﴿لِتُبَيِّنَ... وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في معانيه ومغازيه.

---

(١) في غاية المرام نقلاً عن الحافظ محمد بن مؤمن الشيرازي في كتابه المستخرج من تفاسير الاثني عشر في تفسير هذه الآية يعني فاسألوا أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة ومهبط الملائكة، فوالله لا يسمى المؤمن مؤمناً إلا بمحبة علي بن أبي طالب وفي تفسير الثعلبي عن جابر لما نزلت هذه الآية قال علي عليه السلام نحن أهل الذكر، وفي تفسير يوسف القطان عن وكيع عن الثوري عن السدي قال كنت عند عمر بن الخطاب فإذا بكعب بن الأشرف ومالك بن صيف وحيي بن أخطب - وساق سؤالهم عمراً عن عرض السماوات والأرض وعيه عن الجواب فإذا بعلي عليه السلام دخل فأجابهم ثم ذهب علي عليه السلام إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ونقل له ما حصل فنزلت هذه الآية.

هنا ﴿لِتُبَيِّنَ﴾ تلمح صارحة أن رسول القرآن بيان للقرآن بالقرآن: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ وكيف لا وهو أفضل مفسر للقرآن بعد الله وبيان الله.

ثم ﴿لِتُبَيِّنَ﴾ كما هو بالقرآن كذلك بالسنة قولية وعملية وتقريرية، فالتفكر في رسول القرآن كما القرآن ينتج صارحة صارخة أنه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ وهـو نفسه أفضل أهل لهذا الذكر.

ومن ثم ﴿لِتُبَيِّنَ﴾ كغاية قصوى راجعة إليه في ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ﴾ نزولاً إلى معلم القرآن وسائر الوحي ﴿لِتُبَيِّنَ﴾ دون أن ينزل بلا وسيط على الناس إذ لا تبيين لهم تماماً دون بيانه، ولا أنهم يصلحون لنزول الوحي عليهم، و﴿مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ يعم القرآن وسائر الذكر، إذاً فالقرآن ببيان نبي القرآن بيان لكافة كتابات الوحي طول الخط الرسالي، وبيان لنفسه وبيان للسنة الرسالية، ولما يروى عن الرسول كسنة، حيث يقاسان على القرآن ويبيَّنان به.

ثم ﴿نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ هو تنزيل إليهم بواسطة رجالات الوحي، ونسبته إليهم اعتباراً أنهم هم المعنيون بهذه الكتب كما الرسل، دون الرسل فحسب حيث أنزل إليهم، فهم - إذاً - حملة أمانات الوحي إلى المرسل إليهم، مهما كانوا هم رؤوس الزاوية في كتابات الوحي.

لذلك فهم الغاية الثانية لـ ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ﴾: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في النازل ومنزله، وليعلموا أنه ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم...﴾ كما ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في كل ما يحويه من حقائق ناصعة ناصحة جمة، فالقرآن هو كتاب التفكير والتذكير، كتاب الحياة الرسالية والرسولية لنبي القرآن.

إذاً فلنا حجتان شرعيتان لا ثالثة لهما ولا. . : القرآن ونبي القرآن، فما كان من القرآن أو من السنة القدسية المحمدية. . وإلّا فلا حجة فيه، ولا حجة في المروي عن الرسول ﷺ إلّا ما وافق القرآن، أم لا يخالفه، أم تواتر نقله عنه دون شك وريبة وكما يروى عن الإمام الصادق عليه السلام : «العلم ثلاثة كتاب وسنة ولا أدري» ثم ولا نجد حجة قاطعة على حجية ما سواهما من أدلة مذهبية شيعية أو سنية، كالإجماع والعقل والقياس والاستحسان والاستصلاح.

وحصيلة البحث عن آية الذكر أنها تعم كل سؤال وسائل ومسؤول، وللسائل المسلم والمسؤول الرسول والأئمة من آل الرسول أولويتان اثنتان، وخدة العقيدة، وشرافة السائل والمسؤول، ومورد نزول الآية منحط سائلاً ومنحط مسؤولاً مع اختلاف العقيدة بينهما، فشمول الآية بالنسبة للمسلمين وأئمتهم أولى منهم، إضافة إلى أن «فاسألوا» تفريعاً للفرع على أصله دليل أنه ضابطة عامة كل سائل ومسؤول في كافة الحقول.

﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾﴾:

الفاء هنا تفريع تقريع بناكري الرسالات وماكري الصدِّ عنها، على حجة الله القارعة في الرسالات المتواصلة البارعة، سلسلة موصولة مرسولة على طول خط التكليف إلى العالمين أجمعين، فلا تفلُّت عنها أم عن العذاب القارع على المتخلفين عنها.

وماكرو السيئات هم أمكر الماكرين وأسوأ المسيئين حيث يُظهرون السيئات بمظاهر الحسنات، سيئات منافقة ظاهرها فيه الرحمة وباطنها من قبله العذاب، ليوردوا البسطاء إلى هُوَّات الضلالة والمتاهة من حيث لا يشعرون، ولقد قالوا قالتهم الماكرة المنافقة ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ

مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ... وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ...﴾[١]! ويكأنهم حماة رب العالمين والحُفَّاظ على كرامته في نكران شرعته وقيامته؟.

وعمل السيئات على أضرب هذا أسوءها، ثم الذي يعملها دون منافقة بإظهارها مظهر الحسنات، ولكن موقفه الجماعي كيان للبسطاء أنها ليست بسيئات، ومن ثم عملها دون أية منافقة لا كهذه ولا تلك، كمن يبرز السيئة كماهيه دون أية مماكرة، ﴿ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ تعم الأولين، من مشركين - كما هم محطة نزول الآية - أم موحدين ومسلمين، ومكر السيئات منهم أضل وأنكى.

فلأن مكر السيئات أخطر مكر وأضله للبسطاء وأمكره ضد الرسالات، فقد يخسف الله بهم الأرض، كما يخسفون بمكرهم حياة مَن في الأرض، أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون كما يأتون البسطاء بعذاب الضلال من حيث لا يشعرون، عذاباً من ربك جزاء وفاقاً: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾[٢] ﴿أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَـٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾[٣] ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا...﴾[٤] ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا﴾[٥] ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ﴾[٦]!.

فـ «هم اعداء الله، وهم يُمسخون ويُقذفون ويسيخون في الأرض»[٧]

---

(١) سورة النحل، الآيات: ٣٥-٣٨.
(٢) سورة فاطر، الآية: ٤٣.
(٣) سورة يوسف، الآية: ١٠٧.
(٤) سورة الإسراء، الآية: ٦٨.
(٥) سورة الإسراء، الآية: ٦٩.
(٦) سورة الملك، الآية: ١٦.
(٧) نور الثقلين ٣: ٥٩ عن تفسير العياشي عن ابن سنان عن أبي عبد الله في الآية قال:...

ف «لا تكونوا من الغافلين المائلين إلى زهرة الدنيا الذين مكروا السيئات.. فاحذروا ما حذركم الله بما فعل بالظلمة في كتابه، ولا تأمنوا أن ينزل بكم بعض ما توعد به القوم الظالمين في الكتاب، والله لقد وعظكم الله في كتابه بغيركم فإن السعيد من وُعِظ بغيره».

وإن لخسف الأرض والعذاب الموعودين مراحل عدة ودركات متعددة. ومنها ما في دولة المهدي عليه السلام (١) فإنّ ﴿مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ لا تختص بالماضي، بل هي جارية في كل من يمكرون السيئات على مدار الزمن، مهما اختلفت دركات العذاب حسب دركات السيئات.

﴿أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ۝٤٦ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ ۝٤٧﴾:

أخذاتٌ بمختلف العذابات على مختلف الحالات للذين مكروا السيئات، وكما هم يمكرون، جزاء وفاقاً وما الله يريد ظلماً بالعباد.

ومن أعجب العُجاب هذا الإنسان النسيان العصيان كيف يواصل حياته النكدة في مكر السيئات بأيدي أثيمة لئيمة، ويد الله فوق أيديهم ناقمة منبهة لهم، فلا يغني عنهم مكرُهم السيئ وتدبيرهم، ولا تدفع عنهم قوتهم وعلمهم وكل شطاراتهم المزعومة لهم.

---

(١) المصدر عن روضة الكافي كلام لعلي بن الحسين عليه السلام في الوعظ والزهد في الدنيا يقول فيه: ولا تكونوا من الغافلين. فإن الله يقول في محكم كتابه: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ... أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ.. أَوۡ...﴾ [النحل: ٤٥-٤٧].

وفيه عن تفسير العياشي عن إبراهيم بن عمر عمن سمع أبا جعفر عليه السلام يقول: إن عهد نبي الله صار عند علي بن الحسين ثم صار عند محمد بن علي ثم يفعل الله ما يشاء فالزم هؤلاء فإذا خرج رجل منهم معه ثلاثمائة رجل ومعه راية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عامداً إلى المدينة حتى يمر بالبيداء فيقول هذا مكان القوم الذين خسف بهم وهي الآية التي قال الله: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ.. .فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ [النحل: ٤٥-٤٦].

﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[1] ولا يخشون إذ تمتد إليهم يد الله في صَحْوِهم أو نومتهم أو غفلتهم في تقلُّبهم أو على تخوفهم ﴿فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ الله في تقلباتهم، تغلباً على إرادة الله، أم تألباً على الله ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ﴾ أنتم المؤمنين المظلومين الممكرين ﴿لَرَءُوفٌ﴾ بكم ﴿رَّحِيمٌ﴾ ليس ليذركم على ما أنتم عليه من نير الذل ودوامة المكر السيىء الحائط بكم من أهله، ف ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾[2].

وعلى أية حال إن أخْذَ الله لا يطارده أي تقلب أو تألب أو تغلُّب ف «إن أخذه لشديد» ولا فارق بجنب الله في أخذه بين ماكري السيئات في يقظتهم ونومهم، في تخوفهم وأمنهم، في قوتهم وضعفهم إذ لا يمسه في أخذه لغوب، ولا يأخذه نضوب.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾:

هنا الواو تعطف إلى محذوف هو بطبيعة الحال معروف من مسرح البحث، كـ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ إلى فِطَرهم وعقولهم كآيات أنفسية تدلهم على توحيد الله، واختصاص العبادة والسجود بالله؟ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ كآيات آفاقية تدلهم على ذلك الاختصاص، ثم «إلى» هنا رغم أن الرؤية متعدية بنفسها، تعني عناية زائدة هي رؤية البصيرة من طريق البصر وسواه، إضافة إلى أن الرؤية في الظاهر الأكثر هي النظر فوق البصر، إذاً فالرؤية «إلى» نظرة معمَّقة، لا سطحية ولا مجرد البصر.

أترى ﴿ظِلَٰلُهُۥ﴾ تعم كل شيءٍ لمكان ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ﴾؟ ولا ظلال متفيئة إلَّا للأجسام الكثيفة الظاهرة أمام الشمس، فالرقاق كالماء والهواء فضلاً عن

(١) سورة الأعراف، الآية: ٩٩.
(٢) سورة فاطر، الآية: ٤٣.

الطاقات المادية كالقوة الجاذبية والمغناطيس والروح، والكثيفة غير الظاهرة كالباطنة تحت الأرض، أم فوق الأرض وراء الشمس، هذه ليست لها ظلال متفيئة وكذلك السماويات البعيدة عن الشمس غير المتظللة بها مهما صحت لها أظلال!.

أم هي مَن في السماوات والأرض ظاهرة كثيفة؟ ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ۩﴾[1]؟

ولا ظلال للجن والملائكة وأضرابهما ممن لا يُرى فلا ظل لهم أمام الشمس! ولما في السماوات والأرض من الأجسام الظاهرة غير العقلاء ظلال!.

﴿مِن شَيْءٍ﴾ بعد ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ﴾ تبعِّض ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ﴾ فتعني منها ذوات الظلال، وإلّا لكفت ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ﴾ لو عنت كلَّ شيءٍ، وصاحب الظل بطبيعة الحال هو الكثيف الظاهر أمام الشمس سواء أكان من ذوي العقول أم سواهم، و﴿مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[2] في الرعد لا تحصر ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ في ذوي العقول، فلكل حال مقال، ﴿وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ هنا اعتباراً بـ «من» فيما خلق الله من ذوي الأظلال.

ولماذا يختص هنا ذوات الأظلال بالرؤية إليها، والآيات الآفاقية غير مخصوصة بها؟ لأن هؤلاء المشركين تعاموا عن بصائرهم، ولذلك نقلوا عن حجاجهم بأنفسية الآيات فطرية وعقلية، إلى آفاقيتها المحسوسة، ولكن على تأمل فيها.

ثم تفيءُ الظلال وهو تنقُّلها إنما هو حسب رأي العين حيث الظلال لا تتفيأُ وتنتقل على الحقيقة راجعة، وإنما هي الشمس ترد على الأظلال ثم

(١) سورة الرعد، الآية: ١٥.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٨٣.

ترجع إلى ما كانت بعد أن تزول عنها الشمس، فالشمس هي المتنقلة عليها والظلال قائمة بحالها، إن كانت الشمس جارية حول الأرض، وأما إن كانت هي الجارية حول الشمس كما حول نفسها فتفيُّؤ الظلال يكون على الحقيقية حيث تتحول الأرض.

والفيء هو الظل راجعاً، إذاً فالظل هو قبل الزوال، والفيءُ بعده، فالتفيؤُ - إذاً - هو رجوع الظل بعد زواله.

و﴿ٱلۡيَمِينِ﴾ هو مشرق الشمس ﴿وَٱلشَّمَآئِلِ﴾ ما يقابله بمختلف الانحرافات الظلية عن المشرق، وعله لذلك أفرد اليمين لأنه نقطة شروق الشمس، وجمع الشمائل لأنها الجوانب الثلاثة الأخرى بعد تلك النقطة الشارقة، اعتباراً بأن هذه الثلاثة كلها شمائل أمام نقطة المشرق، لأنها هي الرئيسية في هذا البين.

و﴿سُجَّدٗا لِّلَّهِ﴾ تجمع ذوات الأظلال بأظلالها مع الشمس المطلة عليها، فهذه الثلاثة ساجدة لله في كونها وحركاتها وتغيراتها، لا تتخلف عما رسمت لها مشيئةُ العلي القدير ﴿وَهُمۡ دَٰخِرُونَ﴾: صاغرون في ذلك السجود العام، دون تخلف ولا تبختر[1] ومشهد الظلال تتراجع ممتدة موحيةً لمن يفتح عين قلبه، ويتجاوب مع الكون كله، وترسم ذوات الظلال بظلالها المتفيئَة كل الكائنات داخرة صاغرة في ذواتها وصفاتها وحركاتها بجنب الله.

فحينما نرى الظلال تظل تابعة لذوات الأظلال دونما تخلف عنها ولا قيد شعرة، رغم أن هذه الأظلال ليست مخيرة لأصحابها، بل هي مسيَّرةٌ بها، فماذا ترى إذاً داخرة أصحابها بجنب الله، وهي من أفعاله الاختيارية؟.

ثم وليست السجدة الداخرة بخاصة لذوات الأظلال، فإنها فيها ذات بعدين، ثم بَعدها السجدة في بُعد الذات لكل شيء.

---

(١) تجد تفصيل القول في سجود الظلال في آية الرعد فراجع.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾:

و«ما» هنا تشمل الكائنات كلها، أرضاً وسماء وما فيهما وما بينهما، و﴿مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ﴾ هو من ذكر الخاص الساجد في بعديه بعد العام في بعده الكوني، فـ ﴿مِن دَابَّةٍ﴾ تعم الإنس والجان وكل دواب الأرض والسماء، سواء أكانت تدب على أرض أم تسبح في ماءٍ، ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ تستغرق كل مَلَكٍ في الأرض أو السماء، وهذه من الآيات المصرحة أن في السماوات دواب كما في الأرض، ولا تشمل الطير والملائكة، حيث الدابة ما تدب دائباً وهما لا يدبان إلّا أحياناً.

والسجدة المحلقة على كل الكائنات هي سجدة الأفعال والصفات والذوات طوعاً وكرهاً، مهمّا تَخلّفَ جموعٌ من الجنة والناس اختيارياً، فإنهم هم المعنيون بذلك التذكير التنديد الشديد، لكي ينتبهوا عن غفلتهم، ويفيقوا عن غفوتهم حين يرون الكون كله مسجداً فسيحاً فصيحاً في ذلك الحشد الهائل، مشهد عجيب رهيب من الأشياء بظلالها والدواب كلها والملائكة ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

وقد يعني «ما» هنا بعض الدواب لمكان ﴿مِن دَابَّةٍ﴾ وكل الملائكة لمكان ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ فـ ﴿مِن دَابَّةٍ﴾ هنا تبعيض، وفي الأوّل جنس، تبعيضاً حيث المقصود هنا البعد الثاني من السجدة وهو الاختيارية، فكثير من الدواب تسجد لله عن شعور واختيار، ومنها مؤمنو الإنس والجن - على قلتهم - وسائر الدواب هي الأكثرية الساحقة بين الكل في سجودها لله، إذاً فالتعبير بـ «ما» دون «مَن» لمكان الدواب غير الإنس والجان فإنها غير ذوات العقول.

فيا أيها الإنسان الغَفلان النسيان، أيتها الحشرة الهزيلة الكليلة، لماذا هذا الاستكبار الاستدبار عن طاعة الله الملك القهار؟!.

وقد يروى عن رسول الهدى ﷺ «إن لله ملائكة في السماء السابعة سجوداً منذ خلقهم إلى يوم القيامة ترعد فرائصهم من مخافة الله، لا تقطر من دموعهم إلا صار ملكاً، فإذا كان يوم القيامة رفعوا رؤوسهم وقالوا: ما عبدناك حق عبادتك»[1].

ثم ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ تنفي عنهم تطلُّب الكبرياء الخاصة بربهم من فوقهم، فهو يختلف عن التكبر، فالله متكبر كبير، يظهر الكبرياء الكائنة لذاته المقدسة قولاً وفعلاً، وليس مستكبراً يطلب الكبرياء، إذ لا تنقصها ذاته ولا صفاته وأفعاله فكيف يطلب.

فالاستكبار مذموم على أية حال لأنه طلب ما لا يعنيه ولا يمكن لاختصاصه بالله، والتكبر منه ممدوح كما لله، والتكبر مع المتكبر فإنه عبادة لله ومنه مذموم وهو التظاهر بكبرياء ليست له، سواءٌ أكانت له ممكنة كالكبرياء الممكنة، أم مستحيلة ككبرياء الربوبية المستحيلة للمربوبين.

﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ قد تعم طلب الكبرياء الممكنة التي لمن فوقهم كالرسول محمد ﷺ كما الاستكبار على الله.

﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ (٥٠)﴾:

﴿... بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧)﴾[2].

﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾. ﴿وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ هما من الشواهد القاطعة أنهم كسائر المكلفين مكلفون تحت الأمر والنهي، إلَّا أنهم معصومون فلا يعصون، إذاً فـ ﴿يَخَافُونَ﴾ هو الخوف من جرّاء العصيان، دون مجرد

---

(١) المجمع أورده الكلبي في تفسيره عنه ﷺ.
(٢) سورة الأنبياء، الآيتان: ٢٦، ٢٧.

خوف الاستعظام فإنه الإشفاق، فلأن الله لا يخاف من ظلمه أم جهله سبحانه فهو - إذاً - يخاف لعصيانٍ من الخائف بجنبه، وكما السابقون والمقربون وهم فوق الملائكة ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾. يخافون حتى أفضلهم محمد وهو أوّل العابدين: ﴿...قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[1] مهما كان ذلك خوفاً مع استعظام لمقام الرب ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤١﴾[2].

إذاً فبأحرى للملائكة أن يخافوا مقام ربهم ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾[3] ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّيٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[4] إذاً فبالإمكان قولهم هذا وفعلهم على عصمتهم دون اضطرار أتوماتيكي في فعلهم وتركهم، فهم خائفون لو عصوا ربهم عذاب يوم عظيم، وعدم صدور العصيان منهم كما لسائر المعصومين لا يدل على أنهم مسيّرون على الطاعة، إلّا أن طاعة المعصومين أطوع من طاعة الملائكة، فإنهم عقل بلا شهوة، وأولاء لهم عقل وشهوة، ولكنهم «جزناها وهي خامدة» فطاعتهم - على عصمتهم - أفضل من الملائكة على عصمتهم، وأين عصمة من عصمة، فطاعة من طاعة وأفضل الأعمال أحمزها؟!.

و﴿مِّن فَوْقِهِمْ﴾ هنا كما في ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[5] ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾[6] ﴿...وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾[7] هي فوقية القاهرية

---

(١) سورة يونس، الآية: ١٥.

(٢) سورة النازعات، الآيتان: ٤٠، ٤١.

(٣) سورة الرعد، الآية: ١٣.

(٤) سورة الأنبياء، الآية: ٢٩.

(٥) سورة الفتح، الآية: ١٠.

(٦) سورة الأنعام، الآية: ١٨.

(٧) سورة الأنعام، الآية: ٦١.

حكمةً وخبرةً وقدرةً حيث يرسل عليكم حفظة، فهي فوقية المكانة لا المكان إذ ليس له سبحانه مكان، وإنما فوقية الذات والأفعال والصفات، ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ لا على الذات ولا على الأفعال ولا الصفات، متصاغرون بجنبه، أذِلّاءِ وِجاه عزِّه، ففعلهم لصِقُ أمره دونما تخلف ولا قيد شعرة.

وهذه الآية وأضرابها في مواصفات الملائكة من الأدلة القاطعة على أن إبليس لم يكن من الملائكة خلافاً لقيلته، وأن أحداً من الملائكة لم يعصوا الله ولن، خلافاً لغيلته.

﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٥١﴾﴾:

آية فريدة في صيغة التعبير عن الإشراك بالله: ﴿لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ وهنا تأكيدات أربعة تحوم حوم ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ ففي السلب: لا إله: ﴿لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ تأكيدان اثنان، وفي الإيجاب: ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ - ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ ثم سلب آخر يتبنى ذلك الإثبات ويتبناه ذلك الإثبات ﴿فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾: إيجاب واحد بين سلوب ثلاثة تنفي الألوهية والرهبة على سواء.

فيا لهذا التعبير العبير من أسلوب منقطع النظير في التقرير والتكرير، جمعاً بين إلهين واثنين، ثم اتباعاً للسلبين بالقصر ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ ثم تعقيباً على النهي والقصر بقصر آخر كنتيجة حاسمة لذلك التقرير ﴿فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾!.

ولماذا ﴿إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾؟ لتخص النص بالثنوية القلة، وسائر المشركين هم الأكثرية الساحقة الثلّة، والنهي عن اتخاذ إله أو آلهة إلا الله يشمل كل مشرك بالله ثنوياً وسواه.

علّه للرد على مَن يثّني إله الخلق والتدبير و«أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ» ومن يثّني إله الخلق والتدبير، والعبادة، أنها لما سواه

من كرام خلقه، ثم هما له كأصل الألوهة، وهما - على ثنويتهما - تشملان عامة الشرك وخاصته، ثنويته وتثليثية اماهيه؟.

ومن ثم فكل إشراك بالله أياً كانت صورته وسيرته، ليس إلّا باتخاذ إلهين اثنين، أولهما - كأصل - النفس الأمارة بالسوء، حيث تأمر بالإشراك بالله، فكل مشرك أياً كان، هو في الأصل ثنوي، يختلق إلهاً آخر أم آلهة إلّا الله كما تهواه هواه، من طواغيت وأصنام وأوثان، فالنفس الأمارة بالسوء هي الإله الأصل لكل مشرك، وهي التي تولد آلهة على شاكلتها، فكل إناء بما فيه يرشح، فالنفس ترشّح للألوهة ما يناسبها.

ولأن الكل بحاجة ضرورية إلى ما سواه، فلا بد أن يعبد كلٌّ مَن سواه كما تهواه نفسه، أم يهواه عقله وفطرته، فالماشي على صراط مستقيم يوحّد الله، والماشي مكباً على وجهه يعبد هواه، ويعبد ما تهواه هواه، إذاً فكل المشركين ثنويون، كما وكل ملحد ثنوي، والإله الأول لأولاء وهؤلاء هو النفس الأمارة، والثاني سائر الآلهة، سواءً أكانت المادة لا سواها فملحد، أم المادة وسواها فمشرك.

فاتخاذ إلهين اثنين يحلّق على الشرك كله، في ذاتية التعدد أم الخالقية أم التدبير أو العبادة، أما ذا من صنوف الإشراك بالله، فلا يخص باتخاذهما معبودَين حتى يقال إن المشركين لا يعبدون الله ضمن ما يعبدون سواه، كما لا يعبدونه موحدين إياه، حيث الإشراك أن يتخذ بجنب الله إله له ما لله بعضاً أو كلاً من الألوهة ذاتاً وصفاتٍ وأفعالاً: خلقاً وتدبيراً، واستحقاقاً للعبودية.

فكل إلحاد في الله أو شرك بالله هو لمن اتخذ إلهه هواه ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾[1] ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾[2].

---

(١) سورة الجاثية، الآية: ٢٣.
(٢) سورة الفرقان، الآية: ٤٣.

واتخاذ الإله هو في مثلث لا سواه: توحيداً لله - توحيداً لألوهة من سوى الله - إتخاذاً لإلهين اثنين، والثاني بين إلحاد في الله إنكاراً لألوهيته، وبين توحيد العبادة لسواه واتخاذه إلهاً في غيرها، وهذا الثاني هو من ضمن الثالث أن يتخذ إلهاً مع الله هواه، فتهوي به إلى هوّة العبادة لغير الله.

إذاً فالناكرون لوجود الله، وغير الموحدين لله، هم كلهم ممن اتخذ إلهين اثنين، الله وهواه، وهي التي تأمره باتخاذ مَن سوى الله إلهاً، واحداً معه أم أكثر، بل والناكرون أيضاً غير أن الله ليس أحد الإلهين لهم.

ثم اتخاذ إلهين اثنين تعم كافة الاتخاذات المشركة الجارفة الخارفة التي تتنافى وتوحيد الله في كافة مراتبه ومقتضياته، من شرك خفي كالرئاء، أم جلي كسائر الإشراك بالله، أياً كان ذلك الإشراك، فـ ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ تناحر كافة دركات الإشراك بالله.

و«هو» هنا مبتدأ لخبر الوحدة في الألوهة، فإما هو راجع إلى «اللّه» أم «إله» المستفادة من ﴿إِلَٰهَيْنِ﴾ - والواحد متفق عليه، والثاني مختلف فيه - أم هو راجع إلى الذات الغائبة: الهوية المطلقة الإلهية، فـ ﴿إِنَّمَا هُوَ﴾ على أي الحالات الثلاث ﴿إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ بحقيقة الوحدة ووحدة الحقيقة ﴿فَإِيَّايَ﴾ لا سواي ﴿فَارْهَبُونِ﴾ تفريعان للرهبة الرهيبة الوحيدة غير الوهيدة، على تلك الوحدة البارعة القارعة، رهبة خوف ومهابة إجلال.

أجل، وإن وحدة الألوهية تتطلب وحدة الرهبة هي من الإله الواحد، وفي تقديم ﴿فَإِيَّايَ﴾ المفعول، على فعلها ﴿فَارْهَبُونِ﴾ دلالة على ذلك الحصر.

﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ (٥٢)﴾:

فكما ﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مُلكاً ومِلكاً وقدرة وعلماً وحكمة أمّاهيه من اختصاصات الألوهية، ﴿وَاصِبًا﴾ خالصاً دونما خليط ولا شريك،

«أفـ» بعد هذا أو ذاك ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ وعلى الله تطغون؟ تلك إذاً قسمة ضيزى!.

فلأن ﴿وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ دون سواه، إذاً فـ ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ﴾ دون سواه، والنتيجة الحاسمة هي تقوى لله دون سواه ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ أإفكا آلهة دون الله تريدون؟.

والواصب هو الخالص الدائم، وطاعة الله إذا خلصت دامت، وإذا خلطت زالت، فلا مدخل لمن سوى الله في تشريع دين أو شرعة من الدين حتى النبيين، ولا طاعة لأحد سوى الله، فدين الله واصب دون اختلاق لسواه ولا اختلاط.

و﴿ٱلدِّينُ﴾ في زواياه الثلاث: طاعة، وتشريعاً لطقوسها، وجزاءً بها في الأولى والأخرى، هو ﴿وَلَهُ﴾ لا سواه، فـ ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾[1] فلا طاعة لغير الله ولا تشريع ولا جزاءً إلّا رسالةً وإمرةً من الله، وتطبيقاً لأمره.

ثم الدين الطاعة لله يعم الكائنات كلها طوعاً وكرهاً: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾[2].

﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾﴾:

الباء في ﴿بِكُم﴾ هنا تصلح لمثلث المعنى: ظرفية ومعية وسببية: .. فيكم ومعكم ومنكم - إذاً فهي تحلّق على كافة النعم التي تفيدنا ونستفيد منها، مما نحوطها وتحوطنا ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ﴾[3] وعرفان النعمة من شكرانها، ونكرانها كفرانها، فـ «ما من عبد أذنب ذنباً فندم عليه

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٦.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٨٣.
(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٣٤.

إلا غفر الله له قبل أن يستغفر وما من عبد أنعم الله عليه نعمة فعرف أنها من عند الله إلا غفر الله له قبل أن يحمده»[١] وترى كيف تكون النعم التي هي منا مادياً أو معنوياً، هي من الله، فليكن الإيمان وهو قمة النعم التي منا هو من الله؟ «ومن لم يعلم أن لله عليه نعمة إلا في مطعم أو ملبس فقد قصر عمله ودنى عذابه»[٢].

هي من الله حيث خلق لنا أسبابها مادية أو معنوية، فقد كتب مادة الإيمان في كتاب فطرنا وعقولنا، ثم أيدهما نضجاً لهما وتكاملاً بآيات آفاقية من رسل ببيّناتهم وسواهم وسواها، ثم إذا آمنا بهذه المهيّئات السهلة السمحة يزيدنا إيماناً ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾[٣] - إذاً فنعمة الإيمان هي منه أكثر مما هي منا، والذي منا هو كذلك نعمة من الله أن هدانا سبلنا ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ﴾[٤].

وهنا نعرف مدى الحق الحقيق بالتصديق من الحديث القدسي «يا بن آدم أنا أولى منك بحسناتك وأنت أولى مني بسيئاتك» وقد تصدقه ﴿بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ﴾[٥].

فحين تكون النعم كلها من الله، بعد أنه الخالق المدبر المشرّع، فليكن الشكر وأعلاه العبادة، كلّه لله، حيث النعمة - ولا سيما هذه الغزيرة - هي التي تتطلب الشكر إضافة إلى جمال الذات والصفات الذي ليس فوقه جمال ولا يدانيه أو يساميه.

---

(١) نور الثقلين ٣: ٦١، عن أصول الكافي بسنده عن أبان بن تغلب قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول:

(٢) المصدر عن تفسير القمي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم حديث طويل وفيه يقول صلى الله عليه وآله وسلم:

(٣) سورة محمد، الآية: ١٧.

(٤) سورة النحل، الآية: ٩.

(٥) سورة آل عمران، الآية: ٢٦.

هذا! ثم بعد تمام النعمة وكمالها حسب القَدَر الحكيم ﴿إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ﴾ بفقدان نعمة أو نقصانها امتحاناً أو امتهاناً حسب الحكمة الربانية ﴿فَإِلَيْهِ﴾ لا سواه من آلهة تتخذونها مع الله «تجأرون»: تنعرون وتنهَرون، نعرة البقار ونهرة الوحوش.

فأنتم - إذاً - بين حقين واقعين من واجب التوحيد لساحة الربوبية: واقع توحيد النعم، وواقع حكم الفطرة أنه تعالى هو المنجي لا سواه، ﴿إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ﴾ ساعة الضيق والعسر، وحين تنقطع كلُّ الأسباب وتُحار دونه الألباب، وعندما يصهركم الضر وينفض عنكم أوشابُ الشرك وأعشابه، حينذاك ﴿فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ شئتم أم أبيتم، جُؤوراً فطرياً أتوماتيكياً من هؤلاء المشركين بالله أو الملحدين في الله.

فكل براهين التوحيد آفاقية وأنفسية أمّا هيه معسكرة دائبة أمام البصائر والأبصار، مثبتة لتوحيد الذات والصفات والأفعال، وقضيتها عقلياً وفطرياً وواقعياً توحيد العبودية لله، سبحانه وتعالى عما يشركون.

﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾:

هنالك فريق وهم قلة قليلة يفيقون راجعين إلى توحيد ربهم، بعد الانتباه إلى وحدة المنعم، والمجأر المرجع عند الضر، وبعد كشف الضر، وفريق آخر وهم ثلة عليلة ﴿بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ ﴿لِيَكْفُرُوا﴾ جاهلين أو متجاهلين، كفراً أو كفراناً ﴿بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ من النعم قبل البأساء والضراء وبعدهما ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ يا حماقى الطغيان، في الكفر أو الكفران، تمتعوا من زخرفات الحياة الدنيا حتى حين، متعة الحيونة الدانية والشهوة الفانية ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ بعد جهل عامد، أو تجاهل عاند، ﴿تَعْلَمُونَ﴾ أن الله هو الحق المبين، وأن العذاب على من كذب وتولى.

ثم ﴿لِيَكْفُرُوا﴾ هذه، قد تجمع بين الأمر والغاية، أمراً تعجيزياً في تنديد شديد هو أشد من النهي، وكما أمر إبليس زعيمهم ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ. . .﴾[1].

وغاية مقصودة لفريق من المشركين في تجاهل عاند لنعم الله تعالى وهم من أحمق الحماقى، أم غاية قاصدة لآخرين على جهلٍ مقصِّر حيث تغافلوا عن نعم الله وأخلدوا إلى أسباب مادية كأنها هي الأسباب فقط، ثم لا شغل لله فيها، وهم العارفون أن ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾.

إنه ليس التمتع بمُتَع الحياة منهياً عنه محرماً، وانما التمتع الملهي عن الله لا سيما من المشرك بالله، أو الملحد في الله، فكل ما يتمتعون به سوف يؤاخذون عليه لكفرهم بالمنعم وكفرانهم بالنعمة ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ إن هذه النعم المتعة ستبدَّل لهم نقماً متعبة، فـ ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[2] ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾[3].

وإنها لنموذجة مكرورة طول التاريخ الإنساني، ففي المضايق الفادحة الكادحة تتوجه القلوب إلى الله وتتعلق بالله بحكم الفطرة التي فُطِر الناس عليها، ثم في المفارج والمفارح تتلهى بالنعمة بمختلف الإلهاءات والملهيات واللهوات، من تأليه قِيَم وأوضاع وموافقات قد تسمى اتفاقيات، أم قابليات مهما لم تسم باسم الآلهة، ولكنها في الواقع كآلهة حيث تُستَغل مستقلة بجنب الله، أم وكأن لا حول فيها لله.

(١) سورة الإسراء، الآية: ٦٤.
(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٧.
(٣) سورة الزمر، الآية: ٤٧.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ۗ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾﴾:

هؤلاء المشركون الحماقى يتشطّرون رزق الله بين الله وبين ما لا يعلمون من شركاء مختَلَقةٍ لله ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ ۗ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾(١) «تلك إذاً قسمة ضيزى» لو صحت قسمة هنا، ولا تقاسم بين الله وخلقه في رزقه أياً كان!.

ولو أنهم كانوا يعلمون ما يجعلون له نصيباً لكان أخف ضلالاً وعذراً، ولكنهم ليس لهم أي سلطان، من كتاب أو علم أو أثارة من علم ﴿وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ۖ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾(٢).

ووجه آخر ﴿لِمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾ إن ضمير الجمع تعني الشركاء المجعولة لله، فهم لا يعلمون شركهم بالله، ولا نصيب الرزق قرباناً لهم أم تأثيراً في أصله، والوجهان معاً معنيان لصلوح اللفظ والمعنى، وإنما جيء بضمير العقلاء في ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ رجوعاً إلى «ما» غير العقلاء، اعتباراً بالمعنى الأوّل، أم ولأن «ما» تعم الشركاء العقلاء، فإنهم كغير العقلاء ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ قرباناً ولا تأثيراً في الرزق، فهم لا يعلمون رزق أنفسهم فضلاً عن رزق العابدين لهم!.

والواو في ﴿وَيَجْعَلُونَ﴾ تعطف إلى «يشركون» إشراكاً بالله في تقريب القربان نصيباً من رزقه لسواه، كما أشركوا في عبادة الله.

وقد يعم هذا النصيب ذلك الذي فصّل في آية الأنعام، نصيباً سواه هو

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٣٦.
(٢) سورة النجم، الآية: ٢٨.

في أصل الرزق، إن الآلهة المجعولة هي شركاء لله فيما رزقهم الله، وهم يعلمون بأصل الفطرة إنه - فقط - من الله، كما العبادة فقط هي الله.

ومن قاطعة الشهود له ﴿فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ دون سواه، وهذه هي قسمة ضيزى بين واقع المعبودية والرازقية وما إليها من شؤون الألوهية كما تحكم به الفطرة، وبين ما يعملون دون تجاوب وتعامل مع الواقع الحق، ومحتمل ثالث تحتمله الآية ما صرحت به آية المائدة: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[1].

إذاً فـ ﴿نَصِيبًا﴾ هو ثالوث النصيب حيث اختلقها المشركون مفترين على الله ﴿تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ إشراكاً بثالوثه وسواه.

فكل قربان يقرب لغير الله دون أن يأمر الله شرك، كما وأن كل توسل بغير الله إلا ما أمر الله شرك بالله، وكل اختصاص لشيء بغير الله شركٌ ﴿تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾.

فإنما الطقوس الدينية هي نية وعملاً - فقط - لله وكما أمر الله، وحتى الرسول محمد ﷺ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾[2] كما لا حلف إلّا بالله، ولا عهد ولا نذر إلّا لله، وما سواه إمّا باطل أو إشراكٌ بالله، مهما اختلفت دركاته.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾﴾:

فهم لا يشتهون البنات وإنما البنين، ثم ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ﴾: ملائكة الله وهم يعبدونهم قرباناً آلهة من دون الله، ثالوثاً من الجعل الجهل

(١) سورة المائدة، الآية: ١٠٣.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٢٨.

منحوساً، مساً من كرامة الله أنه يلد بنات، وهو لا يلد لا بنين ولا بنات، ومساً من كرامة الملائكة وهم لا ذكور ولا إناث، وثالثاً من كرامتهم أنفسهم حيث يعبدون ما لا يشتهون!: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَـٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَـٰنُ مَا عَبَدْنَـٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾﴾[١].

وجَعْلُ الملائكة بناتِ لله، أعم من الولادة الأصلية أو التشريفية ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ﴾ عنهما فإنهما مسٌّ من ساحته وحط من كرامته، وإثبات لحاجته.

ولقد كان هذا الجعل الجاهل تقليداً أعمى عن السابقين ﴿يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾[٢] كأمثال البرهميين والبوذيين والصابئين.

ثم ﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ قد يكون معطوفاً على ﴿لِلَّهِ﴾ -: ويجعلون لهم ما يشتهون، مطاردة لمواليد الإناث وأداً لهن، أم حالاً -: ويجعلون.. حال أن لهم ما يشتهون.

وما قد يتقول من أن الفاعل إذا كان ضميراً متصلاً لا يتعدى الفعل إلى ذلك الضمير بنفسه إلَّا بفاصل، إنه منقوض بـ ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾[٣] ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾[٤] دون «الى نفسك» فيهما، فلا ضرورة في «ولأنفسهم ما يشتهون» والقرآن هو محور الأدب ككل الإرب، ولا يحول حول سائر الأدب!

---

(١) سورة الزخرف، الآيات: ١٦-٢٠.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٣٠.
(٣) سورة مريم، الآية: ٢٥.
(٤) سورة القصص، الآية: ٣٢.

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾؟! :

﴿بُشِّرَ﴾ هنا حقيقة ناصعة، أن الأنثى كما الذكر يبشَّر بها، وهم يعتبرون بشراها نذارة فنكارة منها، وذلك رسم لصورة نكرة، بالية نخرة، عن سيرة المشركين من قبل، معاملة سيئة، ونظرة وضيعة إلى البنت المشرقة الوضيئة، خشيةَ العار والفقر، فالفرار عن الفقر والعار بوأد البنات، فإنهن لا يكسبن فيعشن كلّاً عليهم أم يتزوجن، أم يقعن في السبي عن الغارات فيكسبن العار، سيرة جاهلة قاحلة في تضادات ماحلة، بغض البنات لحد الوأد باسوداد وجه وتوارٍ من القوم، وهم يعبدون نظيراتهن ملائكة الله زعم أنهن بنات الله!.

﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ هنا وهناك، هنا حكماً بوأدهن، وهناك عبادتهم للملائكة كبنات لله ولهم ما يشتهون.

أفليس هؤلاء الحكام الحماقى من مواليد الإناث، فليئدوا أنفسهم لأنهم من مواليد الهون والعار، ولم تكن الأنثى - فقط - مغبونة مهتوكة في المجتمع الجاهلي، وإنما هو الإنسانية جمعاء، فالأنثى نفس إنسانية وُلدت إنسانة من إنسانين وتلد أناسي كثيراً، ومن ذكر وأنثى، فإهانتها مهانة للعنصر الإنساني عن بكرته، ووأدها وأد للإنسانية، وإهدار لشطر شطير من حياتها.

وإن تعجب فعجب من ناعقة الجاهلية المعاصرة، اللامزة الهامزة بالعقيدة الإسلامية حول المرأة لماذا تحتجب ولا تشارك الرجال في الأعمال بحريَّة مطلقة؟.

وذلك رفع لكرامتها، ودفع لكل قزامة عنها، وهم يعتبرونها سؤول الحاجة الجنسية، ولعبة الهوسات الحيوانية..

﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا﴾ من بؤس البشرى ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ في نفس الوقت عن

بغضه، فلولا كظمه لكان يموت فوراً، أو يغشى عليه، أم يئد بنته فور البشرى.

﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾ والقوم معه كلهم من مواليد ذلك السوء، وهم يعبدون الملائكة البنات بزعمهم السوء! ﴿يَتَوَارَىٰ﴾ مفكراً متردداً ﴿أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ﴾ واختجال من ذلك السوء الوبال ﴿أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾ دساً لهونه في التراب ﴿أَلَآ﴾ فانتبهوا أيها النبهاء ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ في ثالوث حكمهم: على الله، وعلى أنفسهم وعلى البنات.

﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾:

﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾(١) آيتان تثبتان لله المَثَل الأعلى في الكون كله، ثم ثالثة تحيل له أيّ مِثل في الكون كله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾(٢) والمِثل هو الشبيه والمَثَل هو الآية، ولأنه لا مثيل له، فلا تماثله آيته وقد فصلناهما في الشورى.

والمثل في وجه عام هو الصفة، ذاتية أم فعلية، والثانية هي الآية، مشابهة لصاحبها كأفعال المخلوقين، أم غير مشابهة كأفعال الله.

ثم هو في مثلث من الحالات: مثل السوء - مثل العال - والمثل الأعلى، فـ ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ﴾ صفاتٍ وأفعالاً إذ لا يتحذَّرون عواقب السوء حيث لا يؤمون بها، إذاً فقالُهم وأحوالُهم وصفاتهم وأفعالهم هي كلها ﴿مَثَلُ ٱلسَّوْءِ﴾ وكما في قولهم: الملائكة بنات الله، وفعلهم عبادة لهم من دون الله، ووأدهم بناتهم، فهم سَوء في ذواتهم وصفاتهم وأفعالهم وتوصيفاتهم، حيث السَّوء مصدر وهم مصدر كل سُوء.

(١) سورة الروم، الآية: ٢٧.
(٢) سورة الشورى، الآية: ١١.

ثم للذين يؤمنون بالآخرة مثل عال على حد العلوّ في إيمانهم وتحذُّرهم عن عواقب السوء، فهم - إذاً - درجات في أمثالهم، ذواتٍ وصفاتٍ وأفعالاً وفي أية تصرفات، وليس فسوق المؤمن أحياناً إلّا نسياناً للآخرة على إيمان وليس النكران، فإنه كفر لا يجتمع مع إيمان، و﴿۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾(١).

وثالثة الأمثال هي لله تعالى، وهي ﴿ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰۚ﴾ مثلاً منفصلاً عن ذاته هو فعله بصفاته الفعلية في الكون كله: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾(٢) مثلٌ أعلى من أمثال خلقه الدانية، مهما كانت عالية حسنة كمثل المؤمنين، قولياً تشريعياً ككل أقواله ووحيه إلى أنبيائه، أم تكوينياً ككل خلقه بما خلق، دون ما يختلقه بعض خلقه ف ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍۖ﴾(٣) أم تكوينياً يحمل التشريع كرسله وسائر هداته المعصومين فـ ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌۖ ... فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾(٤) وهو النور المحمدية والمحمديون من عترته المعصومين، فإنهم المثل الأعلى في هداية الله، ومهما كان مثله الأعلى في السماوات والأرض، ومنه نفس السماوات والأرض، ولكن أمثاله - حسب حكمته البالغة - درجات، بدرجات الرسالات والمرسل إليهم، وسائر درجات الكائنات، والكل هو المثل الأعلى بالنسبة لسائر المثل من الخلق.

وقد تعني ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰۚ﴾ هنا أعمّ مما تعنيه ﴿ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾(٥) في الروم، كمثل الصفات الذاتية التي ليست لا في السماوات

---

(١) سورة هود، الآية: ٢٤.
(٢) سورة الروم، الآية: ٢٧.
(٣) سورة الملك، الآية: ٣.
(٤) سورة النور، الآيتان: ٣٥، ٣٦.
(٥) سورة الروم، الآية: ٢٧.

ولا في الأرض، فإنها عين ذاته سبحانه، - إذاً - فـ ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ هو ككل صفاته ذاتيةً وفعليةً لا يدانيها أو يساميها أي مَثَل، ولا يماثلها أي مثل مهما يمثِّلها كآية تدل عليه، وفي كل شيء له آية تدل على أنه صانع، ثم و﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هو مثل الصفات الفعلية، وهي المتمثلة في خلقه كله، مهما كانوا بالنسبة لبعض درجات.

وقد يعنيهما - ولا سيما الذاتية من الصفات - قول الصادق عليه السلام «ولله المثل الأعلى الذي لا يشبهه شيءٌ ولا يوصف ولا يتوهم»[1] حيث الأمثال غيرها متشابهة مع بعض.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾﴾:

﴿وَلَوْ﴾ تحيل تلك المؤاخذة، المبكرَّة قبل يوم المؤاخذة، مبيّنة استحقاق الظالمين تلك الأخذة الشاملة، نتيجة ثالوث الظلم بالحق وبحق أنفسهم وحقوق الآخرين، وقد ذكرت قبلُ كشركهم بالله، وتسامحهم عن عقولهم في كل حقولهم، ووأدهم البنات.

و﴿ٱلنَّاسَ﴾ هنا هم الظالمون لمكان ﴿بِظُلْمِهِم﴾ فهم - فقط - يستحقون المؤاخذة التي لا تتركهم عَلى الأرض، إذاً فما بال كل دابة تؤاخَذ بظلم الظالمين حيث التوعيد يشملها كلها بمن فيها من الناس غير الظالمين ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ دون «ما تركهم عليها»؟ كما ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾[2].

فالمؤاخذةُ العذابُ المعجلةُ ليست إلَّا لأهله الظالمين فقط ناساً وغير

---

(١) في معاني الأخبار بإسناده عن حنان بن سدير عن الصادق عليه السلام في حديث قال:
(٢) سورة الكهف، الآية: ٥٨.

ناس حيث إن من سائر الدواب ظالمة كما في الناس، وآية الكهف هذه قد تستثني من عموم آية النحل غير الظالمين ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ فإنهم ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ﴾ ناجون، ثم سائر الدواب قد يترك منها ما تعيِّش الناجين دون الباقية، فإنها خلقت لتعيِّش الإنسان كغيرها مما في الأرض ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾(١) فإذا زال المستفيدون منها زالت، أم إذا زالت الأكثرية الساحقة وهي الظالمة زالت الأكثرية من دوابها، لا أخذاً لها لأنها ظلمت، بل لأن القصد من بقائها زائل، وكما لا يترك الله عليها من دابة في الأجل المسمى الجماعي، ظالمة وغير ظالمة، حيث الأجل مما لا بد منه، فلا جرم في هذه الأخذة القارعة المزلزلة المدمرة تؤخذ كل دابة.

إذاً فـ ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ هنا تنقسم إلى ثلاث، ناجية هي قسم من الدواب والناجون من الناس، وهالكة هي القسم الآخر بذنب أم دون ذنب، وإنما لزوال القصد من بقائها، ومؤاخذة معذبة وهي لشر الدواب ﴿۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾(٢) وكما حصل كل ذلك في طوفان نوح، حيث نجّى الله فيه المؤمنين القلة بنماذج من الدواب التي تعيِّشهم، ثم تتوالد لمن بعدهم، ثم أهلك الله الكافرين وسائر الدواب.

وإذا عنت ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ كل دابة في الأرض دون إبقاء، فهي - إذاً - فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾(٣) فقد تصيب سائر الدواب أم قسماً منها دونما ظلم، وإنما ابتلاءً للمستفيدين منها، وتصيب مِن المظلومين مَن هم ذريعة ظلم الظالمين إذ سكتوا عن ظلمهم، وتخاذلوا

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٩.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ٢٢.
(٣) سورة الأنفال، الآية: ٢٥.

أمامهم، والساكت عن الحق شيطان أخرس! ثم تصيب العدول أحياناً من بأس الظالمين كما تعودوه طول التاريخ الرسالي، وأخرى فتنةً لهم واعتلاءً درجة، كما وفي بأسهم بالظالمين - على شروطه الصالحة - درجة.

إذاً فـ ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ ليست لتعني عقوبة على الكل ظالمة ومظلومة وعادلة، وإنما إفناءً للكل تأشيراً إلى مدى آثار الظلم، إنها مبيدة ومبددة ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم﴾(١) لا تبقي ولا تذر، وليست من سنة الله في أخذة قاهرة للظالمين أن يسدها عن سواهم كخارقة استثنائية، فإذا حدث زلزال فطبيعة الحال تهدُّم المنطقة التي حصلت فيها بمن عليها مستحقين العذاب وسواهم، ولكنه عذاب للظالمين وتكفير أو ترفيع درجة لسواهم.

ونحن نرى طوال التاريخ أخذات إلهية دون تلك المؤاخذة الشاملة، وقد اختصت أحياناً بالظالمين أنفسهم لا سواهم، كاخذ فرعون وعاد وثمود وأصحاب الرس وقرونٍ بين ذلك كثير، وطبعاً بما معهم من دابة يستفيدون منها، وأخرى تعدت إلى غيرهم، سواءً الساكتين عن الظلم كتاركي النهي عن المنكر في أصحاب السبت: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾(٢) حيث النجاة اختصت بالناهين عن السوء، فتاركوا النهي غير ناجين، مهما اختص مقترفو الظلم بـ ﴿كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾(٣).

وثالثة تتعدى إلى سواهم، من غير المستحقين العذاب، ابتلاءً أم ترفيع

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٥٨.

(٢) سورة الأعراف، الآيات: ١٦٤-١٦٦.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٦٥.

درجة كالبراكين والزلازل والصواعق، ذلك، فمن الهراء ما يفترى على رسول الهدى «لو أن الله يؤاخذني وعيسى ابن مريم بذنوبنا - أو - بما جنت هاتان الإبهام والتي تليها لعذبنا ما يظلمنا شيئاً»[1] فإنه يناحر الضرورة القاطعة أن النبيين ولا سيما أولي العزم منهم معصومون.

ذلك، وأما الجمع بين كافة الدواب في أخذة جامعة جامحة من جراء مؤاخذة الظالمين أجمع فقد أحالته «لو» هنا مصلحياً، تأخيراً لهم إلى أجل مسمى هو قيامة التدمير، وحينئذ ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ لأنها وقته الجماعي، رتقاً لحياة التكليف وفتقاً لحياة الحساب وقبلها موتة الجميع ممن هو بعد في حياة التكليف أم حياة برزخية ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ وذلك هو الأجل المسمى الجماعي[2] لكل الكائنات من دابة وسواها، فإن ﴿يُؤَخِّرُهُمْ﴾ هنا بعد ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا﴾ تعني - فقط - ذلك التأخير الجماعي، دون أجل الموت لكل فرد فرد، أم أجل كل أمة أمة، مهما كان كلٌّ من الأجل المسمى، ولكن أين مسمًى من مسمى؟ ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ الظالمون وغيرهم من دابة ﴿لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً﴾ ولا لحظة، حيث الساعة هي من السَّوع: حاضر الوقت، وأقربه لحظة هو أقرب.

وترى هذا ﴿لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ إذ قضي الأمر فماذا تعني ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ وقد جاء الأجل، ولماذا يستقدمون؟.

قد يعني مجيء الأجل جيئة أشراطه القريبة منه، مؤشرة بنفسه، فهم إذاً

---

(١) كما في الدر المنثور ٤: ١٢١ - أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: . . .

(٢) الأجل المسمى وهو المحتوم الذي قرر في الذكر الحكيم وهو فردي وجماعي، والمعلق هو الذي يعلق على سبب اختياري وسواه منه ومن غيره وهو الأجل المبكّر، وهو أيضاً فردي وجماعي والثاني في التدميرات الجماعية يوم الدنيا ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦].

﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ إذ لا تقديم في قضائه كما لا تأخير، لأنه أجل مسمى محتوم.

أم يعني جيئَة حكمه، فلا راد لحكمه وقضائه بعد إذا جاء، أم جيئَة نفسه بداية قيامة التدمير وهم صرخة واحدة ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا لَهَا﴾[1].

وترى من هم الذين قد يستقدمونه، وتأخيره تأجيل للعذاب وتقديمه تعجيل؟ إنهم - بطبيعة الحال - الهائمون للقاء الله، المنتظرون يوم الله، فهم لا يستقدمون أجلهم تسليماً لرب العالمين، وغيرهم لا يستقدمونه، لأنه استقدام للعذاب، كما لا يستأخرون بُغية تأجيل العذاب إذ قضي الأمر فلا تأجيل له كما لا تعجيل.

وقد تعني ﴿لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ طلباً لتأجيل المؤاخذة بعد جيئَة الأجل، أم تعجيله، فإن لها وقتاً بعد الأجل لا يتقدمه ولا يتأخر عنه مهما أخرت عن الحياة الدنيا لأنها لم تكن من أجلها.

وإنها الحكمة البالغة تصاحب القوة، والرحمة تصاحب العدل: أن يؤجّل الظالمون إلى أجل مسمى، لكنهم مغترون بذلك الإمهال، ظانين أنه إهمال، رغم أنه إمهال وإملال ولا إهمال ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾﴾:

﴿وَيَجْعَلُونَ﴾ هؤلاء المشركون ﴿لِلَّهِ﴾ لا لأنفسهم أو آلهتهم التي ألهتهم عن الله ﴿مَا يَكْرَهُونَ﴾هُ لأنفسهم ولآلهتهم.

ولا يخص ﴿مَا يَكْرَهُونَ﴾ قالتَهم إن الملائكة بنات الله، فإن لهم قالات

---

(١) سورة الزلزلة، الآية: ٣.

عدة على الله هم يكرهونها لأنفسهم، فهم - بصورة عامة - يقتسمون الخيرات والشرور قسمة ضيزى، فما يصيبهم من خير فمن أنفسهم ولآلهتهم، وما أصابهم من شرٍّ فمن الله ولله: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ. . .﴾[١].

ولا هم فحسب بل ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٢].

ذلك! رغم أن ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾[٣] والخير كله بيديه والشر ليس إليه، وليس العذاب المستحقُ قضيةَ العدل إلَّا خيراً ولا تركه إلَّا ظلماً وشراً.

هذا جعلهم الجاهل القاحل ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ فألسنتهم هي الكذب، وبطبيعة الحال تصف الكذب، وليست تصفه - بهكذا افراط - قلوبهم، أم وإذا تصف صادرة عن قلوبهم فهي مقلوبة عن الهدى لأنها مغلوبة للهوى، حيث تصف عكس المواصفة وضدها ﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ من حسنى الحياة الدنيا ومن بعدها الاخرى، كأنهم بفريتهم الكذب على الله يستحقون منه الحسنى، أم ﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ شاء الله أم أبى!.

فمن حسنى الحياة الدنيا إنه له البنات ولهم البنون، ومن حسناه في الأخرى رغم إنهم ناكروها ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾[٤].

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٥٠.
(٢) سورة العنكبوت، الآية: ١٠.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٢٦.
(٤) سورة فصلت، الآية: ٥٠.

﴿لَا جَرَمَ﴾ ولا بد إذاً دونما مَخلص ولا محيص ﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ لا كسائر النار لسائر أهل النار بل ﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ كما إنهم في قولهم الكذب مفرطون، إفراطاً كإفراط ولا يظلمون نقيراً.

فالفَرَط هو التقدُّم، والإفراط هو التقديم زائداً عن الحق، كما التفريط هو التأخير ناقصاً عن الحق، فلأنهم افرطوا في قولتهم وفريتهم الكَذِب فليُفرَطوا في النار كما أفرطوا.

ف ﴿هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾(١) حيث يرون السّوأى كأنها الحسنى، بأعين عوراء وألسنة بكماء، وقلوب عمياء والله منهم براء.

﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾:

﴿تَٱللَّهِ﴾ الذي كتب على نفسه الرحمة ومنها رسالة الوحي العاذرة ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَآ﴾ رسلنا تترى طول تاريخ التكليف لعامة المكلفين ﴿إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ من الجِنة والناس أجمعين وسائر العالمين ﴿أَرْسَلْنَآ﴾ رسلاً مبشرين ومنذرين من أولي العزم وسواهم ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ وهم الأكثرية الساحقة منهم ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾ - ﴿فَهُوَ﴾ كما كان قبل اليوم ﴿وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ﴾: يوم البرزخ وإلى يوم القيامة الكبرى، ولايةً لِصقَ بعض منه عليهم، تترى منذ حياتهم الدنيا إلى البرزخ وإلى القيامة ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بما كانوا يعملون ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ... لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾.

وقد تعني «هم» في ﴿وَلِيُّهُمُ﴾ - ضمن ما عنت من الغابرين - الحاضرين منهم والمستقبلين، ولاية حاضرة على مدار الزمن وطول خط التكليف على

---

(١) سورة الكهف، الآيتان: ١٠٣، ١٠٤.

من زين لهم أعمالهم فـ ﴿الْيَوْمَ﴾ إذا يومان، يوم الحاضرين دنياً، ويوم الغابرين برزخاً وأخرى، وكما سوف يأتي الأخيران للحاضرين كما الغابرين.

إذاً فـ «هم» في ﴿وَلِيُّهُمُ﴾ تعم الغابرين وسواهم من حزب الشيطان، و﴿الْيَوْمَ﴾ تعم النشآت الثلاث حسب المحتملات، يوم الدنيا ويوم البرزخ ويوم الدين، ولكنما الأخيران في ولاية العذاب الذي هم فيه مشتركون ﴿أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾(١).

﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾:

فكما رسول القرآن رحمة للعالمين، كذلك القرآن، بياناً للذي اختلفوا فيه أهل الكتاب وسواهم، آمنوا أم لم يؤمنوا، ثم ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ إضافة إلى ذلك البيان، إذاً فالقرآن فيه الهيمنة على حق الهدى في بعدين، هيمنة على كتابات السماء كلها وسواها بياناً، وهدًى ورحمة زائدة لقوم يؤمنون به، حيث تحلِّقان على كل متطلبات الحياة وحاجياتها الإنسانية مع الأبد ما طلعت الشمس وغربت.

ومن هذه الزوايا الثلاث ندرس مدى دعوة القرآن الخالدة، حيث تربط الطول التاريخي والعرض الجغرافي في عرض فصيح فسيح لهدى الله ككل دون إبقاء.

إذاً فهذا الكتاب هو ذكرى كافية خالدة للعالمين ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وسواهم من مشركين وكتابيين وملحدين، فـ «هم» في «لهم» تشملهم كلهم حيث يقابلهم ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ دون اختصاص بالمشركين، مهما كانوا حاضري الخطابات السابقة دون سواهم.

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٣٩.

ومن الشاهد القاطع لشموله أهل الكتاب: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(١) بل هم أحرى من سواهم لاستئناسهم بكتابات الوحي، وحاجتهم المدقعة إلى بيان ما اختلفوا فيه منها: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾(٢).

فهم المستفيدون منه أكثر من سواهم: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾(٣) ولذلك فهم يفرحون: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾(٤) ولأنهم أوتوا علم الكتاب ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾(٥) فليتبعوه لأنه احسن ما أنزل ﴿وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾(٦).

إذاً فكيف يُحصر نزول القرآن لبيان يخص المشركين، فيُحسر عن الكتابيين، ثم ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾؟! ولمّا يصل البيان إلى ذلك الحدِّ الحادِّ من البرهان يأخذ في استعراض آيات آفاقية وأنفسية للألوهية، إضافة إلى الماضية، ونرى إنزال الماء من السماء لصق إنزال الوحي وتلوه، تمثيلاً راقياً بما نعرف فيه حياة كل شيء.



(١) سورة النحل، الآية: ٤٤.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ١٠.
(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٤٧.
(٤) سورة الرعد، الآية: ٣٦.
(٥) سورة سبأ، الآية: ٦.
(٦) سورة الزمر، الآية: ٥٥.

﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ
يَسۡمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ
وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ
مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ
إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي
مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ
أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ
ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ
ٱللَّهَ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ﴿٧٠﴾ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ
فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ
يَجۡحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ
أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ
ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ إِنَّ
ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا لَّا يَقۡدِرُ
عَلَىٰ شَيۡءٖ وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنٗا فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرّٗا وَجَهۡرًاۖ
هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ
مَثَلٗا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ

مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾﴾

﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾﴾:

فحين تُحيي ماءُ السماء الأرض بعد موتها رحمةً من الرحمن، فأراضي القلوب أحرى أن تُحيى بمياه الوحي بعد موتها رحمة من الرحيم و﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ المثل الأمثل ﴿لَءَايَةً﴾ في أولوية مطلقة قطعية ﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ سمع الإنسان، العارف حاجته الروحية أنها أحرى من الجسدية أن تستجاب.

و﴿لَءَايَةً﴾ في أولوية الحياة الحساب بعد الموت من حياة التكليف اللّاحساب، أفلا تدل حياة الأرض بعد موتها متواترة متكررة، على إمكانية حياة الإنسان بعد موته لمرة واحدة وهي أحق وأحرى؟ حيث الحياة الدنيوية التكليفية هي قضيةُ فضل الله، وحياة التكليف هي قضيةُ عدله.

وكما أن موت الأرض له مرحلتان، الموت الأوّل عن حياة ثم أحياها الله بـأول مـاءٍ ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾[1].

ثم بعد الأوّل حيث تموت الأرض فصلياً في كل سنة ثم تحيى بالماء، أم تموت في فصل حياتها أحياناً في حالة الجدب ثم تحيى بالماء.

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١٨.

فكذلك إنسان الأرض وبأحرى، إذ ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ...﴾[1] حين كنا أجنّة في بطون أمهاتنا ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ إلى البرزخ ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ إلى الآخرة ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[2] في حياة الحساب.

وكذلك الحياة الروحية حيث ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ...﴾[3] كإحياء أوّل بأول النبيين، ثم أرسلنا رسلنا تترى إحياءً بعد إحياء!.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ (٦٦)﴾:

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾ تعبرون بالإبصار إليها فإبصارٍ بها إلى حق المبدإ والمصير، حيث تعبر بصائرنا بأبصارنا من هذا المَعبر المعتَبر إلى حقائق علمية جمة ما كانت البشرية لتعرف منها إلّا ظاهراً بسيطاً، والحال عرفت مبسَّطاً منها وسيعاً ولمّا تصل إلى كمالها وتمامها.

هنا ﴿نُّسْقِيكُم﴾ إفعالاً، والسقي مجرداً متعد بنفسه إلى مفعولين اثنين ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾[4] فلماذا نسقيكم؟.

إن السقي هو الإشراب، وهو طبعاً بالماء، والإسقاء هو جعل غير الماء كالماء شراباً، فأسقاه إذا جعله شراباً، فقد جعل الله لبناً خالصاً سائغاً شراباً كما الماء للشاربين، فهو كالماء فيه الرواء وزيادة هي الغذاء، وهو كثيرٌ كالماء، فلذلك كله «نُسقيكم» دون «نَسقيكم» أو «نُشربكم».

ثم الماء قد لا يكون سائغاً لما فيه من خليط أم غيار في لون أو طعم،

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٨.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢١٣.
(٤) سورة الإنسان، الآية: ٢١.

أم يغص به الشارب غُصة، ولكن اللبن خالص من كل خليط غير صالح وهو لا يغص على أية حال، وعلى حد المروي عن الرسول ﷺ «ما شرب أحد لبناً فشرق إن الله يقول: ﴿لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾[1].

ولماذا ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ﴾ والأنعام جمع نَعَم مؤنث لا تقبل إلَّا «ها» وفي المؤمنون «بطونها»: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾[2] فكيف تكون هنا «هو» وهناك «ها»؟.

«هو» هنا «ها» هناك تدلاننا على أنهما بمكانة من الصحة دونما تأويل[3]، فالأنعام - إذاً - جمع واسم جمع، واختلاف الضميرين علّه اعتباراً بالأمرين، والقرآن هو مصدر الأدب لكل أديب وأدب، وحتى إذا كان جمعاً دون إفراد فإرجاع ضمير التأنيث ضابطة شاملة - فقط - في المؤنثات الحقيقية، وتأنيث الجموع المكسرة كالأنعام مجازي يسوغ في ضمائرها الأمران.

---

(١) الدر المنثور ٤: ١٢٢ - أخرج ابن مردويه عن يحيى بن عبد الرحمن بن أبي كبشة عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال: . . . ورواه في الكافي عن القمي عن النوفلي عن السكوني عن أبي عبد الله قال قال رسول الله ﷺ ليس أحد يغص بشرب اللبن لأن الله عزّ وجلّ يقول: . . . وفيه بسنده عمن ذكره عنه عليه السلام قال قال لي رجل إني أكلت لبناً فضرني قال فقال أبو عبد الله عليه السلام: لا والله ما يضر لبن قط ولكنك أكلته مع غيره فضرك الذي أكلته فظننت أن اللبن الذي ضرك، وفيه عدة من أصحابنا عن أحمد بن محمد بن خالد عن يحيى بن إبراهيم بن أبي البلاد عن أبيه عن جده قال: شكوت إلى أبي جعفر عليه السلام ذربا (فسادَ المعدة) وجدته فقال لي ما يمنعك من شرب ألبان البقر؟ وقال لي: اشتريتها قط؟ فقلت له نعم مراراً فقال لي كيف وجدتها؟ فقلت وجدتها تدبغ المعدة وتكسو الكليتين الشحم وتشهي الطعام فقال لي: لو كانت أيامه لخرجت أنا وأنت إلى ينبع حتى نشربه، وعن الخصال عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: حسو اللبن شفاء من كل داء إلا الموت (نور الثقلين ٣: ٦٢ - ٦٣).

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٢١.

(٣) كتأويل المرجع في بطونه إلى ما ذكر، ولا يصح إلا إذا كان عديداً، وأما المذكور الواحد فلا يسمح مذهب البلاغة أن يؤول إلى ما ذكر، ونحن نجد في القرآن كثيراً مثله ونتخذه دليلاً أصيلاً لجواز مختلف الاستعمالات.

ثم ماذا يعني ﴿مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ﴾؟ والفرث هو ما يتبقى في الكرش بعد الهضم، المسمى روثاً وسرجيناً بعد خروجه، والدم هو خُصالة الغذاء المصفّاة في المعدة، وعصارتها المتحوَّلة إلى الشرايين والأوردة وسائر العروق شعرية وما فوقها، المرتزقة منه الخليّات كلها، فكيف يكون اللبن من بين فرث ودم؟.

إنه من بين فرث ودم مكاناً ومكانة، مكاناً حيث الثلاثة كلها لِصقُ بعض في بطن واحد، دون أن تتأثر واحدة من الأخرى على أية حال، فاللبن في الأنعام بين الفخذين، والدم جار في سائر الشرايين والأوردة والفرث في الأمعاء، قد دفعته المعدة إليها بعد جذب العروق لخلاصة الطعام فكانت دماً، فالبينية هي باعتبار المكان بيّنة، فلا الفرث بمختلط باللبن مع قرب المكان، ولا الدم بداخل بنفسه في الضرع، فإن بين ذلك كله حجراً محجوراً.

ثم ومكانة فإن أصل الكل واحد هو الغذاء، وهنا تحولٌ أوّل إلى فرث سافل ثافل، وإلى عصارة تتحول إلى دم وسواه من غذاء الجسم والدم هو الأهم فإنه به حيوية الجسم، ثم الدم الذاهب إلى كل خليَّة في الجسم يتحول في عروق الضرع إلى لبن خالص سائغ للشاربين، إذاً فاللبن وهو عشير الفرث والدم وسواهما من ثفالات وعصارات غذائية، هو ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ﴾ من بين فرث ودم مكانة ومكاناً.

و﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ﴾ هي الغذاء، و«من» تبعيض له أن اللبن هو بعضه، وهو من بين فرث ودم، فلا هو متأثر من فرث ولا دم، رغم أن الفرث عشيره في الغذاء، والدم أمُّه الأخير.

وعملية تحول الخلاصات الغذائية في الجسم إلى دم ومنه إلى لبن، تتم في بطون صاحبات اللبن في كل ثانية ثانية، في عمليات هدم وبناء مستمرة حتى تفارق الروح الجسد، سبحان الخلاق العظيم.

ولقد بقي اللبن في ذلك البين العجيب سراً غريباً إلى عهد قريب، إلى أن كشف العلم نقاباً عن وجهه وإلى كشوف أخرى يبقى القرآن في كلها إماماً لكافة العقلاء والعلماء على مدار الزمن.

أفليس هذا الذي يُسقينا من بين فرث ودم لبناً خالصاً، إلهاً واحداً لوحدة أفعاله وتناسقها؟

أو ليس بقادر على أن يخلّص أجزاءنا - البالية المتغيرة الخليطة بسواها - عن خلائطها، فيخلق منها أمثالها الأولى متناسبة مع الآخرة كما خلقها في الأولى؟.

أو ليس هذا القرآن - الحاوي لملاحم غيبية كهذه - من عند الله العزيز الوهاب «سبحان الخلاق العظيم»!.

اللهم بلى وكما ترى هذه الآية بمفردها برهان ساطع على الأصول الثلاثة: مبدءًا ومصيراً، وما بين المبدأ والمصير وهو وحي القرآن.

﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾:

﴿سَكَرًا﴾ اسمٌ لما يكون منه السُّكر وهو حالة تعرض بين المرء وعقله، وأما أنه الخل فشيءٌ لا يعرفه أهل اللغة، وحتى إذا كان من معانيه فغير فصيح ولا صحيح أن يراد الخل[1] مما هو أعم دون قرينة، ومع قرينة - وهي هنا فاقدة - هو تطويل بلا طائل، إذاً فهو دون ريب مادة السُّكر سواءٌ سميت خمراً أم سواها، فكلُّ مُسكر يتخذ من ثمرات النخيل سَكَرٌ، وقد يؤكده تقابُله بـ ﴿وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ فالسَّكر إذاً غير حسن، أفهل يكون الخل

---

(١) عن ابن عباس أنه في الحبشية بمعنى الخل، ولكنه غير صحيح أن يترك الخل العربي ثم يستخدم السكر الحبشي وهو في العربية ما يسكر، فبالرغم من وجود الألفاظ الأعجمية في القرآن فإنه مخصوص بما ليس في معناه لفظة عربية، ثم لالتباس في استعمالها.

من غير الحسن وهو من أحسن ما يتخذ من ثمرات النخيل، فهو إدام الأولياء، وهو يزيل شطراً عظيماً من البلاء، إدام هو في نفس الوقت من الأدواء، مهما أضر ببعض الأمراض.

وتفسيره بالسكون، وبالحيرة كما في ﴿سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا﴾[١] لا ينافيه فإن فيه سكون العقل وحيرته.

وترى ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ تدل على حلِّه آنذاك ثم حرم بآيات التحريم كآية المائدة، لأن آية السَّكَر في مقام المن على العباد حيث رزقهم من ثمرات النخيل ما يتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً؟.

والخمر قد حرمت في بداية الدعوة لأنها من أصول المحرمات التي تتنافى حلِّيتها مع أصول الشرعة، فلو حلّت منذ البدء فقد أخلت بأصل الدعوة التي قضيتها عقول ضافية غير مدخولة، حيث العقول هي مهابط الدعوات الرسالية ومجالاتها، فكيف بالإمكان الجمع بين حلية إزالة العقل بالسكر، - وهي تزيل محطات الدعوة - وبين فرض تقبُّل الدعوة، دعوة تناحر نفسها في حلٍّ ما يعذِّر قبولها، ويعذّر تقبلها.

ولو كان المن هنا يعم السكر إلى الرزق الحسن، منًّا في شرعة الله أن تسمح للإخلال بالعقول التي بها تعقل فتُقبل! إذاً لاستحال نسخه بآية المائدة أمّا هيه، فأصل المن بالسكر لا أصل له، ولو كان ممنوناً عليه فكيف يقبل نسخاً معللاً بأنه ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾[٢] فهل أن الرحمن يمن على عباده في برهة من الزمان بتحليله عمل الشيطان، ثم يحرمه؟! في الحق إن فرية التحليل سناداً إلى آية السكر أم سواها، هي نفسها من عمل الشيطان!. والحلّ أن هنا ﴿تَتَّخِذُونَ﴾ لا يخص خطاب المؤمنين حتى يُتخذ اتخاذهم

(١) سورة الحجر، الآية: ١٥.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٩٠.

منه سكراً ذريعة إلى حلِّه، بل هو خطاب للمشركين أم كافة المكلفين، ثم عرض لما يتخذون من ثمرات النخيل من رزق سيىءٍ كالسكر، أم ﴿وَرِزْقًا حَسَنًاۚ﴾.

ثم واتخاذ بعض المؤمنين يومذاك منه سَكَراً لا يدل على حلّه حيث الإيمان درجات، وقد يقترف المؤمنون معاصي ومآسي صغيرة وكبيرة وحتى لمحة الإشراك بالله ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[(١)] وهناك عشرات من الخطابات لمقترفي الذنوب وقد سُمّوا فيها مؤمنين.

كما ولا تدل آية النساء على حلّ السُّكر لمكان ذلك الخطاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾[(٢)] وقد منعوا في هذه الحالة الرديئة عن الصلاة وهي عمود الدين، فليكن السَّكَر - إذاً - عموداً ضد الدين.

ولقد حرمت الخمر منذ العهد المكي قبل النحل في الأعراف مهما كان كما في النساء طفيفاً خفيفاً، فالحرمة هي الأصل من بداية الدعوة، ثم في بيانها تدرجات إلى أن تنتهي إلى آية المائدة ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾[(٣)] إذ كانوا لا ينتهون مع تواتر النهي لتعودهم من ناحية وخفة النهي من أخرى، فآية الأعراف تلمح تلميحة لطيفة إلى حرمة طفيفة بصيغة مطلقة: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾[(٤)] والإثم هو ما يبطئ عن الصواب، والسَّكَر من أبطأ ما يبطئ عنه وكما في آية البقرة: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن

(١) سورة يوسف، الآية: ١٠٦.
(٢) سورة النساء، الآية: ٤٣.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٩١.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ٣٣.

﴿نَّفْعِهِمَا﴾[(١)] وقد حرم الإثم صغيرة وكبيرة في مكة قبل النحل، فكيف يمن بالسَّكَر في النحل؟ أمنّا بإثم حرمه، وهو كبير كما بينه، وهو رجس من عمل الشيطان كما في المائِدة!.

فالمكية الأولى في الأعراف تحرِّم السَّكَر ضمن تحريم الإثم، والثانية في النحل تعتبره رزقاً سيّئاً، ثم المدنية الأولى في البقرة تكبّر إثمه، ثم الثانية في المائدة تجرفها جرفاً محيقاً سحيقاً «فهل أنتم منهون»؟ وهنا بعد ﴿سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ - ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ وتراها آية لمن لا يعقل بسَكَره، بل هي آية حين عقله، ولكي ينتهي عنه.

إذاً فالرواية القائلة أنها منسوخة بآية المائدة[(٢)] مأوّلة أو ممسوخة.

وقد تنص على حرمة الخمر آيات من التوراة والإنجيل[(٣)] وشرعة

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٩.

(٢) نور الثقلين ٣: ٦٣ في تفسير العياشي عن سعيد بن يسار عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن الله أمر نوحاً أن يحمل في السفينة من كل زوجين اثنين فحمل النخل والعجوة فكانا زوجاً فلما نضب الماء أمر الله نوحاً أن يغرس الحبل وهي الكرم فأتاه إبليس فمنعه عن غرسها وأبى نوح إلا أن يغرسها وأبى إبليس أن يدعه يغرسها وقال ليس لك ولا لأصحابك إنما هي لي ولأصحابي فتنازعا ما سألته ثم إنهما اصطلحا على أن جعل نوح لإبليس سهماً ولنوح ثلثه وقد أنزل الله لنبيه في كتابه ما قد قرأتموه: ﴿وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل: ٦٧] فكان المسلمون بذلك ثم أنزل الله آية التحريم: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ... مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠، ٩١] يا سعيد فهذه آية التحريم وهما نسخت الآية الأخرى.
أقول: والرواية على ما فيها من نسبة التقسيم إلى نوح وهي غير صالحة لرسل الله، هي مخالفة للآيات الثلاث مكية ومدنية، النازلة قبل آية المائدة، إلا أن يعني نسخ الحد الخفيف من تحريم الخمر لا أصل التحريم.

(٣) نقلناها كلها في تفسير آية المائدة وهي خمس عشرة آية، اثنتان في الإنجيل (لوقا ١: ١٥) (كتاب بولس إلى افسيين ١٨) والباقية في التوراة وهي (لاويين ١٠: ٨ - ٩) (اشعياءه: ١١ - ١٢) و٢٢ و٢٨: ١ و٣ و٧) (ناحوم ١: ١٠ - ١٢) (هوشع ٤: ١١ و١٨) (أمثال سليمان ٢٠: ١ و٢ و٢٣: ١٩ - ٢٠ و٢٩ - ٣٥ و٣١: ٤ - ٥) (حبقوق ٣: ٥) (تثنية ٢١: ٢١ - ٢٢).

الإسلام لم تنسخ - فيما نسخت منهما - حكمَ الخمر، لأنها من المحرمات الأصلية كالواجبات الأصلية ولا تقبل النسخ في أية شرعة وعلى أية حال.

ثم ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ﴾ عطف للجملة على الجملة السالفة ﴿وَٱلْأَعْنَٰبِ﴾ عطف على «ثمرات» دون «النخيل» فإنها هي الثمرة دون النخيل، و﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ﴾ راجع إلى البعض المعين من «من ثمرات».

والسَّكَر - وهي مادة السُّكر - محرم على أية حال، سواء المتخذ من النخيل والأعناب وهو الكثير المتعود منه، أم من غيرهما، لأنه بنفسه رزق سيئ أياً كان مصدره.

ومن السَّكَر أن تأكل العنب لحدّ تسكر عند اهتضام الطعام، أم في حرارة الشمس وسواها، فكل ما يسكر بمادته أو كثرته سَكَرٌ فمحرم، فمنه ما يحرم قليله وكثيره كسائر السَّكَر، ومنه ما يحرم كثيره حيث الكثرة تسكر، كالعنب أو التمر الكثير حيث يسكران في ظروف خاصة، والمسكر أياً كان حرام خمراً وسواها.

وإنما هو آية لقوم يعقلون، حيث العقل هو العِقال، ففي عِقال هذه الأرزاق المختلفة عن أصل واحدة يُعقل أن المؤصِّل والمفرِّع له واحد، خلقه هكذا باختيار قاصد دون صدفة عمياء أو فوضاء.

فمختلف الأناسي الصادرين من مصدر واحد هو الإنسان الأوّل دليل القصد والإرادة في الخلق، عبرة للمبدأ، وعبرةً للمصير، نضداً لكل وليد عشير مع الآخرين، ومتأصلاً في أصل واحد، فكما أن اللبن الخالص مع الدم يخرجان من بين الفرث، فاللبن يخرج من بين فرث ودم، كذلك السكر ورزق حسن يخرجان من ثمرات النخيل والأعناب، فهما عشيران في ثمرات النخيل ثم الله يخرج حسنه من بين سيّئه، كذلك الله يخرج أجزاء الإنسان الصالحة للحشر من بين الأجزاء الدخيلة الخليطة معها لتحقيق الثواب والعقاب بعد حق الحساب في المصير، والله على كل شيءٍ قدير.

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾:

﴿وَأَوْحَىٰ﴾ إلهاماً إلى الغريزة ﴿رَبُّكَ﴾ الذي رباك بأعلى قمم الوحي ﴿إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ وحياً من أدناه تكويناً غريزياً وأدنى منه للأرض: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾(١) بمجرد الرمز لكيانها فأصبحت مسجِّلة الأصوات والصور دون غريزة أم فوقها، وفوقه الوحي إلى الصالحين إلهاماً في إنباء دون نبوة ووحي رسالة كما ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾(٢) وفوقه الوحي إلى المعصومين، وحي رسالة ونبوة كسائر المرسلين، أم وحي إلهام كسائر المعصومين، مهما يفوق الإلهام إلى بعضهم كلَّ وحي فيما سوى الرسالة المحمدية كما ألهم إلى الأئمة الاثني عشر والصديقة الطاهرة. صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

والوحي على أية حال هو إشارة في رمز لا يعرفه غير المرموز إليه أمن هو إليه، سواءٌ أكان بإشارة كلام، أم عضو، كما في وحي خلق إلى خلق ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾(٣) بل و﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾(٤) فهو يعم وحي الخير والشر.

أم إشارة تكوينية دون لفظ كما في الوحي للأرض وإلى النحل فإنه رمز خاص في تكوينهما، أم بلفظ وسواه كما في وحي الإلهام ووحي النبوة، فكل ذلك من الوحي، إلا أنه اختص من وجهة أخرى برجالات الوحي،

---

(١) سورة الزلزلة، الآية: ٥.
(٢) سورة القصص، الآية: ٧.
(٣) سورة مريم، الآية: ١١.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٢١.

ولكيلا يختلط مع سائر الوحي فيما يطلق اللهم إلا بصارف كما في آيات عدة مضت وأضرابها، فحتى الإلهام إلى الأئمة المعصومين الكرام لا يسمى في العرف الديني وحياً، بل والوحي إلى من سوى محمد ﷺ كأنه ليس وحياً بل هو وصية بالنسبة إلى وحيه، ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾(١).

فالوحي في أعم إطلاقاته يعم كل إشارة في رمز خيراً أو شراً، وفي أخصها يخص وحي الرسالة الختمية، وبينهما عوانات متوسطات.

وقد تكون تسمية النحل نحلاً فتسمية هذه السورة باسمها، لأن النَّحلة والنِّحلة عطية على سبيل التبرع، والنحل بعسلها عطية ربانية في المشروبات والمأكولات قد تربو على كلها غذاءً ودواء حيث ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ﴾ من كثير من الأدواء ظاهرة وباطنة.

ولأن صدُقات النساء لا تقابلها إلا متعة الجنس وحظوة النسل لذلك سميت نِحلة ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾(٢).

وإن كتاب وحي النحل ذو مواد ثلاث: ﴿أَنِ اتَّخِذِي... ثُمَّ كُلِي... فَاسْلُكِي...﴾ ثم النتيجة المرغوبة ﴿يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ﴾ وفي نهاية المطاف عبرة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

وعلّ هناك في إحياء الأرض ﴿لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ وفي ﴿ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ﴾ - ﴿لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ وهنا ﴿لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ حيث العبرة بالحياة والموت المتواترين يكفيها السمع، حتى لمن ليست لهم تلك العقول الناضجة، وإنما ساذجة رائجة، ثم النظر في الثمرات عبرةً إلى فاعل واحد مختار يفعل تلك الأفاعيل، هو بحاجة إلى تعقل، وأما أمر النحل في حياتها

---

(١) سورة الشورى، الآية: ١٣.
(٢) سورة النساء، الآية: ٤.

العجيبة فلا ينكشف إلا بتدبر عقلي وعلمي وكما ألف العلماء حول حياة النحل كتابات عدة.

ثم النحل أمة من الأمم، لها مَلِكتها على سائر النحل، وقد قسمت أمر الأمة كما أوحي إليها ومعها السقاء - مربي الذرية - راع - بناء - معماري - مهندس - جندي - زبّال وخدام[1].

---

(١) فالسقاء يمد الكوارة بالماء والمربي يربي الصغار، والراعي يجمع غبار الأزهار وعسلها وما بعدها لبناء بيوت العسل وأمر البقية ظاهر، ثم هنا شغل عليها نفسها وعلى العمال، فعليها نفسها وضع البيض حيث تبيض في كل ثلاثة أسابيع من ستة آلاف إلى اثنتي عشرة ألف بيضة، ثم على الشغالة عندها سائر الأشغال وهي كلها خناثى، وعدد الخلايا من عشرين ألفاً إلى ثلاثين ألفاً، منها البواب الذي لا يسمح لغير أصحاب الخلية أن يدخلها، ومنها المنوط بخدمة البيض، وثالثة بتربية صغار النحل، ورابعة لبناء الخلايا، وخامسة هي جناة الشمع التي تبنى منها الخلايا، وسادسة جناة رحيق الأزهار الذي يستحيل في بطونها عسلاً تخرجه من فمها غذاء لصغار النحل حيث تخرج من بيضاتها ولشراب الناس، وكل من هذه العاملات تؤدي الأوامر الموجهة إليها من قبل الملكة «اليعسوب» أو «الخشرم» وهي أم النحل وأعظمها جثة.

ومن عجيب أمرها أنها تقتل كل ما وقع على نجاسة من رعاياها، ومن سياستها حين تريد الحمل أن ترتفع في الهواء وتختار ذكراً من غير خليتها ترفعاً عما تحت إدارتها.

فإن عندها ذكوراً لا شغل لها وعددها من خمسمائة إلى ألف في الخلية، وهي تبقى فيها إلى أن تحمل الملكة وتحبل، وحينئذ تقتل الخنائى هؤلاء الذكور لئلا يضيق المكان ويفنى العسل، سبحان الخلاق العظيم!

ثم من النحل ما لها شعر يرى بالعيون المسلحة أسود أو أحمر أو أصفر، والنحلة الكبيرة التي تعيش في الكلاء والحقول تموت شتاتاً إلا قليلاً تتوارى في أماكن تدفئ جثتها حتى إذا جاء الربيع وانتشرت الحرارة نفخ الله فيها أرواحها، فإذا قامت أخذت تطير في الحقول لتبحث عن أماكن تبني فيها أعشاشها، فمنها ما تتخذ حشائش تصنعها مساكن ذات منافذ من أعلى ليدخل النور وتقفلها عند مسيس الحاجة إليها إذا أقبل الليل أو نزل المطر أو الندى ثم تضع على حيطانها أقراصاً وقاية من الرطوبة، ومنها ما يبحث عن شقوق ومغاور في الأرض أو في الجبل فتضع أقراصها فيها، وهذان النوعان من البناء هما اللذان اتخذتهما النحل فوق الأرض وتحتها وبعد ذلك تضع بيوضها في البيوت التي تتكون منها الأقراص وتسير سير كل حشرة في القانون العام، فتكون دودة فتنام في كرة نسيجها كما تنسج دودة القز في حريرها، ثم تقوم وقد أكمل الله خلقها وخلق أجنحتها وخرجت من مهدها، باحثة عن غذائها فتذهب إلى الأزهار =

إذاً فعلينا أن نتفكر في حياة النحل ما يهدينا إلى عجائب صنعها وصنعتها وحياتها الراقية والفائقة التصور.

وأول ما تبرز هنا لمحةٌ لامعة من ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ﴾ هي الصلة القريبة بين الرسول ﷺ والنحل، ومنها ﴿وَأَوْحَىٰ﴾ مهما بان البون بين الوحين ومن ثم ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ إذ تصلح أن تكون مثالاً لكافة الثمرات الروحية لكافة درجات الوحي ومحتوياتها، التي حوتها الروح الرسالية القمة المحمدية، ثم ﴿فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ انسلاكه في كافة السبل إلى الله، فإلى قمة الصراط المستقيم، ثم النتيجة بعد هاتين المرحلتين ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ إشارة إلى خروج الهدى بعد تمكنها في قلبه المنير، إلى مخارج الاهتداء بقول وعمل أو تقرير، وأفضل قوله هو القرآن العظيم: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ...﴾[1] و﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ مثلاً، كما هو حقيقة ﴿لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾!

فالرسول الأقدس نِحلَة غالية من رب العالمين[2]، ثم الأئمة[3] من آله

= وتجني منها العسل الذي في أسافلها وتحمل تلك المادة الصفراء في سفط (المقطف) على أرجلها الخفيفة المكونة من شعر يحفظ تلك المادة ثم يجعل جزءاً منها شمعا يبني منه الأقراص يملؤه عسلاً مما شربه من أسفل الزهرة وجزء آخر يصنعه خبزاً لصغار النحل!

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٢.

(٢) نور الثقلين ٣: ٦٥ في رواية أبي الربيع الشامي عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية فقال عليه السلام: رسول الله ﷺ: ﴿أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ [النحل: ٦٨] قال: تزوج من قريش ﴿وَمِنَ ٱلشَّجَرِ﴾ [النحل: ٦٨] قال: في العرب ﴿وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [النحل: ٦٨] قال: في الموالي ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ [النحل: ٦٩] قال: أنواع العلم ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ [النحل: ٦٩].

(٣) المصدر عن تفسير العياشي عن مسعدة بن صدقة عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية: فالنحل الأئمة والجبال العرب والشجر الموالي عتاقة ومما يعرشون يعني الأولاد والعبيد ممن لم يعتق وهو يتولى الله ورسوله والأئمة والثمرات المختلفة ألوانه فنون العلم الذي قد يعلم الأئمة شيعتهم وفيه شفاء للناس، يقول: في العلم شفاء للناس والشيعة هم الناس وغيرهم الله أعلم بهم ما هم، ولو كان كما تزعم أنه العسل الذي يأكله الناس إذا ما أكل منه وما شرب ذو عاهة إلا شفي لقول الله: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ ولا خلف لقول الله، وإنما الشفاء في علم =

الطاهرين، ثم من يحذو محذاهم من السابقين والمقربين وأصحاب اليمين وإن كانوا درجات، كما النحل أيضاً درجات والعسل درجات، حيث الثمرات درجات.

ثم أولى المراحل لعملية النحل العجيبة هي ﴿أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ وكل هذه الثلاث خلقيةٌ وصناعية مرتفعات فإنها أبعد عن القذارات وسائر النازلات، و«من» فيها تبعِّض فإنها بكل مكاناتها ليست صالحة لبيوت النحل، وإنما الآمنة المطمئنة الطيبة، اتخاذاً لها بما أوحى الله إليها، وآمنها وأمتنها الجبالُ ثم الأشجار، ثم ما يعرشون من عروش الأعناب وسواها من مرتفعات مصطنعة لمختلف الحاجيات ومنها مكانات بيوتات النحل.

ويا لهذه البيوتات من هندسات عجيبة دقيقة، مسدسات مثل بعض ولِصقَ بعضٍ وهي أمتن الأشكال الهندسية مُنعة عن التخلل، فإنها مكتنفات في هذه التسديسات العويصات، كما وأن أجساد النحل مهندسة كما تناسب هندسة العِمار، فأوساط أجسادها مكعبات ومؤخراتها مخروطات ورؤوسها مدوَّرات مبسوطات، مركوبة في أوساط أبدانها أربعة أرجل ويدان متناسبات المقادير كأضلاع المسدسات، لتستعين بها على مختلف الحركات الهندسية لهذه البيوتات.

والهدف من تساوي أضلاع هذه المسدسات المتساويات ألّا يتداخلها الهواء فيضر بأولادها ويفسد شرابها، وهي تجمع بيديها وأرجلها الأربع من ورق الأشجار وزهر الأثمار الرطوبات الدهنية التي تبني بها تلك البيوتات

= القرآن لقوله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢] فهو شفاء ورحمة لأهله لا شك فيه ولا مرية وأهله أئمة الهدى الذين قال الله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: ٣٢].

أقول قد يعني نفي العسل عن العسل نفي الحصر استنكاراً لمن ينكر باطن الآية هذا ومما يدل عليه الأحاديث المتظافرة عنهم عليهم السلام في التعريف بخواص العسل سناداً إلى هذه الآية.

المهندسة، وعلى أكتافها أربعة أجنحة حريرية النسج وسائل لطيرانها، ومؤخرات أبدانها مخروطة الأشكال مجوفة مدرجة مملوءة بالهواء لتكون موازنةً لثقل الرؤوس في الطيران، وجعلت لها حمة حادة كشوكة شائكة سلاحاً لها أمام أعدائها، وجعلت رقبتها خفيفة ليسهل بها تحرك رأسها يمنة ويسرة بلا عسرة، وجعل رأسها مدوراً عريضاً وبجنبيه عينان براقتان كأنهما مرآتان مجلوّتان، وسيلة لتمييز الأشكال والألوان في الظلمات والنور، وعلى رأسها شبه قرنين لطيفين لينين آلةً لإحساس الملموسات، وفتح لها منخران لإحساس المشمومات الطيبة، وفماً مفتوحاً فيه قوة ذائقة قوية، ومشفران حادّان تجمع بهما من ثمرات الأشجار رطوبات لطيفة، وفي جوفها قوة جاذبة ماسكة هاضمة طابخة منضحة تحوّل تلك الرطوبات عسلاً مصفى شراباً مختلفاً ألوانه فيه شفاء للناس.

والمرحلة الثانية بعد بناء البيوت ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ والكلُّ هذا بطبيعة الحال يعني طيبات الثمرات، ولها مرحلتان، الأمهات وهي أزهارها، والمواليد وهي أثمارها، والنحل تأكل من أمهات الثمرات وهي أزهر وأظهر وأطهر، مهما أكلت أحياناً من الثمرات أنفسها.

والمرحلة الثالثة مفرَّعة على الأوليين وتكملة لهما ﴿فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًاۚ﴾ من الذُّل وهو خلاف الشِّماس، كما الدابة الذلول خلاف الشَّموس، ف ﴿ذُلُلًاۚ﴾ تعني مطاوعة مستسلمة غير متمنِّعة، سواء السبل الأولى في اتخاذ بيوتها، أم الثانية في أكلها من كل الثمرات، أم سبل الحفاظ على البيوتات والمأكولات، ولكي يكون العسل الناتج عن هذه العمليات ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِۚ﴾ من كل داء، اللهم إلا الموت من أجَله المسمى أو المعلق على سبب أقوى.

فكافة السبل الربانية كما ألهمت مسلوكة للنحل شاءت أم أبت، ولكي تكون أمانة العسل أمينة غير خليطة.

ثم ﴿ذُلُلًاۚ﴾ هذه قد تكون حالاً لسبل ربك، وأخرى للنحل والجمع أجمل، والسبل الذلل هي الطرق الموطأة للقدم، السهلة على الحافر والمنسم، تشبيهاً لها بالإبل الذلل وهي التي قد عوِّدت الرحل وألفت المسير.

والنحل الذلل هي المطاوعة في سلوك السبل، دون تفلُّت عنها ولا تلفُّت، فالنحل الذلل في السبل الذلل، هما بعد أن من الذلل كما أوحى الله إليها.

ثم هناك المرحلة الرابعة: النتيجة:

﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِۚ﴾:

ولماذا ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا﴾ دون «أفواهها» أم «أدبارها»؟ علّها تعني خروجه من مخرجها و«من بطونها» تأدب في التعبير ولكيلا ينغّص عيش في ذلك الشراب الشفاء.

ولكنه رجيع القيء من أفواهها دون مخارجها، إلا أن صيغة القيء - كما المخرج - غير سائغة في ذلك المساق المساغ. و﴿مِنْ بُطُونِهَا﴾ بيان لمصدر العسل دون مخرجه، فما كان أم مخرجاً، وهذه بلاغة في التعبير تناسب البيان القمة القرآنية.

﴿شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ كما النحل مثلثة الألوان (أسود وأصفر وأحمر) كذلك شرابها العسل لكنه الأسود بدل الأبيض والحمرة الضاربة إلى السواد، والأصفر منه أكثر.

﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِۚ﴾ وتنوين التبعيض في ﴿شِفَاءٌ﴾ مما يسد ثغرة الاستغراق، لأنه مبالغة وإغراق، فإن من الأدواء ما ليس العسل له دواء بل ويزيده بلاء كالمرار والصفراء وكما القرآن الممثل له بالعسل ﴿مَا هُوَ شِفَاءٌ

وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾[(١)] وكما يروى عن رسول الهدى ﷺ: «عليكم بالشفاءين العسل والقرآن»[(٢)].

ثم ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ قد تلمح أنه شفاء للأكثرية الساحقة من الأدواء، فإنه يلحمٌ الجراحات ظاهرة وباطنة[(٣)] وحقٌّ له أن يحلِّق شفاء من كل داء فانه. محلِّقٌ من كل الثمرات.

فذلك الشفاء في العسل هو طبيعة الحال بإذن الله، فإنه سلالة من كل

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٢.

(٢) الدر المنثور ٤: ١٢٣ - أخرج جماعة عن النبي ﷺ: أنه قال:....

(٣) المصدر أخرج أحمد والبخاري ومسلم وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال يا رسول الله ﷺ إن أخي استطلق بطنه فقال اسقه عسلاً فسقاه عسلاً ثم جاء فقال ما زاده إلا استطلاقاً قال اذهب فاسقه عسلاً فسقاه عسلاً ثم جاء فقال ما زاده إلا استطلاقاً قال رسول الله ﷺ صدق الله وكذب بطن أخيك اذهب فاسقه عسلاً فذهب فسقاه فشفي.

وفي نور الثقلين ٣: ٦٦ عن تفسير العياشي عن عبد الله بن القداح عن أبي عبد الله عليه السلام عن أبيه قال جاء رجل إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين بي وجع في بطني فقال له أمير المؤمنين عليه السلام ألك زوجة؟ قال: نعم - قال: استوهب منها شيئاً طيبت به نفسها من مالها، ثم اشتر به عسلاً ثم اسكب عليه من ماء السماء ثم اشربه فإني أسمع الله يقول في كتابه: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾ [ق: ٩] وقال: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ [النحل: ٦٩] وقال: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ [النساء: ٤] فإذا اجتمعت البركة والشفاء والهناء والمريء شفيت إن شاء الله تعالى ففعل ذلك فشفي.

وفيه عن سيف بن عميرة عن شيخ من أصحابنا عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كنا عنده فسأله شيخ فقال: بي وجع وأنا أشرب له النبيذ ووصفه له الشيخ فقال: ما يمنعك من الماء الذي جعل الله منه كل شيء حي قال: لا يوافقني - قال: فما يمنعك من العسل؟ قال الله: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾. قال: لا أجده - قال: فما يمنعك من اللبن الذي نبت لحمك واشتد عظمك؟ قال: لا يوافقني قال له أبو عبد الله عليه السلام: أتريد أن آمرك بشرب الخمر، لا آمرك والله لا آمرك وفيه عن علي عليه السلام قال: لعق العسل فيه شفاء للناس.

وفي الدر المنثور ٤: ١٢٢ - أخرج ابن أبي شيبة عن حشرم المجمري أن ملاعب الأسنة عامر ابن مالك بعث إلى النبي ﷺ يسأله الدواء والشفاء من داء نزل به فبعث إليه النبي ﷺ بعسل أو بعكة من عسل.

الثمرات، والثمرات هي أدواء كما هي إدام وغذاء، ونحن لا نعرف ما تعرفت إليه النحل بما أوحي إليها من كل الثمرات، وكيفية تعسيلها، بعيداً عن المؤذيات العالقة بها أحياناً والخليطة بها أخرى، إذ لا نستطيع أن نسلك سبل ربنا كما هي سالكة بوحي الله، مهما تقدمنا في علم الطب ومعرفة الثمرات، و﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

لذلك فالعسل المصطنع البشرى ليس كعسل النحل، حيث البشر لم يوح إليه ما أوحي إلى النحل، فالبشر غير الموحى إليه لا عصمة له علمياً ولا عملياً، والنحل معصومة علماً بالوحي وليست معصومة عملياً، حيث تشذ البعض في أكل الثمرات فتُمنع من الدخول في الخَليَّة، فيصبح العسل معصوماً عن كل خلل تطارد ﴿شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ﴾، ولا دواء معروفاً وغير معروف أدوى من العسل لاختصاصه في ذلك النص دون سواه، كما لا دواء للأرواح والقلوب معصوماً أدوى من القرآن حيث يعسل الروح ويؤصله لكافة الفروع القيمة القمة الروحية.

ولقد جربنا شفاء العسل لتسكير الدم من أي جرح كان مما غمر الأطباء الجراحين استعجاباً، وكذلك للأمراض المعوية مائة في المائة، وللاضطرابات والتشنجات العصبية العسيبة، صعبة العلاج أو منقطعته.

وحين يصرح خالق الأدواء، وخالق الطب والأطباء في هذه الإذاعة القرآنية الخالدة صارخة على ممر الزمن: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ﴾ فما داؤنا وما هو بلاؤنا ألّا نستشفي بذلك الشفاء المعصوم، الذي لا يضر وينفع، مهما لم ينفع أم ضر في القليل القليل في داء العليل كالصفراء والمرار.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن

نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِن عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ (٧)﴾[١] ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾[٢].

نكسة في الخلق وركسة، قلباً لآخرة إلى أوّله لمن يعمره الله أرذل العمر لكي لا يعلم بعد علم شيئاً، فقد كان لا يعلم شيئاً في البداية ولا سيما حين كان من الأجنة ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾[٣] ثم عُلِّم شيئاً فعَلِم شيئاً ثم ازداد حين بلغ أشده، ثم قد يرد إلى أرذل العمر، إلى حالة الأجنة وما بعدها في صغره وطفولته، وذلك تنقل ملموس من موت علمي إلى حياة وأحيى منها، ثم رداً إلى موته الأول وهو أرذل العمر، أفلا يدل ذلك التنقل المعرفي بين موت وحياة، على تنقل في حياة البدن وبالأولى، عن الاولى إلى الأخرى، بلى! ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾! ﴿يَتَوَفَّاكُمْ﴾ هو الأخذ وافياً، أخذاً وافياً حيث المأخوذ فيه هو الروح كله انسانياً وحيوانياً ونباتياً بجسمه البرزخي. في حالك وافياً، حيث بلغت أشدك دونما نكسة، ولأن ﴿يَتَوَفَّاكُمْ﴾ هنا تقابل ﴿أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ فقد يعني توفي الحياة الخيِّرة بجنب التوفي عنها، فمن يرد إلى أرذل العمر هو غير متوفّى من هذه الجهة مهما كان متوفى من الأخرى.

﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ فقد بدأ بأرذل العمر حين كان من الأجنة

---

(١) سورة الحج، الآيات: ٥-٧.
(٢) سورة يس، الآية: ٦٨.
(٣) سورة النحل، الآية: ٧٨.

وبعده إلى حين، إذ كان لا يعلم شيئاً كإنسان، مهما كان يعرف أشياء كحيوان، بها يدبر حالته الحيوانية في طفولته على قلته، ومن قبل - في بطن أمه - ما كان يعلم شيئاً لا كإنسان ولا كحيوان! اللهم إلا شيئاً ضئيلاً على تردد! والرد إلى أرذل العمر قد يعم الحالتين وللجنين أرذلهما ﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾! وأرذل العمر قد يكون في البنية الجسمية، أو العقلية والعلمية، أو الإيمانية، أو اثنتان منها أو الجمع وهو أرذل الأرذل، إذاً فأرذل العمر مراحل عدة تختلف في قدر الرذالة.

ولأن ﴿يُرَدُّ﴾ تعطف إلى أول العمر الرذيل إلا في اللاإيمان لمكان عدم التكليف، فأصل المعنى من ﴿أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ لا يعني رذالة الكفر، اللهم إلا اللاإيمان المعذور لعدم التكليف، ولكن يشمل على هامش الأصل أرذل اللاإيمان دون قصور.

ولأن العمر يبدأ منذ الولادة دون الحياة الجنينية حيث الرد إلى أرذل العمر لو كان إلى الحياة الجنينية استلزم مثل مأكلها ومشربها ومكانها، فلا تعني ﴿أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ الحياة قبل الولادة، وإنما منذ الولادة إلى حين يعلم شيئاً كإنسان، ويقوم على ساقه كإنسان، وأما حياة الحيونة فهي تعم منذ الجنين، وهو بداية حياته كحيوان، ثم منذ الولادة هو بدايتها كإنسان.

إذاً فبداية ذلك العمر هي منذ الولادة ونهايته الموت، دون الحياة البرزخية والأخروية فإنهما لا رذالة فيهما حتى للأرذلين، إلّا عذاباً بما عصوا.

ثم العمر قد يكون كله رذيلاً أم أرذل كما في من محض الكفر محضاً وهو قليل العقل والعلم والحظ الحيوي المادي، أم كله فضيلاً كالمعصومين الذين هم أنوار منذ الأصلاب والأرحام وإلى الولادة والموت، والقبيلان خارجان عن نطاق الآية.

أم هو مراحل. من الأرذل إلى الرذيل وإلى الأفضل والفضيل، وأرذل العمر هو الخاوي عن القوة البدنية والروحية، نباتية وحيوانية، وإنسانية: عقلية وعلمية وإيمانية.

أتراه مهاناً بذلك الرد الرديء، فمُعاقباً بترك الواجبات أو اقتراف المحرمات؟ وليس رده إلى أرذل العمر من فعله، بل هو رد إلى غير حالة التكليف أم تخِفّ!؟

كلّا - إلّا أن يستحق ذلك الرد بما ارتد عما يتوجب عليه، فإلى نكسة مؤقتة وكما يختم على قلوب مقلوبة، فذلك امتهان.

وأما المؤمن المراقب فرده إلى أرذل العمر امتحان له وابتلاء، فيه حط سيئة أو ترفيع درجة، ويكتب الله ما يتفلت منه من واجبات ولا يكتب عليه من محرمات.

ثم ليس كل تعمير طويل مهما كان عشرات أم مئات المرات بالنسبة للأعمار المتعودة، ليس ذلك ككل رداً إلى أرذل العمر، فقد «يتوفى» نفسٌ أخذاً وافياً متكاملاً لدرجات من الكمال كما عمِّر نوح أكثر من ألف حيث رسالته «ألف سنة إلا خمسين عاماً» وقد يعمر صاحب العصر وبقية الله في الدهر القائم المهدي من آل محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، يعمّر آلافاً من السنين، ثم يظهر في صورة شاب في أربعين، ثم «يتوفى» موتاً أخذاً وافياً ارتحالاً إلى حياة أخرى.

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ﴾ تشمل منذ النطفة حتى إنشاء الروح، والعمر عله منذ خلق الروح، فـ ﴿أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ يعم الحياة الرذيلة الجنينية إذ لا يعلم حينئذ شيئاً حتى حيوانياً، ثم منذ الولادة حتى يعلم شيئاً إنسانياً وإلى أن يبلغ أشده، فـ ﴿لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ تشمل حالتي الرذالة والأولى أرذل من الثانية «فهذا ينتقص منه جميع الأرواح وليس بالذي يخرج من دين الله لأن

الفاعل به ردَّه إلى أرذل العمر فهو لا يعرف للصلاة وقتاً ولا يستطيع التهجد بالليل ولا بالنهار ولا القيام في الصف مع الناس فهذا نقصان من روح الإيمان وليس يضره شيئاً»[١].

فنعوذ بالله من أرذل العمر كما كان رسول الله ﷺ يستعيذ بالله من أرذل العمر[٢] لأنه حط من كرامة الإنسانية والإيمان مهما لم يكن فيه الإنسان مقصراً، فإن كان مؤمناً قبله «كتب الله له مثل ما كان يعمل في صحته من الخير وإن عمل سيئة لم تكتب عليه»[٣].

---

(١) نور الثقلين ٣: ٦٧ في أصول الكافي بسند متصل عن الأصبغ بن نباتة عن أمير المؤمنين عليه السلام حديث طويل يقول فيه: ثم ذكر أصحاب الميمنة وهم المؤمنون حقاً بأعيانهم جعل فيها أربعة أرواح، روح الإيمان وروح القوة وروح الشهوة وروح البدن وقال قبل ذلك: وبروح الإيمان عبدوا الله ولم يشركوا به وبروح القوة جاهدوا عدوهم وعالجوا معاشهم وبروح الشهوة أصابوا لذيذ الطعام ونكحوا الحلال من شباب النساء وبروح البدن دبوا ودرجوا - وقال متصلاً بقوله: وروح البدن: فلا يزال العبد يستكمل هذه الأرواح الأربعة حتى تأتي عليه حالات فقال الرجل يا أمير المؤمنين ما هذه الحالات؟ فقال: أما أولهن فهو كما قال الله عز وجل: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ [النحل: ٧٠] فهذا ينتقص...

(٢) الدر المنثور ٤: ١٢٣ - أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال كان دعاء رسول الله ﷺ أعوذ بالله من دعاء لا يسمع ومن قلب لا يخشع ومن علم لا ينفع ومن نفس لا تشبع اللهم إني أعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع، ومن الخيانة فإنها بئس البطانة، وأعوذ بك من الكسل والهرم والبخل والجبن وأعوذ بك أن أرد إلى أرذل العمر وأعوذ بك من فتنة الدجال وعذاب القبر. وأخرج عنه ﷺ جماعة آخرون ألفاظاً مختلفة فيها كلها «وأعوذ بك أن أرد إلى الرذل العمر».

(٣) المصدر - أخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ المولود حتى يبلغ الحنث ما يعمل من حسنة أثبت لوالده أو والديه وإن عمل سيئة لم تكتب عليه ولا على والديه فإذا بلغ الحنث وجرى عليه القلم أمر الملكان اللذان معه فحفظاه وسدداه فإذا بلغ أربعين سنة في الإسلام آمنه الله من البلايا الثلاث من الجنون والجذام والبرص فإذا بلغ الخمسين ضاعف الله حسناته فإذا بلغ ستين رزقه الله الإنابة إليه فيما يحب فإذا بلغ سبعين أحبه أهل السماء فإذا بلغ تسعين سنة غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وشفعه في أهل بيته وكان اسمه عند الله أسير الله في أرضه فإذا بلغ إلى أرذل العمر لكي لا يعلم بعد علم شيئاً كتب الله له مثل ما كان يعمل في صحته في الخير وإن عمل سيئة لم تكتب عليه.

ويا لها من لمسة قوية في الحياة، تهدداً بأرذل العمر، حيث يرد القلب الصَّلْد الصُّلب إلى حالة من الرخوة، والتخوف عليها قد يستجيش وجدان التقوى والحذر والالتجاء إلى واهب الحياة الحسنة، الراد لها إلى أرذلها، غضاً عن الكبرياء والغُرور، ونبهته عن الغفوة المتسربة إليه من الغرور.

﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾﴾:

تنديد بالمشركين شديد أنهم يفضلون أنفسهم بأصنامهم على الله فبينا هم لا يسوُّون بين أنفسهم وما ملكت أيمانهم فيما رزقهم الله، إذ هم يسوون بين الله وأصنامهم، وهو خالقهم وخالق أصنامهم، بل ويفضلون أصنامهم على الله في عبادتهم لها دونه، والتسوية بين الفاضل والمفضول ظلم في ميزان الحق.

والآية في نطاق آية الروم: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَـٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[١].

وذلك التفضيل الفضيل في مختلف الرزق هو لحكمة بالغة جماعية بين المرزوقين: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾[٢].

و«الرزق» المفضَّل فيه بين متصل ومنفصل، من رزق العقل والعلم وجودة الفكر والسلطة الروحية أو الزمنية أو أموال وأولاد وأهلين، ومن رزقهم أنهم يملكون عبيداً وإماءً.

وذلك الرزق بين حالات عدة، من ممكنة متمكنة: مسموحة أو ممنوحة أو ممنوعة، وواجبة أصلية أو فرعية، أم مستحيلة ذاتية أو عرضية.

---

(١) سورة الروم، الآية: ٢٨.

(٢) سورة الزخرف، الآية: ٣٢.

ومن المستحيلة تفويض الفضائل النفسية لما ملكت أيمانكم أم سواهم، ومن الممنوعة تخويلهم أهليكم أم تحويلهم لهم، وكذلك إنفاق كلِّ أموالكم ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾[١].

﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ تعني - بعد الرد المستحيل ذاتياً أم ممنوعاً - ردَّ السلطة المالكية على مماليكهم دون كمالها، بل لحد العوان ﴿فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ سلطة متقابلة لكل على الآخر مع اختلاف الاستحقاق والاستعداد، أم إزالة لهذه السلطة عن بكرتها وإن كانت بعيدة عن ردها عليهم.

﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ في معنى أوسع هم كافة المولَّى عليهم في مختلف الولايات حالية ومالية، وفي رد الولايات على المولَّى عليهم تفويضاً أم تسوية تقويضٌ لنظام المجتمع، إذ لا يقوم أي مجتمع إلا بولايات عادلة عاقلة، مساعدةً للضعفاء وتكميلاً لنقصهم.

فإذا لا يصح في ذلك رد أو يستحيل، ممن فضِّل في رزق ليس منه نفسه، فكيف يرد الله ألوهيته إلى عبيده، أو يردونها هؤلاء إلى أصنامهم وطواغيهم، تسوية لها برب العالمين في عبادة أم أية ناحية من نواحي الربوبية ﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أنه فضلهم فيها فيردونها إلى مماليكهم؟ أم بنعمة الفطرة والعقل، المتأبية لهذه التسوية الظالمة يجحدون، بحق الله فقط لا بحق أنفسهم؟

أم بنعمة التوحيد، المدلول عليها بكافة الأدلة يجحدون، وبصورة سائرة بنعمة الإنسانية يجحدون، فيسوّون، بين من لا يستوون، ولسوف يعترفون ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾[٢].

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٢٩.
(٢) سورة الشعراء، الآيتان: ٩٧، ٩٨.

ذلك! وأما التسوية في رزق المال بين المرزوق ومماليكه، من أهله وسواهم، وباختيار منه وطوع، إنه من الممدوح الممنوح، بل و«لا يجوز للرجل أن يخص نفسه بشيء من المأكول دون عياله»[(١)] وبالنسبة للمماليك يروى عن النبي ﷺ قوله: «إنما هم إخوانكم فاكسوهم مما تكسون وأطعموهم مما تطعمون فما رئي عبده بعد ذلك إلا ورداؤه رداءه وإزاره إزاره من غير تفاوت»[(٢)].

وهنا ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟. . .فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ في نطاقها الخاص موجَّه إلى المشركين الذين ما كانوا يعتبرون مواليهم شيئاً، وهم يسوّون أصنامهم برب العالمين، وفي نطاق عام يخص بما لا يصح أو يستحيل من رد الرزق.

فالآية في معنى جامع تعني التنديد بالتسوية الظالمة، أم محاولة في تسوية مستحيلة، والمشركون جامعون بين التسويتين، والمستحيلة منهما هي جعل غير الواقع واقعاً في زعمهم من التسوية في الربوبية بين الرب والمربوبين، فهم حين لا يشركون عبيدهم بأنفسهم فيما رزقهم الله من الملكة، يشركون عبيداً لله فيما لله من ربوبية غير مرزوقة لله، فإنها ذاتية و﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾! ثم وذلك التفضيل أمر عرضي ممكن لمصلحة عرضية كما فعله الله: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ﴾، والتسوية فيه مع ذلك مرجوحة أم مستحيلة، فضلاً عن فضل الله تعالى ذاتياً وصفاتياً على خلقه، المستحيل انتقاله إليهم، بعضاً فتسوية أو كلاً فتخويل.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾:

الجعل هنا يعم التكوين والتشريع، و﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ تعم الابتداء

(١) نور الثقلين ٣: ٦٨ - عن تفسير القمي في الآية قال: لا يجوز. . .

(٢) المصدر في جوامع الجامع ويحكى عن أبي ذر أنه سمع النبي ﷺ يقول: . . .

والتبعيض والتجنيس، و﴿أَزْوَٰجِكُم﴾ كـ«أنفسكم» تعم الذكور والإناث، و«كم» في هذه الخمس تعمهما، دون أصالة لذكور أم إناث في هذه المجالات، فقد جعل الله لكلٍّ زوجَه ذكراً وأنثى، وشرع الزواج بينهما بحدودها، وكل منهما ناشئ من الآخر، وكلٌّ بعض وجنس من الآخر ﴿بَعْضُكُم مِّنْۢ بَعْضٍۢ﴾[1].

و﴿جَعَلَ﴾ الثانية تكوينية في أصل ﴿بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ وتشريعية في أحكام الأولاد بنين وحفدة، وترى لماذا فقط ﴿بَنِينَ﴾ دون بنات ﴿وَحَفَدَةً﴾ وهم أولاد البنات بنين وبنات[2]؟.

عل ﴿بَنِينَ﴾ لأنهم أنفع وأثمر، أم تعم البنات تغليباً لجانب البنين كما أن «كم» عمت القبيلين.

ثم الحفيد وهو لغوياً السريع - الخادم - الناصر - التابع، تعم كافة الخدم الناصرين الأتباع[3] السريعين، ومن أقربهم وأحراهم أولاد الأولاد ذكوراً وإناثاً، أصولاً وفروعاً.

إذاً فـ ﴿بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ تشملان كافة الذرية دون سواهم من التابعين الأنصار إذ ليسوا ﴿مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾ والإنسان الفاني العاني في حياته يحس امتداده في بنيه وحفدته، فهم له نعمة في حياته، ونعمة بعد مماته.

ثم ﴿وَرَزَقَكُم﴾ جميعاً ﴿مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ التي تستطيبها طباعهم كأناسيَّ على

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٩٥.

(٢) في تفسير العياشي عن عبد الرحمن الأشل عن الصادق عليه السلام في الآية قال: الحفدة بنو البنت ونحن حفدة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

(٣) المصدر عن جميل بن دراج عن أبي عبد الله عليه السلام في الحفدة قال: وهم العون منهم يعني البنين أقول فالأول تفسير ببعض المصاديق والثاني أوسع منه ثم الأوسع كل مناصر وقد تعني الآية بين الأخيرين وهم أولاد الأولاد بنين وبنات والدين ومولودين، وكما هو قضية الحال في استعراض النسل دونما استغلال لذكران أم إناث.

الفطرة والطباعة الإنسانية، في المأكل والمشرب والملبس والمسكن والمعمل وأي مشغل، كما «رزقكم» من طيبات الأزواج والأولاد، أبَعد كل هذه النعم الوفيرة ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ إشراكاً لبعض هذه النعم بالله ﴿وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ كفراً أو كفراناً.

ومن إيمانهم بالباطل تحريم بعض النعم التي أحلها لهم، ووأد البنات وهن من أنعم النعم، وما إلى ذلك من تصرفات سلبية أو إيجابية في نعم الله بما لا يرضاه الله ولم يأذن به الله.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾﴾:

هم يكفرون بنعمة الله وبالله ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من؟ ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا﴾ لذواتهم أو صفاتهم أو أفعالهم، لا بداية ولا استمراراً، إذاً فهم «ما» في موقف الجماد اللاشعور إذ لا يملك شيئاً لنفسه فضلاً عنهم، لا «في السماوات» ولا «في الأرض شيئاً» من أصل الرزق وفرعه.

﴿لَا يَمْلِكُ﴾ بالفعل - ولا مستقبلاً إذ ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ملك الرزق فضلاً عن تمليكه، عجزاً أو قصوراً ذاتياً فإنهم كعابديهم فقراء إلى الله ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾[1]! وإن هذا لشيء عجاب أن تنحرف الفطرة وتنجرف إلى هذا الحد الساقط الماقت أن يتجه الإنسان بالعبادة إلى ما لا يملك لهم رزقاً ولا يستطيعون، وآلاء الله بين أيديهم وهم غارقون في خِضِمِّها الملتَطم لا يملكون نكرانها، ثم يضربون لله الأمثال:

﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾:

فليس لله مِثل ولا مثال، ولا مَثَل يمثل ذاته أو صفاته أو أفعاله حتى

(١) سورة يس، الآية: ٧٥.

تضربوا لله الأمثال، إجراءً لأوصاف الخلق عليه أن له بنين وبنات وأن الملائكة بناته، وأن بينه وبين الجنة نسباً وما إلى ذلك من مثل السوء، وقد ندد بهم من ذي قبل بصيغة أخرى ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾(١) - ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ﴾ ما هو عليه وخلقه ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ حتى خلقَه فضلاً عن ذاته المقدسة، سبحانه وتعالى عما يشركون.

وهنا الله يضرب لتوحيده مثلاً ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾(٢):

﴿۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾:

﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ الباطلة ولله المثل الحق ومن ذلك ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ...﴾.

وفي ذلك المثل الأمثل تَقابلٌ بين متقابلين: عبداً - مملوكاً - لا يقدر على شيءٍ، وحراً - مالكاً رزقناه رزقاً حسناً - فهو ينفق منه سراً وجهراً - زوايا ثلاث من الحالات لكلٍّ وِجاه الآخر.

فهنا وإن كان فارق العبودية والحرية فيه الكفاية لعدم التسوية، إلا أنّ: مملوكاً لا يقدر على شيء، مقابل المالك القادر على شيء، مما يزيد في اللاتسوية فـ ﴿هَلْ يَسْتَوُۥنَ﴾ الفريقان على عديد لكل منهما، دون اختصاص بفرد دون سواه.

ولأن الجواب من أي مجيب كان هو المنفي دون ريب، تراه لا يذكر هنا بعد السؤال لشدة نصوعه ووضوحه وضح النهار.

---

(١) سورة النحل، الآية: ٦٠.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٢٥.

وهم يسوون بين الله وبين البعض من عباده، من طواغيت وأصنام وسواهم، فمِنهم مَن هم عباد كأمثالهم مَلَكاً أم بشراً أو جنّاً، خيِّراً أو شريراً، ومنهم مَن هُم من مماليكهم كأصنامهم التي ينحتونها ويمتلكونها، فهم عبيدهم وهم عبيد الله، ثم هم يسوون بينهم وبين الله ﴿هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ﴾؟

بل وهم يفضلونهم على الله في العبادة أم وسواها من شؤون الربوبية تفضيلاً للمفضول على الفاضل، وهم لا يرضون هذا أو ذاك لأنفسهم، و﴿تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ﴾[(١)]! وقد تعني ﴿وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنٗا فَهُوَ...﴾ فيما عنت، مَثَل المؤمن، فإنه حَسَن الرزق منفقاً له سراً وجهراً، حراً في طاعة الله، مقابل ﴿عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ مثلاً للكافر فإنه عبد للهوى، مملوك للطغى، لا يقدر على شيء من الإنفاق الخير على قدرته، امتناعاً بالاختيار، ﴿هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ﴾؟

وهل أن ﴿عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ تصف المماليك ككل، إنهم لا يقدرون تجاه مواليهم على أي شيء كما الميت بين يدي الغسال حتى يستفاد منها أحكام المماليك في حدود تصرفاتهم؟ إذاً ف ﴿عَبۡدٗا﴾ تكفي عن كونه ﴿مَّمۡلُوكٗا﴾ كما إنه كاف عن كونه ﴿عَبۡدٗا﴾! ثم وليس أي مملوك لا يقدر على شيء، ولا واحد منهم، حيث القدرة على شيء من مخلفات الحياة مهما كانت في أضعفها! ثم المثل بيانٌ من واقع ملموس لواقع غير ملموس، ف ﴿لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ مثل لعبد بين العبيد هو ساقط القدرة لذلك الحد البئيس حتى يقاس بمن له القدرة على شيء كثير، فيأتيان مثالاً لله ومن يعبدونه من دون الله، كما المثل التالي ﴿أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ﴾ ليس ليستغرق كافة المماليك، فإن منهم من ينطق،

(١) سورة النجم، الآية: ٢٢.

ومنهم من ينفق بسعيه وكدحه على مولاه، فمولاه كلٌّ عليه، وليس هو كلّاً عليه.

إذاً فـ ﴿لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ فيهما، و﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ في الثاني كما الأبكم فيه، هذه وتلك ليست هي الصفات الكونية ولا الشرعية لكل المماليك حتى يستفاد منها أحكامهم، فالروايات القائلة إنها أحكام المماليك هي من باب التطبيق لا التطويق.

اللهم إلا أن تكون ﴿لَّا يَقْدِرُ﴾ صفة توضيحية والمقصود من ﴿شَيْءٍ﴾ ليس كل شيء من أقوال وأفعال وأحوال، بل هو الشيء الذي لا يؤتى به إلا عن اذن أو مُلكة مستقلة، إذاً فالضابطة المستفادة منها بالنسبة للمماليك أن اختياراتهم - إلا ما خرج بدليل قاطع - محدودة، وهذا هو الظاهر من الراويات[(١)] واللامح من نفس الآية، وأهل البيت أدرى بما في البيت، هذا، ولكن الأوصاف الأخرى في الآية التالية ليست كما هيه.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ لا سواه، فكيف يحمد معه سواه، أم يخص به سواه دونه، و﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على هذه البراهين الساطعة على توحيد الله طرداً لسواه، و﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على ما أنعم الموحدين إياه، و﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ لا سواه على أية حال ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيشركون به ما ليس لهم به علم، قصوراً عن تقصير لمكان تقليدهم الأعمى، ثم قليل منهم يعلمون ولا يصدقون ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[(٢)].

---

(١) نور الثقلين ٣: ٦٨ في الكافي بسند متصل عن ليث المرادي قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن العبد هل يجوز طلاقه؟ فقال: إن كان أمتك فلا إن الله عزّ وجلّ يقول عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء، وإن كانت أمة قوم آخرين أو حرة جاز طلاقه.

أقول وفي روايات أخرى نرى أنهم عليهم السلام يستندون إلى هذه الآية في محدودية المماليك كما حددت في الفقه.

(٢) سورة النمل، الآية: ١٤.

أم «هم» في ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾ كافة المكلفين، فـ ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ يعم الجهل والتجاهل، وقليل يعلمون علم الإيمان والتصديق.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾:

وهذا المثل الثاني تصوير للأبكم الذي لا يتكلم، ثم لا يقدر على شيء صالح كلاماً وغير كلام من سمعٍ وأعمال فكرية أم عضوية، فلذلك ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ﴾ في حاجياته الشخصية بدل أن يكلّ عليه مولاه في خدماته، فـ ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ﴾ لحاجة ﴿لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ إن لم يأت بشر.

﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ بلسان طلق ذلق، ومعرفة بالغة وسائر شروطات الأمر المجموعة في ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؟ ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1].

وذلك مثل لعباد الله في كل شؤونهم - أياً كانوا - أمام الله، مَنْ رُزق رزقاً حسناً ومن لم يُرزق، أنفق منه سراً وجهراً أو ما أنفق، فإنهم كلهم كلٌّ على الله - إن صح التعبير - لا يأتون بخير إلا بالله، فهل يستوون مع الله، ولا سيما الأصنام التي هي عباد العباد لأنها من صنعهم ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾[2].

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾﴾:

﴿وَلِلَّهِ﴾ لا سواه ﴿غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فلو كان له فيهما شركاء لكان

---

(١) سورة هود، الآية: ٥٦.

(٢) سورة الصافات، الآيتان: ٩٥، ٩٦.

هو أعلم بها من هؤلاء، فإذ لا يعلم الله لنفسه شركاء فلا شركاء معه حضوراً أم غُـيَّـبـاً: ﴿أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾(١) ومن غيب السماوات والأرض أمر الساعة حيث تستقبلهما ولا يعلم أيّانَ مرساها إلا هو ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾ في سرعتها، بالقدرة النافذة الماضية فيها «أو أقرب»: بل هو أقرب، وليس ذكر لمح البصر هنا إلا لأنه المعروف لدى العرف العام، ولكنه أقرب من لمح البصر، وعلّه واحد الحركة للمادة الأم، التي ليس ما دونها إلا السكون ففناء المادة، فواحد الزمان يكفي لتنفيذ أمر الساعة، ولمح البصر امتداد لزمان حيث هو انتقال الطَّرف من أعلى الحدقة إلى أدناها، والواحد الحقيقي لهذا الزمان لا يعلمه إلا الله وهو أقرب من لمح البصر.

إذاً فـ ﴿كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ﴾ تنظير بنظير معروف مهما بان البون بينهما، إذ لا نظير عندنا معروفاً أقرب من لمح البصر، في سرعة زمنية وسرعة نفاذ القدرة، لذلك تراه في القمر ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ﴾(٢) وهنا «واحدة» تعني وحدة الإرادة موصوفة لهذه الصفة، دون تعدد فيها في أي أمر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وأقرب من لمح البصر هو مشمول للقدرة المطلقة، فما ليس مستحيلاً ذاتياً تشمله القدرة، إلا إذا كان مستحيلاً مصلحياً فلا تشمله القدرة لأنه خارج عن الحكمة الإلهية.

وترى ﴿غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هو فقط علمه؟ ولم يذكر هنا العلم! والمذكور بعده غيب القدرة ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ...﴾ ثم تذييل لعموم القدرة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾! فأين العلم فقط؟.

إن ﴿غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هو كما ترى يعم العلم والقدرة أماهيه من

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٦.

(٢) سورة القمر، الآية: ٥٠.

غيوب مطلقة لا تُكشف أبداً، أم تُكشف يوم القيامة، وذلك مثلث الغيب حالاً وماضياً واستقبالاً، فله العلم والقدرة - قبل خلقهما وبعده وعند قيامتهما - لا سواه.

فمن غيبهما قبل الخلق انحصار القدرة والعلم بهما كيف ومتى يخلقهما وقد كان الله ولم يكن معه شيء؟ إذاً فهما بحاضرهما وغائبهما كانتا غيباً، مهما ظهرتا بغير غيبهما لغير الله، كما شاء الله.

ومن غيبهما بعد خلقهما أن بيده ملكوتهما علماً وقدرة، أماهيه من اختصاصات الربوبية، «ألا له الخلق والأمر سبحانه وتعالى عما يشركون».

ومن غيبهما لقيامتهما ألا يعلم أو يقدر على قيامتهما إلا الله، ولا يعلم مُرسى الساعة إلا الله ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾.

وذلك الغيب المختص بساحة الربوبية في العلم والقدرة يعم آيات الرسالات فإنها كلها لله، وإنما يُظهرها على أيدي رسله بإذنه تدليلاً على رسالتهم وحتى بالنسبة لإمام المرسلين وخاتم النبيين وأفضل الخلق أجمعين محمد ﷺ: ﴿وَيَقُولُونَ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ فَقُلۡ إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾[1] ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ لَّيُؤۡمِنُنَّ بِهَاۚ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَا يُشۡعِرُكُمۡ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾[2].

بل وغيب الوحي الذي يظهر الله لرجالات الوحي، هو كسائر الغيوب المطلقة ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ۝٢٧﴾[3] [4].

---

(١) سورة يونس، الآية: ٢٠.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٠٩.

(٣) سورة الجن، الآيتان: ٢٦، ٢٧.

(٤) لقد بحثنا عن مختلف الغيب عند تفسير هذه الآية فراجع الفرقان (٢٩).

﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٨ أَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ مُسَخَّرَٰتٖ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٧٩ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ٨٠ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ ٨١ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٨٢ يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٣ وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا ثُمَّ لَا يُؤۡذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ٨٤ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلۡعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ٨٥ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ شُرَكَآءَهُمۡ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُواْ مِن دُونِكَۖ فَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلَ إِنَّكُمۡ لَكَٰذِبُونَ ٨٦ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوۡمَئِذٍ ٱلسَّلَمَۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٨٧ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابٗا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفۡسِدُونَ ٨٨ وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدًا

عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَٰرَ وَالْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾:

آية ثانية في النحل بعد ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾[1] وهما الوحيدتان في القرآن كله، تذكِّر أن الإنسان حالته الجاهلة هنا ﴿مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ وهناك رداً إليه كأرذل العمر، فهل ﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ تعم أي علم أم علمَه كإنسان؟.

القدر المعلوم جهله حينذاك، هو علمه كإنسان، فإنه يعلم الوجع حين يضغط عليه من وراء الرحم فيكمش نفسه، وهذه أقل مراتب الحس في أدنى حيوان، ومناسبة الحكم والموضوع في اللّايعلم بالنسبة للإنسان علمُه كإنسان، فـ ﴿شَيْـًٔا﴾ هنا يختص بشيء العلم الإنساني.

ثم لا يصح نفي العلم عن أي كائن حتى النبات والجماد: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾[2].

فكيف ينفى عن مشارف الإنسانية وهي حالة الأجنة الحية، ولا يصدق «لا يعلم شيئاً» في أي شيء! ثم ﴿السَّمْعَ وَالْأَبْصَٰرَ وَالْأَفْـِٔدَةَ﴾ وهي منافذ العلم وموارده إنسانياً، بعد ﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ هو الآخر يدلنا على اختصاص العلم المنفي عن الأجنة بالإنساني فقط، فالأذن والعين والقلب هي لسائر الحيوان، ولكنما السمع والبصر والفؤاد لخصوص الإنسان

(١) سورة الحج، الآية: ٥.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٤٤.

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله ربكم أن منحكم بهذه النعم الإنسانية وميَّزكم عن سائر الحيوان والأنعام: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[1].

فمرآة النفس الإنسانية خاليةٌ حين الولادة عن غير نفسها من العلوم الحصولية الإنسانية، فهي عالمة بنفسها - لأقل تقدير - فتشعر الضغوط الواردة عليها حيوانياً، ثم يعلّم سائر العلوم إلهياً وبشرياً، ومن الأول امتصاص الثدي تغذياً من اللبن:

وحالة ﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ للإنسان حالة غريبة قد لا يستطيع أن يتصوره أي إنسان، مما قد تحسب غيباً قريباً ولكنه موغل بعيد، رغم أن مولد كل إنسان من المشهود القريب القريب.

ثم السمع والأبصار والأفئدة هي جمعية مدارك الإنسان، المتميز بها عن سائر الحيوان، وهي مهابط غيب الوحي لإنسان الوحي ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

وهنا سؤال قد يكون من عِضاله، هو أن المعارف والعلوم الكسبية التي تحصل للإنسان بعد الولادة شيئاً فشيئاً هي بين بديهيات ونظريات، فالنظريات لا بد وأن تسبقها بديهيات، وسبْقها يستلزم كونه عالماً بها، وإلا فكيف ﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾.

لكن البديهيات العقلية الإنسانية ومن ثم نظرياتها التي تتبناها، هي قضية ﴿السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ المجعولة للإنسان بعد الولادة، وهنا العقل وسيط بين هذه الثلاث رباطاً وثيقاً، وهو يتبنى الفطرة الإنسانية، وهكذا تنحل هذه العويصة الشائكة الحالكة.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩.

﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٧٩)﴾:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ هنا القوة الجاذبية الأرضية تجذب إليها الطير وسواها من كائناتها العائشة عليها، والقريبة منها، ما لم تصل إلى جاذبية أقوى فانجذاباً إليها، أم متعادلة معها فوقوفاً في جو السماء، فكيف تطير الطير في جو السماء - ممسَكة في طيرانها عن السقوط إلى أرضها - لولا أن الله ممسكها بما أمسكها؟ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بالله، أم هم في طريق الإيمان بالله، متحرين عن براهينه الساطعة[1].

فمن هذه الآيات التعبئة الداخلية في خلق الطير - كما في الأسماك - ومنها الأجنحة الخارجية، وثالثة تعديلها مع الجاذبية الأرضية في الطاقة الممنوحة المختارة للطير، حيث ترتفع بها أحياناً وتستوي أخرى وتنخفض ثالثة، وتستكن رابعة أماهيه من حالات في طيرانها، في صفيفها ودفيفها.

والطير هي أمثولة مخترعي الطائرات منذ زمن غير بعيد، فكما لا يمسكهن هناك إلا الله، كذلك ما يمسك سائر الطائرات إلا الله، حيث الأصل مقتبس من الطير، ثم العقل والعلم والتجربة كلها من صنائع الله، كما الإنسان هو نفسه صنيع الله ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾! ثم وآية هي أكبر من الطير ومن الطائرات أرضنا التي نعيش عليها، فإنها طائرة في جو السماء ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا (٢٥) أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا (٢٦)﴾[2] [3] ما يمسكها إلا الرحمن كما الطير.

---

(١) راجع الفرقان ٢٩: ٤٣ - ٤٥ تجد فيه تفصيل البحث حول الطير وإمساكها وسائر الطيران.
(٢) سورة المرسلات، الآيتان: ٢٥، ٢٦.
(٣) راجع الفرقان ٢٩: ٣٤٠ - ٣٤٦ تجد فيه البحث عن حركات الأرض على ضوء ﴿كِفَاتًا﴾.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾. فالقلب المؤمن هو الذي يشعر بدايع التكوين المتين، وما فيها من روعة باهرة تهز المشاعر وتدفعه إلى اليقين!

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ (٨٠)﴾:

البيوت بوجه عام هي التي يبات فيها ويستراح ليلاً ومن ضمنه نهاراً، وهي مربعة الأقسام، منها ساكنة ثابتة، ومنها متحولة متحركة، وهي قد تكون لسكن الإنسان نفسه، أم متاعه، فـ ﴿مِّنْ بُيُوتِكُمْ﴾ وهي بعضها لمكان «من» تعم بيوت الأثاث وبيوت السكن، وهما من الساكنة الثابتة، إذاً فهي سكن في بعدي أنفسها وساكنيها.

ثم ﴿مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا﴾ وهي البيوت المستخفة المتحولة، فهي غير سكن في أنفسها، وسكن لإنسانها وأثاثه ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾ وشخوصكم بأشخاصكم وأثاثكم، والظعينة هي الهودج لأنها متنقلة ﴿وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ بِطيّات شخوصكم في الطرق، أم في محالِّ إقامتكم.

فلا عبءَ لكم فيها ظعناً وإقامة لأنها بيوت مستخفة معمولة من جلود الأنعام وهي الأنطاع.

﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا﴾ للضأن ﴿وَأَوْبَارِهَا﴾ للإبل ﴿وَأَشْعَارِهَا﴾ للمعز، أماهيه من صاحبات الأصواف والأوبار والأشعار من مختلف الأنعام - جعل من ذلك كله ﴿أَثَاثًا﴾ لكم: طنافس وبسطاً وثياباً وكسوة أماهيه من الأثاث ﴿وَمَتَاعًا﴾ آخر غير الأثاث، تتمتعون به ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ ارتحالكم إلى الله.

هنا ﴿مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ تعم كافة البيوت السكنيَّة من أي الصنوف كانت وأيان، وإلى هذا الزمان وما تستقبلنا من أيام تقدم العلوم والصناعات في عمارة مختلف البيوت.

ثم ﴿مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ...﴾ هي بعض البيوت المتحركة الظاعنة، كما هي البعض من كل البيوت، لمكان «من» الصالحة لكلا البعضين، فتشمل البيوت المتنقلة المتحضرة الحاضرة والمستقبلة، برية وبحرية وجوية، من جلود الأنعام وغيرها من مختلف المواد وهي كلها من إنعام الله تعالى وأنعامه، كما العقول والعلوم وكافة الوسائل المصطنعة والمخترعة هي كلها من نعم الله.

والسكن والطمأنينة في البيوت، ساكنةً ومتنقلةً، نعمة لا يقدرها حق قدرها إلا الشاردون الذين لا بيوت لهم لا ساكنة ولا متنقلة، فالتذكير به يمس المشاعر الغافلة عن قيم هذه النعم.

ومِن سَكَنِ البيوت المعنية هنا بإطلاق السكن السكينة النفسية والاطمئنان الشعوري، إضافة إلى السكن بدنياً، وهكذا يريد الله من سكن البيوت أن تكون مريحاً تطمئن إليه النفس وتأمن بكفاية بدنية ونفسية، فردية لمن يعيش فرداً، وجماعية لمن يعيش مع أهله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

فليست البيوت أمكنة الشقاق والخصام والنفاق، وإنما هي مأمن سلام لرفاق بكل وفاق، فلا يسكن فيها إلا متلائمون، ولا يدخلها داخل من غير أهلها إلا باستئذان وسلام ووئام، دون تقحُّم فيها، أو تطلُّع عليها، تجسساً على أهليها، أم تحسساً عما يُبتغى فيها، فيروِّع أمن ساكنيها، ويُخلَّ بالسكن المطلق المطبق الذي يريده الله منها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[2].

---

(١) سورة الروم، الآية: ٢١.

(٢) سورة النور، الآية: ٢٧.

إذاً فالجعل هنا في ﴿جَعَلَ﴾ يعم التكوين والتشريع، بُغية الأمن الشامل الكامل، وبيتوتة الأرواح إلى بيتوتة الأبدان.

ثم وذكر المتاع إلى جانب الأثاث ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ﴾ فيه استعراض ما يلبِّي الحاجيات الضرورية والأشواق، حيث تشي بالتمتع والارتياح، ومن الأثاث المتاع ومتاع الأثاث الفُرُش الصوفية، يدوية ومكنيَّة، والملابس المصنوعة من كل من الثلاث.

ومن ثم يرق التعبير العبير في جو المسكن والطمأنينة: سكناً وأثاثاً ومتاعاً إلى حين، إشارة إلى الظلال والأكنان في الجبال وإلى السرابيل الواقية وعن الحرِّ والبأس:

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾:

هنا ننعطف إلى ظل الظلال استرواحاً في المسكن، والأكفان طمأنينة ووَسَن، والسرابيل تقية للبدن، و﴿كَذَٰلِكَ﴾ البعيد المدى، القريب الندى ﴿يُتِمُّ﴾ ربكم ﴿نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ لمرضاة الله، سلوكاً في سبيل الله، وانسلاكاً إلى حزب الله.

و﴿لَعَلَّكُمْ﴾ بذلك ﴿تُسْلِمُونَ﴾ أنفسكم عن الردى، اهتداءً إلى الهدى، و﴿تُسْلِمُونَ﴾ أهليكم وسائر مَن إليكم ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾[(١)].

إسلاماً في ذلك المثلث البارع الرائع، فتكونوا في ظل الإسلام ظلالاً عن كل حرٍّ، وأكناناً عن كل شر، وآمنين عن كل بأس وحرّ ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾.

(١) سورة التحريم، الآية: ٦.

وهنا في تعقيب البيوت السكن وما يتلوها، بتلك الظلال والأكنان والسرابيل، طمْأَنات أخرى تزيد الإنسان راحة عن كل عاهة، إتماماً للنعمة، واستئصالاً للنقمة ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾.

ثم ﴿مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا﴾ تشمل كل ذي ظل، من الآفاق الأرضية الغائبة عن واجهة الشمس فظلال الليل، ومن الجبال الشاهقة والجدران والسُّقُف والأشجار والسحاب المظلات خلقية وصناعية، متحركة وثابتة، وهي كلها ظلال عن النور والحر، في الجو والبحر والبر.

فكما النور والحرارة من نعم الله، كذلك ما تظل عنها من ظلال هي من نعم الله، ولا سيما ظلال الليل، وكل من الليل والنهار نعمة في موقعه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾[1].

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ خِلقية كانت كالكهوف وسائر النقب فيها، أم صناعية كالتونلات التي هي ممرات للسيارات والقطارات، حيث تكنها من سقطات الأحجار، وكذلك البيوت الآمنة الفارهة المتخذة فيها، المنحوتة منها: ﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾[2] ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ﴾[3].

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ والسرابيل هي الملابس فوقية أم تحتية أم شمولية، وهي كلها لأهل الجحيم غير واقية ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ

---

(١) سورة القصص، الآيتان: ٧١، ٧٢.
(٢) سورة الحجر، الآية: ٨٢.
(٣) سورة الشعراء، الآية: ١٤٩.

﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾(١) مهما كانت لنا واقية، فلا هي القمصان فقط ولا المآزر، وإلا لكان أحدَهما قضيةَ البيان في القرآن.

ولماذا فقط ﴿تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ دون «والبرد» وذلك أحرى بكونه نعمة وأحوج في قارص البرد؟ علَّه لأنها تعني شديد الحر حيث لا تقي بأسه الحارق المارق إلا ضخام السرابيل من جلود الأنعام، والمخاطبون الأول بداية البعثة هم أهل مكة والمدينة كمنطلَق الدعوة، والبرد في هذه المنطقة قليل مرغوب فيه لا يتقى عنه.

ثم السرابيل الضخام الواقية عن الحر، هي بطبيعة الحال واقية عن البرد، فلا تعني السرابيل هنا كل الألبسة حيث الرقاق لا تقي لا عن برد ولا عن حر إلا طفيفاً خفيفاً.

﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ بأس الحروب كالدروع الحديدية أما هيه، أم بأس الكروب كقسم من الأمراض التي تقي بأسها سرابيل خاصة طبية:

﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾! فإن أسلموا على ضوء هذه البراهين والتذكيرات بالنعم السابغة فهو المَرام المُرام.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾﴾:

أجـــــل ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ ٱهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾(٢) ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ...﴾(٣).

أجل ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾(٤).

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٥٠.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٢٠.
(٣) سورة الشورى، الآية: ٤٨.
(٤) سورة النحل، الآية: ٣٥.

وإنه بلاغ من الله بالغ مبين دون خفاء أو إخفاء، أم تجامل أو تجاهل أو تخاذل، بل هو صُراح مبين لكافة حقايق الوحي، في مثلث الإبلاغ لفظياً بالكتاب والسنة، وعملياً وتقريرياً على غرارهما بكل إلفات ودون أي إفلات، إنه بلاغ الهداية الدلالية، وليس عليه بلوغ مدلولياً فـ ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[1] [2].

﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾:

آية وحيدة في صيغة التعبير، فيها تنديد مديد من لدن لطيف خبير، بهؤلاء الحماقى الأنكاد، ورؤوس النكران والعناد، من مشركين بالله أم ملحدين في الله أنهم: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا...﴾ وترى كيف تجتمع المعرفة والنكران وهما متقابلان متضادان؟ ولكن «ثم» تُراخي بينهما، فالبداية هي معرفة نعمة الله، كما هي قضيةَ الحال فطرياً وعقلياً وحسياً، ثم يتعامون عنها ويتجاهلون قضيةَ الحرية في الشهوات والحيونات، خروجاً عن أسر الشكر والشكر بالأسر، ﴿ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ عملياً كفراناً في الأعمال، أم وقولياً نكراناً في الأقوال، ومن ثم عقيدياً وهم عارفون ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[3] وهم الذين ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[4] ثالوث النكران في دركاته الثلاث بعد العرفان.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٧٢.

(٢) الدر المنثور ٤: ١٢٦ - أخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد أن أعرابياً أتى النبي ﷺ فسأله فقرأ عليه رسول الله ﷺ: والله جعل لكم من بيوتكم سكناً - قال الأعرابي نعم - قال: وجعل لكم من جلود الانعام بيوتاً تستخفونها - قال الأعرابي: نعم - ثم قرأ عليه كل ذلك يقول: نعم حتى بلغ: كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون - فولى الأعرابي فأنزل الله: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [النحل: ٨٣].

(٣) سورة النمل، الآية: ١٤.

(٤) سورة النمل، الآية: ١٣.

فقد يجتمع العرفان والنكران لاختلاف المسارح، ففي مسرح البرهان عرفان، وفي مسرح العمل أو الإيمان نكران، حيث المعرفة درجات كما العمل والإيمان درجات، أم وعرفان الإيمان بعد البرهان، ولكن لمّا يأتِ دور العمل فنكران عملياً، مهما تقوَّل بالإيمان، فإنه خاوٍ عن فاعليته، فارغ عن قابليته.

فهؤلاء هم كلهم كافرون كفراً أو كفراناً ولكن ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ كفراً في عمقه وبكل حمقه.

فالنص ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ دون «كافرون» لتكون الأكثرية هي الكفر المعلوم إشراكاً وإلحاداً، وكأنهم كل الكافرين، لمحة من لام التعريف على الجمع مهما كانت موصولة هنا.

وأقلهم كافرون دون ذلك كفراناً ككافة العصاة، أم بعض الكفر كالأكثرية الساحقة من أهل الكتاب غير المسلمين، حيث هم موحدون مهما كان في توحيدهم خلل وعلل.

إذاً فهم كلهم ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ بفصل فاصل بين العرفان والنكران، ثم هم ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ الغلاظ الشداد، من أشداء الكفر والعناد حيث ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[1].

ولا تخص نعمة الله هنا - ولا في أي مسرح - الماديةَ المحسوسة منها فإنها أدناها، بل هي الروحية أيضاً وبأحرى، من نعمة معرفة وجود الله وتوحيده، ونعمة الرسالة عامة وخاصة، ونعمة الولاية خاصة[2]

---

(١) سورة النمل، الآية: ١٤.

(٢) نور الثقلين ٣: ٧٢ في أصول الكافي بسند متصل عن أحمد بن عيسى قال حدثني جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عليهم السلام في الآية قال عليه السلام لما نزلت: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥] اجتمع نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في مسجد المدينة فقال بعضهم لبعض: ما تقولون في هذه الآية؟ فقال بعضهم إن كفرنا بهذه =

وعامة[١]، وسائر النعم الروحية المعرفية والعقيدية، يعرفونها ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون.

وأهم هذه النعم بعد التوحيد هي نعمة القرآن ونبي القرآن[٢]: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[٣] - ﴿... ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[٤] - ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[٥].

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾﴾:

﴿أُمَّةٍ﴾ هنا هي المجتمع الذي يؤم قصداً واحداً ويؤمُّونه، إذاً فهي أمة كل رسول من أولي العزم، إلا أن ﴿شَهِيدًا﴾ قد يكون جنساً يشمل عدة

= الآية نكفر بسائرها وإن آمنا فإن هذا ذل حين يسلط علينا ابن أبي طالب فقالوا: قد علمنا أن محمداً صادق فيما يقول ولكنا نتولاه ولا نطيع عليًّا فيما أمرنا - قال: فنزلت هذه الآية: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النحل: ٨٣] يعني ولاية علي عليه السلام: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [النحل: ٨٣] بالولاية.

(١) المصدر في تفسير علي بن إبراهيم قوله: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النحل: ٨٣] قال: نعمة الله هم الأئمة والدليل على أن الأئمة نعمة الله قول الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ [إبراهيم: ٢٨] قال الصادق عليه السلام: نحن والله نعمة الله التي أنعم بها على عباده وبنا فاز من فاز.
أقول وهذا من قبيل الجري والتفسير بالمصاديق المختلف فيها بعد الاتفاق على نعمة الرسالة.

(٢) الدر المنثور ٤: ١٢٧ - أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن السدي في الآية قال: محمد صلى الله عليه وآله وسلم ولفظ ابن أبي حاتم قال: هذا حديث أبي جهل والأخنس حين سأل الأخنس أبا جهل عن محمد فقال: هو نبيّ.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٤٦

(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٢.

(٥) سورة البقرة، الآية: ٨٩.

شهود لكل أمة، في زمن واحد أم تِلوَ بعض، كما في الرسل الفروع والأئمة المعصومين، وقد دلت على منصب الشهادة لهم على هامش الرسول ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[١] [٢] ونزولاً في خصوص علي عليه السلام: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾[٣].

وهذه هي الشهادة على الأعمال يوم يقوم الأشهاد، بما تلقوها عنهم يوم الدنيا بما أشهدهم الله عليه منها «ثم» بعد بعث الشهداء ﴿لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ في أي كلام خلاف الشهادة والشهود، أم أية محاولة لإخفاء شهادة أو نقضها أم تكذيبها، فإن ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾[٤] حيث ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[٥] تصديقاً واقعياً لواقع الشهادات، فالجو هناك كله شهادات فويلات وويلات ولات حين مناص، وقد مضى يوم الخلاص ف ﴿لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ لا فحسب بل ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ حين يتطلبون زوال العَتْب عنهم، بعذاب أجرد عن العُتبى، فضلاً عما دون العذاب ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾[٦] ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾[٧] ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾[٨] اعتذاراً واسترضاءً

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.
(٢) المصدر في كتاب المناقب لابن شهر آشوب أبو حمزة الثمالي عن أبي جعفر عليه السلام في الآية قال: نحن الشهود على هذه الأمة، وفيه عن المجمع عن الصادق عليه السلام قال: لكل زمان وأمة إمام تبعث كل أمة مع إمامها.
(٣) سورة الرعد، الآية: ٤٣.
(٤) سورة المرسلات، الآيتان: ٣٥، ٣٦.
(٥) سورة يس، الآية: ٦٥.
(٦) سورة فصلت، الآية: ٢٤.
(٧) سورة الروم، الآية: ٥٧.
(٨) سورة الجاثية، الآية: ٣٥.

قولياً أم عملياً وقد مضى وقته، وقد فات أوان الاستعتاب وجاء أوان الحساب.

فيا لها من عُتبى حين لا يؤذن لهم بكلام حتى الاستعتاب، سلبياً أن تزال عنهم العتبى، أم إيجابياً أن توجه إليهم العتبى استرضاءً أم عتاباً فإن لله العتبى حتى يرضى دون سلب منهم أو إيجاب لأنهم هناك خاسئون لا يُحسبون بحساب الإنسان حتى يأتوا بخطب أو خطاب، وقد «ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان إذا قرأ هذه الآية فاضت عيناه» فيضاً لفائض دموعه على المذنبين من هذه الأمة حيث يتلقى عليهم الشهادة ويشهد عليهم يوم القيامة مع سائر الأشهاد.

﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلۡعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾﴾:

تعنى رؤيةُ العذاب هنا البصريةَ قبل دخوله وهم على أشرافه بعد فصل القضاء، ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمۡ﴾ تخفيفَ التطفيف فإنه تخفيف ظالم عمن يستحق عدلاً، فما كان هنالك مجال للتخفيف فضلاً وعدلاً دون تجديف فيه بحق المظلومين، فهو لا محالة كائن، إذ سبقت رحمته غضبه، وقد لا يكون إلا بحق الخارجين عن النار بأمد قريب أم غريب وهم أهل التوحيد كتابيين وسواهم، وطبعاً تخفيفاً عما سوى ظلمهم بحق الناس.

﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمۡ﴾ تخفيفاً ظالماً بحق الآخرين ﴿وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾ تأجيلاً لعذابهم عن أجله المحتوم، إذ فات زمن الإنظار في حياة التكليف بالتبشير والإنذار، وأما اليوم فلات حين قرار، لا عن أصل العذاب ولا عن حدِّه أو أمده بداية ونهاية فإنه قضيةُ العدل.

وقد يقطع ذلك الصمت إلى سمت آخر فيه إذن الكلام حواراً حائراً مائراً بين أهل النار لا تزيدهم إلا حسرة وكسرة يوم التغابن الحسرة.

﴿وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾﴾:

﴿الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ تعم عامة المشركين، من عبدة الأصنام والطواغيت والملائكة والنبيين، دون اختصاص بفريق دون آخرين، فـ ﴿شُرَكَاءَهُمْ﴾ هم كل هؤلاء حيث يتراؤون يوم الحساب لفصل الخطاب، وهؤلاء الشركاء بين معذب معهم في النار كالطواغيت، أم حَصَب معهم في النار كالأصنام ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾[1] إزراءً بالمعبودين المصحوبين مع العابدين، أم مكرمون يكذبونهم في إشراكهم إياهم بالله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾[2].

وإنما ﴿شُرَكَاءَهُمْ﴾ دون «شركائي» لأنهم هم المختلِقون، فلا اشتراك لهم مع الله إلا حسب زعم عابديهم، و«شركائي» تلمح إلى شيءٍ من واقعية الشركة، كما قد تصرفها عنها فيما أتت «شركائي» قرينة قاطعة: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾[3].

﴿قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ﴾ معترفين هناك بربوبيته الوحيدة، معتذرين من ذلك الإشراك الخانق الماحق، وهنالك الطامَّة الكبرى حين يكذبون: ﴿فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ كاذبون في أننا شركاء الله، وذلك التكذيب هو طبيعة الحال من الملائكة والنبيين المعبودين، فكما كانوا يكذبونهم يوم الدنيا يكذبوهم يوم الدين.

وهو قضية الحال للطواغيت إذ يظهر لهم كذبهم في دعواهم وكذبُ من

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٩٨.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ١٠١.
(٣) سورة القصص، الآية: ٦٢.

اتخذوهم شركاء الله، وهو خارقة الحال للأصنام حيث يجعلها الله تتكلم تكذيباً لمعبوديها.

فهم - إذاً - في مثلث من ألوان التكذيب إن كانوا عابديهم أجمعين، أم زاوية أو اثنتين فيما دون ذلك، فالشيطان وهو أطغى الطواغيت يكذبهم في إذاعته الجهنمية ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُۗ...﴾[(١)].

والأصنام ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾[(٢)].

والصالحون يكذبونهم وبأحرى لهم وأولى كما في عيسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ...﴾[(٣)].

والملائكة: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾[(٤)].

ذلك تكذيبهم في أنهم شركاء، ومن ثم تكذيب لعبادتهم إياهم: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾[(٥)] ﴿كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾[(٦)].

إذاً فلا واقع لشرك لهم بالله، ولا عبادتهم من دون الله، فإنهم إنما

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٢٢.
(٢) سورة فاطر، الآية: ١٤.
(٣) سورة المائدة، الآية: ١١٦.
(٤) سورة سبأ، الآيتان: ٤٠، ٤١.
(٥) سورة يونس، الآيتان: ٢٨، ٢٩.
(٦) سورة مريم، الآية: ٨٢.

عبدوا أهواءهم فخيِّل إليهم أنهم يعبدون شركاءهم، فأصبحوا صفر اليدين من إشراك وعبادة، وحتى الطواغيت الذين دعوهم إلى أنفسهم، إذ لم يستجيبوا لهم إلا إجابة لأهوائهم، فهم - إذاً - عابدو أهوائهم.

ثم ﴿فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ لا تحتمل أن المشركين هم الملقُون، حيث الطواغيت - فقط - هم الذين يكذبون في دعواهم، دون الأصنام التي لا دعوى لها، فضلاً عن الصالحين الداعين إلى توحيد الله فكيف هم يكذِّبون في يوم الله.

أم هم يكذِّبون طواغيتهم ضمن ما يكذِّبون من قبل كافة المعبودين، وإلقاء القول هو إخراج الكلام مع ضرب من الخضوع والاستكانة والإسرار والخفية تخوفاً من الله، وكشفاً للحق في يوم الله شاؤوا أم أبوا.

واحتمال ثالث في ﴿فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ﴾ أن العابدين ألقوا إلى أنفسهم القول ﴿إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ خطاباً لأنفسهم، وإنما ﴿إِلَيْهِمُ﴾ حتى تضم المعنيين الأولين، والجمع بين الثلاثة محتمل لفظياً وصالح معنوياً، إن العابدين يكذِّبون من قبل المعبودين ويكذِّبون هم أنفسهم وطواغيتهم في اتخاذهم آلهة، ودعواهم أنهم آلهة، فهم - إذاً - في ثالوث التكاذب، ثم:

﴿وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾﴾:

﴿وَأَلْقَوْا﴾ كلٌّ من العابدين والمعبودين ﴿إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ﴾ ولا ينفع يومئذٍ السلم إلا لمن ألقى إليه السلم يوم الدنيا، كالملائكة والنبيين المعبودين، وأما العابدون فلا ينفعهم السلم بعدما ماتوا مشركين ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ العابدين ﴿مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من ألوهة هؤلاء المعبودين وعبادتهم: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾[1] ﴿وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٩٤.

﴿ٱلْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾(١) ولماذا هناك ﴿وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ﴾ وهنا «ألقوا القول»؟

لأن قول السلم لا يكفي هناك، بل هو واقع السلم في كافة أبعاده، مهما لا ينفعهم إن كانوا هم المشركين العابدين، كما و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ تجعلهم أصلاً في الملقين وكانوا قبل اليوم من الملغين.

ولكن التكذيب من العابدين والمعبودين يكفيه القول ﴿إِنَّكُمْ لَكَـٰذِبُونَ﴾ دون إلقاء لواقع الكذب إذ ليس بأيديهم.

وعلى أية حال ﴿وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ﴾ استسلاماً له عن ضرع ذلة وانقطاع حيلة.

وكما يقال: ألقى يد العاني، أي: ذل ذُلَّ الأسير، وخضع خضوعَ المقهور.

ولا ينتهي ذلك الموقف العسيب إلا بتقرير مضاعفة العذاب لهم بما كانوا يفسدون كما هم فاسدون:

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَـٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾:

فهنالك عذاب لكفرهم أنفسهم وهو ﴿ٱلْعَذَابِ﴾ و﴿عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ لصدهم عن سبيل الله على قَدَرِه ﴿بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ﴾.

فكما العذاب الأول ليس إلا قَدَر الكفر، كذلك الذي فوقه هو قدر الإفساد، وهو أكثر منه حيث يخلِّف فساداً جماعياً كسنة سيئة عليهم منها مثل العذاب الذي على المضلَّلين بهم، وقد تلمح لعُظمه تنكير ﴿عَذَابًا﴾ ولمحة أخرى توكدها ﴿فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ تفوُّق الضلال الجماهيري على الشخصي.

---

(١) سورة يونس، الآية: ٣٠.

وهكذا الأمر في المضلَّلين إذا هم كشياطينهم أضلوا آخرين، مهما اختلفت دركات بين مضلِّل أوّل ومضلَّل ثان ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾[(١)].

ومن عذابهم فوق العذاب «عقارب أمثال النخل الطوال ينهشونهم في جهنم»[(٢)] كما كانوا ينهشون بدعاياتهم الشركية الزور من يصدونهم عن سبيل الله، جزاءً وفاقاً.

ثم و﴿كَفَرُوا﴾ هنا في تحرُّر عن خصوص الكفر بالله شركاً وإلحاداً، تشمل كافة دركات الكفر والكفران، كما و﴿سَبِيلِ اللَّهِ﴾ تعم كافة سبل الله، حيث الصد عنها إفساد مهما اختلفت دركات الإفساد المخلَّفة عن دركات الكفر، وكذلك ﴿عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾.

فهذه ضابطة شاملة لكل ضلال ذي بعدين ثانيهما الإضلال من كفر أو فسوق وعصيان.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾:

﴿وَيَوْمَ﴾ و﴿أُمَّةٍ﴾ و﴿شَهِيدًا﴾ هي كما مضت، حيث يبعث يوم البعث من كل أمة شهيد، وهو جنسه الشامل لعديد الشهيد، حيث يحمل الأعمال والنيات والأقوال والحالات القلبية عن حضور عندها بإحضار الله تعالى، أم هو نفس الأعمال بقريناتها.

ثم هنا زيادة منقطعة النظير في كل آيات الشهادة هي «من أنفسهم وجئناك - ونزلنا».

﴿مِّنْ﴾ في ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ كما تحتمل الجنس، فالشهيد - إذاً - من

(١) سورة النساء، الآية: ١٢٤.

(٢) الدر المنثور ٤: ١٢٧ - أخرج ابن مردويه والخطيب في تالي التلخيص عن البراء أن النبي ﷺ سئل عن قول الله: ﴿زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ [النحل: ٨٨] قال: عقارب...

جنس المشهود عليهم، كذلك تحتمل النشوء والابتداء، فهو إذاً ناشىءٌ من أنفسهم، والمعنيان معنيَّان حيث تحملان كافة الشهادات المسرودة في الذكر الحكيم، فشهادة الأعضاء والأجواء والنبيين والكرام الكاتبين كلها ناشئة من أنفس المشهود عليهم، دون اختلاق، ولا بينة قابلة للكذب أو الخطأ، ولا استماع أم رؤية دون حيطة علمية بحق الأعمال، بل ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ طابق النعل بالنعل، دون زيادة ولا نقصان.

ومن الشهداء مَن هم مِن جنس المشهود عليهم كنبيٍّ كل أمة أو إمامها، فالإنس للإنس والجن للجن، نبياً أو إماماً كما تدل عليه آية البقرة ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾(١) وآية الحج: ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾(٢).

ثم سائر الشهداء كالكرام الكاتبين وإن لم يكونوا من جنس المشهود عليهم، ولكنهم ناشئون في شهاداتهم عن أنفس المشهود عليهم دون أي وسيط يحتمل الخطأ، اللهم إلا الوسيط الأصيل المعصوم العاصم وهو إشهاد الله وإحضاره لهم كل الحقائق الصادرة منهم دون إبقاء، وأفضل من مجرد السماع والرؤية وأمتن، حيث يحتملان الخطأ إذ قد يختلف المرئي والمبصر عن واقع الأمر، خطأ من السمع والبصر، أم خبأ الحقيقة عن المسموع والمبصر.

فتلك الشهادة الإلهية بإلقاء الله وبعثه، هي بطبيعة الحال شهادة عاصمة كل ما يحصل، معصومة عما لم يحصل، وكلها مشمولة لاستنساخ الله: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾(٣).

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.
(٢) سورة الحج، الآية: ٧٨.
(٣) سورة الجاثية، الآيتان: ٢٨، ٢٩.

إذ ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾(١).

ثم بعث الشهداء يختلف حسب نوعيتهم، فشهيد الأعضاء والأرض والفضاء، هو صورة الأعمال وصوت الأقوال وحالة الأحوال قلبياً وفي النية، وبعثها هو إظهارها بعد خفائها حيث كانت مستنسَخة مسجلة ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾(٢) - ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾﴾(٣) فالأعمال المسجلة في الأعناق وفي الأرض بفضائها تخرج يوم القيامة عن كمونها وتحضر حيث يحشر عاملوها: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾(٤).

وبعث الملائكة والأنبياء والأولياء ليس كبعث المشهود عليهم، وإنما هو انتقال من الحياة البرزخية قفزة دون موت عنها إلى الحياة الأخرى، حيث ليسوا من المصعَقين في قيامة الإماتة: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾(٥)، وهم ممن شاء الله ألا يصعقوا بصعقة الموت الجماهيري قبل إحيائه.

فالشهود إذاً في مثلث من البعث يجمعها الحضور للشهادة كما تلقَّوا دون إبقاء ولا إخفاء «والله من ورائهم رقيب»... ثم: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ

---

(١) سورة يونس، الآية: ٦١.
(٢) سورة الإسراء، الآيتان: ١٣، ١٤.
(٣) سورة الزلزلة، الآيتان: ٤، ٥.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ٣٠.
(٥) سورة الزمر، الآية: ٦٨.

هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾[١] و﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ هنا لا تخص المشهود عليهم من أمة الإسلام أمَّن هم من المكلفين منذ الرسالة الاسلامية إلى يوم القيام، فإن من المشهود عليهم شهداء على أمم كما دلت آية البقرة والحج أنهم هم الأمة الوسط: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[٢] وعلّ الناس هنا هم كافة الناس طيلة التاريخ الرسالي، من الرسل والمرسل إليهم، فهم أمة وسط بين هذا الرسول وكل الناس، ثم الرسول شهيد عليهم كما هو شهيد - وبأحرى - على الناس.

إذاً ف ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ هنا هم كل أمة بشهيدها، ومنهم أمة الإسلام بشهدائها الأئمة، فهو ﷺ شهيد الشهداء، شهادة على أعمال الناس، وأخرى على مقامات ومسؤوليات رسالية أماهيه للشهداء عليهم، فهو في أعلى قمة من الشهادة يوم يقوم الأشهاد وذلك من المقام المحمود: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾[٣] - ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾[٤].

ثم ولا فحسب أنك أنت شهيد الشهداء، مما يبرهن على موقفك الرسالي القمة من الإمامة المطلقة على كافة الأئمة رسلاً وسواهم، بل وكذلك كتابك القرآن العظيم، حيث يحلّق على كل كتابات السماء، كما تحلّق أنت على كل رسالات السماء:

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ...﴾ ذلك الكتاب تبيان لكل شيء دون إبقاء، فكما ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ فأنت شهيد الشهداء،

---

(١) سورة النساء، الآية: ٤١.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ٧٩.
(٤) سورة النساء، الآية: ٤١.

كذلك ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ فأنت تعرف به كل شيء.

فلك المقام المحمود في الأولى ﴿تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ ولك المقام المحمود في الأخرى ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾! وقد يذكر الكتاب رَدْفَ الشهداء بعد النبيين يوم يقوم الأشهاد: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾﴾[(١)] وإن كان الكتاب هنا يعم كتاب الأعمال وكتاب الشرعة ولكن القرآن هو المحور الأصيل، وهو الميزان الذي توزن به الأعمال، ويشهد على ميزانه الشهود، وترى ما هو كل شيءٌ الذي يكون له القرآن تبياناً؟ وهنا شيء كثير لا نجد له في القرآن أثراً ولا بياناً! إنه - بمناسبة الحكم والموضوع - هو الشيء الذي يناسب كتاب الشرعة والهدى، فهو - إذاً - كل هدى من الله: آفاقياً وأنفسياً، تكوينياً وتشريعياً، فهو الشيء السبيل إلى الله، لكل متحرٍّ عن سبيل الله، محلِّقاً على كافة سبل الهدى، معلقاً على كافة سبل الردى، مستغرقاً كل درجات السبل إلى الله، مجتثاً كل دركات الضلالات الصادَّة عن سبيل الله.

﴿لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ هنا بين محتملات عدة صالحة وطالحة، ومن الثانية الشيء الغيب الخاص علمه بالله، المستحيل أن يعلمه أو يعلِّمه غير الله، والشيء البين الذي لا يحتاج إلى تبيان، فإن تبيانه تحصيل للحاصل.

ولأن الشيء هنا هو شيء الهدى فالمعني منه أصالةً ما ليس للعالمين إليه سبيل لولا وحي الله، وعلى هامشه ماله سبيل ولكنه قليلٌ سواء أكان من المعرفيات أم المخترعات والمكتشفات، فتبيان القرآن للهدى الأولى صريح، مهما كان بصورة ضابطة يرجع إليها في المتفرعات، وللثانية بين صريح وغير صريح، لكيلا يلزم تعطيل الطاقات المكتشفة عنها الهادية إليها.

(١) سورة الزمر، الآيتان: ٦٩، ٧٠.

فلو كان القرآن بياناً صريحاً لما يتمكن الإنسان من الحصول عليه بمحاولات ميسورة لديه لزمن مستقبل طال أم قصر، لكان في ذلك تعطيل للطاقات الفكرية والمحاولات المندوب إليها، ولكنَّه يشير أم يذكر أصولاً تُبتنى للحصول على تلك المعلومات المرغوبة للإنسان، أم يصرح ما سوف يصل إليه على ركب العلم الدائب في مسيره إلى مصيره، وليعلموا أنه كتاب الوحي وليس من اختلاق بشر، ولا سيما في تلك الظروف القاحلة الجاهلة في الجزيرة العربية.

ولأن القرآن هو الوحي الأصيل وأصيل الوحي على خاتم رجالات الوحي، فهو الحاوي لأصول المعارف مبدءاً ومعاداً وما بين المبدأ والمعاد وما من أمر يختلف فيه اثنان إلا وله أصل في كتاب الله ولكن لا تبلغه عقول الرجال(١).

وإنما يعرف تفريع الفروع على أصوله من خوطب به، وكما تلمح له ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ﴾ فكونه ﴿تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ لا يقتضي أن يكون تبياناً لكل أحد، والقدر المتيقن المفروض أنه تبيان لكل شيء لمن عليه بيان كل شيء وكما يروى «إنما يعرف القرآن من خوطب به».

أجل، وكل شيء تحتاج إليه الأمة(٢) إلى يوم القيامة هو لا محالة في

---

(١) نور الثقلين ٣: ٧٥ في أصول الكافي عن المعلى بن خنيس قال قال أبو عبد الله عليه السلام: ....

(٢) المصدر في أصول الكافي عن مرازم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن الله تبارك وتعالى أنزل في القرآن تبيان كل شيء حتى والله ما ترك شيئاً تحتاج إليه العباد حتى لا يستطيع عبد يقول لو كان هذا أنزل في القرآن إلا وقد أنزله الله فيه، وفيه عن عمر بن قيس عن أبي جعفر عليه السلام قال سمعته يقول: إن الله تبارك وتعالى لم يدع شيئاً تحتاج إليه الأمة إلا أنزله في كتابه وبينه لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم وجعل لكل شيء حداً وجعل عليه دليلاً وجعل على من تعدى ذلك الحد حداً، وفيه عن الكافي عن أبي الجارود قال قال أبو جعفر عليه السلام: إذا حدثتكم بشيء فاسألوني من كتاب الله قال في بعض حديثه: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نهى عن القيل والقال وفساد المال وكثرة السؤال فقيل له يا بن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أين هذا من كتاب الله؟ قال: إن الله عز وجل يقول: =

القرآن كائن، بين ظاهر وكامن بين بطون وتأويلات، ومآخذ الحقايق والأحكام، وإن كتاب الله على أربعة أشياء على العبارة والإشارة واللطائف والحقائق فالعبارة للعوام والإشارة للخواص واللطائف للأولياء والحقائق للأنبياء[1].

هناك التوراة وهو أعظم كتب السماء بعد القرآن ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾[2] - ثم الإنجيل ﴿... جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾[3] وهنا القرآن ﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾[4] وهذه قضية خلوده وخاتميته وهيمنته على كتابات الوحي كلها: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾[5].

ومما يروى عن الإمام علي عليه السلام: ذلك القرآن فاستنطقوه ولن ينطق لكم.. فلو سألتموني لعلّمتكم[6] وعن حفيده الإمام الصادق عليه السلام: لقد

= ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤] وقال: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ [النساء: ٥] وقال: ﴿لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١].

(١) سفينة البحار عن الإمام الحسين عليه السلام عن أبيه أمير المؤمنين عليه السلام.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٤٥.

(٣) سورة الزخرف، الآية: ٦٣.

(٤) نور الثقلين ٣: ٧٣ في تفسير العياشي من عبد الله بن الوليد قال قال أبو عبد الله عليه السلام قال الله لموسى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥] فعلمنا أنه لم يكتب لموسى الشيء كله، وقال الله لعيسى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ [النحل: ٣٩] وقال الله لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].

(٥) سورة المائدة، الآية: ٤٨.

(٦) المصدر في أصول الكافي عن مسعدة بن صدقة عن أبي عبد الله عليه السلام قال قال أمير المؤمنين عليه السلام: أيها الناس إن الله تبارك وتعالى أرسل إليكم الرسول - إلى أن قال - فجاءهم بنسخة ما في الصحف الأولى وتصديق الذي بين يديه وتفصيل الحلال من ريب =

ولدني رسول الله وانا أعلم كتاب الله. . . أعلم ذلك كما أنظر إلى كفي أن الله يقول: «فيه تبيان كل شيء»[(١)].

ثم «كل شيء» وهو هنا شيء الهداية الإلهية، له أصول وفروع، فأصوله في وحي القرآن، وفروعه فيه وفي السنة، أم أن الكتاب هو مطلق كتاب الوحي الشامل للكتاب والسنة، أم أن الرسول ﷺ نبئ بالفروع حين أُلقي إليه الأصول، لِصق بعضٍ وتلوَ بعضٍ، مع العلم بالبطون والتأويل، وكذلك الأئمة من آل الرسول صلوات الله عليهم أجمعين.

فـ ﴿تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ يختص بمن عليه بيان كل شيء، دون كافة المسلمين ولا بعضهم حيث نصيبهم على ضوء ذلك التبيان ببيان الرسول ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ - «هدًى» على قدر تبيانه لهم ﴿وَرَحْمَةً﴾ على قدر هداه ﴿وَبُشْرَىٰ﴾ على قدر رحمته، ولكن كل هدى وكل رحمة وكل بشرى للنبي وسائر المعصومين، حيث المعروف على قدر المعرفة.

ثم ﴿تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ تعم خصوص الرسول ﷺ وذويه المعصومين عليهم السلام، في شموليتها نصاً وظاهراً وإشارة ولطيفة وحقيقة: بطوناً وتأويلات، وكذلك سائر مَن بإمكانه تفهُّم القرآن قبل إسلامه له وبعده.

ومن ثم ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ سواء البدائيين كالذين أقروا

= الحرام ذلك القرآن فاستنطقوه ولن ينطق لكم أخبركم عنه أن فيه علم ما مضى وعلم ما يأتي إلى يوم القيامة وحكم ما بينكم وبيان ما أصبحتم فيه تختلفون فلو سألتموني عنه لعلمتكم.

(١) المصدر عن الكافي عن عبد الأعلى بن أعين قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول قد ولدني رسول الله ﷺ وأنا أعلم كتاب الله وفيه بدأ الخلق وما هو كائن إلى يوم القيامة وفيه خبر السماء وخبر الأرض وخبر الجنة وخبر النار وخبر ما هو كائن أعلم ذلك كما أنظر إلى كفي.
وفيه عن تفسير العياشي عن منصور عن حماد اللحام قال قال أبو عبد الله عليه السلام: نحن والله نعلم ما في السماوات وما في الأرض وما في الجنة وما في النار وما بين ذلك، قال: فبقيت أنظر إليه فقال: يا حماد! إن ذلك في كتاب الله ثلاث مرات - قال: ثم تلا هذه الآية: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ. . .﴾ [النحل: ٨٤] آية من كتاب الله فيه تبيان كل شيء.

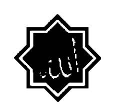
بالشهادتين ولمَّا يؤمنوا قصوراً دون تقصير: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾(١).

أو الذين آمنوا ولمَّا يسلموا تسليماً بكمال الإيمان القمة، فإنهم الوُسطاء في الإسلام، أو الذين أسلموا بعد الإيمان وهو نتاج قمة الإيمان، دون الذين أسلموا منافقين فإنه ليس لهم لا هدى ولا رحمة ولا بشرى، بل ضلال ونقمة وإنذار.

ثم هذه الثلاث درجات حسب درجات الإسلام، فهداه للمسلم غير المؤمن قصوراً هي هدى الإيمان بعد الإسلام، وللمؤمن مزيدٌ في هدى الإيمان: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ وللمسلم بعد الإيمان مزيد في هدى الإسلام.

ثم ﴿وَرَحْمَةً﴾ تعم الرحمات في مثلث النشآت، كما البشرى تعم ما وعد الله للمسلمين.

ويا له ملتقى عالية غالية أن يجتمع ﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ القرآن، بيان كل شيء من القرآن لأهل بيت القرآن، نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء.



(١) سورة الحجرات، الآية: ١٤.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ

بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ
لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ
أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ
أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ
ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ
بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن
مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ
عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ
وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ
عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا
جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ
لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ
رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن
نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾:

آية غرة بين الغرر، تقرأ في ختاميات خطب الجمعة[١] مما يدل على

(١) نور الثقلين ٣: ٧٧ في الكافي عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام في خطبة يوم =

موقعها العظيم الجماهيري، دفعاً إلى الخير واندفاعاً عن الشر، عظة كاملة شاملة لإيجابيات وسلبيات ثلاث، أمراً بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، ونهياً عن الفحشاء والمنكر والبغي ﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ فهي إذاً تحمل تبيان كل شيء من محبور ومحظور، وهذه آية واحدة! فضلاً عن القرآن كله! وهي كسائر آي الذكر الحكيم مما أمر الرسول ﷺ أن يضعها موضعها من سورتها وعلى صورتها الآن[1].

وقد كان يقرؤها الرسول ﷺ على المستهدين كأجمع آية تهديهم في البداية[2] وقد كفانا الله المروءة كلها فيها «فالعدل الإنصاف والإحسان التفضل»[3].

ولقد حلت محلها اللائق في ذلك المسرح العصيب، أمام الأشداء

= الجمعة الخطبة الأولى الحمد لله ونستعينه - وذكر خطبة طويلة وآخرها: إن الله يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠] ثم يقول: اللهم اجعلنا ممن يذكر فتنفعه الذكرى ثم ينزل.

(١) الدر المنثور ٤: ١٢٨ - أخرج أحمد عن عثمان بن أبي العاصي قال كنت عند رسول الله ﷺ جالساً إذ شخص بصره فقال أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية بهذا الموضع من السورة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ - إلى قوله - تَذَكَّرُونَ﴾.

(٢) المصدر أخرج الباوردي وابن السكن وابن المنذر وأبو نعيم في معرفة الصحابة عن عبد الملك بن عمير قال بلغ أكثم بن صيفي مخرج رسول الله ﷺ فأراد أن يأتيه فأتى قومه فانتدب رجلين فأتيا رسول الله ﷺ فقالا نحن رسل أكثم يسألك من أنت وما جئت به؟ فقال النبي ﷺ أنا محمد بن عبد الله ورسوله ثم تلا عليهم هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ﴾ قالوا: ردد علينا هذا القول فردده عليهم حتى حفظوه فأتيا أكثم فأخبراه فلما سمع الآية قال: إني أراه يأمر بمكارم الأخلاق وينهى عن ملائمها فكونوا في هذا الأمر رؤساء ولا تكونوا فيه أذناباً، ورواه الأموي في مغازيه وزاد: فركب متوجهاً إلى النبي ﷺ فمات في الطريق قال: ويقال نزلت فيه هذه الآية: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ﴾ [النساء: ١٠٠].

(٣) المصدر - أخرج ابن النجار في تاريخه من طريق العكلي عن أبيه قال مر علي بن أبي طالب بقوم يتحدثون فقال فيم أنتم؟ فقالوا نتذاكر المروءة فقال: أوما كفاكم الله عزّ وجلّ ذاك في كتابه إذ يقول الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠] فالعدل الإنصاف والإحسان التفضل فما بقي بعد هذا؟

الألداء من الكفار، كدعوة جامعة جامحة، لو أنهم سمحوا لأنفسهم أن يسمعوها ويعوها، كمنطلَق للهدى الإسلامية السامية.

ولقد قرأها النبي ﷺ على الوليد بن المغيرة فقال: يا بن أخي أعد فأعاد، فقال: إن له حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق وما هو قول البشر[١] كما قرأها على قبائل العرب، ولأن فيها جماع التقوى[٢] سلباً وإيجاباً، بل «جميع شرايع الدين»[٣].

وما يروى بعد ﴿ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ - من «حقه»[٤] ليس من حقه، فإنه خلاف تواتر الآية في القرآن، وخلاف ما يروى عن الرسول والأئمة عليهم السلام، إذاً فهو تفسير لـ ﴿وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾.

ومن الرائع فيها أن واجباتها ومناهيها هي جميع شرائع الدين[٥] محلِّقة على الشرائع كلها دونما نسخ، فإنها الأحكام الأصيلة الدائبة التي لا تقبل

---

(١) نور الثقلين ٣: ٧٨ عن المجمع عن عكرمة قال إن النبي ﷺ قرأ هذه الآية...
وروى القاضي في تفسيره عن ابن ماجه عن علي عليه السلام أنه قال: أمر الله نبيه أن يعرض نفسه على قبائل العرب فخرج وأنا معه وأبو بكر فوقفنا على مجلس عليهم الوقار، فقال أبو بكر ممن القوم؟ فقالوا من شيبان بن ثعلبة فدعاهم رسول الله ﷺ إلى الشهادتين وإلى أن ينصروه فإن قريشاً كذبوه فقال مقرون بن عمرو: إلى م تدعون أخا قريش، فتلا رسول الله ﷺ هذه الآية فقال مقرون: دعوت والله إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ولقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك.

(٢) المصدر في روضة الواعظين وقال ﷺ جماع التقوى في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النّحل: ٩٠].

(٣) المصدر في كتاب الخصال عن أبي مالك قال قلت لعلي بن الحسين عليه السلام أخبرني بجميع شرائع الدين قال: قول الحق والحكم بالعدل والوفاء بالعهد، هذه جميع شرايع الدين.

(٤) المصدر.

(٥) المصدر في تفسير العياشي عن إسماعيل الحريري قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام قول الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ...﴾ قال: اقرأ كما أقول لك يا إسماعيل: ﴿... وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [النّحل: ٩٠] قال: أداء إمام إلى إمام بعد إمام...

النسخ، فهي خير ما يتلى على الناس كافة صالحين وطالحين، طاغين ومتقين، بل وكتابيين وسواهم، لأنها أحكام فطرية تحكم بها الفطرة إجمالياً وفي شرايع الدين تفاصيلها.

ثم العطف بين الثلاثة المأمور بها، والأخرى المنهي عنها، دليل التقابل بينها دون وحدة مكرورة، والتعامل بينها دون هوّة ووهدة منكورة، فتفسير بعضها ببعض تعتير لها كلها، وإفراد كل في تفسير تعطير عبير، وتعبير منير.

فالعدل هو المحور الأصيل في كل دقيق وجليل، لا يُعدل به أي أصل من الأصول، لا فردية ولا جماعية، وهو العِدل المساواة في الحق، ويقابله الظلم وهو الانتقاص عن الحق، وأفضله الإحسان والقسط وهما الزيادة على الحق دونما تبذير أو إسراف، أم إجحاف بحق الآخرين.

فالاستمرار على مُرِّ الحق عدل، والانحراف عنه قل أو كثر ظلم، والزيادة على الحق حقاً راجحاً قسط وإحسان، فالعدل هو المحور الدائب فيما قل وجل، فردياً وجماعياً، كافلاً حافلاً لكلِّ ضابطة ثابتة للتعامل، لا تميل مع الأهواء، ولا تتأثر بالمودّات والبغضاء، ولا تتبدل مجاراةً لسبب أو حسب أو نسب، وإنما تمضي في طريقها إلى تحقيق الحق وإبطال الباطل بمكيال واحد وميزان فارد للجميع.

فلأن القرآن نزل لينشئ أمة عالمية ويقيم نظاماً إنسانياً على ضوء الوحي، دون أي تحسُّب أو تعصُّب، عنصرية أم قومية أو طائفية أمّا هيه، فالعقيدة الصالحة وصالحة الأعمال هي الرابطة والآصرة الحاصرة، لذلك نجد في مقدمة دعوته وناصيتها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ...﴾.

و«العدل» هنا مطلق يحلق على كافة أعمال الجوارح والجوانح، في كافة الحقول، بالنسبة للمبدأ والمعاد وما بين المبدأ والمعاد، خروجاً عن كل إفراط وتفريط، ظلماً سلبياً أو إيجابياً.

فبالنسبة للمبدأ هو كلمة الإخلاص[1] فإفراطه الإشراك بالله وتفريطه نكران وجود الله.

ثم عدلاً في كلمة الإخلاص، دون إفراط في إثبات الصفات الزائدة على الذات، أم تفريط في تعطيل الصفات، وليس في ذلك المسرح قسط وأحسان، بل العدل فيه هو أصل القسط والإحسان، والعدل به في ذات أم صفات أم افعال ظلم بحق التوحيد وإمعات.

ثم العدل في مسرح التكليف أن «لا جبر ولا تفويض بل أمر بين أمرين» خارجاً عن إفراط التفويض وتفريط الإجبار والتفويض، فـ «ما عرف الله من شبَّهه بخلقه ولا وصفه بالعدل من نسب إليه ذنوب عباده»[2].

والعدل بالنسبة للمعاد، هو العود للحساب العدل والجزاء العدل، دون إفراط المغفرة الشاملة فكلٌّ إلى الجنة، أم عذاب الخلود لكل معصية، أم لا نهائية العذاب للخالدين الآبدين في النار، فالأول تسوية بين المحسن والمسيء والآخر ظلم على المعذبين أن يعذبوا أكثر مما يستحقون، ودون تفريط نكرانه عن بكرته أو تقليل عن أي عدل صارم فيه.

والعدل في الوحي الرابط بين المبدأ والمعاد، هو حق الوحي والوحي الحق كما هو مسرود جملة وتفصيلاً في الذكر الحكيم، دون إفراط في شمولية الوحي لكافة المكلفين، أمن لا يستحقون منهم مع المستحقين، أو تفريط النكران لأصل الوحي أن «لا خبر جاء ولا وحي نزل»! أم لا ينزل الوحي لبشر على بشر.

---

(١) نور الثقلين ٣: ٨٠ عن تفسير العياشي عن أبي جعفر عليه السلام في الآية قال: العدل شهادة أن لا إله إلا الله...

(٢) المصدر ٧٩ في كتاب التوحيد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: ما عرف الله...

ثم العدل في الشرعة الإلهية هو كما شرِّع، دون إفراط أن تزاد على الواجبات والمحرمات ما لم يشرع، كما يتقوله قوم من الهنود والمانوية القائلين: يجب على الإنسان اجتناب كل الطيبات والمبالغة في تعذيب النفس حسراً لها عن كل شهواتها، وحصراً في ارتياضاتها، أمّا إذا من المختلقات الزور، أو تفريط نُفاة التكاليف عن بكرتها، في حرية وأريحية شاملة دون حد ولا وحدود أم بحدود متخلِّفة عن حدود الله.

ثم عدلاً في الحياة الفردية والجماعية على ضوء الشرعة الإلهية دون زيادة أم نقيصة، اللهم إلا زيادات فعل المستحبات وترك المكروهات وهو من القسط والفضل والإحسان، عدلاً في ذلك الإحسان دون إعسار ولا تحريج.

إذاً فالعدل المأمور به في ناحية الشرعة الإلهية يتم ويطم كل الأمور الحيوية، عقائدية وأخلاقية واقتصادية وسياسية وعبادية أما هيه، محلقاً على كل حركة وسكون، وعلى كل ظهور وكمون دون إبقاء، فقد ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ...﴾[1] كلمة التكوين وكلمة التشريع، فبالعدل قامت السماوات والأرض، وقد جاءت بمشتقاتها في القرآن (٢٨) مرة وهذه الآية هي رأس الزاوية ثم ﴿ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ...﴾[2].

فالمبالغ في العبادة يعدل حتى إن كان هو الرسول ﷺ حيث قام على رؤوس أصابع قدميه في الصلاة حتى تورمتا فنزلت: ﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾﴾[3]... حناناً إلى سماحته، وتعظيماً لساحته.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١١٥.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٨.
(٣) سورة طه، الآيات: ١-٣.

ثم التساهل فيها يعدَّل بصوت التنديد كسوط قارع: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾(١).

ثم يأتي دور الإحسان بعد العدل تحسيناً للعدل كأحسن منه فيما يصح على ضوء الوحي.

والإحسان يعم كافة المستحبات فعلاً والمكروهات تركاً، وهما راجحان، وقد يكون واجباً كإحسان الداعية في الدعوة، فصلاة الليل المستحبة على الجميع هي عليه واجبة، وكالقسط في اليتامى فلا يكفي العدل فيهم ﴿وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ﴾(٢).

ومن الإحسان في عبادة الله، المفروض على الداعية رسولاً وإماماً والراجح أكيداً على أشراف الفرض على غير المعصومين: «اعبد ربك كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»(٣).

فلأن «العدل الإنصاف والإحسان التفضل»(٤) فالتفضل في العبادة هو كمالها لمن لم يفرض عليه لِعِيّه وعسره، فأكملها «اعبد ربك كأنك تراه» - ومن ثَمَّ «فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

وفي الحق إن الإحسان قد يلطِّف من حِدَّة العدل الصارم الجازم، ويدع الباب مفتوحاً لمن يريد النهوض بما فوق العدل الواجب عليه ليداوي جريحاً ويشفي قريحاً أو يكسب فضلاً.

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١١٥.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٢٧.

(٣) التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٠: ١٠٣ - أن جبريل لما سأل النبي ﷺ عن الإحسان قال: ....

(٤) نور الثقلين ٣: ٧٧ في معاني الأخبار بإسناده إلى عمر بن عثمان التيمي القاضي قال: خرج أمير المؤمنين عليه السلام على أصحابه وهم يتذاكرون المروة فقال أين أنتم من كتاب الله؟ قالوا: يا أمير المؤمنين في أي موضع؟ فقال: في قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ﴾ [النحل: ٩٠] والعدل الإنصاف والإحسان التفضل.

كما قد يرتفع فوق العدل في تطبيق الراجحات فوق الواجبات في التكاليف الشخصية والتعاملات الجماعية، فيشمل كل الحيويات في علاقات العبد بربه وبأسرته وبالجماعة المؤمنة وبالبشرية جمعاء، وبسائر الحيوانات والنباتات.

ومن أقرب الإحسان ﴿وَإِيتَآءِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ وكما هو من أعدل العدل، فالعدل الواجب هو بالنسبة لذي القربى أوجب، والإحسان فرضاً أو ندباً هو بالنسبة لهم أحسن.

والإحسان كما العدل هو مثلثة الزوايا، بالنسبة للنفس إحساناً لجانحة وجارحة، وللغير، وبالنسبة للحق، فهو يحلِّق على كافة جنبات الحياة كما العدل، ﴿وَإِيتَآءِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ هو الأفضل الأحسن من الزاوية الوسطى.

وهنا ﴿ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ مفرداً دون «ذوي القربى» تختصهم بجماعة خصوص، هم - بطبيعة الحال - أقرب ذوي القربي، وهم الأئمة من آل الرسول ﷺ وكما تلمح له آية الخمس (٨: ٤١) والاسراء ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ...﴾[١] حيث المأمور هو الرسول ﷺ والشورى ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[٢] والحشر ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[٣].

ثم الإيتاء العام لذوي القربى ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[٤] ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾[٥]

(١) سورة الإسراء، الآية: ٢٦.
(٢) سورة الشورى، الآية: ٢٣.
(٣) سورة الحشر، الآية: ٧.
(٤) سورة النور، الآية: ٢٢.
(٥) سورة النساء، الآية: ٨.

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ . . .﴾[١].

والإيتاء لا يخص إعطاء المال، بل هو مطلق رد الحق مالاً وحالاً، فهو في مفرد ﴿ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ كما يشمل الخمس كذلك وبأحرى حق الولاية والقيادة العليا بعد الرسول ﷺ، وكما عن باقر العلوم عليه السلام: ﴿وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ هو قرابتنا، أمر الله العباد بمودتنا وإيتائنا ونهاهم عن الفحشاء والمنكر من بغى أهل البيت ودعى إلى غيرنا[٢] وهو «أداء إمام إلى إمام بعد إمام»[٣].

ذلك، وقد تعني ﴿ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ فيمن عنت سائر ذي القربى بسائر الإيتاء، مالاً وعلماً وأخلاقاً واعتقاداً أما ذا من واجب الإيتاء وراجحه، والإيتاء روحياً أعلى وأغلى منه مادياً، وقد ذكر ﴿ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ مفرداً في غير القربى الخاص: ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾[٤] ﴿وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾[٥]، ولكن المفرد على أية حال يبقى ملَمّحاً بخصوص قربى الرسول ﷺ.

هذه أوامر ثلاثة متضامنة للمصلحية الإيجابية للكتلة المؤمنة فردياً وجماعياً، ومن ثم النواهي: ﴿وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ﴾ ولا بد هذه الثلاث كما الأولى، تتحدث عن سياجات ثلاثة للحفاظ على حُرَم المسلمين، فلا يصح تفسير بعضها ببعض.

تأتي الفحشاء بصيغها سبعاً عدد أبواب الجحيم، كما الفاحشة ثلاث

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١١٣.
(٢) نور الثقلين ٣: ٧٩ في تفسير العياشي بمن سعد عن أبي جعفر عليه السلام في الآية.
(٣) المصدر عن العياشي عن إسماعيل الحريزي قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام قول الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ . . .﴾ [النحل: ٩٠] قال: أداء إمام . . .
(٤) سورة النساء، الآية: ٣٦.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٨٣.

عشرة والفواحش أربع، فهي أربع وعشرون، مصحوبة بما يدل على أنها أفحش من المنكر والبغي، وهي المعصية الفاحشة، المتجاوزة حدها، أم وإلى غير الفاعل، فجمعها أفحش، وكلٌّ منهما فاحشة، وتعمها الفحشاء، ومنها الزنا واللواط والمساحقة، ونكاح ما نكح الآباء ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾[1].

ومن ثم فحشاء عقيدية حيث الفحشاء لا تختص بالعملية ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾[2] وأنحس ما بطن منها هو الشرك بالله، والإلحاد في الله ونكران رسالات الله ويوم الله، وأنحس الفحشاء، هي المتجاوزة حدها، وإلى غير الفاعل، مبيّنة فتحاً أم كسراً، ومنها شيوع الفاحشة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[3].

ثم المنكر هو ما ينكَر في الوسط الإنساني فطرياً وعقلياً وبأحرى في الوسط الإسلامي شرعياً، فهو أعم من الفحشاء، وقد يتدرج الشيطان في خطواته الإغوائية من الفحشاء إلى المنكر، تنازلاً في فاعليته ﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[4] كما و﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[5]، تنازلاً في فاعليتها، والنهي عن المنكر، دون خصوص الفحشاء أو البغي، من أدلة شموليته.

ومن ثم البغي هو أخص من المنكر، وأعم من وجه من الفحشاء، يختص بذكره بعد المنكر، لأنه من أنكر المنكر كما الفحشاء، فما كل

---

(١) سورة النساء، الآية: ٢٢.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٥١.
(٣) سورة النور، الآية: ١٩.
(٤) سورة النور، الآية: ٢١.
(٥) سورة العنكبوت، الآية: ٤٥.

فحشاء بغياً، ولا كل بغي فحشاء، ويجتمعان في الفحشاء ذات بعدين، ذاتي تجاوزاً عن الحد المتعود في النكران، وغيري تجاوزاً إلى الغير، فمما ظهر منها اللواط والزنا، ومما بطن تكذيب آيات الله والصد عن سبيل الله(١).

إذاً فكافة دركات العصيان في ثالوث الظلم بالنفس وبالغير والظلم بالحق، متجاوزةً حدها وهي الكبيرة، أم غير متجاوزة هي الصغيرة، كل هذه وتلك مشمولة لثالوث ﴿ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ﴾، ومختلف التعبير في القرآن عن المذموم، ذنباً وعصياناً وإجراماً وإثماً وحنثاً وجَنَفاً وظلماً وخطيئة أمَّاهيه، كل هذه بكل دركاتها مشمولة لكل هذه دونما إبقاء! كما أن كل طاعة صغيرة أو كبيرة بكل درجاتها في مثلث النفس والغير والحق مشمولة لمثلث ﴿بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ فما أشملها آية تعم كل مأمور به ومنهي عنه في الذكر الحكيم ولا ينبئك مثل خبير! وهكذا الله ﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ مواردَ أمره ونهيه، كضابطة ضابطة للمجتمعات والأفراد عن هُوَّات الضلالات الجارفة العامدة أو المجازفة.

﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾:

﴿إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾ تحصر دائرة هذا العهد بما عاهد الإنسان ربه أم سواه كما يرضاه، دون العهود الفطرية والعقلية والشرعية الإلهية مما لم يعاهدها هو وإنما عاهد عليه الله وعليه القبول، والعهد الذي عاهد الإنسان أوجب وفاءً مما لم يعاهده، سواء أكان واجب المعاهدة كالفطرية والعقلية، أم غير واجب كما يعاهد اللهَ على نفسه في التماس حاجة، أو يعاهد الناسَ فيما يباح أم هو راجح.

(١) فالنسبة بين الفحشاء والمنكر عموم مطلق كما بينه وبين البغي، ثم النسبة بين الفحشاء والبغي عموم من وجه.

ومن أبرز العهد المعاهَد عليه عهد الشرعةِ الإلهية كالذين بايعوا الرسول في العهد المكي وعاهدوا على الوفاء به، وهو الزاوية الثالثة لعهد الله بعد الفطرة والعقل، محلِّقة على كافة العهود الإلهية حيث تضمها الشرعة الإلهية التي عاهدوا الله عليها في مبايعة الرسول ﷺ.

ولماذا «عهد الله» وأنتم ﴿عَٰهَدتُّمْ﴾؟ لأنه في كل زواياه من الله، وهو حق الله، وكانت تلك المعاهدة الايمانية فرضاً من الله.

ولماذا ﴿عَٰهَدتُّمْ﴾ إطلاقاً دون «عاهدتم الله»؟ لأنها تعني فيما عنت المعاهدة مع رسول الله ﷺ [1] مهما ضمت سائر المعاهدات مع الله أم مع الناس، فإن الإسلام مُشدِّد غير مسامح في الوفاء بالعهود المشروعة، لأنها قاعدة الثقة وضابطة الطمأنينة بين الناس، وبدونها ينفرط عقد الجماعة، وإذا كانت بينهم وبين الله فالوفاء أهم وأتم فإن ميثاق العبودية أقوى بكثير من ميثاق الأخوة الإيمانية.

ثم ومن توكيد الإيمان أن ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ كالقول: الله كفيل بما أتكفل، ومنه سائر الأيمان المغلظة بسائر التوكيدات، سواء أكانت الأيمان المؤكدة لما عاهدتم عليه الله أم سواه، ولكن عهد الله المؤكد بالأيمان المؤكدة، هو القمة العالية من العهود المفروضة.

وإذا كان مطلق العهد وحتى مع الكافر واجب الوفاء فيما هو مسموح، فماذا ترى في عهد الله في بمثلَّثيه، أولاً في زوايا الفطرة والعقلية والشرعة، وثانياً: إذا عاهدتم، وحلفتم مؤكداً بكفالة إلهية، عهد معقود بكل أشُدِّه بأشَدِّه، ولذلك ترى النواهي تترى على ناقضه بأمثال مائلة:

(١) الدر المنثور ٤: ١٢٩ - أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن مزيدة بن جابر في الآية قال: نزلت في بيعة النبي ﷺ كان من أسلم بايع على الإسلام فقال: وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الإيمان بعد توكيدها - فلا تحملنكم قلة محمد وأصحابه وكثرة المشركين أن تنقضوا البيعة التي بايعتم على الإسلام.

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾﴾:

ولأن عهد الرسالة يحلِّق على كافة بنودها ومن أهمها الخلافة بعدها، لذلك ترى الصديقة الكبرى تستدل بالآية فيها في خطبتها الاحتجاجية على أبي بكر في مسجد النبي ﷺ على حشد كبير من المهاجرين والأنصار.

فـ التي ﴿نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا﴾ هي امرأة حمقاء كانت تغزل الشَّعر فإذا غزلته نقضته ثم عادت[1] تنقض ما غزلت أنكاثاً، فتلات بعد فتلات لحد لا يبقى غزل، وهناك ويلات بعد ويلات، وهكذا يكون دور المعاهدين الله بأيمانهم المؤكدة في نقضهم عهد الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾.

و﴿أَنكَـٰثًا﴾ جمع نكث النقض، وهي مفعول ثان لـ ﴿نَقَضَتْ﴾ نقضت غزلها أنكاثاً أنقاضاً، وهو هنا اسم، أم مصدر تأكيدي لـ ﴿نَقَضَتْ﴾ أم حال للغزل، وهي على أية حال أنقاض الغزل بعد النسج بما نكثت.

فكل جزئية من جزئيات ذلك التشبيه المليح تشي بالتحقير والترذيل بكل تعجيب، وتشوِّه الأمر في النفوس وتقبِّحه في القلوب، فمَثل هؤلاء الناقضين عهد الله كامرأة ملتاثة ضعيفة العزم خارفة الرأي تفتل غزلها بقوة ثم تنقضه تاركة له منكوثة محلولة.

ولقد كان جمع من الناقضين يبرِّرون موقفهم في نقضهم بأن محمداً

---

(١) نور الثقلين ٣: ٨٢ عن تفسير القمي عن أبي جعفر عليه السلام قال: التي نقضت غزلها امرأة من بني تميم بن مرة يقال لها ريطة بنت كعب بن سعد بن تيم بن لؤي بن غالب كانت حمقاء.. فقال الله: ﴿كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا...﴾ [النحل: ٩٢] إن الله تبارك وتعالى أمر بالوفاء ونهى عن نقض العهد فضرب لهم مثلاً.

والذين معه قلة طفيفة، بينما قريش ثُلة كثيفة، فليس من العقل الحازم ترك ثلة إلى قلة فينهاهم مرة تلو الأخرى:

﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ﴾ وسيلة للغدر والخديعة والخيانة حيث الدخَل هو الغش والدغَل، فالأيمان الدخَل هي المزيجة الدخيلة بالمكيدة.

ولماذا؟ الـ ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ أم مخافة ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾؟ وليست الربوة في ميزان الحق إلا بموازين الإيمان، دون زخرفات الحياة الدنيا، فالآخرة خير وأبقى.

فذلك الإيمان المعاهد المُوثَق بالأيمان، إيمان مصلحي تجاري خاوٍ، و﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ﴾ فعند الامتحان يكرم المرء أو يهان، و«عند تقلب الأحوال تعرف جواهر الرجال»! فتألب على الحق أم تصلُّب فيه.

فـ ﴿أَن تَكُونَ﴾ هنا قد تعني «لا تكون - ومخافة أن تكون» حيث النقض قد يعني إرباء أمة الكفر، فإيمانه بأيمانه نفاق، أم يعني خوفة الضعف في أمة الإسلام فإيمان ناقص، فهما إذاً في الإثبات والنفي مصلحيَّان، دون واقعية صالحة، وإلا فلماذا ينقضُّ بتلكم الدوائر المحلِّقة على كتلة الإيمان[1].

---

(١) نور الثقلين ٣: ٨٠ في تفسير العياشي عن زيد بن الجهم عن أبي عبد الله عليه السلام قال سمعته يقول: لما سلموا على علي عليه السلام بإمرة المؤمنين قال رسول الله صلى الله عليه وآله للأول قم فسلم على علي بإمرة المؤمنين، فقال: أمن الله أو من رسوله؟ قال: نعم من الله ومن رسوله، ثم قال لصاحبه: قم فسلم على علي بإمرة المؤمنين، فقال: من الله ومن رسوله؟ قال: نعم من الله ومن رسوله، قال: يا مقداد قم فسلم على علي بإمرة المؤمنين عليه السلام قال: فلم يقل ما قال صاحباه ثم قال: قم يا أبا ذر فسلم على علي بإمرة المؤمنين فقام وسلم ثم قال: يا سلمان قم وسلم على علي بإمرة المؤمنين فقام وسلم حتى إذا خرجا وهما يقولان: لا والله لا نسلم ما قال أبداً فأنزل الله تبارك وتعالى على نبيه: ﴿وَلَا تَنقُضُوا ٱلْأَيْمَٰنَ...﴾ [النحل: ٩١] ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ [النحل: ٩٢] قال قلت جعلت فداك إنما نقرؤها أن تكون أمة هي ربي من أمة فقال: ويحك يا زيد وما أربى أن يكون والله أزكى من أئمتكم إنما يبلوكم الله به يعني علياً...
=

ثم الآية في نطاق أشمل تشمل نقض العهود الدولية تحت ستار المصلحيات، فالإسلام لا يقر أمثال هذه المبرِّرات ذريعة لنقض العهود والغش فيها والدخل بينكم، إلا إذا كانت معاهدة لا يتعهدها ويقرها الإسلام، فإنها باطلة من أصلها، وعلى الخاطئ البيان كيلا يحسب بحساب الإسلام.

فالنص هنا يجتث جذور هذه المصلحيات الفاسدة الكاسدة، وبعد التنبيه بأن مثل هذه الحالة الرديئة هي بلوى إلهية، يكل أمر الخلافات الناشبة بين كل الجماعات إلى يوم الله ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ... وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بيان العيان علماً وتطبيقاً ﴿مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ فتزول هناك كافة العشاوات والغشاوات عن كل البينات، ثم العقائد والأعمال المتخلفة تظهر بحقائقها المستورة يوم الدنيا، ليوم الدين، وهي هي جزاؤهم وما ربك بظلام للعبيد.

و«به» قد تعني بالأمر والنهي منه تعالى والنقض منكم، بلوى للّتبيين هنا ويوم الدين، وقد تعم - على هامشهما - قلة المؤمنين وكثرة الكافرين، وإنما لم يؤنث الضمير حيث الثالثة معنية ضمن الأولين، فلو أُنِّث لم يشملها، أم إنه راجع إلى كلٍّ على البدل وقدمت الذكورة لتقدم الذكر.

ورداً على سؤال: لماذا الاختلاف العارم حتى يبيَّن يوم القيامة، فالدنيا بالبيان أحرى، والوحدة أثمر وأنمى، فهلا يستطيع الله أن يجعلهم أمة واحدة؟ يقول:

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾:

«لو» توحي باستحالة هذه المشيئة المسيَّرة. و«كم» هم عامة المكلفين، فإن هذه المشيئة صدٌّ عن ظهور الاستعدادات، وسدٌّ عن مظاهر الثغرات

= أقول: لئن نصدق صدر الحديث تأويلاً للآية لم نكن نصدق ذيله المخالف لنص المتواتر في القرآن.

بمختلف البليات، وتجميد لشتات الطاقات، وتسوية بين المحسنين والمسيئين، وكل هذه خلاف حكمة رب العالمين.

﴿وَلَٰكِن﴾ له المشيئة التشريعية هدًى للعالمين، ومن ثم التكوينية ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ الضلال، حيث لا يهديه بما ضل، بل يبقيه على ضلاله الذي يبغيه، و﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ الله ضلالَه تلوَ مشيئته هو ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾[1] - ﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ الهدى حيث يوفقه لمزيد الهدى، ﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ الله هداه، حيث يبلغه مناه ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾[2].

﴿وَلَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ من ضلال باختيار، سؤال التوبيخ، وفي ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ تصريح أن ضلالهم من عملهم اختياراً ف ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ لا تعني تسييراً على إضلالهم، فما الهدى والضلال الإلهيان هما البدائيان، فإن الحالة البادئة ليست إلا الهدى، فطرية وعقلية وشرعية، ثم الثانية هي الإلهية جزاءً وفاقاً.

فالبشرية رغم أنها أمة واحدة فطرياً، ولكنها أمم مختلفة واقعياً تخلفاً عن شرعة الفطرة ثم عن شرعة العقل وشرعة الوحي أم تبنِّياً لهما في الحياة، مهما كانت هنالك دركات وهنا درجات.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٩٤﴾:

فمن مخلفات ذلك الدخَل الدغل أن «تزلَّ قدم» لكم بعد ثبوتها إذ نقضتم عهد الله بعد توكيدها، ثم ﴿فَتَزِلَّ قَدَمُۢ﴾ لآخرين من بسطاء المؤمنين

(١) سورة الصف، الآية: ٥.
(٢) سورة محمد، الآية: ١٧.

﴿بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ حيث يُحَوِّرهم مما يحيِّرهم دَخَل الأيمان، أن لو كان الإيمان حقاً لم ترجع هذه الجماعة عن ربقته وكتلته، وهذه فعلة المنافقين وكما تآمروا فيما بينهم: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾(١).

و﴿بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ برهان على قَدَم ثان، أنها تزل بدَخَل الإيمان بعد ثبوتها، ﴿وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ﴾ قد تعم سوء الدنيا والبرزخ ﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يوم القيامة، أم أن الأول للأولى حالياً ورجعة، والثاني للثانية برزخاً وقيامة، فهما على أية حال عذابان اثنان أولهما ذوق السوء لا نفسه تماماً، وثانيهما نفس السوء تماماً وهو ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾﴾:

﴿ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ﴾ هو كل مُتَع الحياة المتخلفة عن عهد الله، فإن كثيرها قليل بجنب الله، ولأن عهد الله هنا هو عند الذي عاهد الله، فاشتراء ثمن به هو إعطاء عهد الله نقضاً باتخاذه دخلاً، وأخذ ثمن بديله أياً كان فإنه قليل على أية حال، ومهما كان هو من الخير فـ ﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ كمؤمنين ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ما عند الله عما سواه.

نرى أنه دخلت في الإسلام جموع كثيرة بسبب ما رأوا من وفاء للمسلمين بعهودهم، فكان المكسب في الوفاء أضخم وأتم من بعض الخسارات الوقتية التي نشأت عن تمسكهم بعهودهم المصابة أو الخاطئة.

ولقد ترك القرآن في النفوس ذلك الطابع الإسلامي السامي من الالتزام بالعهود، لحد يسميها عهد الله، ويسمي نتيجة الوفاء به «ما عند الله»:

(١) سورة آل عمران، الآية: ٧٢.

﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾:

﴿مَا عِندَكُمْ﴾ ككل وإياكم ﴿يَنفَدُ﴾ وهو نافد في أصله بوصله وفصله على أية حال، مهما كان له بقاء حيناً أو أحياناً ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ - ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[1] وأين بقاء من بقاء، فإنه في الحق فناء أمام ذلك البقاء.

ضابطة عامة تستغرق كل ما عندنا نفاداً، وما عند الله بقاءً دونما استثناء، ولأن ﴿بَاقٍ﴾ تُقابِلُ ﴿يَنفَدُ﴾ فَلْتَعنِ الأبدية بإرادة الله، إذاً فما عند الله من الجنة ونعيمها باق بأهلها لا يزول، ومما عندنا العذاب على ما عندنا من أسبابه فهو ينفد مهما كان خلوداً أبدياً! بل وكذلك خير ما عندنا لولا رحمة الله وفضله وعطائه غير المجذوذ، حيث يستمر بخيراتنا استطارة لها إلى يوم القيامة وإلى غير النهاية.

ومن البقاء لما عند الله ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فأحسن ما كانوا يعملون هو جزاؤهم ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[2] كما به جزاءهم بأحسن جزاء وهو الجزاء الباقي.

فقد يجزى المحسن الصابر بكل حسناته، فجزاؤه إذا درجات، ولكنه يجزى بأحسن أعماله فجزاؤه كله بأحسن درجات، أم يجزى بأحسن ولكنه على قدره فهو مما ينفد، ولكنه جزاء بالأحسن من أحسن أعماله فهو باق ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾.

وليس هناك إلغاء في جزاء الحسن من الأعمال، بل الحسن يجزى به كما الأحسن لأنه صبر في الله و﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[3].

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٣٦.
(٢) سورة التوبة، الآية: ١٢١.
(٣) سورة الزمر، الآية: ١٠.

وليس الصابرون فحسب هم مخصوصون بهذه الكرامة الغالية، بل هي جزاء كل من عمل صالحاً:

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾:

قاعدة مطردة في كافة الصالحات للصالحين والصالحات، وإذ ﴿لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[1] فالحياة الطيبة الموعودة هي على قدر الصالحات دون أية فوارق من جنس أم جنسيات، فالذكر والأنثى متساويان في قاعدة العمل وفائدته العائدة.

و﴿صَٰلِحًا﴾ هنا هو الصالح لحياة طيبة حيث يخلِّفها فتخْلُفه برحمة الله وبركاته شريطةَ الإيمان، وتلك هي من مظاهر الصالحات في هذه النشأة الأولى، وأما الأخرى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ حياة طيبة أخرى تلو الأولى وظهوراً تاماً لملكوتها ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾[2].

فمن هذه الحياة الطيبة حياة النصرة الإلهية ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾[3] ومنها ولاية الملائكة لهم ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾[4].

وبشرى الله فيها: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى

---

(١) سورة النجم، الآية: ٣٩.
(٢) سورة النجم، الآيات: ٣٩-٤١.
(٣) سورة غافر، الآية: ٥١.
(٤) سورة فصلت، الآية: ٣١.

ٱلْأَخِرَةِۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾[1] و«القنوع بما رزقه الله»[2] مما يسلب عنه الخوف والحزن في الحياة الدنيا والآخرة أحرى.

وتثبيتهم بالقول الثابت ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِۖ﴾[3] وبصيرة نافذة في الحياة الدنيا تتخطى ظاهرها إلى باطنها خلاف من سواهم الذين ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْأَخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾[4] وتثبيتاً لإيمانهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُۖ﴾[5].

وسداسية النصرة هذه هي الحياة الطيبة الإيمانية التي يخلِّفها العمل الصالح قَدَره، فيصبح المؤمن دنياه نموذجاً من الآخرة حيث يجعلها مزرعة للآخرة! بجناحي علم الإيمان وقدرته القاهرة المشيرة إليهما الآيات الست.

وهنالك يتهدم صرح الضلالة الجاهلية من حرمان المرأة من كل مزية دينية أو جلّها أم قسم منها، فالمحور الأصيل للحياة الطيبة في الدنيا والآخرة هو عمل الصالحات على قاعدة الإيمان، أياً كان العامل، ذكراً أم أنثى، كبيراً أو صغيراً، وضيعاً أو شريفاً، فلا شرف وحياة طيبة إلا بشرف الإيمان وعمله الصالح، دون أية شريطة أخرى تكمل هذه الحياة أم تنقصها.

---

(١) سورة يونس، الآيات: ٦٢-٦٤.
(٢) نور الثقلين ٣: ٨٣ عن تفسير القمي في الآية قال: . . . وفي نهج البلاغة وسئل عن هذه الآية فقال: هي القناعة وفي تفسير البرهان ٢: ٣٨٢ عن أمالي الشيخ بسند متصل إلى عبيد الله بن المنصور قال حدثني الإمام علي بن محمد قال حدثني أبي محمد بن علي قال حدثني أبي علي ابن موسى بن جعفر قال: قال سيدنا الصادق عليه السلام قوله: فلنحيينه حياة طيبة قال: القنوع.
(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٢٧.
(٤) سورة الروم، الآية: ٧.
(٥) سورة المجادلة، الآية: ٢٢.

وهذه الحياة تفارق سائر الحياة لسائر الأحياء الذين فارقوا الإيمان وعمل الصالحات، بل هي حياة جديدة تستمر معه من هنا إلى البرزخ وإلى القيامة الكبرى بصورة أزكى وأنمى، فحياته السابقة إذاً لا تحسب حياة بل هي ممات: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا...﴾[1] و﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾[2] وكما يترجاها من لم يقدم لها من أولاها ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾[3].

وهذه الحياة الطيبة هي التي يتطلبها عباد الله الصالحون ليل نهار: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[4] يعنون حياة حسنة، ودنياها هي التي تحضِّر لآخراها.

وإنما يتقدم صالح العمل هنا على صالح الإيمان تأشيراً عشيراً للمؤمنين أن العمل هو الغاية القصوى من الإيمان، كما العلم ذريعة العمل، فالعلم والإيمان هما ذريعتان اثنتان لصالح العمل.

ثم نرى الإيمان يتقدم على عمل الصالحات في سائر القرآن، حيث الإيمان هو عمل القلب، وهو متقدم على عمل القالب، وهو أم لأعمال الجوارح، وهي تُستخدم لمزيد اليقين: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾[5] كما اليقين مستخدَم للعبودية ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[6].

إذاً فالإيمان وعمل الصالحات جناحان اثنان للطائر القدسي الإنساني

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢٢.
(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٦٤.
(٣) سورة الفجر، الآية: ٢٤.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٠١.
(٥) سورة الحجر، الآية: ٩٩.
(٦) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

إلى بغيته من خلقه، كل يؤيد الآخر ويزيده رقياً وكمالاً، وقاعدة العمل الصالح التي يرتكز عليها هي قاعدة الإيمان ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ فالعقيدة الصالحة هي المحور الذي تشد إليه الخطوط بأسرها عن أسرها، وإلا فهي أنكاث، ثم لا يهم الحياة الطيبة على ضوئهما أن تكون ناعمة بنعمة المال والمنال، فالاتصال بالله، والاطمئنان إلى رعايته وستره ورضاه - وفيها طمأنة القلب - ذلك يكفي تطييباً للحياة مهما اعترضتها حرمانات مادية واصطدامات في هذه السبيل المليئة بالأشلاء والدماء.

وهذه الحياة الطيبة إضافة إلى أنها لا تنقص من أحسن الأجر في الأخرى، تزيده حسناً على حسن لأنها ذريعتها وطريقتها المثلى.

ثم الجزاء بأحسن ما كانوا يعملون يلمح إلى عفوةٍ عن السيئات، وزيادة في الدرجات، فلا يجزى - إذاً - بالسيئات، ولا بالحسنات على قدرها، وإنما ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وما أفضله وأطيبه جزاءً! بل وقد يبدل الله سيئاتهم حسنات كما يبدل حسناتهم بأحسنها فيجزيهم - إذاً - بأحسن ما كانوا يعملون، ومن ذلك رزقهم في الجنة بغير حساب: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1]. لا حساب لسيئاتهم فإن قاعدة حياتهم هي العمل الصالح بإيمان، ولا حساب لرزقهم بقدر صالحاتهم، فـ «إذا عرفت الحق فاعمل ما شئت من خير يقبل منك»[2].

---

(١) سورة غافر، الآية: ٤٠.

(٢) نور الثقلين ٣: ٨٣ عن معاني الأخبار عن أبي عبد الله عليه السلام قيل له: إن أبا الخطاب يذكر عنك أنك قلت له: إذا عرفت الحق فاعمل ما شئت قال: لعن الله أبا الخطاب والله ما قلت هكذا ولكني قلت له: إذا عرفت الحق فاعمل ما شئت من خير يقبل منك إن الله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: ٤٠] ويقول تبارك وتعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧].

وليست هذه الحياة الطيبة هي - فقط - روح الإيمان، فإنها تتبنى الإيمان ويتبناها الإيمان، بل هي كما تقول الآيات: نصرة الإيمان، وكتابته تثبيتاً له في قلوب المؤمنين، وإنارة زائدة لقلوبهم وبصائرهم، وتثبيتاً بالقول الثابت.

وعلى الجملة تصبح حياته الدنيا نموذجة صادقة عن الحياة الأخرى، التي هي الحياة لا غيرها: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾[١] ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[٢].

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾:

وترى الاستعاذة المأمور بها هنا هي في ختام القراءة لمكان ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ﴾ حيث الجزاء ﴿فَٱسْتَعِذْ﴾ ليس إلا تلوَ الشرط واقعياً كما هو أدبياً؟

والاستعاذة تعني فصل الشيطان عن قارئ القرآن حين يقرأ، كما ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾[٣]! أم «إذا قرأت» تعني بداية القراءة، كما: إذا سافرت فخذ زادك معك؟

أم تعنيهما حيث القارئ بحاجة إلى الاستعاذة بعد ختام القراءة حفاظاً على ما تلقّى، كما يحتاج إليها في بدايتها لكي يتلقى معانيها كما هيه، دون وسوسة شيطانية.

أم أن هذه الاستعاذة تحلق على قارئ القرآن حين القراءة كما في البداية والنهاية، ولأنها ليست - فقط - لفظة تقال مهما كانت هي منها، وإنما حقها وواقعها أن تستعيذ بقلبك، تفريغاً له عن الشيطان وكل الشيطنات،

---

(١) سورة الفجر، الآية: ٢٤.
(٢) سورة الشورى، الآية: ٣٦.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ٤٥.

ففروغاً لتجلى وحي القرآن «فقارئ القرآن يحتاج إلى ثلاثة أشياء قلبٍ خاشع وبدن فارغ وموضع خال، فإذا خشع لله قلبه فر منه الشيطان»(١).

ثم و﴿قَرَأْتَ﴾ الماضي تتحول إلى المستقبل قضيةَ الشرط، فالمعني - إذاً - لما تقرأ القرآن.. وهذا يعم حالة القراءة كلها منذ البداية حتى النهاية، دون اختصاص بنهاية أم بداية.

وهنا الاستعاذة بالقلب وسائر الأحوال الباطنية والظاهرية فيما سوى اللسان، تحلق على جو القراءة على أية حال، وهي باللسان كإذاعة لما في الجنان - تكون في البداية والنهاية دون حال القراءة حذراً من الاختلاط، فقل: أعوذ بالله.. أولاً، وقل أعوذ بالله آخراً، وكن أعوذ بالله في نفسك وكل كيانك أولاً وآخراً وفيما بينهما.

استعذ بالله من الشيطان الرجيم الذي يحول دون قراءتك، أو التأمل فيما تقرأ ترتيلاً لفظياً أو معنوياً، أو يضلك في معانيه، أم يزل بك في تصديقه أو تطبيقه، أم أي أمر أريد به، ولتعرف أنك تقرأ منشور ولاية ربك لكي تتخلق به فتصبح قرآناً بكل كيانك كما نبي القرآن، فحين تعلم متأكداً أن الله اصطفاه على سائر وحيه على أنبيائه تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة للمؤمنين، فلا يحيد بك أي شيطان من إنس أو جان عن الأنس به طول حياتك.

ولتعرف أن أعداء القرآن أكثرهم عدداً، وأعظمهم في صنوفهم مدداً، قد يأتونك عداءً سافراً، وأخرى متظاهرين بمظاهر الحب والحفاظ على كيان القرآن ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾.

وما الاستعاذة اللفظية إلا حاكية عن ذلك، فإذا استعاذ القلب استعاذ القارئ بجملته، ومن الجملة الظاهرة الحاكية عن الاستعاذة القلبية هي اللفظية.

(١) مصباح الشريعة عن الإمام الصادق عليه السلام استناداً إلى هذه الآية.

فالاستعاذة في بداية القراءة تمهيد للجو الذي يتلى فيه كتاب الله، وتطهير له من الوساوس والهواجس، واتجاه بكل المشاعر إلى الله خالصة مخلصة، لا يشغلها شاغل من الشيطان.

ثم هي قلبياً على طول خط القراءة ضمان لسلامة التفهم وسلالة التصديق، ومن ثم ضمان لدائب الأثر على أثر القراءة، فيعيش القارئ - إذاً - ولا سلطان عليه من شيطان مهما وسوس له فإن صلته بالله تعصمه عن الانسياق معه والانقياد إليه.

هنا المأمور بالاستعاذة أولاً هو الرسول ﷺ ثم الذين معه على الأبدال وأحرى لهم وأولى لمكان عصمته دونهم، فهو - إذاً - يستزيد عصمة وهم يعتصمون دون عصمة، ولكنه ليس يستعيذ - فقط - لنفسه، بل ولأمته ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ﴾[1] وما أمنية الرسل إلا هدى الناس، وما الإلقاء فيها إلا إلغاء تأثير دعواتهم فيلغي الله ذلك الإلقاء ثم يحكم الله آياته.

ولقد أمر الرسول أن يعوذ برب الفلق وبرب الناس، لكي يفلق ما يغلقه الشيطان على الناس.

وترى ما هي صيغة الاستعاذة اللفظية؟ المستفادة من هذه الآية: أستعيذ بالله من الشيطان الرجيم[2]؟.

ولأن الاستعاذة هي طلب العوذ فقد يصح «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» كما في المعوذتين «أعوذ»[3] والأرجح إضافة السميع العليم: ﴿وَإِمَّا

---

(١) سورة الحج، الآية: ٥٢.

(٢) نور الثقلين ٣: ٨٥ في تفسير العياشي عن سماعة عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قلت كيف أقول؟ قال: تقول أستعيذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم.

(٣) الدر المنثور ٤: ١٣٠ - أخرج ابن أبي شيبة والبيهقي في سننه عن جبير بن مطعم أن =

يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾(١).

وهل الاستعاذة واجبة للقراءة للأمر بها في الآية، أم واجبة على الإطلاق لأمر المعوذتين؟

لا! إنما هي راجحة للقراءة حيث القراءة في نفسها غير واجبة - إلا قدر الواجب من المعرفة - فكيف تجب لها الاستعاذة، وبأحرى في غير القراءة، ولكنها قلبياً وعملياً واجبة إرشادية لكيلا يقع المؤمن في فخ الشيطان، أو يعني الأمر بالاستعاذة إيجابياً أنها - ولا سيما قلبياً - هي شرط صحة القراءة، ثم ولا منافاة بين ندب القراءة ووجوب الاستعاذة عندها، كرد السلام فإنه واجب عند بدئه وهو راجح، أم أن الاستعاذة الواجبة هي القلبية قدر المستطاع، فلأن مهبط القرآن لساناً وسمعاً وقلباً وعملاً، يتطلب نزاهة من الشيطان، فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم قبل القراءة تسلم قراءتك عن وساوسه، واستعذ بالله فيه بعد ختامها لتسلم قراءتك من هواجسه، واستعذ بينهما لئلا يداخلك في هذا البين، والاستعاذة القلبية في هذه الثلاث هي لزام سلامة القراءة، وهي باللسان أدب البداية وحدب النهاية.

فلتعش الاستعاذة في قراءتك منشورَ ولاية ربك، لتعيش في ظلالهما القرآن بقلبك وقالبك.

= النبي ﷺ لما دخل في الصلاة كبّر ثم قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم وفيه أخرج أبو داود والبيهقي عن أبي سعيد قال كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل فاستفتح الصلاة قال: سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك لا إله غيرك ثم يقول: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم وأخرجه أبو داود والبيهقي عن عائشة في ذكر الإفك قالت: جلس رسول الله ﷺ وكشف عن وجهه وقال: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ الآيات.

(١) سورة الأعراف، الآيتان: ٢٠٠، ٢٠١.

ولتعارض كل شيطان - من إنس أو جان يمنعك عن القرآن - بكل طاقاتك وإمكانياتك كفاحاً صارماً بالأسلحة المضادة المناسبة لمصائد الشيطان ومكائده.

إننا ما أمرنا بالاستعاذة من الشيطان في أية عبادة أم قراءة إلا القرآن، لأنه الشامل لكل وظائف الولاية الإلهية، فالاستعاذة عند قراءته تحلق على كل ما يرضاه الرحمان، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾! ولماذا نستعيذ بالله من الشيطان الرجيم؟ لـ:

﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾:

فـ ﴿ءَامَنُوا۟﴾ متمثل في قراءة القرآن، وهنا نعرف المعني منها أنها قراءة التفهم فالتصديق والإيمان، ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ متمثل في استعاذتهم، وهنا نعرف أنها ليست فقط لفظة تقال والقلب خاوٍ، فالإيمان بالله والتوكل على الله على ضوء كتاب الله هو الضمان الأمان عن سلطان الشيطان، فكل من الإيمان دون توكل والتوكل دون إيمان خاويان، وسلطان الشيطان مستقر فيهما كما كان فيمن يفقدهما معاً، مهما اختلف سلطان عن سلطان، فالإيمان في بُعدي الجنان والأركان يتكفل الواجهة الاختيارية للإنسان قدر الإمكان، ثم التوكل ضمان لبقاء الإيمان وتكامله.

وليس سلطانه أية وسوسة منه تحمل المؤمن على لمم أم يزيد، بل هو سلطان له على أصل الإيمان، أن يتولاه المؤمن ويشرك به، كما هو المستفاد من الحصر ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾﴾[1] والمؤمن

(١) سورة الحجر، الآيات: ٤١-٤٣.

العاصي ليس من أهل الجحيم، فليست الغواية بسلطانه إلّا خروجاً عن سلطان الرحمن إلى سلطان الشيطان بزوال الإيمان.

إذاً «فليس له أن يزيلهم عن الولاية (الإلهية) فأما الذنوب وأشباه ذلك فإنه ينال منهم كما ينال من غيرهم»[١] فقد «يسلط والله من المؤمن على بدنه ولا يسلط على دينه»[٢]: قضاءً عليه أم نيلاً منه تركاً له إلى دين الشيطان، ومهما أخطأ المؤمن بوسوسته ليس ليستسلم له متولياً له ولاية المحبة أم ولاية السلطة، بل يتولى عنه إذا مسه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ۝٢٠١ وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ ۝٢٠٢﴾[٣].

وكما أن مس الشيطان مس للروح، كذلك التذكر الذي يطرده دحراً هو تذكر الروح سلباً بالاستعاذة وإيجاباً بالبسملة، مهما استعاذ ويَسْمَل بِلسانه، كما بقلبه وسائر أركانه، فالأصل هو القلب ثم القالب ومن ثم اللسان الحاكي عنهما، استعاذة مثلثة الزوايا، قاعدتها القلب، وعمودها القالب وإذاعتها اللسان والله خير مستعاذ به ومستعان.

هذا ولكن حذار حذار من خطوات الشيطان حيث يخطو من الصغائر إلى الكبائر وإلى الشرك بالله والإلحاد في الله، ولذلك يؤمر الذين آمنوا أن يعيشوا الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم بكل طاقاتهم وإمكانياتهم متوكلين في كل ذلك على الله.

---

(١) نور الثقلين ٣: ٨٦ في تفسير العياشي عن حماد بن عيسى رفعه إلى أبي عبد الله عليه السلام قال سألته عن قول الله: ﴿إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ...﴾ [النحل: ١٠٠] قال: ليس له...

(٢) المصدر في روضة الكافي بسند متصل عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال قلت له: فإذا قرأت... وعلى ربهم يتوكلون فقال: يا أبا محمد يسلط... قلت قوله عزّ وجلّ: إنما سلطانه.. قال: الذين هم بالله مشركون يسلط على أبدانهم وعلى أديانهم.

(٣) سورة الأعراف، الآيتان: ٢٠١، ٢٠٢.

وهنا تتقدَّم ﴿ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ﴾ على ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ﴾ تلميحاً أن توليه قبل الإشراك به، فكل دركة من دركات تولِّيه حركة إلى دركة من الإشراك به، فـ ﴿ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ﴾ هم غير المشركين، مهما اختلفا في درك الضلال، كما اختلف سلطان عن سلطان، حيث الأول خطوة إلى الثاني، كما ودوامة السيئات خطوات إلى تولّيه.

وهنا ﴿بِهِۦ مُشۡرِكُونَ﴾ قد يعني يشركون بالشيطان حيث أشركوا بالله سواه بواسطته، أم «بالله مشركون»[(١)] والمعنيان علهما معنيَّان، حيث الإشراك بالله ليس إلا بالشيطان، مهما اختلف المعني من الباء هنا وهناك سببية وتعدية[(٢)] والأولى مقدمة على الثانية حيث الإشراك بالله ليس إلا بسبب الشيطان.

ثم الشيطان تعم كافة شياطين الجن والإنس، فإن الاسم الخاص لزعيم الشياطين هو إبليس، وهو يضل أولياءه والذين هم به مشركون بخيله ورَجِله، بذريته الشياطين وسواهم من الشياطين، كما ويضلهم بنفسه، حيث يتولونه ويستسلمون له بشهواتهم ونزواتهم حتى يشركوا بالله، وعوذاً بالله.

﴿وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةٗ مَّكَانَ ءَايَةٖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ١٠١﴾:

﴿ءَايَةٖ﴾ هنا هي الآية الإلهية الدالة بنفسها على أنها من قبل الله، سواءً أكانت آية الرسالة المثبتة لها كسائر معجزات المرسلين وأفضلها القرآن العظيم وهي آية رسولية، أم آية رسالية كالآيات القرآنية وكل منها آية في

---

(١) تفسير البرهان ٢: ٣٨٤ عن الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام قال قلت له: فإذا قرأت القرآن... فقال يا محمد يسلط والله من المؤمن على بدنه ولا يسلط على دينه وقد سلط على أيوب فشوه خلقه ولم يسلط على دينه وقد يسلط من المؤمنين على أبدانهم ولا يسلط على دينهم قلت له قوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ﴾ [النحل: ١٠٠]؟ قال: الذين هم بالله مشركون يسلط على أبدانهم وعلى أديانهم.

(٢) فإن أشرك بالشيطان يعني بسببه وأشرك بالله يعني أشرك غيره به فهذه للتعدية وتلك للسببية.

بعدين رسولياً ورسالياً، ولسائر المرسلين آية ذات بعد واحد هي الرسولية الدالة على الرسالة.

ف ﴿ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾ هنا تعني في الأصل الآية الرسولية، الخارقة للعادة، كما تلمح له «قل نزله...» دون «نزلها» حيث يعني القرآن كله كآية واحدة رسولية، ولمحة ثانية في ثانيتها: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ...﴾[1].

فهي - إذاً كآية البقرة: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾[2] فقد بدل الله في هذه الرسالة الأخيرة آية القرآن معجزة عقلية خالدة على مر الزمن، مكان آية الرسالات السابقة كلها وهي الآيات البصرية العابرة الغابرة دونما استمرار، فلأنهم كانوا متعوِّدين على تلكم الآيات ففاجأتهم آية القرآن الخالدة زعموا أنه ليس آية معجزة: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[3] ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[4] ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ...﴾[5] ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[6].

أجل ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ رسولي بمعجزة إلهية تناسبهم، ولا تناسب قوم

(١) سورة النحل، الآية: ١٠.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٠٦.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٣.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ٣٧.
(٥) سورة الأنعام، الآية: ١٢٤.
(٦) سورة الرعد، الآية: ٧.

الرسول محمد - وهم العالمون أجمعون منذ رسالته إلى يوم الدين - إلا آية خالدة مستمرة مع الزمن وأهله تكون حجة لهم وعليهم ما طلعت الشمس وغربت، وهي القرآن العظيم.

إذاً فقولتهم الفاتكة ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾ ليست لنسخ في آيات أحكامية لا تعدوا أربعاً وليست هي مكية، ولا أن المشركين يعرفونها، فإن معرفتها بحاجة إلى سبر في أغوار القرآن، وعيشة دائبة في جو الوحي، بل هي بذلك الحصر والتأكيد الشامل لكامل الرسالة بأسرها، لأنهم لم يعتبروا آية القرآن آية رسولية، ومدعي الرسالة دون أية آية هو بطبيعة الحال مفتر في كل ما يحمله زعم الرسالة، ولو كانت هي فقط الآية الناسخة لخصتها الفرية وانحصرت فيها دون حصر شامل لكل ما يفعل أو يقول إلا ناسخة الآيات.

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ إن تبديل آية القرآن مكان سائر آيات الرسالات، إنه لزام خاتمية الرسالة، وأقلهم يعلمون، فهذه القلة العالمة الناكرة معاندة وهم رؤوس الضلالة، ثم وتلك الثلة الجاهلة تقصيراً بتقليدهم إياهم دون قصور، هم أتباع وهوامش الضلالة.

إن المشركين لا يدركون مسؤولية هذه الشرعة الأخيرة والكتاب الأخير لآخر بشير ونذير، لا يدركون أنه جاء لإنشاء مجتمع عالمي على مدار الزمن، الرسالة الأخيرة التي ختمت بها الرسالات كلها، فإذا بدل آية رسولية مكان آية أخرى انتهى أجلها واستنفدت أغراضها، آية أخيرة هي الصالحة للحالة الجديدة، وكافة الأنسال المتجددة إلى يوم القيامة، إذا بدلت هكذا حكيمة صالحة مصلحة ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

والآية في تفسير شمولي على هامش الآية القرآن، تشمل الآيات

الناسخة[1] التي تدفع الناكرين لوحي القرآن على اعتراض: ما ذلك التناقض بين أحكامه إن كان من الله؟ ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭ﴾ على الله فإنه لا يناقض كلامه بكلامه! ثم «قل نزله» يعني تنزيل القرآن كله، ناسخه ومنسوخه قضية المصلحة الوقتية، وسائر القرآن هو أكثريته المطلقة حيث الناسخ ليس إلا في آيات اربع أم تزيد.

﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ١٠٢﴾:

الضمير المذكر في ﴿نَزَّلَهُۥ﴾ راجع إلى «آية» لأنها القرآن ولو كان القصد إلى آية ناسخة لكان حق التعبير «نزلها»! ثم ﴿لِيُثَبِّتَ...﴾ لا تمت بصلة لآية ناسخة فإنها تزعزع ضعفاء الإيمان، ويُحيِّر أقوياءه، فضلاً عن المسلمين الذين هم دون المؤمنين.

وترى كيف تكون آية ناسخة مزعزعة لفريق من المؤمنين بشرى للمسلمين، اللهم إلا آية القرآن الخالدة فإنها تثبيت لإيمان المؤمنين على طول خط الزمن الرسالي لخلودها على مرّ الزمن بمُرِّ الحق، وبشرى سارة متلاحقة للمسلمين الذين أسلموا ولما يدخل الإيمان في قلوبهم، فإن مزيد التفكر فيها والمراس لتدبر آياتها بُشريَات تلوَ بعض لكونها آية إلهية منقطعة النظير عن كل بشير ونذير.

ثم الصيغة الصالحة للنسخ: «وإذا بدلنا حكماً مكان حكم» حيث النسبة بين الآية والحكم عموم من وجه لا يجتمعان إلا في وجه تحمل كلٌّ من الناسخة والمنسوخة حكماً، فقد لا تحمل آيةٌ حكماً أم تحمل أزيد من حكم.

(١) نور الثقلين عن تفسير القمي في الآية قال: إذا نسخت آية قالوا لرسول الله ﷺ أنت مفتر فرد الله عليهم فقال قل لهم يا محمد: نزله... يعني جبرئيل.

و﴿رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾ المذكور هنا لا يذكر في سواه إلا للمسيح عليه السلام في آيات ثلاث ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾(١) ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾(٢).

وهذه الأربع تقول إن «روح القدس» منفصل عن الرسول في الكون، مهما اتصل به في الكيان لإبلاغ الوحي المفصل، فهو ملك الوحي المعبر عنه في سائر القرآن بالروح الأمين: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾(٣) وروح الله ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾(٤) وجبريل: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾(٥).

و«روح القدس» إضافياً دون «الروح القدس» وصفياً، يبرهن أن جبريل ليس قدساً ملائكياً كسائر الملائكة، بل هو روحهم وسيدهم مهما كان منهم(٦)، فكما أن روح محمد صلى الله عليه وآله وسلم هو روح الأرواح، وقرآنه روح الأرواح، فليكن الملك الحامل لوحيه روح الأرواح، أرواح ثلاث في أعلى القمم الروحية تجتمع في الكيان القدسي المحمدي صلى الله عليه وآله وسلم، فروحه - إذاً - أقدس الأرواح الملائكية والبشرية أماهيه ولأن القدس هي الطهارة القادسة، فروح القدس هي روح الطهارة ولها مصاديق ثلاثة: روح القدس الملائكي وهو جبريل، وروح القدس الوحي وهو القرآن، وروح القدس الرسالي وهو صلى الله عليه وآله وسلم روح الأرواح الرسالية.

و«نزله» قد تعم أرواح القدس الثلاث إلا روح القدس فإنها منزّلة لا

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٨٧.
(٢) سورة المائدة، الآية: ١١٠.
(٣) سورة الشعراء، الآيتان: ١٩٣، ١٩٤.
(٤) سورة مريم، الآية: ١٧.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٩٧.
(٦) المصدر في تفسير العياشي عن محمد بن عرامة، الصيرفي عمن أخبره عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن الله تبارك وتعالى خلق روح القدس فلم يخلق خلقاً أقرب إليه منها وليست بأكرم خلقه عليه...

منزِّلة، ثم هو القرآن المفصل في «نزله» بين تنزيل فاعلي ﴿مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ وهو جبريل، وتنزيل قابلي هو قلب الرسول محمد ﷺ.

فكما أنه لولا تنزيل جبريل من ربك لم يكن للرسول وحي القرآن المفصّل كذلك لولا قابلية وجاذبية قلب الرسول لذلك الوحي لم ينزله جبريل من ربك بالحق.

فقد نزل روحَ القدس القرآن، روحُ القدس جبريل فاعلياً على روح القدس الرسول قابلياً، فاجتمعت - إذاً - أرواح القدس الثلاث في وحي القرآن نازلاً ومُنزِلاً ومَنزِلاً!.

﴿رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾ حيث خلقه وبعثه إليك لحمل الوحي وبلاغه، فـ ﴿رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾ «نزله من ربك» كما «نزله بالحق - من ربك بالحق».

وتراه يقول كما أمر ﴿نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ أم «من ربي بالحق»؟ إنه بطبيعة الحال لا يقول إلا مقالة الرب دون تحويل حتى في قوله «قل» فضلاً عما سواه، و«من ربك» بديل «من الله» للتدليل على بالغ الرحمة والعناية في حقه، وإن القرآن يحمل التربية القمة المحمدية، ثم الخطاب هنا يعم - في توسعة على الأبدال - كافة المخاطَبين بالقرآن، أجل وإنه مسرح القمة التربوية، صاعدة إلى الرسول، ونازلة إلى أقل العالمين تفهماً، وبينهما عوان، فإنه رحمة للعالمين كما الرسول: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[1].

و﴿مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ لا منه، ولا هو من عند الرسول نفسه، ثم ولا تعنُّتاً على الرب أن ينزله، وإنما ﴿مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ فهو الحق مصدراً وصادراً ومحطة دون أية ريبة.

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧.

ولماذا ﴿نَزَّلَهُ رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾؟ ألحاجة الرسول إلى وسيط في ذلك التنزيل؟ وهو أعلى محتداً وأوسع صدراً من جبريل ومن فوقه! وقد أوحي إليه ليلة المعراج دون أي وسيط ملائكي وسواه! كلا! وإنما ذلك ﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ على الإيمان بأنه بشر رسول كما يثبتهم على أنه آية إلهية، فلو أوحي إليه دون وسيط لخيِّل إلى بسطاء الإيمان أمَّن فوقهم معهم - أنه إله، كما قالوا في المسيح عليه السلام إذ ولد دون أب، ومعجزة القرآن أغلى بكثير وأقوى من هذه الولادة بسائر الآيات لوليدها وسائر رجالات الوحي.

صحيح أن المؤمنين لم يكونوا ليروا روح القدس، ولكن إخبار الصادق الأمين أنه نزله روح القدس يكفيهم تصديقاً لهذا الواقع المكرور طيلة الرسالة، وكما صدقوا رسالته من ذي قبل.

و﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ هنا تعم من كان يفتش عن ذلك الإيمان قبل وصوله إليه، متثبِّتاً عنه حتى وصل إليه فثبَّته على ذلك الإيمان لأن آية إلهية تمس القلوب والعقول، ومن آمن به حيث يزداده ذلك التنزل تدريجياً إيماناً على إيمان، وأنه ليس وحياً لفترة قصيرة قاصرة، وإنما هو أجزاء متلاحقة لِصقَ بعض نوراً على نور، ثم والذين يؤمنون بعد ارتحال الرسول، حيث الآية الباقية بعد الرسول تثبيتٌ على الإيمان، دون الآية الماضية مع الرسول حيث المؤمن الآتي بعده لا يجد سبيلاً لتثبيت الإيمان فضلاً عن بدايته.

ومن ثم ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ الذين اسلموا ولما يؤمنوا، فإنهم يهتدون على نجومه المتواترة المتقاطرة، فلو أنزل دفعة واحدة كان عبثاً عليهم بل وعلى المؤمنين أيضاً.

كما وهم يستبشرون بنجومه العِدَّة تلوَ بعض ولصق بعض، حيث تزيدهم إسلاماً على إسلام ومن ثم إيماناً، ثم ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ المتكاملين في الإيمان، تسليماً لله خالصاً دونما أية شائبة.

فـ «المسلمين» هنا تعم مثلث الإسلام، الإيمان وقبل الإيمان وبعد الإيمان في تكامله، ففي أصل نزول القرآن آية معجزة أخيرة، وفي تنزله نجوماً هدى متواصلة وبشرى للمسلمين أياً كانوا وأيان ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[1]! ففي تنزيل روح القدس هذه الآية الأخيرة جنبات عدة من المصلحة، لصالح المؤمنين والمسلمين، ذوداً عن التبنّي لله أو الإشراك به في سواه، وعن خمول الإيمان أم زواله بخمول الآية المعجزة أم زوالها بزوال الرسول.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾:

فرية قاحلة خاوية أخرى على رسول الهدى ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ ومن هذا الذي يعلمه القرآن ولا يدعيه هو لنفسه؟ وأي بشر أو غير بشر ممن سوى الله يقدر على أن يأتي بسورة أم آية من مثله؟ والقرآن بنفسه آية كونه من عند الله: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[2]! ثم و﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ﴾ - أياً كان سلمان وسواه -[3] ﴿أَعْجَمِىٌّ﴾

---

(١) سورة الرحمن، الآية: ١٣.

(٢) سورة النساء، الآية: ٨٢.

(٣) قيل إنه سلمان الفارسي كما في الدر المنثور أخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الضحاك في الآية قال: كانوا يقولون إنما يعلمه سلمان الفارسي وأنزل الله...
وقيل كان رسول الله ﷺ يعلم قيناً بمكة اسمه بلعام وكان أعجمي اللسان فكان المشركون يرون رسول الله ﷺ يدخل عليه ويخرج من عنده فقالوا إنما يعلمه بلعام فأنزل الله... - أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه بسند ضعيف عن ابن عباس.
وقيل هو عبدة بن الحضرمي اسمه عداس وهو صاحب الكتب وقد كان لسانه رومياً أخرجه الحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس.
وقيل هو مقيس كان النبي ﷺ يقرأه وهو غلام لبني المغيرة أعجمي - أخرجه ابن جرير عن عكرمة، وقيل هو عبد لبني عامر بن لؤي يقال له يعيش وكان يقرأ الكتب، وقيل عداس غلام عتبة بن ربيعة، وقيل جبراً أنه كان يعلم خديجة وهي تعلم محمداً.

فارسي أم رومي، وهو لم يتقن بعدُ اللسان العربي، فكيف يعلّم محمداً العربي هذا العربيَّ المبين الذي يعجز عن الإتيان بمثله العالمون.

والأعجمي مهما أتقن العربي فلا يصل إلى مدرجة التعليم لعربي قاصع متضلع قاطع كمحمد ﷺ مهما ساواه أم ساماه، وحتى إذا تفوقه كمعلم فكيف يؤمن بتلميذه ولا يدعيه هو لنفسه، أم كيف يعلم هذا العربي المبين؟

هنا القرآن يترك هذه المشاكل وأضرابها في هذه الفرية، صارحاً في ذلك المسرح اللعين بأوضح المشاكل: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ﴾ فلو كان عربياً أم ذا لسانين عربياً وأعجمياً لما صح تخصيص لسانه بأنه أعجمي، إلا ألا يعرف العربي، أم لم يتقنه بعد وهو في طريق تعلُّمه، حيث بالإمكان أن يصبح أي أعجمي بارع عربيَّ اللسان، متضلعاً متفوقاً عربياً أمياً وسواه، كما أن الكثير من أدباء العربية هم من الأعاجم! ولكن الذي لسانه أعجمي ليس بإمكانه أن يعلّم ذلك العربي المبين، وهو القمة العليا من الفصاحة والبلاغة، فالفاقد لشيء كيف يعطيه؟! ثم ﴿وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَـرَبِىٌّ﴾ لا كسائر العربية حتى يتمكن الأعجمي المتضلع من تعليمه، أم العربي الضالع من تدوينه بل هو ﴿مُّبِينٌ﴾ لمن يتبين، أنه ليس إلا من الله، فأين - إذاً - الأعجمي وهذا اللسان العربي المبين؟

ومن أعجب العُجاب أن هؤلاء السبعة المتردد بينهم الذي يلحدون إليه، كلهم عبيد أعجميون، كانوا يتعلمون عند الرسول ﷺ أم سواه، ثم حماقى طغيان الإشراك ألحدوا إليه هذا العربي المبين، فأين الثرى والثريا، وأين الأعجمي القُحُّ من عربي مبين؟

ولماذا هذه الدركة النازلة من حماقة الفرية على رسول القرآن، وهم عارفون لغة القرآن، وهم أخبر ممن سواهم بقيمة هذه القيِّمة في قمة الفصاحة والبلاغة، فلماذا لم ينسبوه إلى متضلع في العربية، وهم على نخوتهم القومية لا يرتضون تقديم أعجمي على عربي في اللغة؟

هكذا يريد الله أن يفضحهم فيما بينهم وعلى مر الزمن، إنهم يلحدون القرآن إلى عبد أعجمي، وهم على نخوتهم وضخامة الفصاحة فيهم عاجزون عن أن يأتوا بسورة من مثله.

فاليوم وبعدما تقدمت البشرية في فنون الفصاحة وأذواق البلاغة لم تأت بما يسامي القرآن في آية منه وأن في لفظه فضلاً عن معناه، وحتى الماديين الملحدين الذين لا يؤمنون بالله، في روسيا الشيوعية، عندما أرادوا أن يطعنوا في هذا القرآن في مؤتمر المستشرقين عام ١٩٥٤ كانت دعواهم أنه لا يمكن أن يكون من عمل شخص واحد - أياً كان - وهو محمد، بل هو من عمل جموع كبيرة، صرفوا طاقات كثيرة في نضده ونظمه، وأنه لا يمكن تأليفه في الجزيرة العربية القاحلة الجاهلة!

فيا لحماقى الطغيان العرب، والناكرين لهذه الرسالة السامية، من حمق في عمقهم، وَخنق وحَنق في حلوقهم، أن يخرج منها تلك الفرية الفاضحة ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾(١)! ولئن قلت: علّهم كانوا يلحدون المعاني القرآنية إلى أعجمي والألفاظ لمحمد نفسه، كما قد تلمح له ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ﴾ حيث التعليم هو للمعاني دون الألفاظ.

فالجواب أن «ه» في ﴿يُعَلِّمُهُۥ﴾ راجع إلى القرآن ككل بألفاظه ومعانيه، والتعليم يعمهما حيث يُتعلم اللسان كما يُتعلم معاني اللسان.

ثم الأعجمية راجعة إلى الألفاظ دون المعاني، فإنه لسان أعجمي ولغة أعجمية دون معان أعجمية، فما لم تلفظ المعاني بلغة فليست هي لا أعجمية ولا عربية، بل هي معان مدلولة بأية لغة كانت.

إذاً فعكس الصورة أحرى بالشبهة أن التعليم كان في الألفاظ دون

---

(١) سورة الصف، الآية: ٨.

المعاني، فالمعاني - إذاً - من محمد والألفاظ من غلام أعجمي، وهنا الجواب أوقع ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ إضافة إلى ما طوي عن ذكره في هذه الصورة، أن المعاني القرآنية هي أرقى من ألفاظه، فالعارف بها هو أعرف بألفاظه وهو عربي وذاك أعجمي! ولكن «إنما» تحصر تعليم القرآن ككل بـ ﴿يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ فجاء الجواب حسماً لمادة الكل!

فهم - إذاً - في أضل الضلال في فريتهم العقيمة الحمقاء، وهذه سنة الله الدائبة:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهۡدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٠٤﴾:

﴿لَا يَهۡدِيهِمُ﴾ إلى آياته إذ زاغوا عنها فأزاغ الله قلوبهم، و﴿لَا يَهۡدِيهِمُ﴾ بأحرى لنقضها، بل ويضلهم عن شبهات مريبة غامضة فيها، عن ترهات واهيات تفضحهم ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الدنيا ومنه فَضْحُهُمْ بما يتقولون، وفي الآخرة بما كانوا يكسبون.

﴿إِنَّمَا يَفۡتَرِي ٱلۡكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ١٠٥﴾:

أترى المفتري الكذب على الله هو الرسول المؤمن بآيات الله، المتمثلة فيه رسالة الله؟ ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ٤٤ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ٤٥ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ٤٧﴾[1] أم هم المشركون بالله، الناكرون لآيات الله ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾.

فهل الحبيب يفتري الكذب على حبيبه ثم العدو يصدِّق فيه ويصدِّقه؟ ﴿تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ﴾[2]! فإضافة إلى دلالة القرآن الذاتية على أنه آية الله،

(١) سورة الحاقة، الآيات: ٤٤-٤٧.
(٢) سورة النجم، الآية: ٢٢.

فالرسول المؤمن بالله وآياته، الذي عُرِف منه الصدق مع الخلق قبل رسالته لحد سمي الصادق الأمين، إنه هو أصدق مع الخالق بعد رسالته، وبينات صدقه واضحة، وكيف يفتري على الله في كتاب يستحيل كونه من عند غير الله، ولماذا يفتري على الله وهو المؤمن بآيات الله، فهل الكافرون بآياته صادقون، والمؤمن بها كاذب مفترٍ على الله! ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾! أو يعجز الله أن يحجز المفتري عليه وحياً رسالياً، وذلك الحجز ضرورة تصفوية للرسالات الإلهية؟ وكيف بإمكان المفتري أن يأتي بآية إلهية قاطعة الدلالة فهو يسامي الله في إتيان آية؟

وكيف بالإمكان أن هكذا مفترٍ ينسب ما أتى به إلى الله إن كان يريد مساً بكرامة الله، ولا يدَّعيه لنفسه حتى يظهر مساماته لله؟!

﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٦﴾﴾:

وذلك الكفر الماحق هو أكفر الكفر وأسفل دركاته، وهو المضلِّل للبسطاء: أن لو كان الإيمان حقاً لما ارتد هؤلاء، وهذه المواصفة الثانية للمفتري على الله قد تلمح أن منهم من كفر بالله من بعد إيمانه لكي تضلِّل قولته ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۢ﴾(١) أكثر وأكثر.

واحتمال آخر في ﴿مَن كَفَرَ﴾ أنه شرطٌ جزاؤه ﴿فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ﴾ وعلى الوجهين فله مصداق كافر هو الذي يقول: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۢ﴾ وآخر مدّعى وهو رسول الهدى، إنه آمن أولاً بالله ثم كفر وافترى على الله، فمتى رئي منه اختلاف الحالة الرسالية حتى يقال: كفر بالله بعد إيمانه؟ وهو منذ الفطام صادق أمين مستسلم لرب العالمين، فهل إذا وصل إلى القمة الرسالية

(١) سورة النحل، الآية: ١٠١.

يفتري على الله الذي أرسله؟ والمؤمن الساذج ليس ليكذب على الله(١).

فالكفر بعد الإيمان من أردأ الكفر ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾ على الكفر بعد الإيمان ﴿وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ وهو إظهار الكفر حفاظاً على النفس فيما إذا كانت النفس أنفس من إظهار الإيمان.

ولأن الإكراه لا يؤثر إلا في الظاهر، فـ ﴿أُكْرِهَ﴾ لا تعني إلا ظاهر الكفر ﴿وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ دون تزعزع وتلكع، وكما حصل لعديد من أصحاب رسول الله ﷺ حين اضطروا إلى كلمة الكفر وقلوبهم مطمئنة بالإيمان(٢).

---

(١) الدر المنثور ٤ : ١٣١ - أخرج الخرائطي في مساوي الأخلاق وابن عساكر في تاريخه عن عبد الله بن جراد أنه سأل النبي ﷺ : هل يزني المؤمن؟ قال: قد يكون ذلك قال: هل يسرق المؤمن؟ قال: قد يكون ذلك قال: هل يكذب المؤمن؟ قال: لا، ثم اتبعها نبي الله ﷺ ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ١٠٥] أقول يعني من الكذب الذي لا يقوله المؤمن الكذب على الله.

وفيه أخرج ابن مردويه عن معاذ بن جبل أن النبي ﷺ قال: أخوف ما أخاف عليكم ثلاثاً: رجل آتاه الله القرآن حتى إذا رأى بهجته وتردى الإسلام أعاره الله ما شاء اخترط سيفه وضرب جاره ورماه بالكفر قالوا يا رسول الله ﷺ أيهما أولى بالكفر الرامي أو المرمي به؟ قال: الرامي، وذو خليفة قبلكم أتاه الله سلطاناً فقال من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله وكذب ما جعل الله خليفة حبه دون الخالق، ورجل استهوته الأحاديث كلما كذب كذبة وصلها بأطول منها فذاك الذي يدرك الرجال فيتبعه.

(٢) الدر المنثور ٤ : ١٣٢ - أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال لما أراد رسول الله ﷺ أن يهاجر إلى المدينة قال لأصحابه تفرقوا عني فمن كانت به قوة فليتأخر إلى آخر الليل ومن لم تكن به قوة فليذهب في أول الليل فإذا سمعتم بي قد استقرت بي الأرض فالحقوا أبي فأصبح بلال المؤذن وخباب وعمار وجارية من قريش كانت أسلمت فأصبحوا بمكة فاخذهم المشركون وأبو جهل فعرضوا على بلال أن يكفر فأبى فجعلوا يضعون درعاً من حديد في الشمس ثم يلبسونها إياه فإذا ألبسوها إياه قال: أحد أحد، وأما خباب فجعلوا يجرونه في الشوك، وأما عمار فقال له كلمة أعجبتهم تقية وأما الجارية فوتد لها أبو جهل أربعة أوتاد ثم مدها فأدخل الحربة في قبلها حتى قتلها ثم خلوا عن بلال وخباب وعمار فلحقوا برسول الله ﷺ فأخبروه بالذي كان من أمرهم واشتد على عمار الذي كان تكلم به =

والاستثناء هنا ليس إلا عن ظاهر الكفر فإن باطنه لا يكره عليه.

وهل يجوز ترك إظهار الكفر عند التقية النفسية؟ الآية إنما تصد العذاب الأليم عمن اتقى، فبطبيعة الحال لمن صمد على ظاهر الإيمان كباطنه، ولا سيما في تلك الظروف المحرجة، فإن له جزاء الحسنى يوم الحساب، فإنه صادع بالحق وذلك أخذ برخصة الله[1] اللهم إلا إذا كانت نفسه أنفس من ظاهر الإيمان وأنفع لكتلة الإيمان، فهنا التقية تقتضي تقديم النفس على ظاهر الإيمان[2].

وعلى أية حال في دوران الأمر هكذا ليس عليه اختيار القتل على البراءة[3] إلَّا إذا كان موقفه بحيث يحسب براءته قتلاً للدين فهنا عليه اختيار

= فقال له رسول الله ﷺ كيف كان قلبك حين قلت الذي قلت، أكان منشرحاً بالذي قلت أم لا؟ قال: لا، قال: وأنزل الله: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦] وفيه عن أبي عبيدة بن محمد بن عمار عن أبيه قال أخذ المشركون عمار بن ياسر فلم يتركوه حتى سب النبي ﷺ وذكر آلهتهم بخير ثم تركوه فلما أتى رسول الله ﷺ قال: ما وراءك شيء؟ قال: شر ما تركت حتى نلت منك وذكرت آلهتهم بخير قال: كيف تجد قلبك؟ قال: مطمئن بالإيمان، قال إن عادوا فعد فنزلت: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦].

(١) تفسير الرازي ٢٠: ١٢٢ روي أن مسيلمة الكذاب أخذ رجلين فقال لأحدهما ما تقول في محمد؟ فقال: رسول الله ﷺ فقال ما تقول فيّ؟ قال: أنت أيضاً فخلاه وقال للآخر، ما تقول في محمد؟ قال: رسول الله قال ما تقول فيّ؟ قال: أنا أصم فأعاد عليه ثلاثاً فعاد جوابه فقتله فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: أما الأول فقد أخذ برخصة الله وأما الثاني فقد صدع بالحق فهنيئاً له.

(٢) نور الثقلين عن تفسير العياشي عن أبي بكر عن أبي عبد الله عليه السلام قال قال بعضنا: مد الرقاب أحب إليك أم البراءة من علي عليه السلام فقال: الرخصة أحب إلي أما سمعت قول الله في عمار: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦].

(٣) المصدر عن تفسير القمي عن هارون بن مسلم عن مسعدة بن صدقة قال: قيل لأبي عبد الله عليه السلام إن الناس يروون أن علياً قال على منبر الكوفة: أيها الناس إنكم ستدعون إلى سبي فسبوني ثم تدعون إلى البراءة مني فلا تتبرؤوا مني؟ فقال: ما أكثر ما يكذب الناس على علي عليه السلام ثم قال إنما قال: إنكم ستدعون إلى سبي فسبوني ثم تدعون إلى البراءة مني وإني لعلى دين محمد ولم يقل فلا تتبرؤوا مني، فقال له السائل: أرأيت إن اختار القتل دون البراءة؟=

القتل، كما فعل الإمام الحسين عليه السلام وكل حسيني صادق في تاريخنا المشرق المشرِّف، وقد ينص القرآن قصة إيمان السحرة وإكراههم على الردة ولكنهم صمدوا ولم يرضوا خنوعاً أمام فرعون حتى بشطر كلمة تُرضيه حيث الموقف خطير خطير، والتقية كانت تقتضي التضحية.

هذا ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾ بعد الإيمان، أكره على ظاهر الكفر أم لم يكره، إذ لا إكراه في الإيمان، ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وعلّ الغضب وِجاه عذاب عظيم، هو القتل في الدنيا، فكيف يفترى على رسول الهدى صلى الله عليه وآله وسلم إنه أجار عبد الله بن أبي سرح بما استجار له الخلفاء الثلاثة بعد أمره صلى الله عليه وآله وسلم بقتله يوم الفتح ثم استعمله عثمان في خلافته!

فإن كان تائباً - ولم يؤثر عنه - فلماذا القتل، وإلّا فلماذا العفو عنه تقديماً لاستجارة هؤلاء على غضب الله؟ على أن الغضب والعذاب الأليم مطلقان لا يقيَّدان بتوبة!.

ولماذا ﴿مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾ دون «صدره»؟ علّه للإشارة إلى أن الكفر بعد الإيمان هو مثار الشرح بالكفر لصدور كافرة أم ضعيفة الإيمان، ولعل الذي يكفر بعد الإيمان دون اطلاع الآخرين على كفره، علّه ليس من مصاديق ﴿مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾ أم يخف عذابه عنه هنا وفي الآخرة.

والإكراه على لفظة الكفر قد يكون توعيداً بالقتل، نفسه أو من هو كنفسه، أم بمنكر آخر كاللواط والزنا والمساحقة وإشرابه الخمر أم سائر المحرم، أم أخذ ماله وسائر ما لا يجوز الإقدام عليه من ترك واجب أم فعل محرم.

= فقال والله ما ذلك عليه وما له إلا ما مضى عليه عمار بن ياسر حيث أكرهه أهل مكة وقلبه مطمئن بالإيمان فأنزل الله عز وجل: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦]، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: يا عمار إن عادوا فعد فقد أنزل الله عز وجل عذرك وأمرك أن تعود إن عادوا.

ومهما صدق الإكراه في كلٍّ من هذه وأشباهها، ولكنه لا يصدق في حمله على كلمة الكفر إلَّا في نفسه أمّا هو كنفسه، رخصةً من الله، وذلك هو القدر المتيقن هنا كما هو مورد الآية لا سواه، وقد يلحق بالنفس أنكر المنكرات التي لا يتحملها المؤمن كالزنا واللواط، ثم فيما دون ذلك - الذي هو أرخص من نفس وأضرابها - لا رخصة في كلمة الكفر، ولا بد من رعاية الأهم على أية حال.

ولأن الضرورات تقدر بقدرها لا تجوز كلمة الكفر فيما تجوز إلَّا قدر الضرورة المكرهة، فلو أكره على إحدى كلمات كافرة لا تجوز إلَّا الأخف كفراً، وبنية التورية.

وقد ينقسم الإكراه في حكمه إلى الأحكام الخمسة: إيجاباً لما أكره عليه، أم تحريماً، أو تخييراً برجحان لأحد الأمرين، أم تساوياً، وذلك حسب الضابطة العامة: وهي وجوب تقديم الأهم على المهم، ولأن حرمة النفس وكلمة الكفر هما على الأكثرية الساحقة مسامتان، برجاحة ظاهر الإيمان على النفس، لذلك رُخِّصت التقية واعتبر المضحي بنفسه صادعاً بالحق فهنيئاً له.

فلو أكره قائد إسلامي على كلمة الكفر حرمت عليه التقية لأنه بذلك يشرح بالكفر صدوراً، ولو أكره مسلم بسيط عليها، وبحيث لا يطلع عليها أحد أم لا يؤثر فيه، فالتقية هنا واجبة، وعند تساوي الضررين فهو بالخيار، وفي رجاحة أحدهما فهو بين رخصة التقية والصدع بالحق فهنيئاً له.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾﴾:

ولماذا عليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم؟ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ تقديماً للإيمان على الكفر، ليكسبوا زهرة من

الحياة الدنيا ويشرحوا بالكفر صدور آخرين إلى صدورهم ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ الصامدين على كفرهم، لا يوم الدنيا ولا يوم الدين.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾:

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾[1].

قلوب مقلوبة عن الفقه، وأسماع مصدودة عن سمع الإنسان، وأبصار مغشية عن إبصاره، فهم إذاً في عقلية حيوانية بل هم أضل ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾﴾:

وَيْكأنهم هم الخاسرون هناك لا سواهم، ومن أهل النار مَن هم أدنى منهم كفراً وغفلة، إلا أن هؤلاء هم حَصَب جهنم ووَقودها، وأولاء إنما يُحرقون بنارهم وهم أخف منهم خساراً وبواراً.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾:

فهنا ضَفَّة الإيمان وصفته مهاجرةً في الله وافتناناً ومجاهدة وصبراً لله ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وهناك ضَفَّة الكفر وصفته، كفراً بالله وافتراءً للكَذِب على الله. وكفراً بعد الإيمان شرحاً بالكفر صدراً نكراناً بالله، ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ - وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ - فِى ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩.

وأين ضَفَّة من ضَفَّة وصِفة من صِفة؟!.

ولقد أبى بعض المؤمنين أن يظهروا الكفر بألسنتهم مؤثرين الموت على لفظة الكفر باللسان، كما صنعت سمية أم ياسر وهي تطعن بالحربة في موضع العفة حتى تموت، كما صنع زوجها أبو ياسر.

وقد كان بلال يفعل به المشركون الأفاعيل حتى ليضعون الصخرة العظيمة على صدره في شدة الحر حتى يلفظ بكلمة الشرك وهو يقول: أحد أحد، ويقول: والله لو أعلم كلمة هي أغيظ لكم لقلتها! وفي هذه المهاجرة الهاجرة إلى رسول الهدى في المدينة اقتسموا قسمين، منهم من قضى نحبه صادعاً بالحق فهنيئاً له[1] ومنهم من أخذ بالتقية الرخصة ﴿بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ﴾ ضرباً وشتماً أما هيه من أساليب التعذيب، ثم جاهدوا في المهجر في سبيل الله وصبروا على كل الأذيات والحرمان في الله ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ لسيئاتهم سابقةً ولاحقةً، ولتقياتهم حيث كانت مسموحة مهما لم تكن مشكورة، حيث الأفضل كان هو تقديم الأفضل، ليرى أعداء الله صمود المؤمنين بالله في سبيل الله، والطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق.

أو أنه من اتقى وقاية لنفوس جموع من المسلمين، فلو كانت فقط نفسه

---

(١) ومن هؤلاء من يذكر الحافظ في ترجمة عبد الله بن حذيفة - أحد الصحابة - أنه أسرته الروم فجاؤوا به إلى ملكهم فقال له تنصر وأنا أشركك في ملكي وأزوجك بنتي فقال له لو أعطيتني جميع ما تملك وجميع ما تملكه العرب أن أرجع عن دين محمد ﷺ طرفة عين ما فعلت، فقال: إذن أقتلك فقال أنت وذاك قال: فأمر به فصلب وأمر الرماة فرموه قريباً من يديه ورجليه وهو يعرض عليه دين النصرانية فيأبى ثم أمر به فأنزل ثم أمر بقدر وفي رواية: بقرة من نحاس فأحميت وجاء بأسير من المسلمين فألقاه وهو ينظر فإذا هو عظام تلوح وعرض عليه فأبى فأمر به أن يلقى فيها فرفع في البكرة ليلقى فيها فبكى فطمع فيه ودعاه فقال: إني إنما بكيت لأن نفسي إنما هي نفس واحدة تلقى في هذا القدر الساعة في الله فأحببت أن يكون لي بعدد كل شعرة في جسدي نفس تعذب هذا العذاب في الله.

لم يتق، ولكنها نفوس طابت وطهرت وفي هدرها هدر لقوة إسلامية كبيرة، وهذا جمع بين الأمرين[(١)].

وترى متى ﴿غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لهؤلاء الذين شرحوا بالكفر صدراً، والمغفرة والرحمة للذين صمدوا على الإيمان؟

﴿۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾:

في ذلك اليوم العصيب ﴿تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ﴾ فإنه يوم الجمع الحشر، حال أنها ﴿تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ لا سواها، فإن ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾[(٢)].

فالنفس الناسية نفسها يوم الدنيا، الذاكرة لمتعلقاتها، الهائمة فيها، تذكر نفسها يوم الأخرى، وتنسى ما سواها، وكذلك النفوس المؤمنة، الذاكرة المتذكرة يوم الدنيا، اللهم إلا لمن أُذِن له بشفاعة نفوسٍ تستحقها[(٣)].

---

(١) وهذه رواية ثانية بالنسبة لهذا الصحابي الكبير أنه سجنه ومنع عنه الطعام والشراب أياماً ثم أرسل إليه بخمر ولحم خنزير فلم يقربه ثم استدعاه فقال: ما منعك أن تأكل؟ فقال: أما إنه قد حل لي ولكن لم أكن لأشتمك في فقال له الملك فقبل رأسي وأنا أطلقك فقال تطلق معي جميع أسارى المسلمين فقال: نعم فقبل رأسه فأطلق معه جميع أسارى المسلمين عنده فلما رجع قال عمر بن الخطاب حقٌّ على كل مسلم أن يقبل رأس عبد الله بن حذافة وأنا أبدأ فقام فقبل رأسه» (ذكره ابن كثير في التفسير).

(٢) سورة عبس، الآية: ٣٧.

(٣) نور الثقلين ٣: ٩٠ القمي في الآية قال: نزلت في قوم كان لهم نهر يقال له البليان وكانت بلادهم خصبة كثيرة الخير وكانوا يستنجون بالعجين ويقولون هذا ألين فكفروا بأنعم الله واستخفوا بنعمة الله فحبس الله عليهم البليان فجدبوا حتى أحوجهم الله إلى ما كانوا يستنجون به حتى كانوا يتقاسمون عليه، وفيه عن محاسن البرقي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن قوماً وسع الله عليهم في أرزاقهم حتى طغوا فاستخشنوا الحجارة فعمدوا إلى النقي وصنعوا منه =

و﴿نَّفۡسِهَا﴾ هنا هي ﴿كُلُّ نَفۡسٍ﴾ بعينها، كما تقول نفسي وأنفس الآخرين، دون اختلاف بين النفس الآتية والمجادلة، ﴿تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا﴾ دفاعاً عنها، ولكنها لا تفيدها جدالها إذ ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٍ مَّا عَمِلَتۡ﴾ من خير أو شر، فالأعمال هي بنفسها جزاء أصحابها، وهي حاضرة كما عملت: ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٍ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٍ مُّحۡضَرًا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدًاۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾[1].

وقد يستثنى عن ﴿كُلُّ نَفۡسٍ﴾ هنا أصحاب اليمين، فإن ﴿كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ ٣٨ إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ ٣٩﴾[2] وبأحرى السابقون والمقربون، ثم الآخرون مؤمنون وكافرون هم مرتهنون بأعمالهم.

ولأن التوفية هناك ليست إلا بما عملت ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرًا يَرَهُۥ ٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ٨﴾ إذا ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ نقصاً عن الثواب أو زيادة في العقاب، اللهم إلا زيادة الثواب فضلاً، وحطاً عن العقاب نفلاً.



= كهيئة الأفهار فجعلوه في مذاهبهم، فأخذهم الله بالسنين فعمدوا إلى أطعمتهم فجعلوها في الخزائن فبعث الله على ما في الخزائن ما أفسده حتى احتاجوا إلى ما كان يستطيبون به في مذاهبهم فجعلوا يغسلونه وما يأكلونه وفي تفسير العياشي عنه عليه السلام أنهم قوم من بني إسرائيل.

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣٠.

(٢) سورة المدثر، الآيتان: ٣٨، ٣٩.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ

ٱلْحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾:

تحذيرة خطيرة عن كفران نعمة الله بعدما بُذِلت، وتكذيب آية الله بعدما نزلت، ولقد جمعت في هذه القرية الممثل بها النعمتان: رزق رغد من كل مكان، ورسول منهم، فكفرت بهما ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾.

ففيما سبق حذر الكافرون بأليم العذاب في الآخرة، وهنا العذاب في الدنيا، جمعاً بين النقمتين إذ جمعوا بين كفرهم بالنعمتين! لا علينا أن نعرف ما هي هذه القرية حيث القصد إلى النبهة عن هذه المواصفة، ولكنها فيما نعرف طول التاريخ الرسالي صادقة على مكة المكرمة كأصدق مصاديقها.

فهي ﴿كَانَتْ ءَامِنَةً﴾ عن غيرها: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْۚ﴾[1] و﴿مُّطْمَئِنَّةً﴾ في نفسها، فساكنها يأمن بأس ما حولها، ويطمئن عن بأس ما فيها، لأن الله تعالى جعلها حرماً آمناً.

وقد ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ في المعمورة كما في دعاء

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٦٧.

ابـراهـيـم عليه السلام: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾[1].

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ﴾ مـحـمـد ﷺ «فـكـذبـوه» - ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ في فتح مكة ﴿وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾.

هذا - ولكن أهل مكة لم يعذبوا هنا تدميراً، وفتح مكة فَتَح إلى قلوبهم نور الهدى فآمن ثلة ونافق آخرون، إذاً فلا ينطبق هذا المثل عليها إلا في النعم الأربع، دون ذلك العذاب.

وعلّ ذلك المثل في ذلك التشابه مع مكة المكرمة، يهدد أهليها الكافرين بعذاب أليم.

فقد انطبق ذلك المثل الأمثل على حالهم، وعاقبة المثل تحذرهم عن مآلهم، مهما كانت البلدة غيرها كما قد يروى[2] حيث الأمثال تحذر كما هي تبشر، وهذه طريقة قرآنية سامية في التحذير والتبشير.

وهنا يُجَسِّم ذلك التعبير العبير الخوف والجوع فيجعلهما لباساً، إذ يلبسانهم في أرواحهم وأبدانهم، شمول الجوع لأبدانهم، وشمول الخوف لأرواحهم، وذلك العذاب الشامل هنا مسٌّ وذوق وليس كلَّ العذاب، فيا ويلاه لكل العذاب يوم القيامة! فهذه الاستعارة اللطيفة يُخرج المثل مَخرج

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٣٧.

(٢) نور الثقلين ٣: ٩٠ القمي في الآية قال: نزلت في قوم كان لهم نهر يقال له البليان وكانت بلادهم خصبة كثيرة الخير وكانوا يستنجون بالعجين ويقولون هذا النبي فكفروا بأنعم الله واستخفوا بنعمة الله فحبس الله عليهم البليان فجدبوا حتى أحوجهم الله إليه، كانوا يستنجون به حتى كانوا يتقاسمون عليه وفيه عن من سن البرقي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن قوماً وسع الله عليهم في أرزاقهم حتى طغوا فاستخشنوا الحجارة فعمدوا إلى النقي وصنعوا منه كهيئة الأفهار فجعلوه في مذاهبهم فأخذهم الله بالسنين فعمدوا إلى أطعمتهم فجعلوها في الخزائن فبعث الله على ما في الخزائن، أفسده حتى احتاجوا إلى ما كان يستطيبون به في مذاهبهم فجعلوا يغسلونه ويأكلونه وفي تفسير العياشي عنه عليه السلام أنهم قوم من بني إسرائيل.

الخبر عن العقاب النازل، أم ما يحق نزوله، حيث البلاء شامل شمول اللباس، وهو بعدُ ذوقٌ وليس أصل البلاء.

ومهما كانت حقيقة الذوق في المطاعم والمشارب، لا في الكسيِّ والملابس، فذلك معروف في مذهب البلاغة أن يقال لمن عوقب على جريمة أو أخذ بجريرة: ذُق فعلك، واجِن ثمرة جهلك، وإن كانت عقوبته ليست مما يُحس بالطعم ويُدرك بالذوق.

وكما الملابس تشتمل على الجلود، كذلك ما يظهر منهم عن مضيض الجوع وأليم الخوف، من سوء الأحوال وشحوب الألوان وضؤولة الأجسام، هي أيضاً كاللباس الشامل لهم، والظاهر عليهم.

وعلى أيَّة حال فهذه القرية ليست هي مكة بعينها، بل هي ما وصفها الله ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ ولم تذق مكة جوعاً ولا خوفاً، وإنما يُتهدد أهلوها بذلك المثل إن واصلت في كفرها بأنعم الله وتكذيبها رسولها أنها ستذوق ما ذاقت نظيرتها.

وإنما ﴿بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾ جمع قلة دون «النعم» جمع كثرة، وهم كانوا في نعم كثيرة فعندهم أمن واطمئنان! ورزقهم رغد من كل مكان؟

علّ القلّة إشارة إلى الجموع الثلاثة من النعم، وكل واحدة منها في نفسها كثرة، أم ولأنها بجنب نعمة الرسالة قلة فإن متعة الحياة الدنيا قليلة مهما كثرت، ولذلك لم يدخل نعمة الرسالة خلالها، بل أفردها بالذكر وخص لتكذيبها العذاب وهم ظالمون.

ويا لها من نعمة جامعة تجمع القمة الروحية إلى القمة المعيشية، دون أية زعزعة إلّا كل أمَنةٍ وطمأنينة، ورغدة الرزق من كل مكان، فحقٌّ لها لباس الخوف بدل الأمن والطمأنينة، ولباس الجوع بدل وفير الرزق والنعمة، ولباس العذاب في الأخرى بدل الرحمة.

وهذه هي سنة الله في كل قرية وأمة يوم الدنيا قبل الآخرة: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1] فإن ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾[2] إذاً:

﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾﴾:

﴿فَكُلُوا﴾ سماحٌ لأكل ما فيه مواصفات ثلاث: ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ فيخرج عنه مال السرقة والغصب وأية خيانة من رباً أو بخس في المكيال، فإنها ليست من رزق الله لمن يكسبها خلافاً لشرعة الله.

٢ - ﴿حَلَالًا﴾: كلوا حلالاً. . - مما رزقكم الله حلالاً، فمن رزق الله ما لا يحل أكله ذاتياً أم عرضياً، ومن الأول أكل الحيوانات المحرمة المملوكة ككلب الصيد وأمثاله، ومن الثاني التبذير أو الإسراف في الأكل، أو الأكل نهار رمضان، وكونه كغير الطيب من رزق الله لا ينافي عدم حلّه للأكل، حيث الرزق لا يختص بالأكل. ﴿طَيِّبًا﴾: مما رزقكم الله طيباً للأكل، فما لا تستطيبه الطباع السليمة فتستخبثه، هي محرمة الأكل، مهما كانت من رزق الله، حلالاً في أصلها مثل اللحم الذكي الذي نتن وتعفن.

ثم ﴿وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ أياً كانت من مأكولة وملبوسة ومسكونة ومنكوحة أمّا هيه، وشكرها هو صرفها في مرضاة الله، وإظهار أنها من الله: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[3] وإنفاقها للمحاويج من عباد الله،

(١) سورة الأنفال، الآية: ٥٣.
(٢) سورة الرعد، الآية: ١١.
(٣) سورة الضحى، الآية: ١١.

﴿وَاشْكُرُوا... إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ فإن الشكر لنعمة المعبود من لزامات العبودية الموحدة.

وقد يكون ﴿حَلَالًا طَيِّبًا﴾ حالين لـ ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ فهي إذاً ضابطة عامة في كل مأكول، إنه حلال طيب كأصل أوّليٍّ شامل حتى يرد الحظر، فهي من أدلة أصالة الحل في كل ما يؤكل.

أو أنهما، وصفان وحالان فالمعنيان إذاً معنيَّان، وأصالة الحل هنا تختص بكل حلال طيب، وإذا ترددنا في حل أو طيب فالأصل هو الحل، وإذا ورد حظر فلا هو حل ولا طيب.

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾:

أترى ﴿إِنَّمَا﴾ هنا وفي ثلاث أخرى هي لحقيقة الحصر؟ وهذه قلة من ثُلَّة محرمة في الشرعة الإسلامية كتاباً وسنة! فهنالك مكية أخرى نزلت قبل هذه: ﴿قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[١].

وأخريان، مدنية أولى نزلت في أولياتها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾[٢].

وأخرى هي من أخريات ما نزلت فيها: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٤٥.

(٢) سورة البقرة، الآيتان: ١٧٢، ١٧٣.

إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(١).

هذه جماع الآيات النازلة في محرمات المأكولات، محلِّقة على العهدين مكياً ومدنياً، وفي كلٍّ أولاً وأخيراً مما يبرهن بوضوح أن الضابطة التي تحملها قائمة صامدة بأسرها.

ومن الضرورة الإسلامية أن السنة ليست لتنسخ الكتاب على أية حال، اللهم إلا تقييداً لمطلقه أم تخصيصاً لعمومه على شروطهما، فماذا يصير إذاً مصير سائر المأكولات المحرمة كالوحوش والسباع والمسوخ؟

وكيف تنسخ المحرمات الأربع من المأكولات توسعة أم تضييقاً وهي محصورة في العهدين أولاً وأخيراً دونما تأشير طول العهد الرسالي إلى نسخ ولا في شطر آية.

نقول إنها أربع كما تقول الآيات الثلاث الأول، والسبعة الأخيرة في المائدة هي من مصاديق الميتة إلا ما ذبح على النصب فإنه مما أهل لغير الله به، فتطابقت الآيات الأربع في المحرمات الأربع دون اختلاف إلا توضيحاً وتفسيراً وكما في ﴿دَمًا مَّسْفُوحًا﴾(٢) كما في آية الأنعام، حيث يقيد نصوص الدم بالمسفوح عند الذبح أم أي جرح، فالدم المتخلِّف في الذبح الشرعي، أم أي دم غير مسفوح في بيضة أم شجرة أمّا هيه، إنه غير محرم الأكل فطاهر قطعاً، فإن بين حرمة الأكل والنجاسة عموماً مطلقاً، فالنجس أياً كان محرم أكله ولا عكس كلياً، فغير المحرم أكله طاهر دون ريب، فلا أن دم

(١) سورة المائدة، الآية: ٣.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٤٥.

البيضة نجس ولا محرم يحتاج إلى محوه حتى يحل، سناداً إلى نص الآية ﴿أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا﴾ حيث تخص حظر الأكل في الدم بالمسفوح.

وظاهر الخطاب في ﴿عَلَيۡكُمُ﴾ لأقل تقدير، شموله للمسلمين وقد اختصوا به في آية البقرة والمائدة، فلا يختص بغير المسلمين حتى يبرَّر به اختصاص الحرمة بهذه الأربع حيث كانوا يُحرِّمونها، ولم يكونوا محرّميها! أترى ﴿إِنَّمَا﴾ هنا لغير الحصر، بتأويل أنها مركبة من «إن وما» حرف تأكيد تتصدر موصولاً، يعني: في الحق الذي حرم عليكم: الميتة.. كما في ﴿إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ﴾(١) فرفع ﴿كَيۡدُ﴾ دليل أن ما موصولة؟

ولكن ﴿ٱلۡمَيۡتَةَ﴾ نصباً تنقض كون «ما» موصولة، إذ يقتضي نصبها خبراً لـ «إنّ» و«ما» اسمها! ثم آية الانعام ﴿لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا﴾(٢) نص في الحصر ولا تقبل هذا التأويل العليل! وأخيراً فكون «ما» موصولة لو صحَّت لا يحوِّل الحصر إلى سواه، حيث المعدود في القرآن من المحرمات بهكذا تعبير يفيد فائدة الحصر! وليس إجمالاً يحتاج إلى تفصيل: ﴿وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تَأۡكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَقَدۡ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيۡكُمۡ إِلَّا مَا ٱضۡطُرِرۡتُمۡ إِلَيۡهِۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا لَّيُضِلُّونَ بِأَهۡوَآئِهِم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾(٣).

الجواب أن آية المائدة لا حصر فيها لمكان «حرمت...» فقد يجوز إضافة محرمات أخرى فرعية في السنة وليست لها ناسخة حيث رفع فيها حصر الآيات السابقة مكية ومدنية.

وبأحرى أن نقول: محور الحصر هو الأنعام إلا في لحم الخنزير حيث كان متعوَّد الأكل مع الأنعام، فقد ذكرت ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ﴾(٤): الأنعام، في

(١) سورة طه، الآية: ٦٩.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٤٥.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١١٩.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٤٣.

الأنعام، ثم ندد بمن يحرِّم منها: ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾[(١)] مرتين، بعد الضأن والمعز، وبعد الإبل والبقر، ومن ثم التهديد الشديد ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ...﴾[(٢)] ثم يذكر ثلاثاً من الأنعام، ولحم خنزير متعود أكله فيما بينهم من غير الأنعام، ثم يذكر تحريم قسم مما أُحِل، على الذين هادوا جزاءً ببغيهم.

وآية الأنعام هذه هي أصرح الآيات في الحصر، حيث تستأصل الحرمة فيما أوحي إليه، الشامل لوحي الكتاب والسنة، إلا هذه المذكورات، ولكنها في نطاق خصوص الأنعام.

والأنعام هي المقصودة أم ضمن القصد من ﴿طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾[(٣)] في النحل والبقرة، ومن ثم تحريم الأنعام في حالتي الموت والإهلال لغير الله بها، والدم المسفوح بصورة مطلقة ولحم الخنزير.

فـ ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ﴾ و﴿لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا﴾ هما تعبيران اثنان عن أمهات المحرمات في الأنعام وسواها، والمشركون كانوا يحللونها ويحرمون حلّها، معاكسة لحكم الله وكما هنا: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾:

ومن الشاهد على أنها أصول المحرمات في الأنعام إلا لحم الخنزير، آية المائدة الأولى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٤٣.

(٢) سورة الأنعام، الآيتان: ١٤٤، ١٤٥.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٥٧.

وَأَنتُمْ حُرُمٌ . . .﴾[1] ثم الثالثة تبين ذلك الأصل بعد إحلال الصيد حُرُماً ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ. . .﴾[2] وكأن ذلك الإحلال لم يعد من محرمات الأنعام وهو الحق، حيث القصد إلى سرد المحرمات الأصيلة على أية حال كما بيَّن، دون المحرم في بعض الأحوال كإحلال الصيد وأنتم حرم، أم أكل الأنعام سرقة أم رباً أم خيانة أم حالة الصوم أما هيه من حالة محرمة.

لذلك فالحصر في هذه الأربع إضافي محصور في نطاق الأنعام، بياناً لأصول المحرمات فيها على أية حال، فلا تعارضه الآيات المحرِّمة لها عرضياً في بعض الحالات، أو التي تحرم سواها من المأكولات كالربا والسرقة والأكل بالباطل ككل، وبخس المكيال والأكل حالة الصوم وأضرابها، كما لا تعارضها السنة المحرِّمة لا كل لحوم السباع والوحوش والمسوخ وأضرابها من حَيَوان محرمة، أم وسائر الأكل من سائر المأكولات المحرمة، أصلية وفرعية.

ثم ﴿الْمَيْتَةَ﴾ هي الميِّتة حتف أنفها، أو المذبوحة أم المقتولة بغير الطريقة المأمور بها، كما تفصلها آية المائدة وفصلناها فيها.

و﴿وَالدَّمَ﴾ مطلقة هنا تشمل كل دم، ولكنها مخصوصة في الأنعام بكونه «مسفوحاً» فغير المسفوح إذاً غير محرم أكلاً، وبأحرى فيما سوى الأكل، وأحرى منهما عدم النجاسة، فالدم داخل البيض طاهر حلٌّ أكله، دون حاجة إلى خلطه إمحاءً لحمرته، وكما الدم المتخلِّف كالعادة في الذبيحة حِلٌّ بنفس السند.

﴿وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ﴾ محرم على أية حال، وإن عولج بإذهاب الدودات الصغيرة فيه أمّاذا من علاجات.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٣.

﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۖ﴾ من الأنعام وإن ذبحت بطريقة شرعية، حيث الذبح لغير الله، وباسم غير الله، أم بغير اسم الله، مما يحرِّم المذبوح ﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾[1].

﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ﴾ إلى أكل شيءٍ من هذه، فالضرورات تبيح المحظورات، ولكنها تقدَّر بقدرها ﴿غَيۡرَ بَاغٖ﴾ لم يبغ قصداً إلى أكل الحرام، كمن عمد إلى حالة الاضطرار، فاضطر إلى أكل شيء من هذه باختيار، فهو مضطر باغ، أم لم يقصد أكله، وإنما اختار أمراً يضطره إلى أكله وهو يعلم أن اختياره يُنهيه إلى اضطرار، كمن يسافر دونما ضرورة إلى بلاد الكفر، وهو يعلم اضطراره فيها إلى أكل الحرام، والبغي هو التجاوز فإن كان عن العدل إلى الإحسان فإحسان، أم عن العدل إلى الظلم فعدوان وهو المعني هنا أن يتجاوز عن العدل إلى الظلم جَنَفاً.

﴿وَلَا عَادٖ﴾ في طريق الأكل الاضطرار أن يتجاوز عما تقتضيه الضرورة، و﴿غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ﴾[2] بيان آخر لـ ﴿غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ﴾ حيث التجانف لإثم هو القصد إليه إعراضاً عن الحق، سواء في سبيل الوصول إلى الاضطرار، أم تجاوزاً عما يسمح للمضطر.

فليس الاضطرار إلى أكل الحرام بنفسه مبرراً له وأنه مغفور له، وإنما الاضطرار غير المختار، حيث الاضطرار بالاختيار لا ينافي الاختيار، وكذلك الاضطرار في غير عدوان، وإنما اضطرار صالح دون بغي ولا عداء، وهو قاصر دون تقصير، فهنالك ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ قضية عدله وفضله، كما أن عدم غفره ورحمته لمضطر باغ أو عاد، هو قضية عدله.

هذا ما يتلى عليكم من أصيلة المحرمات في الأنعام، ومن سواها

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢١.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٣.

أصيلاً لحم خنزير، فلا يحل تحريم ما سواها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[1] وكما فعل المشركون: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣٨) وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٣٩) قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٤٠)﴾[2] فرد الله عليهم بما ردّ، وبـ ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[3] [4]:

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (١١٦)﴾:

﴿لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ﴾ هو قول اللسان أن يقول بفيه ما لا حجة فيه، بل هي حجة عليه قاطعة قاصعة، و«ما» هنا مصدرية فهي: لوصف ألسنتكم الكذب، وصفاً للكذب باللسان، دون أصل له في الجنان ﴿وَلَا

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٨٧.

(٢) سورة الأنعام، الآيات: ١٣٨-١٤٠.

(٣) سورة المائدة، الآية: ١٠٣.

(٤) نور الثقلين ٣: ٩٢ في كتاب التوحيد بسند متصل عن عبد الرحيم القصير قال كتب أبو عبد الله عليه السلام على يدي عبد الملك بن أعين: إذا أتى العبد بكبيرة من كبائر المعاصي أو صغيرة من صغائر المعاصي التي نهى الله عزّ وجلّ عنها كان خارجاً من الإيمان وساقطاً عنه اسم الإيمان وثابتاً عليه اسم الإسلام فإن تاب واستغفر عاد إلى الإيمان ولم يخرجه إلى الكفر والجحود والاستحلال، فإذا قال للحلال هذا حرام وللحرام هذا حلال ودان بذلك فعندنا يكون خارجاً من الإيمان والإسلام إلى الكفر وكان بمنزلة رجل دخل الحرم ثم دخل الكعبة فأحدث في الكعبة فأخرج عن الحرم والكعبة فضربت عنقه وصار إلى النار.

تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ دونما أصل في شرعة الله ﴿يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾[1] الذي وصفه لسانكم، وهذا كذب مزدوج أن يصف كذباً لا يعتقده، فلا أصل له باطناً ولا واقعاً.

ثم ﴿وَلَا تَقُولُوا﴾ نهي عن أن يدين بما وصفه لقرنه بوصف اللسان فهو إذاً ذو أبعاد ثلاثة من الكذب، وذلك خارج من الإيمان والإسلام معاً إن كان مسلماً.

فقد يصف لسان الإنسان كذباً يعتقده صدقاً، وهو قاصر فيما يعتقد دون تقصير فله أجر واحد، وقد يصف كذباً لا يعتقده ولا يقول به فهو كاذب مقصر خارج عن الإيمان، أو يقول به وهو كذب فهو خارج عن الإسلام بعد الإيمان، أو يصف كذباً يعتقده مقصراً في دليله وإن كان يراه مصيباً فهو كاذب غير مفترٍ، أو يصف صدقاً يعتقده مصيباً في دليله واقعاً في مدلوله فله أجران.

فالثلاثة الوسطى كذب بدركاته، والأولى كذب مأجور - إن صح التعبير - والأخيرة صدق مطلق محبور مشكور و﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ تشمل الثلاثة دون الأولى والأخيرة.

ثم لا فلاح كما لا صلاح للذين يفترون على الله الكذب وإنما ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾[2] وكل متاع الدنيا قليل ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[3].

ثم القول الكذب في الشرعة تحليلاً وتحريماً قد يكون مشاقة لله، إنني أحكم كما الله يحكم، فهذا إشراك في ربوبية التشريع وإن وافق حكم الشرع أحياناً، وإن لم تشمله الآية وهو أنحس من كل مصاديق الكذب.

(١) سورة النساء، الآية: ٥٠.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٩٧.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٠.

أم هو افتراء على الله خلافاً للضروري من حكم الله، أو نص من كتاب أم سنة ثابتة من رسول الله ﷺ وهذا أنحس دركات افتراء الكذب على الله.

أم يفتي تأويلاً لنص أو ظاهر مستقر من كتاب أو سنة، تفسيراً له برأيه وتأويلاً له إلى خلاف مآله، وهذا مصداق ثان لما تشمله الآية.

أم يفتي فيما لا نص فيه بقياس أو استحسان وأضرابهما مما لا حجة فيه ثم ينسبه إلى الله، وهذه دركة ثالثة من دركات افتراء الكذب على الله.

فليس لأي مفت في أحكام الدين، المختلفة فيها الأنظار وغير الضرورية إسلامياً، أن ينسب فتواه إلى الله، وإنما: أقول هذا كما وصل إلي بحجة والله أعلم، اللهم إلا فيما يقطع به من أحكام لنص كتابي أو سنة قاطعة دون تفسير برأي لا تتحمله حجة شرعية «ومن فسر القرآن برأيه فقد افترى على الله الكذب»[1] وكل ابتداع في الدين افتراء على الله الكذب سواء أكان بتأويل حجة كمفسرٍ برأيه، أم باختلاق حجة خلاف حجج الله، أم ليست في كتاب الله أو سنة رسول الله فإن «العلم ثلاثة كتاب وسنة ولا أدري».

فمن دان الله بقياس أو استحسان أم أياً كان من حجة غير شرعية، كان ممن افترى على الله كذباً وله عذاب أليم! فـ ﴿هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ دون نص ولا أيَّة حجة قاطعة، هي القولة الكاذبة، الكالحة الكاسحة، وكما يقولها جماعة من الوهابية السلفية في الجزيرة العربية وسواها، حيث يحرِّمون أموراً كثيرة دونما أية حجة، وأصالة الحظر التي هي من أصولهم الفقهية هي أيضاً مما تصف ألسنتهم الكذب حيث الضوابط القرآنية تؤصِّل الحلية كـ ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ هنا، و﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِى

(١) نور الثقلين ٣: ٩٣ في كتاب كمال الدين وتمام النعمة بإسناده إلى عبد الرحمن بن سمرة عن النبي ﷺ: حديث طويل يقول فيه: . . .

﴿ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[١] في البقرة أما هيه من آيات تضم أصالة الحل في كافة التصرفات الحيوية إيجابية وسلبية.

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾﴾:

﴿مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ هو المقصوص في الأنعام قبل النحل: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾[٢].

ومنه صيد الحيتان يوم السبت: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾[٣].

وذلك تحريم ابتلائي جزاءً بما كانوا يعملون، وقد نسخته شِرعة المسيح: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ﴾[٤].

وليس التحريم أو التحليل أصلياً أم ابتلائياً إلا لشارع الشرعة من الدين وهو الله لا سواه حتى الرسول ﷺ فضلاً عن سائر الرسل أو الأمم.

ومما يحير عقول الأمة الإسلامية تصرفات خاطئة في أحكام الله من قبل الخلفاء الثلاثة والأئمة الأربعة والبعض من فقهاء الفريقين، مما يخالف كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ فإن كانت جهلاً فكيف يقود الأمة الإسلامية جاهل، أم كان عمداً فمن أظلم ممن افترى على الله الكذب، وسرد

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٩.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٤٦.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٦٣.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ٥٠.

افتراءات من هؤلاء وأولاء بحاجة إلى مؤلَّف فذٍّ فظ لسنا نحن بمؤلفيه حفاظاً على الوحدة الإسلامية، وهنا نشير إلى شذرات منها[1] حفاظاً على كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ اللذان يجب أن تتبنّاها الوحدة، فإنها دونها هوّة ووهدة.

---

(١) الخليفة أبو بكر بين الكتاب والسنة: ومما ابتلي به غائلة فدك حيث أصدر فتوى سياسية قيادية حول حرمان ورثة الأنبياء من ميراثهم ناسباً لها إلى رسول الهدى أنه قال: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركنا صدقة» ولو دلت على ما قصده الخليفة فهي خلاف نصوص الكتاب والسنة، وقد حرم الصديقة الطاهرة فدكها بهذه الفتوى اللئيمة المصلحية.

ثم الخليفة عمر قد أكثر العثار وفي بعضها الاعتذار لحد تواتر عنه «لولا علي لهلك عمر» في أحكام كان يصدرها وعلي عليه السلام يردعه وفيما يلي شذر مما تلفت منها وتبقى:

من ذلك تحريمه أكل اللحم «أن رجلاً من الأنصار مر به وقد تعلق لحماً فقال له عمر: ما هذا؟ قال: لحمة أهلي قال: حسن، ثم مر بالرجل لليوم الثاني والثالث فعلى رأسه بالدرة ثم صعد المنبر فقال: إياكم والأحمرين اللحم والنبيذ فإنهما مفسدة للدين ومتلفة للمال» (عن ميمون بن مهران ينقله عنه كنز العمال ٥: ١٦١ ومنتخب الكنز بهامش مسند أحمد ٣: ٤٨٣).

ومن ذلك إمضاء الطلقات الثلاث فعن ابن عباس قال كان الطلاق على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وسنتين من خلافة عمر طلاق الثلاث واحدة فقال عمر إن الناس قد استعجلوا في أمر كانت لهم أناة فلو أمضيناه عليهم (مسند أحمد ١: ٣١٤ - صحيح مسلم ١: ٥٧٤ - سنن البيهقي ٧: ٣٣٦ - مستدرك الحاكم ٢: ١٩٦ - تفسير القرطبي ٣: ١٣ وصححه - إرشاد الساري ٨: ١٢٧ - الدر المنثور ١: ٢٧٩ وفي معناه سنن أبي داود ١: ٣٤٤ - أحكام القرآن للجصاص ١: ٤٥٩ وأخرجه الطحاوي)، وهذا خلاف نص الكتاب وثابت السنة: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾ [البَقَرَة: ٢٢٩].

ومن ذلك فتوى له قومية في ميراث الأعاجم: روى الإمام مالك عن الثقة عنده أنه سمع سعيد ابن المسيب يقول: أبى عمر بن الخطاب أن يورث أحداً من الأعاجم إلا أحد ولد في العرب، قال مالك وإن جاءت امرأة من أرض العدو فوضعته في أرض العرب فهو ولدها يرثها إن ماتت وترثه إن مات ميراثها في كتاب الله (الموطأ ٢: ١٢).

ومن ذلك تحريمه البكاء على الميت دون حجة إلا عليه، فعن ابن عباس قال لما ماتت زينب بنت رسول الله ﷺ ألحقوها بسلفها الخير عثمان بن مظعون فبكت النساء فجعل عمر يضربهن بسوطه فأخذ رسول الله ﷺ يده وقال: مهلاً يا عمر دعهن يبكين وإياكن ونعيق الشيطان - إلى أن قال - وقعد رسول الله ﷺ على شفير القبر وفاطمة إلى جنبه تبكي فجعل النبي ﷺ يمسح عيني فاطمة بثوبه رحمة لها (مسند أحمد ١: ٢٣٧ و٣٣٥ - مستدرك =

. . . .

= الحاكم ٣: ١٩١ وصححه وقال الذهبي في تلخيص المستدرك سنده صالح - مسند أبي داود الطيالسي ٣٥١ - الاستيعاب في ترجمة عثمان بن مظعون ٢: ٤٨٢ - مجمع الزوائد ٣: ١٧).

هذا ولقد بكى رسول الله ﷺ على ابنه إبراهيم قائلاً: العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضي ربنا وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون (سنن أبي داود ٣: ٥٣ - سنن ابن ماجه ١ : ٤٨٢) فلو استطاع عمر أن يضرب الرسول على بكائه لفعل! وأنه يضرب الباكيات إلا عائشة تبكي على أبيها.

(أخرجه ابن راهويه وصححه السيوطي - راجع كنز العمال ٨: ١١٩ - وذكره ابن حجر في الإصابة ٣: ٦٠٦).

كما ويعلو بالدرة رجلين يمران به وهو يعرض إبل الصدقة فقال لهما من أين جئتما؟ قالا من بيت المقدس فعلاهما بالدرة وقال: أحج كحج البيت؟ قالا: إنّا كنا مجتازين (أخرجه الأزرقي كما في كنز العمال ٧: ١٥٧) وقد قال رسول الله ﷺ: لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى (أخرجه جماعة غزيرة من أرباب السند والمسانيد يطول ذكرهم).

ويضرب ابناً له يكنى أبا عيسى، وإن المغيرة بن شعبة تكنى بأبي عيسى فقال عمر: أما يكفيك أن تكنى بأبي عبد الله فقال: إن رسول الله كناني أبا عيسى! فقال: إن رسول الله ﷺ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وإنا ما ندري ما يفعل بنا ويلك هل لعيسى أب، أما تدري ما كنى العرب: أبو مرة أبو حنظلة. . (سنن أبي داود ٢: ٣٠٩ - سنن البيهقي ٩: ٣١٠ - الاستيعاب ١: ٢٥٠ - تيسير الوصول ١: ٣٩ - الكنى والأسماء للدولابي ١: ٨٥ - زاد المعاد لابن القيم ١: ٢٦٢ - نهاية ابن الأثير ١: ١٩٨ - الإصابة ٣: ٤١٣ - عمدة القارئ ٧: ١٤٣ - شرح النهج لابن أبي الحديد ٣: ١٠٣).

ولم يعرف الخليفة المعنى من الذنب المغفور للرسول وأنه لم يكن عصياناً وإنما هو ذنب الرسالة المغفور بفتح مكة، ثم يجهِّل الرسول أن ليس لعيسى أب وعيسى لا يختص بالمسيح، ولو كان ذنباً مغفوراً فلماذا لا يغفره الخليفة وقد غفره الله له؟! ومن ذلك فتواه في حد البلوغ فعن أبي مليكة أن عمر كتب في غلام من أهل العراق سرق فكتب أن اشبروه فإن وجدتموه ستة أشبار فاقطعوه فشبر فوجد ستة أشبار تنقص انملة فترك (أخرجه ابن أبي شيبة وعبد الرزاق ومسدد وابن المنذر في الأوسط كما في كنز العمال).

ومن ذلك فتواه الشهيرة في المتعتين، قال: قد علمت أن النبي ﷺ قد فعل متعة الحج وأصحابه ولكني كرهت أن يظلوا معرسين بهن في الأراك ثم يروحون في الحج تقطر رؤوسهم (أخرجه مسلم في صحيحه ١: ٤٧٢ وابن ماجه في سننه ٢: ٢٢٩ وأحمد في مسنده ١: ٥٠=

. . . .

= والبيهقي في سننه ٥ : ١٧ والنسائي في سننه ٥ : ١٥٣ وتيسير الوصول ١ : ٢٨٨ وشرح الموطأ للزرقاني).

وقد تواتر النقل أن عمر حرم متعة الحج بعد ما كرهها وقد نزل وجوبها في كتاب الله وعمل بها رسول الله ﷺ!

فعن أبي رجاء قال قال عمران بن حصين: نزلت آية المتعة في كتاب الله وأمرنا بها رسول الله ﷺ ثم لم تنزل آية تنسخ آية متعة الحج ولم ينه عنها رسول الله ﷺ حتى مات قال رجل برأيه بعد ما شاء (أخرجه مسلم في صحيحه ١ : ٤٧٤ والقرطبي في تفسيره ٢ : ٣٦٥ وصححه، والبخاري كما في تفسير ابن كثير ١ : ٢٣٣ والقسطلاني في الإرشاد ٤ : ١٦٩ والنووي في شرح مسلم: إن عمر كان ينهى الناس عن التمتع، وأخرج ما في معناه في السنن الكبرى ٥ : ٢٠ و٤ : ٣٤٤ والنسائي في سننه ٥ : ١٥٥ وأحمد في مسنده ٤ : ٤٣٤ و٤٣٦ وفتح الباري ٣ : ٣٣٨ والدارمي في سننه ٢ : ٣٥ والمالك في الموطأ ١ : ١٤٨ الشافعي في الأم ٧ : ١٩٩ والنسائي في السنن ٥ : ٥٢ والترمذي في صحيحه ١ : ١٥٧ وصححه والجصاص في أحكام القرآن ١ : ٣٣٥ وابن القيم في زاد المعاد ١ : ٨٤ والزرقاني في شرح المواهب ٨ : ١٥٣.

وعن سالم قال: إني لجالس مع ابن عمر في المسجد إذ جاءه رجل من أهل الشام فسأله عن التمتع بالعمرة إلى الحج فقال ابن عمر: حسن جميل، قال: فإن أباك كان ينهى عنها فقال ويلك فإن كان أبي نهى عنها وقد فعله رسول الله ﷺ وأمر به فبقول أبي آخذ أم بقول رسول الله ﷺ قم عني (تفسير القرطبي ٢ : ٣٦٥ عن الدار قطني وأخرج ما في معناه الترمذي ١ : ١٥٧ وزاد المعاد لابن القيم ١ : ١٩٤ والزرقاني في هامش شرح المواهب ٢ : ٣٥٢ والسنن الكبرى ٥ : ٢١ ومجمع الزوائد ١ : ١٨٥).

وقد نهاه أبي بن كعب فيمن نهاه عن هذه الفتوى قائلاً: ليس ذلك لك قد نزل بها كتاب الله واعتمرنا مع رسول الله ﷺ فنزل عمر عن المنبر (أخرجه أحمد ٥ : ١٤٣ والهيثمي ٣ : ٢٤٦ وقال رجاله رجال الصحيح، والسيوطي في جمع الجوامع كما في ترتيبه ٣ : ٣٣ والدر المنثور ١ : ٢١٦ نقلاً عن مسند ابن راهويه وأحمد ومن ذلك تحريمه متعة النساء كما عنه أنه قال: ثلاث كن على عهد رسول الله ﷺ أنا محرمهن ومعاقب عليهن: متعة الحج ومتعة النساء وحي على خير العمل في الأذان (أخرجه الطبري في المستبين والقوشجي في شرح التجريد وحكاه عن الطبري الشيخ علي البياضي في كتابه: الصراط المستقيم.

وإنما نهى عن متعة النساء أواسط خلافته في شأن عمرو بن حريث إذ قدم الكوفة فاستمتع بمولاة فأتى بها عمر وهي حبلى فسأله فاعترف فذلك حين نهى عنه عمر (أخرجه الحافظ عبد الرزاق في مصنفه عن ابن جريج قال أخبرني أبو الزبير عن جابر، وفتح الباري ٩ : ١٤١).=

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾:

ضابطة عامة فيما وعد الله المغفرة والرحمة ﴿لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾: ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1] ولكن التوبة من قريب تقرِّب المغفرة، حيث تفرضها على الله بما كتب على نفسه: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ

= ولقد أخرج عنه وروى تحريم المتعتين نفر كبير من الحفاظ وأصحاب الصحاح والسنن بألفاظ مختلفة في أربعين حديثاً يجمعها أصل التحريم من عمر رغم أنهما كانتا محللتين على عهد رسول الله ﷺ وممن أخرجه: مسلم ١: ٣٩٥ - جامع الأصول لابن الأثير - تيسير الوصول لابن الربيع ٤: ٢٦٢ - زاد المعاد ١: ٤٤٤ - فتح الباري ٩: ١٤١ - كنز العمال ٨: ٢٩٤ - الموطأ ٢: ٣٠ - الام ٧: ٢١٩ - السنن الكبرى ٧: ٢٠٦ تفسير الطبري ٥: ٩ تفسير الثعلبي - تفسير الرازي ٣: ٢٠ - تفسير أبي حيان ٣: ٢١٨ تفسير النيسابوري - الدر المنثور ٢: ١٤٠ - بداية المجتهد لابن رشد ٢: ٥٨ - النهاية لابن الأثير ٢: ٢٤٩ - الغريبين للهروي - الفائق للزمخشري ١: ٣٣١ تفسير القرطبي ٢: ١٤٠ - لسان العرب ٩: ١٦٦ - تاج العروس ١٠: ٢٠٠ - مسند أحمد ٣: ٣٥٦ و٣٦٣ و٣٨٠ - الجصاص ٢: ١٧٨ - كنز العمال ٨: ٢٩٣ - البيان والتبيين للجاحظ ٣: ٣٢٣ السرخسي الحنفي في المبسوط - ضوء الشمس ٢: ٩٤ - وعشرات أمثال هؤلاء وقد جمعهم العلامة المغفور له الأميني في الغدير ٦: ٢٠٥ - ٢١٣) فراجع.

وهكذا يعارض جلالة الخليفة عمر حكم الكتاب والسنة الثابت إلى يوم القيامة كما في صحيحة: سراقة قال قام رسول الله ﷺ خطيباً فقال: إلا أن العمرة قد دخلت في الحج إلى يوم القيامة (مسند أحمد ٤: ١٧٥ - سنن ابن ماجه ٢: ٢٢٩ - سنن البيهقي ٤: ٥٥٢ سنن الدارمي ٢: ٥١ صحيح الترمذي ١: ١٧٥ - سنن ابن داود ١: ٢٨٣ - سنن النسائي ٥: ١٨١ - تفسير ابن كثير ١: ٢٣ وقد رواه الخليفة نفسه عن النبي ﷺ كما أخرجه البيهقي في سننه ٥: ١٣ وقال رواه البخاري في الصحيح)!

ولقد عارض الخليفة في هذه الفتوى المبتدعة نفر كبير من أصحاب رسول الله ﷺ ذكرناهم بأسمائهم قرابة ٢٦ وتركنا الباقين في كتابنا علي والحاكمون ومن أراد تفصيل فتاوى الثلاثة خلافاً للكتاب والسنة فليراجع هذا الكتاب.

(١) سورة الأنعام، الآية: ٥٤.

يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾(١).

﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾(٢).

فالجهالة في عمل السوء هي المحور في وعد المغفرة، محتومة أم جائزة، وتقابل الجهالة بالتوبة المسوِّفة إلى الموت، توسِّع نطاقها مهما كان أقربها ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ فغير المعاند، أو المكابر والناكر، ليست سيئته إلا عن جهالة وغلبة الشقوة أو الشهوة، دونما معاندة للحق، فمهما كانت السيئة كبيرة ومتواصلة ولكنها قابلة المغفرة ما دامت هي عن جهالة، فالتوبة الصالحة قبل الموت وأشراطه، وإصلاح ما أفسد حسب المستطاع، هما مع الجهالة زوايا ثلاث لقاعدة الرحمة والمغفرة الموعودة، مهما اختلفت درجاتها حسب مدارج الجهالة والتوبة والإصلاح مادة ومدة وإخلاصاً.

فهنالك في عمل السوء جهل قاصر وجهل مقصر وجهالة بعلم وعلم خالص، والله تعالى يقبل التوبة فيها - على مراحلها - إلا الأخيرة، فإنها ليست توبة، فإنه عمل سوء على عمد ومكابرة ثم لم يتب ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾(٣) فإنه إيمان عند رؤية البأس، خاوياً عن حقه وحقيقته، فلو آمن عندها حقاً وأصلح قدر المستطاع فليس الله ليحرمه عفوه وغفره كما في قوم يونس: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ

(١) سورة النساء، الآية: ١٧.
(٢) سورة النساء، الآية: ١٨.
(٣) سورة النساء، الآية: ١٨.

يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾[1]، وإلا الجاهل القاصر فإنه غير عاص فلا توبة له حتى تغفر.

فالتوبة التي كتبها الله على نفسه هي فقط للذين عملوا السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب، أم قبل الموت بأشراطه، وهي التوبة الحقيقية رجوعاً إلى إيمان حال التوبة، وإن تابوا عند الموت دون قالِ التوبة مهما تابوا من قريب، فالأصل في التوبة المقبولة إذاً هي واقعها بإصلاح دون قالِها، ولم يستثن من الغفران إلا قالُها، المعلوم عندنا بتسويفها حتى إذا جاء الموت.

و«من بعدها»: التوبة، دون «من بعدهما» بإضافة الإصلاح، دليل أنها الأصل والإصلاح يصلحها، وصالح الإصلاح هو تحقيق قدَره المستطاع، ثم مادون ذلك هو دون ذلك الإصلاح.

والسوء هنا يعم سوء العقيدة والعمل كما تدل عليه آية النساء بقرنها ﴿ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾[2] بـــ ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ﴾[3] فالتوبة الحقيقية الصالحة تزيل كل سوء قبل الموت على أية حال.

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾:

التعبير عن رجل واحد بأمة هو منقطع النظير في القرآن، فإنّ «الأمة الرجل فما فوقه»[4].

---

(١) سورة يونس، الآية: ٩٨.
(٢) سورة النساء، الآية: ١٨.
(٣) سورة النساء، الآية: ١٨.
(٤) الدر المنثور ٤: ١٣٤ - أخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ ما من عبد يشهد له أمة إلا قبل الله شهادته والأمة الرجل فما فوقه أن الله يقول: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً...﴾ [النحل: ١٢٠].

وفي نور الثقلين ٣: ٩٣ عن الكافي بسند متصل عن أبي عبد الله عليه السلام يقول: والأمة واحدة فصاعداً كما قال الله سبحانه:....

أتراه يختص بوصف ﴿أُمَّةً﴾ لأنه بوحدته كان يحمل إيمان أمة؟ والنبي ﷺ أحرى منه في هذا المعنى ولم ترد له وصفه بأمة لا في كتاب ولا سنة! أم لأنه كان الوحيد في بداية أمره موحداً لله[١] فكأنه - إذاً - أمة موحدة، على ما كان له من صمود على توحيد الله في مختلف أجواء الشرك بالله، منذ تربيته في حضن آزر عمه، ثم في مواجهة نمرود الطاغية.

أم لأنه أول بانٍ جاهرٍ باهرٍ متجاسرٍ لقواعد التوحيد، ولذلك يؤمر الموحدون بعده وهذا النبي ﴿أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[٢]؟

الأمة فُعلة، فهي مرَّة من الأم: القصد والأصل، فهي قصد واحد ومقصد واحد، ولذلك تسمى كل جماعة تربطهم عقيدة واحدة أو قصد واحد أمة، فإبراهيم - إذاً - أمة فاعلية ومفعولية، فاعلية لأنه بوحدته كان موحداً، ومفعولية حيث أؤتم به فأصبح إماماً في شرعة التوحيد، مهما فاقه بعض من اتبعه كهذا النبي والمعصومين من عترته معه.

﴿قَانِتًا لِلَّهِ﴾: خاشعاً خاضعاً متطامناً في كل أقواله وأحواله وأفعاله ﴿حَنِيفًا﴾: معرضاً عما يخالف الحق ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ في أية دركة من دركاته بدركاتهم، بل كان موحداً حق التوحيد في كافة درجاته.

نجد في هذه وثلاث أخرى بعدها عشرة كاملة من أوصاف إبراهيم الخليل عليه السلام أولاها ﴿كَانَ أُمَّةً﴾ وأخراها ﴿أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ -

(١) المصدر في تفسير العياشي عن سماعة بن مهران قال سمعت عبداً صالحاً يقول: لقد كانت الدنيا وما كان فيها إلا واحد يعبد الله ولو كان معه غيره إذا لاضافة إليه حيث يقول: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠] فصبر بذلك ما شاء الله ثم إن الله آنسه بإسماعيل وإسحاق فصاروا ثلاثة ورواه مثله القمي عن أبي جعفر عليه السلام وذلك أنه على دين لم يكن عليه أحد غيره فكان أمة واحدة...

(٢) سورة النحل، الآية: ١٢٣.

ولأنه امام يقتدى به في ملة التوحيد - وقد حملت آية الأمة ثلاثاً منها والسبع الأخرى:

﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾:

فـ ﴿شَاكِرًا﴾ هي حالته على أية حال، و﴿لِّأَنْعُمِهِ﴾ تعم كافة النعم الربانية، فلذلك ﴿ٱجْتَبَىٰهُ﴾ على من سواه ﴿وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ نبوءة ورسالة ونبوَّة وإمامة وخلة أمّا هيه من هدى ربانية.

ولماذا ﴿لِّأَنْعُمِهِ﴾ جمع قلّة دون «نِعَمه»: جمع كثرة؟ حيث الشاكر نعمة الله مهما بلغ من الشكر ذروته ليس ببالغ إلّا ذرته ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾[1] فضلاً عن شكرها، ثم وأدب العبودية الصالحة يعني معنى القلة، استصغاراً للشكر، واستعظاماً للنعم بنعمته، وكما يقول أول الشاكرين والعابدين «ما عبدناك حق عبادتك».

فعلى الجملة ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ حياة ﴿حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ وهو الصلاح القمة كما هو للأئمة بين المرسلين كنوح وموسى والمسيح ومحمد ﷺ على درجاتهم.

وفي كونه من الصالحين تحقيق لدعوته ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾[2] فالملحق إليه هو حقاً الرسول محمد ﷺ وآله المعصومون، فإنهم أئمته في كافة الدرجات مهما تأخروا عنه في الولادات وكما يقول الرسول ﷺ: «كنت نبياً وآدم بين الماء والطين».

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٣٤.

(٢) سورة الشعراء، الآية: ٨٣.

﴿ثُمَّ﴾ بعد هذه المراحل التسع لإبراهيم الخليل ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ﴾ حنيفاً أنت كما هو وزيادة تناسب محتدك الرسالي ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

أترى رسول الهدى وهو في أعلى قمم العبودية والمعرفة الرسالية يتبع ملة إبراهيم، وهو رسول إليه وولي عليه كما هو على سائر النبيين: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِىۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَاۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾(١)؟! النص يأمره باتباع ملة إبراهيم دون اتباعه نفسه، وما هو إلا مشيه على صراط مستقيم في كونه حنيفاً وما كان من المشركين وسائر المواصفات العشر وذلك رأس الزاوية فيها، و: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(٢).

فلم يكن هذا النبي من متبعي إبراهيم، بل هو أولى أوليائه، السائر مسيره وإلى مصيره في ملته، مهما كان أسبق منه في ذلك السباق، حيث سبق كل الرفاق بين العالمين أجمعين.

وكيف يكون في إبراهيم شخصه أسوة لخاتم المرسلين و﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ.... إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ...﴾(٣) - والحال إنه ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾(٤).

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٨١.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٦٨.
(٣) سورة الممتحنة، الآية: ٤.
(٤) سورة الأحزاب، الآية: ٢١.

فإبراهيم الذي لا يؤتسى للمسلمين بهذا الخصوص، كيف يؤتسى لرسول الهدى على وجه العموم، اللهم إلا أسوة ملته وهي شرعة التوحيد، وهي أسوة في صراط الله.

وذلك تعريض عريض على الذين كانوا يظنونه يتبع ملة الهود أو النصارى وكما في مصارحة قبلها ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾(١) ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾(٢).

فكل ما في الأمر هو اتباع ملته دون شخصه، وملته هي ملة التوحيد الناصع الخالص، ومتبعوها درجات قدر المتابعات، دون فضل لسابق على لاحق إلا في سباق الدرجات.

ذلك «ثم لا طريق للأكياس من المؤمنين أسلم من الاقتداء لأنه المنهج الأوضح... فلو كان لدين الله تعالى سلك أقوم من الاقتداء لندب أولياءه وأنبياءه إليه»(٣).

وفي مسرح الشرعتين: الإبراهيمية والإسلامية نرى توافقات جذرية وأخرى فرعية لا نجدها بين أية شرعتين سلبياً وإيجابياً فـ :

﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾﴾:

فليس حكم السبت أصلاً سائراً بين الشرائع الإلهية لكي يكون له دور في الشرعة الإسلامية المشابهة للشرعة الإبراهيمية.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٦٧.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٩٥.

(٣) مصباح الشريعة عن الإمام الصادق عليه السلام مستنداً إلى هذه الآية وفي نور الثقلين ٣: ٩٤ في محاسن البرقي عن عباد بن زياد قال قال لي أبو عبد الله عليه السلام : يا عباد ما على ملة إبراهيم أحد غيركم، وعن تفسير العياشي عن عمر بن أبي ميثم، قال سمعت الحسين بن علي عليهما السلام يقول: ما أحد على ملة إبراهيم إلا نحن وشيعتنا وسائر الناس منها براء.

وترى ما هي مادة اختلافهم في السبت حتى جعل عليهم السبت جزاءً على اختلافهم فيه؟ فهل عرض عليهم كعُطلة أسبوعية واختلفوا فيه فجزاهم كلهم بما جعل؟ وهم متفقون في عطلته مهما تخلف جماهير منهم عن أحكامه، وجعل السبت في حكم الشرعة التوراتية ليس إلا بعدما اختلفوا فيه، فـ ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾! أم اختلفوا فيه رداً للجمعة المعروضة عليهم، فأعرضت ثلة وقبلت قلة فجعل عليهم عطلة عن العمل بديل الجمعة، وحرم عليهم فيما حرم صيد الحيتان فاختلفوا فيه أيضاً، ولا عطلة في أية شرعة تحرم فيه الطيبات إلا هذه جزاءً ببغيهم واختلافهم؟

وقد يروى عن النبي ﷺ «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بَيْدَ أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم ثم هذا يومهم الذي فرض عليهم يوم الجمعة فاختلفوا فيه فهدانا الله له فالناس لنا فيه تبع، اليهود غداً والنصارى بعد غد»[1].

وخماسية الآيات في سبتهم تندد بهم فيما فعلوا به وافتعلوا: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾[2] ﴿كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ﴾[3] ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾[4] ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟

(١) الدر المنثور ٤: ١٣٤ - أخرجه الشافعي في الأم والبخاري ومسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ . . .
(٢) سورة البقرة، الآية: ٦٥.
(٣) سورة النساء، الآية: ٤٧.
(٤) سورة النساء، الآية: ١٥٤.

بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾»(١).

فقد اختلفوا في السبت رفضاً لما عرضه الله واقتراحاً لسبتهم فجَعل عليهم، ثم فسقوا واختلفوا فسبَت عنهم في سبتهم صيدَ البحر فعتوا فأخذهم بعذاب بئيس.

إذاً فليس السبت من الشرعة الإبراهيمية حتى تستمر إلى الشرعة الإسلامية، فـ «إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ» حكماً تأديبياً مؤقتاً كما اقترحوا خلاف مرضاة الله، وكما فعلوا في البقرة فشدّ الله عليهم كما شدوا «وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ» أصولاً وفروعاً، عقائدياً وعملياً.

«ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾»:

هنا القرآن يُرسي قواعد الدعوة إلى سبيل ربك، بالحكمة والموعظة الحسنة، وحين تفشل الدعوة بصلابة المدعوين وصلاتتهم، فلكي لا يتغلبوا على الحق فيضلوا أصحابه فبقاعدة واحدة «وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ» وهذه الثلاث هي أركان الحوار مع الناس - المهتدين وسواهم - لا سواها.

فإنما الجدال مع المنازع المكابر حتى يحيد عن كيده ولا يميد في غيه وإضلاله، وأما الذين هم على الفطرة السليمة، المتحرين عن الحقيقة بدرجاته، أم غير المناوئين للحق مهما لم يتحرَّوا عنه، فهم تكفيهم الحكمة عقلية أو علمية أو عملية، أو الموعظة الحسنة، أم تكفيهم هذه المجموعة الأربع، فلا يجادلون في الحق حتى يجادَلوا.

(١) سورة الأعراف، الآيات: ١٦٣-١٦٦.

كل ذلك لـ ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ فلا يفيقه ويصده عن طيشه إلا جداله بالتي هي أحسن ﴿وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ فلا تهديهم إلى سبيل ربك إلا الحكمة والموعظة الحسنة ثم الحسنة ليست صفة - فقط - للموعظة، حيث الحكمة أحوج إلى الحسنة من الموعظة التي هي بطبيعة الحال حسنة، ومن حيث الضابطة الأدبية اللام الداخلة على الحسنة موصولة وتتحمل صلتها الإفراد والتثنية والجمع حسب القرائن الموجودة، متصلة ومنفصلة، ثم الحسنة مع غض النظر عن الموصول صفة على البدل أم جنس تشمل أكثر من واحدة، ولو خصت الموعظة بالحسنة لتقدمت بوصفها على الحكمة، فكما الموعظة في الدعوة مشروطة بالحسنة، كذلك وبأحرى الحكمة، فإنها إن خلت عن الحسنة ما أثرت كما يرام، فلتكن الحكمة على أية حال في زواياها الثلاث حسنة لينة، كما الموعظة.

وإنما يكتفي فيها بالحسنة ولا يكتفي في الجدال إلا التي هي أحسن، لأنهما ليستا إلا وجاه الذين يهتدون فتكفيهم الحسنة وإن كانت الحسنى فبأحرى، ولكن الجدال فهي وِجاه المنازِع المكابر، فلا بد من كسره بالتي هي أحسن حيث لا تبقي له رمقاً وحيوية في الدعاية الباطلة.

فسبيل ربك هي السبيل القمة التي رباك ربك لها، فأنت تدعو العالمين إلى هذه السبيل التي تجتازها قبلهم إلى الحق المُرام.

فليست هذه الدعوة إليك فما أنت إلا رسولاً، ولا إلى ربك إذ لا يصل إليه أحد، ولا إلى سبيل رب العالمين فإن السبل إلى الله بعدد أنفاس الخلائق، وإنما ﴿إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ السبيل التي رباك فيها ربك وهداك إليها وهي القمة التربوية الرسالية، فأنت السبيل إلى ربك[1] فلتكن الدعوة بالقرآن

(١) المصدر في الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام حديث طويل يقول فيه: فأخبر أنه تبارك وتعالى =

وبالسنة الرسالية لرسول القرآن[1] لأنها دعوة بالتي هي أحسن.

والحكمة هي هيئة خاصة من الحكم وهو الوصل بين منفصل، الذي فصاله خلاف الحق والتربية الإلهية، والحكمة الحسنة هي التي تُحكِّم عرى فطرية أو عقلية أو علمية أو عملية منفصمة، فترجعها إلى حالة حكمية خارجة عن أي تفسخ وانفصام وعند ذلك تتجلى الحقيقة كما هيه.

ومن حسنة الحكمة رعاية أحوال المدعوين وظروفهم حتى لا تثقل عليهم الحكمة فتبوء بالخسار والفصال أكثر مما في الحال، فعلى حسب القابليات تؤثر حكيمة الفاعليات فتسود الدعوات، وإذا زادت أو نقصت نقضت، وإذا سادت انتفضت، وليكن الداعية طبيباً دواراً بطبِّه يضع الدواء حيث الحاجة إليه، بعد معرفة الداء والدواء.

فمن الناس من تنقصه الحكمة العقلية فلا تفيده غيرها، أم تنقصه الحكمة العلمية فلا تفيده العقلية، وكما منهم من تحكمت حكمه كاملة عقلية وعلمية أما هيه، ولكن تنقصه الموعظة الحسنة، أم تحكمت عنده الموعظة ولكن تنقصه الحكمة.

فليكن الدّاعية بصيراً بمواضع الحاجة فيضع الدواء حيث الداء حتى تأتيه الشفاء.

فالحكمة الحسنة تأخذ بأزمة القلوب المهتدية فهي لها شعار، وقد

= أوّل من دعا إلى نفسه ودعى إلى طاعته واتباع أمره فبدأ بنفسه وقال: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥] ثم ثنى برسوله فقال: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] يعني بالقرآن أقول: بالقرآن متعلق بالحكمة والموعظة الحسنة كما بالتي هي أحسن.

(١) نور الثقلين ٣: ٩٥ عن تفسير القمي عن أبي عبد الله عليه السلام قال والله نحن السبيل الذي أمركم الله باتباعه قوله ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ قال: بالقرآن.

تكفيها هدىً إذا دخلت شغافَها، وقد لا تكفيها فهي - إذاً - بحاجة إلى دثار الموعظة الحسنة التي تدخل القلوب برفق، وتتعمق المشاعر بلطف، دون أي زجر وتأنيب، ولا بفضْح الأخطاء التي تحصل عن جهالة، فإن الموعظة الحسنة كثيراً ما تهدي القلوب الشاردة، وتؤلف النافرة الماردة، فهي بأحرى أن تليِّن القلوب المهتدية التي لا تطمئن - فقط - بالحكمة الحسنة، لضعف العقلية أو العلمية أم صلابة الطوية.

فمن القلوب ما تحتاج إلى كلتا الحسنتين، لأنها خاوية عن الحكمة، خالية عن الموعظة، فقد تتقدم لها الحكمة الحسنة ثم الموعظة، أم تتقدم الموعظة الحسنة ثم الحكمة تربطها، حسب اختلاف القلوب المهتدية في حاجياتها الدعائية.

فإذا كانت الحكمة أو الموعظة سيئة انقلب إلى أضل مما كانت، وإذا كانت حسنى الموعظة والحكمة، فهي قمة الدعوة ولكنها ليست ضرورية، فبحسَب الدعوة للمهتدين تكون الحكمة والموعظة الحسنة.

ثم إذا كان الحوار مع من ضل عن سبيل ربك، متعنتاً ضد الحق، متفلتاً عنه، متلفتاً إلى الضلال والإضلال، فلا الحكمة الحسنة تنجيه، ولا الموعظة الحسنة تكفيه، هنا يأتي دور الجدال بالتي هي أحسن، لا السيّئ ولا الحسن، والجدال هي المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة وأصله من جدلت الحبل أي أحكمت فتله، فكأن المتجادلين يفتل كل واحد مجادلة عن رأيه.

أم هي الصراع وإسقاط الإنسان صاحبه على الجَدالة وهي الأرض الصلبة.

ولا يسمح في الجدال على أية حال إلا إذا لزم الأمر، ولم تؤثر الحكمة والموعظة الحسنة الأثر المرام، ثم لا يسمح فيه إلَّا بالتي هي

أحسن، وطبعاً إذا أثرت الحسنى، وإلا فحرباً حرباً: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾[1].

فليطامن الداعية أمام من ضل من حماسه واندفاعه، فلا يتحامل عليه ولا يسيء إليه، بل ويُحسن كأحسن ما يُرام حتى يطمئن إليه، ويشعر أن ليس هدفه القضاء عليه، فما هو ميدان مصارعةٍ يصرع كلٌّ خصيمه بمختلف الحيل، وإنما الهدف في الحوار كشف القناع عن الحق، سواء أكان مع الداعية أو المدعو فـ ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾[2].

فالنفس البشرية - ولا سيما الضالة المعتدية غير المهتدية - لها كبرياءها وعنادها، فهي لا تتنازل عما ترتئيه إلا برفق، كيلا تشعر في صراعه بهزيمة، فإنها - بطبيعة الحال - تعتبر التنازل عن الرأي تنازلاً عن هيبتها وحرمتها وكيانها، والجدال بالتي هي أحسن تُطامن من هذه الكبرياء والحساسية المرهفة، وتُشعر المجادل أن حرمته مصونة، وقيمته كريمة محترمة وأن الداعي لا يقصد إلا كشف الحقيقة التي هي أحق منهما.

ولأقل تقدير فالجدال بالتي هي أحسن تطامن من طيش المدعو فتخمد نار دعوته الضالة، ودَلالهُ أمام المهتدين، فيصد عن شره وضره، وإن لم ينصد هو عن ضلاله في نفسه.

فقد يحاور الداعية ضالاً صامداً معانداً، فيزيد في عناده وعدائه بما يستعمل من طرق سيئة في حواره، تجهيلاً له، وسباً لما يقدسه، وتهويناً لرأيه، وفي ذلك إماتة للحق وإحياء للباطل، وتحريض لأهله أن يكرسوا طاقاتهم وإمكانياتهم ضد الحق وأهله، وهذه جدال بالتي هي أسوأ.

وقد يحاوره دون حسن ولا سوء فهي جدال بالسوء، حيث لا تنفع وقد

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤٦.
(٢) سورة سبأ، الآية: ٢٤.

تضر، وهي لأقل تقدير تبقي الضال على ما كان، وذلك لغو وباطل من القول.

وقد يحاوره بحسن ليس ليصده عن الدعاية الباطلة، وإنما تخفِّف عن طيشه ولا تجفف، فهي حسنة لا تكفي صداً عن ضره وشره.

فلتكن الجدال بالتي هي أحسن، فإن تحقيق الحق وإزهاق الباطل واجب حسب المستطاع إذاً ف ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾.

وفي رجعة أخرى إلى الآية - لنرى مدى الحسنة في الحكمة والموعظة، والأحسن في الجدال - أحكام حكيمة في شرعة الدعوة والجدال، مسرودة في آيات الدعوة والأمر والنهي والجدال.

ومن حسن الحكمة أن يتصف بها الداعية، ولأقل تقدير قدر الدعوة، فليس لغير الحكيم أن يدعو بالحكمة، كما ومن حسن الموعظة اتعاظ الداعية قبل الدعوة ولأقل تقدير قدرها: ﴿۞ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾[1]: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣﴾[2].

ومن الحسنى في الجدال أن يتذرع بالحق الجلي لإبطال الباطل أو تحقيق الحق، سواء أكان حقاً واقعاً، أم إذا يرفضه محاورة ويفرض ما يعتقده، أن يتبنى اعتقاده بصيغة التردد، إن كان ما تقوله حقاً فليكن ما أقوله حقاً، وإن كان ما أقوله حقاً فكذلك الأمر.

فتبنِّي الباطل لإبطال باطل آخر أو تحقيق حق، هو من الإغراء بالجهل، سلوكاً لسبيل وعرة شاغرة، وهو من الجدال السيّئ، وأسوأ منه استعمال

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٤٤.
(٢) سورة الصف، الآيتان: ٢، ٣.

الخناء والسب في الجدال إلى جانب تبني الباطل لإبطال باطل آخر أو إحقاق حق.

وتبنِّي حق يوجد أحق منه وأوضح حجة، مع لين كلام هو من الجدال الحسن، ولا يكتفى به في اجتثاث جذور الهجمات الباطلة وهمجاتها.

ثم تبنّي أحق الحق بأوضحه حجة، وألينه محجَّة وألطفه بياناً وتبياناً، مع اتصاف المجادل بما يحتج به عقائدياً وعلمياً وعملياً، هو أبلج المناهج في الجدال، وهي المقصود بالتي هي أحسن، وحين لا يستطيع المجادل أن يجادل بالتي هي أحسن فليتعلم، أو يأتِ بمن يعلم، حيث ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ مطلق مطبَق دون اختصاص بما يستطيعه المجادل، اللهم إلا في عسر أو حرج فلا عسر - إذاً - ولا حرج، أن يكتفي بما يستطيعه، إلا إذا لم تؤثر جداله بغير الأحسن الأثر المُرام، أو انقلب ضدَّه، فهنالك السكوت، حيث القصد من الأحسن سدّ الثغرات وخفق النعرات والزمجرات ضد الحق.

فحين لا تفيد الحكمة والموعظة الحسنة فهنا دور الجدال بالتي هي أحسن صداً لثغرة الباطل وسعاره، بمضلِّل شعاره، لأن الداعية حين لا يستطيع بحكمته وموعظته أن يهدي من ضل عن سبيل الله، فليحاول بجداله سداً عن تضليله، ليعرف كليله وعليله، ولا يحسب له قوة قاهرة على الحق وأهله.

ثم إذا لم تفد جداله بالحسنى، وبدل الاهتداء أو السكوت يعتدي على أهل الحق، فهو داخل في الذين ظلوا: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾.

ظلما شخصياً على المجادل بالحسنى، أم ظلماً جماعياً على المسلمين، فهنالك دور الضربة القاسية القاضية، نفياً لمادة الفساد قدر الضرورة ولحد القتال إذا انحصر بها العلاج وانحسر المضلل عن الإضلال واللجاج.

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾:

فمعاقبة المجادل الظالم، التي لم تنفعه بالحسنى، فضلاً عن الحكمة والموعظة الحسنة، إنها - كضابطة مطردة - معاقبة بالمثل، فهي مسموحة ككل، إلا إذا كان في تركها خسار وبوار متواصل لا يصده إلا معاقبته فواجب، أم غير مسموحة لو أن معاقبته تزيد في طيشه بضره وشره، والصبر أمامه له منعة - ولا أقل - من تطاوله، أم راجحة وهي في غير الواجب والمحرم ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾، والصبر على أية حال أم في الاكثرية المطلقة هو مفتاح الفرج فراجح ﴿لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾.

فهذه طرق اربع يتطرقها الداعية في سبيل الدعوة وصد الضلالة، قد تجتمع في بعض المدعوين، وقد تنفرد، فمن الناس من تكفيه الحكمة، أو الموعظة الحسنة، أو الجدال بالتي هي أحسن، أو المعاقبة، أو الأربع كلها، أو اثنتان منها، أم ثلاث، وذلك حسب مقتضيات الظروف والمتطلبات في سياسة الدعوة لكل داعية، فالأقسام تصبح أربعة عشر قسماً، فإنها أربع وحدات وجمع الأربع، وأربع ثلاثيات وخمسة اثنينات.

﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾:

﴿وَٱصْبِرْ﴾ على كل حال، أيها الداعية في دعوتك بالحكمة والموعظة الحسنة وجدالك بالتي هي أحسن، وفي معاقبتك لما عوقبت، تفكراً في كل من هذه الأربع، وتنقلاً عن كل مرتبة في كل منها إلى أخرى، كما من كل إلى الآخر، صبراً في كل سلب وإيجاب، في كل قالٍ وحال وفعال ﴿وَمَا صَبْرُكَ﴾ في هذه العقبات، والدوائر المتربصة بك ﴿إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ بحول الله

وقوته وبغاية الحفاظ على شرعة الله والدفاع عنها، وبأمر الله «فاصبر كما صبر أولو العزم عن الرسل».

﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ خائفاً عن مكرهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ المحاظيرَ، واتقوه في سبيل الدعوة إليه ﴿وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ يصبرون فيما يحق لهم المعاقبة بمثل ما عوقبوا.

فالصبر على الظلم، ألا يتخاذل المظلوم أمام الظالم، ولا يغيِّر من أهدافه القدسية، ولا يدفعه الدفاع عن نفسه إلى اعتداء أكثر مما اعتدي عليه، وإلى أصل الدفاع أيضاً علَّ الظالم يندم عما فعل فيصلح ما أفسد، أم لا يزيد ظلماً، أم يقف عن ظلمه، فكل ذلك صبر وتقوى للمظلوم وجاه طغوى الظالم، إلا إذا أنتج الصبر تطاول الظالم عليه وعلى الآخرين، فذلك الصبر ظلم وضَيمٌ بحق نفسه وبحق الآخرين، وليس إلا بالشيطان وللشيطان، والصبر العدل والفضل هو بالله ولله لأنه بحاجة إلى مقاومة للانفعال وضبط للعواطف وكبت للفطرة وحبط للقدرة.

وعلّ رجاحة الصبر هنا هي قضية الجو المكي، صبراً إلى الهجرة وفيها قوة المسلمين، فبإمكانهم المعاقبة بمثل ما عوقبوا، ولكنها رجاحة فيها وجاهة إسلامية سليمة على أية حال، اللهم إلا في قضايا استثنائية تحرِّم أم تفرض المعاقبة، ولا معنى للصبر عن الضعف إلا نَظرة القوة.

على أن المعاقبة إنما يسمح فيها أم ينهى عنها فيها أمكنت، فلتكن الآية مدنية وكما وردت به الرواية.

ذلك هو دستور الدعوة للداعية إيجابية وسلبية كما رسمه الله، والنصر مرهون باتِّباعه كما وعد الله، ومن أصدق من الله وعداً وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم.

الفهرس

الموضوع | الصفحة

تتمة سورة الحجر

سورة النحل